محمد موافي

سِفر الشتات

رواية

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET



تأليف

محمد موافي



محمد موافي/ إعلامي و كاتب مصري، من مواليد القاهرة عام 1972، بدأ من البرنامج الثقافي بالإذاعة المصري و وصولا لقراءة نشرة الأخبار بالتلفزيون المصري، اشتغل بتلفزيون الراي الكويتي و هيئة الإذاعة البريطانية البي بي سي و قناة الجزيرة و قناة ليبيا أولا.

حصل على عدة جوائز في كتابة الأفلام الوثائقية، و له المئات من المقالات الصحفية بصحف الراي و سبر الكويتيتين والخليج العربي و المصريون والمصري اليوم وأخبار اليوم والتحرير. و صار أسلوبه وتجديده في لغة المقال محل بحث في رسالتي ماجستير.

له دراسات تاريخية و شعرية وصوفية تحت الطبع.

....

سفر الشَّتات

محمد موافي

الطبعة الأولى أغسطس 2015

رقم الإيـــــداع: 2015/14842

الترقيم الدولي:7-47-5154-977-978

الناشر

محمد البعلي

اخراج فني

علاء النويهي



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.


سفر الشتات

المحتويات

إِلَيهَا . .

"إلى ابْنَةِ اليَمِّ والفَيُّوم،

وَاحَةً حَمْرَاءَ فِي صَحْرَاءِ ضَلْعَتِي المُجْدِبَةِ

شُدِّي يَدِي،

لَعَلَّ رَمْلَ الصَّابِرِينَ يُثْمِرُ" .

وإِلَيْهِ . .

"إلى الوَهْم،

لَعَلَّكَ تَرْضَى،

فَتَسْتَمْسِكَ بِمَنْ فِيكَ غَرْقَى،

حَتَّى يَسْتَحِيلَ وَهْمٌ وَاقِعًا

بَعْدَ أَنْ شَدَخَتْ رُءُوسَنَا الأَوْهَامُ"

توضيح طبيب

«وكانت الأرضُ خَرِبةً وخاليةً، وقال الله: لِيَكُنْ نورٌ، فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة».. وسنظل مشتتين بين نوره والظلام.

«أنا.. من أنا؟.. (طبيب)، هكذا يمكن أن تدعوني، وصديق صاحب الحكاية هو مسلم وأنا مسيحي. هو الآخر وأنا كذلك. ومع ذلك استأمنني على حكاية خبيئة، وخبيئة حكاية. سيحكي ثم سأحكي.. فالذي حدث ذلك الشتاء من عام تسعة وتسعين:

أنه حكى لي في ساعات أربع بعض تفاصيل، وترك لي قنبلة ومضى.

الذي حدث لم يكن ليذاع وقتها.. فتحتُ له باب فضفضة، وخرجتُ بإذنٍ منه في رواية.

دوري؟

ما لي دورٌ، غيرُ توزيعِ ظلالٍ، وترتيبِ أفراحٍ، وتخفيفِ أتْراحٍ. وفتحِ مذكراتِ صاحبي، وحفظ صندوقٍ أسودَ، قبل تسليمِه للجهاتِ المَعْنيَّة.

الجهاتُ المَعْنيَّةُ نفسُها مُتواطئةٌ في الرواية، مُتَّهَمَةٌ، وضحيَّةٌ.

أحيانًا أتساءلُ عن صِفتي التي منحتني صفةَ التحدثِ إليكم؟

وما لي من صفةٍ غير حسن استماع، وجِدٍّ اهتمام، فزعًا على صديق، وهناك - حيث سوف تعلمون- علمتُ بقيةَ الحكاية. فلا دورَ لي- كما ذكرتُ- غير أني التقيته مصادفة بعد سنواتٍ، وبمصادفةٍ استمعت.

ما أكثر الكلامَ يمورُ بصدر مستمع.

أنا طبيبٌ نفسي، وصديقٌ شخصيٌّ لأحمد، وأنا...

دَعْكُم مني، فما أنا إلَّا طبيبٌ، ومريضٌ أيضًا، فكلنا مرضَى.

ومُشتَّت، من أين أبدأ «شتات»؟».

طبيب نفسي

الفيوم، شتاء 2014

سِفْرُ الآخَر

أحمد الفخراني

«أبحث عن الكلمة الأولى، أحب أن أبدأ بـ(أحب)، وأحب الحياة، على الرغم من كل ما سأدّعيه من التطلع لفراقها، وأحب أن أكون الرجل الذي قررت في فتوتي الأولى أن أكونه، وأحب النيل والسير بين يديه، والغروب مع كل ما يحمله من شجن، وأحب الشجن، مع كل ما يجرُّه من ذكريات في عمومها مُحزنة، وأحب الحزن؛ لأنه يُذكِّرني بيوم قررتُ ألَّا أربطَ من أحبُّ بمصيري المجهول.

في البدء، أحب ألَّا أبدأ بما كان في البدء من جريمة قتل، قتل ابنِ آدمَ ابنَ آدمَ آخرَ، من يومها سجّل الغباء مصطلح (الآخر).

أنظر إلى الحياة بتخيلِ مجنونٍ، لم يفارق لحظةَ هبوطِ أبيه آدم، أرى الناس كلهم، كما هم، أبناء آدم، فأتعجب لماذا يقتل ابنُه الأميركي ابنَه العراقي، ولماذا العراقي يشن غاراته على الكويتي، ولماذا ابن آدم اليهودي يذبح ابن آدم الفلسطيني؟

حتى لو كلُّ ذلك قبلتُ تفسيرَه.

فكيف أقبل أن يكون ابنُ آدمَ الوحيدُ، الذي ورث عقيدةَ أبيه الحنيفية قاتلًا، وباسْمِ ما ورث؟

كيف سوَّغت لي نفسي قتلَ أخي؟

لم أقتل. كدتُ أفعل.

كتمت شهادة عن قتل ابن آدم دمياطي، وسكتُّ على قتل ابن آدم دمياطي آخر، وتاقت نفسي لقتل ابن آدم الأمني.

ثم في البداية، كيف طوعت لي نفسي قتلَ نفسي، ففارقتها؟

فارقت جيهان، وحياتي. حياتي؟ كانت أبسط من سحابة، وأصفى من غمامة.

الحياة بسيطة ونحن المُعَقِّدون والمُقَعِّدُون. بريئة ونحن جناة. والوطن جميعٌ، ونحن شتات.

نحن في زمن شتات.

الحياة تعطينا ما نريد، بقدر حبنا لما نريد، وعلى قدر طلبنا له. لا يوجد في هذه الحياة ابن آدم واحد لم يحصل على ما يريد.

منذ اليوم الأول، أبونا أراد التفاحة، فانتصبت بحناجرنا. وقابيل أراد القتل، فقلّد غرابا. وهابيل أراد دور الضحية، فكانها. من يومها، والإرادات تتم.

حتى الفاشلون أرادوا الراحة فنعموا بها. والراحة قضيتي. راحتي: الحقيقة. والحقيقة، أننا كلنا يحتكر الحقيقة. أنا أملكها

كاملة، وأخي "الآخر" يحتكرها كاملة.. وبعضنا نحتقر.

كلانا يرى أي قسمة ضيزى، ويرفض القسمة على اثنين.

الحقيقة مطلبي، فلعل الله يقربني إليه وإليها، ويتجاوز عن رغبتي التي بدأت بالقتل، ثم استمرت بالسكوت على القتل، ثم استأنفت سِكّتها بحمل أمانة غامضة تُحرِّض على القتل".

***

سجلت هذه الكلمات بعد واحدة نادرة من جلساتٍ نفسية، أخْضَعَتُ لها نفسي لتجلس مع نفسي.

فأنا المريض وأنا الطبيب. بعدها ارتحت قليلًا، ولم تطل الراحة، لما هطلت الأمطار غزيرة، وأنا مكلفٌ بتجميل (حسني مبارك) نعم، مبارك.

تجربتي النفسية بدأت بخجل من زيارة طبيب، حتى لا ينتشر الخبر في مجتمع صغير، وقلتُ: إن وظيفة الطبيب الاستماع، وإعطاء عقاقير مهدئة، أو مضادة للاكتئاب. أما عن الاستماع، فهناك دائمًا مستحيل لا يمكن التفوُّه به. لديَّ سر مختلف عن أسرار الناس.

وأمَّا العقّاقير المهدئة، فلديَّ الحشيش.

إذن يا نفسي، استمعي لنفسي وانصحيها. ثم ناوليها.

قالت نفسي: إنني لا أملك لنفسي دفع الكره الراسخ لمبارك، والحقد الشخصي على ضابط أمن الدولة.

أكذب لو قلت إني أحب. لديَّ من الأسباب الكثير.

وكثيرٌ كلُّ هذا المطر، وكثيرةٌ كلُّ تلك الذكريات، وكثيرٌ عليَّ جدًّا احتمال موجات أخرى من الخوف.

***

مبارك.. الذي منه هربت، ولا شرَّ مثله كرهتُ، وأنا والغربة التي لا أريد لها انتهاءً، و(منير)، والطريق من الجريدة في الشويخ، وحتى منزلي بالسالمية. كل الشجون المسائية تقصد الغريب. والغريب تعود جروح الليل والصباح.

الطريق لا تستغرق نصف ساعة في أسوأ الأحوال المرورية، المطر لا يطوي الطِريق القصيرة، منهمر ومشتدٌّ وموصول، زخًات متلاحقة، سماء مفتوحة، وَأرض ضاقت، فاضت ببِرَكٍ على الجانبين.

وجعي يفيض.

مجاري الأمطار على جانبي الطريق الدائري الثاني فاق السيل طاقتها، بخار يسكن زجاج السيارة، والماء يطرقه كدقٍّ زائر أمني غضوب، المسّاحات تزيد سرعتها، تمسح بصوتها المنزعج، كان لا بد أن أبدلها قبل الشتاء. المسّاحات التي شاخت تريد أن تقول إنها لم تعد قادرة على دفع الماء، أريد أن أقول إنه قد فاض بي الكيل، فلا الغربة أريدها، ولا الوطن - رغم كل الإشارات الإيجابية- أعتقد أنه يريد أمثالي.

كل هذا المطر ولا يستفيد به أحد؟! المطر غريب. أنا أيضًا غريب. في ذكراهم الأليمة أغيب.

***

ليس لشتاء مصر هذه الأمطار. للمطر ذاكرة تدق بالرأس. أدرت الكاسيت، الأجواء تنادي صوت منير، الكلمات جديدة على أذني مع أني أحفظها:

«برة الشبابيك غيوم.. برة الشبابيك مطر

مالي خايف كده.. وحاسس بالخطر

آخر مرة أما شفتك.. كتمت الشكوى ليه

مش كان أحسن حاسبتك.. وعرفت القصة إيه؟».

***

تحت المطر قالت: «إن كل شيء جاهز لاستقبالك، لا عذر لك، ولم يعد بإمكاني المماطلة، لا سبب وجيه لأرفضه».

طبعًا، ضابط ميسور جاهز، أمام نصف صحفي، نصف عائش، نصف ميت، نصف مستقر، نصف تافه، نصف جاد،.. نصف مجاهد.. نصف قاعد.. نصف نصف.

عضو من معسكر مبارك أمام نصف عضو، أو شبه عضو في جماعة على طريق رماد.. وهو مُكَلَّفٌ بأن يبذر حَبَّها ويحفظ أمانتها حتى تنبت من جديد.

جيهان لم تعلم لماذا ابتعدتُ عنها؟ لماذا انْهَرْتُ عند أول صفعة تلقيتها، لم تلمح على وجهي أثرًا لكفٍّ، وأنا لا أملك شرح سبب، الأكيد أن من الخطر شرحه، وقد يضرها لو عرفت ويضرني. الأفضل لأمثالي السكوت وإسدال الستار على حقيقة مُرَّة.

مُرة كقهوة عربية، وعني غريبة.

***

مصدومة ومندهشة، لم تفهم.. قد تعتقد أني كنت مجرد عابث كاذب، أصبحت حياته كلها كارنيه النقابة، ومشروع صحفي وأديب موهوم.

أنا تائه فاجأها بالغياب في قبلة أولى وأخيرة تحت مطر ينغز خد نهر عجوز، وترقص قطراته على جثة من ماء، وأنا غائم كما الطقس المعلن سطوته بخارًا وضبابًا، وفاقد الاتزان كما مصر النيل. خائف أبحث عن ملاذ، ما دريت كيف قبضت على ذراعيها وجذبتها نحو صدري بعنف، بإرادةٍ ما لها إرادة، ضممتها، قبلتها بدمعي، قبلتها قبلة من يعرف أنها أول قبلة، وآخر قبلة... غبت وغابت.

بكتْ، مسَّ قلبي وجعٌ، أنهيت حب سنوات في دقيقتين:

«أنت تستأهلين كل خير، وأنا لست فارسك، كنت فارسك أمس، واليوم لا أمل مني ولا شفاء، انسيني، بالأسئلة لا تذبحيني، قد يأتي يوم تتفهمين موقفي، الأيام كفيلة بالنسيان، وزعيمة

بإظهار الحقيقة. اقبلي الضابط، أو إن شئتِ ارفضيه واقبلي غيره، لا يمكن أن أظلمك. لن تكون هناك غيرك. المختصر لن يُعجبك تفصيله: بلدي ما عادت لي، سأغادرها عند أول باب خروج يُفتح.. كل شيء قسمة ونصيب، الله يعوضني عنك خيرًا، يا كل خير الدنيا».

سكنت ذاهلة مذهلة، سكتت، ومذبوحًا مضيت.

حياتنا جملة مُضرةٌ كـ(اغتربْ)، وعجيبةٌ أيامنا، شيمة حروفها الخفضُ.

***

تحت المطر غادرتها.. قطعت الشوراع، كل الشوراع، قطعتها بالعرض، عرض(الروضة)، من البحر الكبير وحتى البحر الصغير، كطفل تائه يحبس دموعه ويشتاق انهمارها في حضن أمه.

ما رأيت أمي، أريد أن أبكي وحدي.

عند معدية يجرونها بحبل مُعلّق، ارتميت على العشب المبتل الموحول، بكيت كما لم يبكِ رجلٌ عبر التاريخ، بكيت حلمًا جميلًا تنازلت عنه كعاجز ضعيف.

على العشب الأخضر انهمرت دموعي، وصل نحيبي حوريات النيل وجنياته، بكين معي، وبكين لأجلي. واهمٌ أنا، فوحدي أبكي، ولا أذن واعية تسمع النحيب أو يقلقها رنين أسى، ولا خَطَرَ وجعي على قلب بشر.

سيارات تمر، ناس تسير، حياة تستمر، ولا أحد يعلم ما بي.

قُمْتُ ولمّا أزَلْ في النحيب.. فانيًا ارتميت، غايته الموت. ترجُّني التنهيدات، وتزلزلني التشنجات، انتفضت، قررت أن أتحدى أي شيء.

خلعت حذائي، ألقيته بغضب على العشب النائم، أغمضت عيني، سرت مُختبرًا حواسَّ أعمى، أرض تنحدر، ماء بارد يُحذرُ قدمي، غُصتُ، في النهر غصت. لا يجرؤ أحد على طول ضفافه أن يتحداه في يوم عاصف ممطر وفي ظلمة الليل، مغمض العينين.

لم أكن أعرف ماذا أريد بالضبط، هل أردت الانتحار؟ لكني أجيد السباحة، هل أردت أن تسحبني جنية جميلة، في روضتي يحكون عنها الحكايات، وأغوت العشرات وعشقوها غرقًا، ولم يُعثر لهم على أثر؟ ربما..

هل أردت أن أثبت لنفسي أني لا زلت قويًا جريئًا؟

بطشت في الماء، فردت ذراعي، ضربة لليمين، للشمال، ضربة ثالثة، ألتقط نَفَسًا، أتمناه الأخير، أنا أسبح، بهذه الطريقة لن أعرف طعم الغرق، توقفتُ، سَكَنْتُ، غطست، غبت نصف دقيقة في باطن النهر الخادع، ولم يخدعني.. طفوت.. حاولت التجمد بمكاني، صرت في وسط النهر الصغير تقريبًا، الغريب أني لا زلت طافيًا، جسدي يتحرك بالفطرة، يتحدى نظريات الغمر.

لا حلَّ سوى أن أُنهك نَفْسي، أن أقطع نَفَسي، مِلْتُ باتجاه

الجنوب، أشق النهر بعكس جريانه، تشقني الحياة نصفين بعكس أحلامي، عاودتْ ذراعي ضرباتِها.

كل صور حياتي، كل محطات عمري، كل الوجوه الحبيبة والسمجة، كل الضحكات، غَزَتْ أحلامَ يقظان الغرقان. تداخلت الألوان، لكل لقاء مع جيهان لون، لكل رحلة نهاية، ولا سعادة تدوم.

على باب الغرق، أشتاق لقب «غريق».

الإنهاك يتسرب لعضلاتي، تلال من الفلفل تثير صدري، أنفاسي تتصارع وتتسارع من أجل البقاء بالفطرة، الموت على الأبواب. وحتى في الموت أنا كذاب.

عدلت وجهتي، مِلْتُ باتجاه الضفة الأخرى عند مصر القديمة، حاولت تنظيم حركاتي، قطعت ما تبقى من عرض النهر الصغير. على الضفة الأخرى، بدا ضوء مضطرب، ركوة نار، مشتل الورد، لمحت إشارات دفء، وتمنيت النجاة..

كذابٌ من يقول «إنه يكره الحياة».

***

واصلت السباحة، حاولت أن أسحب نفسي من هذا الزمن، ما زلت نصف عالق، غارق، هذيان. لم أشعر بالبرد، ولم يعد نفير السيارات يعوي. بين البخار والمطر ألمح شبحًا، رجلًا واقفًا يرفع يديه إلى صدره، يشير بكلتا يديه، يأمرني بالرجوع أو بالمُضيّ، لا أدري.. يصيح، لا أكاد أسمعه.

بين الماء والماء، الأصوات عرجاء، حروف متقطعة ثقيلة، وللنيل سَحْبٌ بطيء كتمساح. الغريق لا انشغال له بضجيج البر، لكني متأكد أن الرجل الظل يحسبني لصًا أو عفريتًا. هدأت ضربات يدي، صرتُ أحرك رجلي كالعجلة، وأصنع حلقات متتالية بذراعيّ. صرت أمشي في الماء.

كنت أحلم أن أمشي فوق الماء بكرامات، فصرت أخاف الماء، ولا كرامة لمثلي في وطنه، ولا حتى حلم بوصل الحبيب.

***

اقتربت.. وصلت الشاطئ، إلى أين يلقيني زماني؟ سمعت الصيحات بالتكبير، علا صوت الرجل وظل يردد.. تخيلت أنه يستعيذ بالله مني.

توقفت مغمورًا، لا أفهم لكنته الغريبة، أردت أ، أبلغه ما يطمئنه، ما قدرت على الصياح، ولم يكن ليسمع صوت موجوع يحتضن النيل ويحتضنه النيل في هذه الظلمة الباردة، وتحت المطر.

في المترين الأخيرين قبل ضفة النهر، توقفت عن السباحة، للحظات شعرت أني نجوت من حماقتي، اختبرت عمق الماء، تحسست الأرض، جُسْتُ خلالها، دست على القاع القريب، لم أَرْسُ، ثقلت، الطين يسحب القدمين، يلتصق بهما، يثقل الخطوات، ضربت برجلي ورفست بكل ما تبقى لدي من قوة، والرجل أراه، أحاول الاستغاثة، فأعود منشغلًا بشَرَك الماء وفخ

الطين، الرجل يشاهد الموقف الغريب والمحير، الطين يشدني، يزداد اضطراب رجلي وتتعثر ضرباتهما، روحي تهيم في شتات، أحاول الخروج بكل قوة.

صحوة الموت؟ أم لم يزل بفمي ريقها؟ جيهان أو الحياة، فهما سيّان، لو جف ريق الحياة فلن تجف قبلتي الوحيدة اليتيمة.. جيهان الحياة، والحياة جيهان.

كل ما أريده أن أتخلص من شرك الطين، ألّا أظل عالقًا، الماء يغمرني، شَرِقْتُ، نزف الحيوية يبدأ، بدأ الموت.. «لا إله إلا الله» أرددها، و«لا إله إلا الله» يصرخ بها الرجل، لأول مرة أسمعه واضحًا، سأموت غريقًا؟ لا شيء أمامي أراه غير سواد الماء وضوء النار وشبحٍ يصرخ.

وداعًا يا دنيا المتاعب.. ظلام ولا أبد.

هل لغريق ارتقاء؟

***

الروضة

أوشكت موجات الهواء البارد تكنس من زحام الشوارع، شاطئ الروضة الشرقي عند البحر الصغير نوى أن يخلو من المارة بعد أن هجره العشاق، يقابل صلف الريح وحيدًا. أوراق ترتعد فوق الغصون، تُنازِعُ، قبل الطوحان في هواءٍ يتسرب

للعظام كسوس النخل القريب.

في لياليه الأخيرة يزمجر خريف، بخوفٍ مشفقٍ يزيح الستار لقدوم شتاء قاسٍ، يتلفت شاب نحيل في قميص مطوي الأكمام، السلسلة الفضة حول عنقه كاذبة كبرد الخريف.

تقدم إلى الهاتف العمومي «ميناتل». تلفّت.. تحسس السلسة حول عنقه، نظر في الساعة، تأكد من أمان الشارع.. وضع بطاقة الاتصال:

«صاحب الأمانة غائب. يجب التأكد مرة ثانية من الغارق في الظلام».

بدأ مكالمته بالشيفرة.. تفككت قليلًا.. بعد جدل المتسائل على الطرف الآخر في السودان.. خانه الحذر، فنطق سهوًا جملة القدر:

«أنا متأكد من كلام الأخ محمود.. أنا هنا في الروضة ولا حس ولا خبر عن بقية الإخوة».

كل هاتف عمومي مرصود. القضايا لا تسقط عند الأمن بالتقادم.. خمس سنوات فترة قصيرة، لا تعني تبخر فكرٍ ما زال مخزونًا بالعقول. تعلّم أمنُ الدولة أن فكر الجهاد مُعْدٍ، وأن جماعته الأم خلقت فيروسات خاملة، في أية لحظة يمكن أن تنشط وتنتشر وتتكاثر.

في الحقيقة لم يوقف الأمن رحلات بحثه وتحقيقه.. خاصة

بعد ورود معلومات غير مؤكدة، وليست بموثقة، أن ملفًا يحوي أساسيات بناء تنظيمات عنقودية، وطرق تجنيد أعضاء جدد، وشروحًا تفصيلية سهلة لتصنيع المتفجرات من مواد بسيطة متاحة، كالسماد أو الجلسرين.. وسجلًا به رموز قادة غير معروفين، ومفاتيح خزائن شخصية خاصة ببعض البنوك، بها مئات الآلاف وربما ملايين الدولارات، مبالغ كافية لإعادة بناء تنظيم إرهابي مسلح عنيف.. ومصورات دقيقة لأهم أدبيات الجماعة.. وملفات أخرى مرعبة لكنه لا يعرف ما فيها.. صار لدى الأمن يقين بأن ذلك الملف لدى عنصر متخفٍّ مجهول ولم يتم اعتقاله أو رصده.

تسميها مصطلحات الجماعة «خبيئة». كنز مهم خطير، لا بد من الوصول إليه بأية طريقة.

***

دبت رائحة الجنون في قسم «المتطرف». أعادوا كل ملف أوشك على الأرشفة. انتشرت عناصرهم الخاصة في شوارع الروضة والمنيل. راجعوا كل (محمود) تم اعتقاله أو محاكمته، أو حتى رصده للاشتباه بفكر الجهاد.. نشطوا في إغارات الفجر وزياراته.. قبضوا على أكثر من سبعة عشر «محمودًا».. استدعوا من السجون ثلاثة.. ثلاثة أسابيع من التحقق والتحقيق.. انتهوا إليه (محمود يوسف).

***

جاءوا به من سجن وادي النطرون. أعادوا التحقيق مرة أخرى.. بدءوا كما تعليمات رئيس الجهاز شخصيًّا، من «بسم الله الرحمن الرحيم» من أول السطر.

«انسوا كل ما تم، وابدءوا معه من بداية طرف الخيط.. متى التزم؟ ماذا قرأ؟ من دعا؟ ومن التقى؟.. أين سافر؟.. دعونا نبدأ من جديد، حافظوا على حياته، فهو كنز ثمين.. وراءه، ربما أخطر صيد في تاريخ الجهاز».

سِيقَ لمذبحة، سألوه عن كل شيء، كأن لم يكن تحقيق تم منذ سنوات.

استفتحوا بالصلاة.. متى التزم بها، وأين أقامها، ومن كان معه؟ توالت الأسئلة.. توالى معها شياط السياط ودفعات أشواط الكهرباء.. كل مسّ سعير في الخصيتين، كانوا يقتربون به من أحمد الفخراني.. اقتربوا جدًّا.. سلكًا رفيعًا أدخلوه ممر قضيب ضيق متكلس من الخوف، وطويل جلد عُميرة الحرمان.. زعقت الكهرباء.. سرت كشيطان، برقت في مجرى البول.. صرخ:

«خلاص يا باشا خلاص.. سأتكلم».

سرّوا عنه قليلًا.

«أي كذب سنعرفه وأي مكر نكتشفه، سندفنك بعد أن نذيقك جهنم.. الذي خلقك لن ينقذك منا».

التقط المشبوح أنفاسه: «أي اسم تريدون؟ ليست هناك أمانة.. الكل قد قبضتم عليهم».

بدا أن الكهرباء لم تفلح.. سب المحقق دين كل أهل محمود.

«واضح أنك تدربت جيدًا، ويبدو يا بو حنفي أن لاظوغلي بالنسبة لك فسحة خارج السجن.. غلطتنا أننا لم نفعلها معك وأكرمناك في السجن، فلم تسعد هناك ولم تجرب، ولم يزغردوا لك: صباحية مباركة.. الآن وأمامنا سنهدمك.. ستقول لنا ما نريد.. مبروك يا بو حنفي الدخول في نادي الشواذ».

انقبضت بطنه، قبض عضلات استه بأقصى ما يستطيع.. تلاشى القبض أمام إصرار قبض أيديهم.. غزته عصا نار حارقة.. اعتصرته المذلة.. انهار.. لم يستسلم.. استسلم، بكى كرضيع غدرت به أمه.

الحزانى يبقون حزانى.

***

جيهان النجار

ليالٍ، ما أَمَرَّها، لكنها تَمُرُّ. الوحدةُ مَقْبَرةٌ سكنتها قليل الاهتمام، كمْ يَجرحُ الإهمالُ. بعد خُفُوتِ طموحِ الماجستير، تعيشُ حالةَ الإحساسِ بأنها مجردُ ستِ بيتٍ يغيبُ سيدُه، يستغرقُه السهرُ خارجَه. لم يعد بينهما حديثٌ كما كان، لا يعلمُ (معتز) مدى المواجعِ، عند تلميحِه المستمر بأن بينهما مسافات في التفكير، وطُرُقًا في الاهتمامِ.

وحيدة، بيتٌ نبيلُ الحشايا والأحزان، غرفةُ نوم بيضاءُ، تفوحُ ببرودة أبدية لولا ظِل دفءٍ، تدبُّ بها حياةٌ عند لقاء سريع، ثم تعودُ قبرًا عَطِنًا. هاتفٌ هامدٌ، لا جرسَ، ولا حِسَّ. فجرٌ يقتربُ، وسهرةُ التلفزيون كعادتِها مُملّةٌ. فتحتْ مظروفًا استلمته مساءً من معملِ التحاليل. تتساءل إن كان الإنجاب في مثل حالها حدثًا سعيدًا؟ شيئًا طيبًا، رزقًا، وأملًا باستعادة دفء البيت؟ أم رابطًا آخر مع رجل لا تكرهُه، فكيف تكرهُ ما هي به محسودة من الرفيقات، ورأت منه رقة وأيامًا جميلة، استحالت أثرًا بعد لمحة عين.

كيف تحب من لا يعرف منها غير متعة، يُحصِّلُها دائمًا ويمنحها قليلًا، يصرخ في وجهها لأقل سبب، ويعود طفلًا وديعًا في دقائق، يعترف بخطئه دائمًا، حتى لو هي المخطئة في أية مشكلة من المشاكل الكثيرة العابرة وبينهما مستوطنة.

وكيف تستغني عنه؟ بل كيف تظلُّ على حالها مع رجلٍ تذوبُ بين ذراعيه، يصلُ بها لما وراء الإحساس، تَخْمِشُ ظهرَه بأظافرِها كما يخمشُ طائرٌ يتهاوى غيمةً. تجرحُه عِتابًا. صار كل ما بينهما دقائق نادرة. بعدها، وأثناءها، تُدرك أن العشقَ غيابٌ مع غائب.

***

في هذه الليلة، تخيلتْ أحمد معها، يشاهدان تسجيلًا نادرًا بين عبد الحليم حافظ ونزار قباني. كم همس لها بأشعار نزار.

معتز طيب، واثقةٌ في حبه، لكنّ هناك شيئًا ينقصها، كعطر «إسكيب» نائم على ظهر فستان سهرة، فستان ينام منذ أبد.

ككل النساء تحتاج من يسمعها، يفهمها. شخص واحد تذكره كلما داهمتها ليالي الملل، وتكرهه لأنه تركها وحيدة وغادر في صمت مريب. حتى هذه اللحظة هي لم تفهم شيئًا مما جرى.

قبّلها، ومضى.

مست بسبّابتها شفتيها، وبِرِقَّةٍ عليهما عضّت، تحاول أن تفهم كيف تركها تحت المطر ومضى.

ذهب، لم يُعقِّب، ولم يرجع، ولم يسأل، ولم يحاول حتى أن يتجسس أخبارها.

أو هكذا تهيأ لها.

***

قامت تفتش عن علبة السجائر، لعل واحدة ملفوفة تركها معتز. فكرت أن ترسل عسكري الخدمة للصيدلية يشتري علبة كودافين. تأخر الوقت، ورقّت لجندي سيصحو رغمًا عنه عندما يعود سيده.

***

لاظوغلي

«الواقع أن محمود لم يستجب لكل محاولات التفافات الاستجواب التمهيدية، كان به أمل أن أحمد الفخراني قد يعيد ترميم ما تبقى.. قد يُكوِّن بنفسه مجموعة وربما مجموعات على نفس خطى المجاهدين.. قرر محمود أن ينتصر لمُعتقده، أن يشفي غليله ممن سجنوه. كل ما تبقى لديه من أمل بانتقام، هو نجاة أحمد والخبيئة، لربما أذل من أذلوه».

صرخ.. صرخ.. ولم يتكلم..

في اليوم التالي بدءوا بما انتهوا به.

«حتى يحدث المراد يا بو حنفي».

انكمش جسده العاري دون ما كان من كمشة الخوف.. بدأت الكهرباء، متجددة الوجع، ومفاجئة بالألم الرهيب كأول مرة. غضب المحقق.. زادت الجرعات.. الدنيا ظلام، وغطاء العينين ثخين. انتشر هادئًا ظلامٌ ثانٍ يلف ظلامها. وظلمات. لمح أباه في حقل بعيد، حزينًا على ولده الوحيد.. غاب..

هدوء يسحبه وتهمد جلبة وضجيج. خفتت الأصوات.. ما عادت الدنيا غير غمامات وهمسٍ.

همس، لم يفهموا ولم يعتنوا.. همس. شهق..

كانت آخر عهده بهواء دنيا الله..

ما للحزانى سوى الانتهاء.

***

أُسقط في أيدي الضباط الثلاثة ومساعديهم، حاول معتز زهران أن يلملم اضطرابه، فشلوا في الحصول على معلومة خطيرة، وخالفوا أوامر رئيسهم. لكن الدنيا ستستمر.. «إرهابي وغار» قال معتز: «لا تخافوا، أنا المسئول.. المهم حصولنا منه على بضعة أسماء. هاتوا كل من ذكرهم».

ضمت القائمة «عبد الرحمن بدير».

بمفاجآتها، هي دنيا، يزحف خطرها ساعة رسوخ الأمان.

***

الليل للجميع، وشوراعها صارت لمن يجرؤ، سيارة زرقاء بجوفها البارد جسد بارد، خلفها سيارتا حراسة، شقت شارع قصر العيني، رضرضت بغضب أسفلت الكورنيش، جنوبًا عكس مسير النيل، عبروا غربًا.. قبل استيقاظ هوام السجن وحشراته، وصلوا وادي النطرون، دخلوه من بوابة جانبية.. ألقوا بالجثة.

لا يشعر ميت بحبس، الجميع أموات إلا بعض الأموات.

***

معتز زهران

قضى ليلته كئيبًا، صرخات محمود لا تفارقه.. اتصل بالبيت، لا مجيب.

كعادتها - تخيل- تنام والتلفزيون يضيء غرفة المعيشة.. تذكر أن ثلاث ليال مرت لم يلمسها.. آخر مرة كان مضطربًا. فكر لو يغرق في نوبة جنس تنسيه ما جرى، الجنس مخدر.. أسرع للبيت. بحاجة ماسة للهدوء.. للتصالح مع النفس.. بعد انقطاع أسبوع عن الصلاة توضأ. وقف يصلي العشاء، في سجوده بكى.. بكى محمودًا ولعنه، تذكر كيف زعق فيه: «اصرخ، حتى السماء لن تنفعك.. ليس هناك قوة يمكن أن تنقذك من يدي.. نحن لا نعرف ربك».

استغفرَ الله:

«يا رب، تعرف أني لم أقصد غير إخافته لأحمله على الاعتراف منعًا للشرور، جماعته قتلوا ويقتلون، يا رب، هم ينفذون مخططًا صهيونيًا.. يارب، اغفر لي.. فلو تكلم ما حدث شيء.. لقد بدأت معه بالحسنى، وأنت شاهد.. سألته بهدوء وأكرمته وعاملته معاملة لا يستحقها.. وعدته بالراحة في السجن، رفض وأصر على المناورة والكذب.

كيف يكذبون؟ أو ليس المؤمن لا يكذب؟! هؤلاء ليسوا بمؤمنين، كالإخوان الكاذبين.. ليسوا إخوانًا وليسوا كلهم

بمسلمين. ماذا لو تكلم؟ كنا أرحناه واسترحنا، وتوصلنا لما نريد بلا ألم.. لم يكن بدٌّ من تعنيفه، ولم نقصد قتله.. والله يا رب لم أقصد قتله.. هو بعناده أدخل نفسه السجن، وبغبائه ضعف جسمُه الضعيف أصلًا فلم يتحمل التعنيف».

جلس دقيقتين بعد ختم الصلاة، ما زال مشغولًا بأمر تلك اللفافات أو الصندوق أو الخبيئة، التي تركها محمود لدى شخص آخر، يمكن أن تُجدد بالشوارع آثار الدم التي بردت.

رفع يديه:

«يا رب، من أراد مصر بسوء فخذه أخذ عزيز مقتدر، يا رب وفقني أن أجد صاحب الخبيئة، أو أمنعه أن يستخدمها، واغفر لي».

***

بهدوء تسلل إليها.. أزاح الدثار المنزلق عن ظهرها.. خلع كل ملابسه..علّقها بهدوء على مشجب مزدحم، تمنى لو يعلق همومه أيضًا.. مال على عنقها.. مسها بخفة.. زاد بقبلات متتالية، بدأت بطيئة هادئة.. ثم استحالت حريقًا.. أحسّتْ ولم تُظهر.. مد لسانه خلف أذنها.. زلق ذراعه الشمال تحتها، أمسك برقّةٍ نحّات نهدَها المتغافل الحر، كالزبد ساح.. تنبهت.. لم تبتسم.. استسلمت لما تحبه ممن ترى أن حياتها معه لا بهجة فيها غير تلك الدقائق السريعة.. قاومت تنبهها، لم تُظهر. زبدتها الرقيقة تنبهت بعجل، ولم تستطع إغفالها.. خدر يوقظ الحواس، غواية بادية بين أصابعه الثلاثة في حلمتها النافرة.. فركها برفق..

برقيق عنف. تسللت يده اليمنى أسفلها كلص ظريف.. انساب نداها.. شعرت بعصاه تنغز لحمها الطري.

غضة رغم الهموم، طيعة انقلبت.. حدَّق فيها، لم تفتح عينيها، أدارها، صارًا بعكس عدلة الفراش، قبض بقوة على فخذها، رفع اليسرى، دخلها بسرعة هارب.. دخلها بكل العنف.. ارتفعت في السماء.. كادت أن تلمس سور البهجة.. لاحت أمامه خصيتا محمود والسلك يمسهما.. زادت وتيرة طعناته وهو يحاول إبعاد مرأى ذَكَرِ القتيل المكهرب.. بمجاهدة استدعى ما استطاع من نساء تمناهن في هذه اللحظة.. سخن.. شعر بلسعة تسري، تلف الحشفة.. الطعنات تريد أن تهمد.. غمغمت عيناه، تأوه كمن يصعد جبلًا.. غرق في اللذة. هدأت طعناته، على فجأة ذاقت حسرة.

نامًا، مخدة بينهما.. مخدة طويلة من العزلة. نامت وأصبعها يُطمئن ما تبقى من ارتفاع.

كدابة نام.

***

في الصباح استقبلت قرية (الكحيل) الفقيرة، واحدة من أكثر قرى مصر الفقيرة الكثيرة، استقبلت إشارة باردة.. انتفض مأمور مركز «سعد» بدمياط وهو يقرأ الإشارة. تحرك بقوة فقيرة لمشرحة المستشفى العام.. وصلت الجثة عصرًا، انتظر المأمور هبوط الليل.. الليل ستارة يحفها الميتون ولا تفضح الأحياء..

بعد صلاة العشاء تنام القرية، أرسل المركز في طلب (يوسف فوزي)، والد محمود، والوحيد المتبقي من عائلة فقيرة، أعداها جفاف أرضٍ يأكلها ملح البحر، وقد كانت خصيبة، وغزتها حمى الاغتراب في القاهرة وبعض حظ في الحجاز.

***

غرفة فسيحة تموج بالموت، على جانبيها أدراج باردة، ويتوسطها سرير معدني ما اهتم العمال بتنظيفه من بقايا دم، تقدم عامل المشرحة، خلفه الأب المفجوع ومأمور المركز، بسهولة انزلق درج، شدَّه العامل لأقصاه، الرأس للداخل، من قدميه عرفه أبوه، لم يعد مهمًا كشف الوجه، مال الشيخ العجوز على الجثمان المسجى.

«ليه يا محمود؟ قلنا لك! الله يسامحك.. اللقا نصيب يا ابني».

كشف وجهًا لم يَرَه منذ أربعين هلالًا لاح في سماء الله.

«مسامحك يا وليدي.. مسامحك. الله يرضى عليك. يا رب احرق أكبادهم على أكبادهم».

ما للحزانى غير الرضا بالحزن.

***

عبد الرحمن بدير

ليل زاعق بالأسرار، صامت بما يراه الناس ويعرفونه. حجراتها حكايا، في غرفة أخرى، لهثت امرأة أخرى. زوج غاب كمئات الآلاف.. مبارك جعلها وطنًا ضيق الرزق.. فبكى الناس وصلّوا في كتاب الغربة، صلاة بغير قيام.

المصري لا يأنس لغير الوادي، يطرب كلما اقترب للنيل، الثراء حتى وقت قريب كان يُقاس بمدى اقتراب السكن من النيل، الثراء صار في الصحراء، والنفوذ دائمًا يقاس بمدى اقترابك من الفرعون.

كيف أصبح السَّفَر في حد ذاته غرضًا لا نصل إليه حتى نستهدفه؟ الناس على دين ملوكهم، الملوك يشحذون الصدقات حول آبار نفط توشك أن تنضب.

من استطاع منكم الباءة فليتزوج، الباءة لا تُعْوِزه.. الحب يعوزه والهروب.. الغرق في الوهم.. عطرها يمتزج بملابسه المشبعة بالمعسل والحشيش. بعض الروائح الكريهة تغوينا.. ذائقتنا نسبية، أحيانًا يكون لبعضها صوت، ولبعضها سخونة.. تنساب المرأة بين يديه، ترتجيه احتواءً.. كل شيء يفعله إلا الزنا.. مرهق، تزلزله رغبة.

لأول مرة يلمسها.. ليلة قضى ربعها في شقة جاره الجديد.. أغوته.. شغلها وشاغلته. تمنى، لم يتأنَّ، ولم تَنَلْ ما تمنَّت.

ساعة القدر لا تأبه لما بين يدينا، ولا بما في يدينا.

كم يهمل القدر التأني!

***

باكيًا يستغفر.. تحت الماء الساخن حلب ثانية من جمرته، انْهَدَّ وَتدُه، ومال من خجل التعب ونام، ذلك الذي خُلق لسعادتنا، وفيه شقوتنا، إنْ تحجَّرت العقول، أو هي انبسطت.

ظنّ أنها لن تمرّ..

«ما نزل بلاء إلا بذنب.. ولا رُفع إلا بتوبة».

مُخَدَّرًا صلَّى، استغفر.. نام يفكر في ذنوبه المتواصلة.. قرر التوبة.. كعادته نواها وهو يضبط المنبه على صلاة الفجر.

***

مع أول عنيف الدق، تمنَّى عبد الرحمن لو يصحو من الكابوس.

هو في الكابوس.

***

جيهان

على حائطٍ متصدعٍ، تَخُطُّ خلافاتٌ كل يوم ظلالًا. شَوَاغِلُه

معه حتى غرفةِ النوم. لو صرّحت، تَهَكَّمَ بما أسماه فضاءً يُدوي برأسها، لو لمّحت ختلها بلقاء ساخن لا يسبقه كلام.

قبل عام جاءها ليلةَ راحتِه، بعلبة سجائر ملفوفة حشيشًا، بشدة حازمة عارضته في البداية، قررت كسيدة قوية ألَّا يشربها بغرفة تنام فيها، بالشرفة غاب، وعاد فغاب معها في نوبة طعن طويلة، استمتعت، شيئًا فشيئًا باتت تغضُّ الطَّرْفَ عن سر متعتها، شربته معه، خدرتْ، ضحكتْ. فرح.

تكررت ليالِي هبيب التخدير اللذيذ.

***

عبد الرحمن

تنبه، الدقات عنيفة.. كيف تسوروا جدار البيت العالي وما أحَسَّ بهم؟!

«العقاب يا بَكَّاَء محراب الكذب.. ما أسرع عقوبات ذنب لم تُتمه».

لم يرتعد.. سكن على رأسه طير الدهشة ونام التوقع.. غاص في التسبيح. تذكَّر المرأة.. خجل من ربه.. رضي بأمر الله النافذ.. فتح الباب.. بدأت التجربة. وغاص في التأمل مشدوهًا بالمفاجأة، سرح بعيدًا:

«الدنيا لم تنتبه لطرقاتهم، وحدها أمي التي رحلت قبل عامين

انتبهت، تشهد المحافل اللاقطة ضناها.. حيَّةً كقطة، مبتسمةً كماء متسرب من تخليل أصابع متوضئ، حيِّيةً كزهرة أخجلها غروب.. منتبهةً كشعلة ضوء. لم يتنبهوا للميتة الحية.. نظرت أمي نظرة.. لم تكن خائفة، مبتسمةً كانت، ورائقة وناصعة وطيبة كشُمعتها، أمي قالت: الصبر مفتاح الفرج، وأظلم ما تكون الحياة أضوأ ما تكون.. الله معك».

لم يكن دخولهم عنيفًا بقدر ضرباتهم على الباب.

«أهلًا يا عبد الرحمن».

تسربوا كجراد داخل كل غرفة، حتى المطبخ والحمام.. بضع جرادات راحت تقلب في الحديقة.. لم يتركوا شيئًا دون تفتيش.. ساعة أو أكثر.

مع قرآن الفجر المنبعث بشفقة من سماعة مسجد قريب، كان موثقًا بإحكام، مشلولًا يتابع تفتيش المكتبة، بنظام راح الضابط يتحقق من عناوين الكتب والمجلدات. في كل رف كان يتوقف للحظات، انتشل كتابين لسيد قطب.. «واقعنا المعاصر» لأخيه محمد.. كتيبات في الرد على الشيعة.. رسالة دكتوراه عن التشيع وتاريخ آل البيت.. «كلمة حق» لعمر عبد الرحمن.. طبقات الصوفية... مزيج غير متجانس.. مكتبة متنوعة.. كان يُمَنِّي نفسه عالمًا، ينال من كل فن.. انتهى التفتيش.. من الحمّام خرج أحدهم مزهوًا وهو يقبض على قارورة جليسرين.

«وما هذه يا عبد الرحمن؟ خبير أيضًا في المتفجرات!».

***

داخل سيارة ميكروباص دفعوه، في كرسي الوسط قبل الكنبة جلس بين اثنين.. سُتُر سوداء على النوافذ.. التفكير في تاريخه مع الذنوب شغله عن عصابة سوداء، تذكَّرَ كلمات من مروا بالتجارب.

«بدأت أيام العمى».

حدّد تركيزه في تعيين الشوارع مع انحرافات السيارة، المسافة من بيته حتى مقر أمن الدولة لا تستغرق عشر دقائق، والقاهرة هادئة من الزحام.

«أنظر بأذني للمعالم على يمين الطريق. هل لأذكرها؟ لا بل نفسي أذكر، بأنني ربما، وقد، ولعلِّي يومًا ما سأمر بها عائدًا.. يا رب».

قلبه مضطرب.. دقاته ركض عربة متهورة فوق مدقٍّ مُجعّد. حضرته طمأنينة غريبة.. شعر براحة بعد استرجاع شريط المعاصي، وكرر:

«إنه لا يتعاظمك يا ربٍّ ذنب أن تغفره، إلا غفرته».

عرق في الشتاء والدم هارب، شعر أن جسده تتقاطر عليه مياه الاغتسال من الذنوب.. حمد الله، تمتم ولم يسمعوه:

(وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ).

قال: "اغرق يا ضعيف في بحره، بحرٍ لُجِّي اليقين والتوكل.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. يا رب أنا بين يديك فاقْضِ بما ترى

والْطُفْ".

تلكَّأت السيارة، زمجر باب يسأل خفيره عن القادم إلى داخل المجهول، توقفتْ ولم يسكت محركها.. دفعته الأيدي.. لا يدري إلى أين.. صعدوا به.. انتهت بضعة سلالم، لفُّوا يسارًا.. بضعة سلالم أخرى.. مشوا بممر طويل ومالوا مرتين. أجلسوه. وحده جلس مشغولًا:

"العصابة على عيني، ويداي صارت من أمام مقيدتين بحديد بارد. لم يودعوني زنزانة مع آخرين.. يجب أن أظل أعمى متفاجئًا مندهشًا يملؤني رعب، ويذبحني ترقب للمأساة. أعمى في طرقة طويلة معزولًا".

كل صمت عنيف.

***

جيهان

في ليلة باردة سعلت بشدة، كان منتشيًا، ناولها عقارًا مهدئًا للسعال، زجاجة كودافين، جرعت، جرعت ثانية، هدأ السعال، انفتح صدرها. بدماغها عبث فراغ، وصدحت أم كلثوم:

«كل ليلة وكل يوم، بعد ما اطّمن عليك هيجيني نوم».

باغتتها رائحة أحمد، تأملت الرجل المدخن أمامها، رأته بعين حقيقة المخدر، وسرى تثبيط شارب معسول. دماغها غمامة

مثقلة بالكلام. لأول مرة منذ أيام الخطوبة تجد نفسها نِدًّا لا يُجارَى، تكلَّمَا في السياسة، في الرياضة.

حكت له عن نزار قباني.. تكلمت كثيرًا، لم تعطه فرصة حتى للتعليق. بركان كلامها فار، شعرت بلذة رأسها.

لذة أعلى من لذة الجسد.

***

الكويت

أحمد الفخراني

أمس، عصفت بي الشجون، بعد تحقيقات متعددة استدعاني رئيس التحرير، ذو علاقة وثيقة بمبارك، له استثمارات بمصر.. غضب لمَّا كتبت تحقيقًا عن الفساد الحكومي المصري الذي يمنح الخليجيين الأراضي بأقلّ من المجان.. لم يُنشر التحقيق.

شرح لي أن مصر تُهمه، وأن تحقيقًا كهذا سيؤثر في سمعة بلد عظيمة يسعى لجذب الاستثمارات، ويجعلني في موقف المُعادي لرجال أعمال خليجيين معروفين، ويغضبهم من الجريدة، والجريدة قائمة على إعلانات أغلبهم.

«أنت صحفي محترف، والكل يشكر فيك.. في جريدة أخرى، ومع شخص غيري، كان من الوارد جدًّا (تفنيشك)، المهم بدلًا من تحقيقك الذي لن يُنشر، أطلب منك أن تكتب سلسلة

تحقيقات عن مصر.. عن مَواطن الجذب الاقتصادي.. مع تحقيق عن الرئيس مبارك، وسُتنشر خلال أسبوعين قبل نشر حواري، الذي من المقرر أن أجريه مع مبارك. وسنُدرج اسمك ضمن فريق الإعداد بالقاهرة».

أُسقط في يدي.

***

القاهرة.. سمعت اسمها فهتف قلبي، أنا ابنك يا طاهرة.. يا عاصمة المآذن والتضاد، عامان ويزيد، يا سيدتي، لم أتنسم هواءك العليل، أشاهد النيل في الصور، ويجري غروبه على حائط غرفة نومي وخلف سريري، وأستحم فيه كل صباح.

هل سألتقي جيهان، وعبد الرحمن كيف حاله؟ انقطعت أخباره، وأخباري من المحتمل ألَّا تكون وصلته.

ومبارك.. مبارك مرة ثانية.. أنا أُعِدّ لقاء لمبارك، أنا أساهم في تجميل ما لا حد لقباحته.

البلايا ليست لامتحان ذاتك، بل لاختبار كم أنت بحاجة إلى السماء.

***

جب لاظوغلي

عبد الرحمن

وقت تسكنه التجاعيد، وبعنيفٍ صبرٍ جلس أكثر من عشرين أذان فجر. وحيدًا ضعيفًا وذليلا، وأمه لا تفارق خياله:

«من قال إنه على قدر الفضل تأتي البلايا؟ البلايا على قدر الذنوب، وأقل قليلًا من مقاس ثيابها العارية».

***

الكويت

أحمد الفخراني

لم تشغلني حسابات ما يجوز وما لا يجوز في العمل لتجميل مبارك، بعد رضائي بالذوبان لحد التماهي وكل البشر.

خشيتي التي لم تفارقني أبدًا، هي ماذا لو فتشوا عن اسمي، هل سيجدون شيئًا؟ قد يجدون، مع أنه لا شيء، تُرَى ماذا سجلت ذاكرة حاسوبهم تحت اسمي؟ هل لي أن أعتذر؟ وكيف أبرر الاعتذار عن فرصة يتمناها أي مصري مغترب؟ رحلة للقاهرة أيامًا ومدفوعة الأجر، ولن تُخصم من إجازة سنوية.

قضاء الله نافذ، وما كتبه يكون.

***

نسيت نفسي وجلست أكتب كآلة.. أكلت بشراهة في يومين وأنا معتكف أعمل على التحقيقات المطلوبة، أريد أن أنسى، جلب لي أحدهم نصف أصبع حشيش أفغاني، نفد في ليلتين، وما نفدت الليلتان.

كتبت خمسين ورقة، كتبت ما أراده رئيس التحرير، ونسيت قناعاتي الشخصية، حلوة مني «قناعاتي»؟! لقد تهت قليلًا أو ربما كثيرًا عن تلك القناعات، بعد ارتدائي الأقنعة واحدًا تلو الآخر.

في آخر لقاء، قال لي محمود يوسف:

«نريدك كما أنت.. لا تُظهِرْ أنك منًّا، أو أنك ملتزم.. حاول أن تحفر لنفسك اسمًا في عالم الصحافة، اسمًا غير محسوب على المتدينين، وسوف يأتي يوم ينفع الله بك دينه، ويستخدمك بإذنه ولا يستبدلك.. فكن داخلهم».

قدمت للجريدة خمسة تحقيقات عن سنوات مبارك الست عشرة، وكيف تضاعف عدد رجال الأعمال، وكم جسرًا تم بناؤه، وقطاعات الأنشطة الصناعية والتجارية التي تم استحداثها.

مع الحشيش الذي يثير شهيتنا للطعام والكلام، تمنيت لو أكتب عن تضاعف أعداد المعتقلين، وممارسات تعذيب على غير نمط سابق، فاق سكك وحوش أوروبا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية، فاق التتار الذين سَمَلُوا الأعين وعصروا الخصى،

والله ما هم إلا أطفال إلى جوار تتار أمن الدولة! تمنيت لو كتبت عن نسبة الذين هم تحت خط الفقر في مصر، ولا أمل قريبًا في أن يقتربوا ليكون الخط فوقهم على مرمى رفع البصر. فكرت لو كتبت عن الظلم والإسفاف والنفاق والتبعية والفساد، عن عبقرية الإفساد الذي صار عُرفًا وعاديًّا، عن تغير أخلاق المصريين.

فكرت لو كتبت مقالا على هامش التحقيقات عن ثلاثة عوامل تحرك مبارك: الكره للدين والمتدينين، واستجداء الأمريكان بأي شكل، ثم هاجس الاستمرار، خاصة بعد أن لمع اسم نجله جمال بشكل لافت منذ نهايات العام الجاري.

وصلت.. ففكرت لو كتبت عن تاريخ الحشيش في بلادي، عن حمّامات المماليك والجواري يستحممن ويُدلَّكْنَ وهن يدخنَّ الأراجيل ويرتلن الموشحات. ضحكت، فعدت لليوم، ماذا لو كتبت ما أنا به مؤمن ومعتقد وغارق في القناعة، ماذا لو كتبت مرثية عن التدهور السريع في كل شيء؟!

ناديت القلم، وانكشف الألم، كتبت عنوانًا بخط عريض وغبت أُطَرِّي عقلة أصبع تبقت من حشيش مغلفة بغير عناية، ثم كتبت ثانية: «جمهورية مصر المتدهورة».. ورُحْتُ أسرد ما نسيت.

قطعت الورقة وخفت. خفت حتى من وشاية نفسي على نفسي، عاودني القلم كتبت: «جمهورية مبارك المتدهورة». قطعت الورقة الثانية والثالثة والعاشرة..صار الخوف بلادي ونحن حظائره العشوائية.

في مشوار التخفِّي يأتي وقت لتكتشف أنك أنت نفسك لا تكاد تراك، من أنت؟ فقالت لي الستُّ من مسجل جواري: «واسقيني واشرب.. اسقيني تاني».

من أنت؟

من حمل في جوف الليل أمانة، خبيئة، قيل له إن ما بها قد يغير مصر، ويعيد بعث جماعة على طريق خلافة؟

من أنت بعد كل تلك الليالي من الغربة؟ من أنت بعد أكثر من ثلاثين شهرًا من نفي جبر الاختيار؟ من أنت يا من تقاطعت أمامه كل الطرق؟ من أنت بعد ليل تغريبة تكره سفور صباحها؟

من أنت؟

أحمد الذي يكره مبارك، وهو اليوم يكتب في مدحه!

من أنت يا كذاب؟ من أنت أيها الكذاب رغمًا عنك، والعاشق على الرغم منك، والهارب وهْمًا، والمتناسي وما نسي؟!

من أنا؟

أنا كل شيء وعكسه، وكل خُلُقٍ وضده!!

***

غلبت خوفي وكتبت، ورميت ما كتبت بدرجي المزدحم بمجلات الجنس وأوراق البفرة. ونمت. فاحتلمت وحلمت بثعابين حولي تطاردني ولا تراني.

استيقظت، وحملت أوراقًا تستهل بمقدمة «مباركية»، مع أسئلة سطحية مائعة، إجاباتها أسرع من علامات استفهامها. سؤالان فقط لم أستطع منعي من وضعهما، مع أني أعرف جيدًا أن أيًّا منهما لن يطرحه الصحفي الطروب.. سؤالان من باب «العذر لرب العالمين»، أحدهما حول حديث منظمات حقوقية دولية عن أن بمصر عددًا كبيرًا - لم أحدده- من المعتقلين السياسيين، خاصة ذوي التوجه الإسلامي؟ والثاني عن قانون الطوارئ سيئ السمعة كما يسميه البعض؛ حتى أنفي أن هذا رأيي. رغم علمي أن كليهما لن يُطرحا في الحوار، لكنِّي ذيّلتُ بهما الأوراق.

فقط لأشعر أني لا زلت بخير.

***

القاهرة

جيهان

أعجبتها لعبة شراب السعال، فتكرر بعد يومين السعال، توحدت و(الكودافين) وقليل من بدائله، ما اهتم معتز:

«كلها أمور بسيطة، وتحت السيطرة».

أمورنا التافهة هي الأثقل بمرور أوان تقديرها.

***

الكويت

أحمد

جاءت الموافقة الأمنية. لم ينتبهوا إليَّ، لم ينمّ اسمي عن شيء، أنا مواطن عادي، بل محسوب ضمن المؤيدين للنظام، بصفتي أعمل في جريدة رئيس تحريرها صديق شخصي لمبارك.

مبارك؟ لو صرخت في وجهه: اتَّقِ الله، هل سيتغير شيء؟ هل تلك فرصة من ذهب للجنون، لاغتيال من اغتال روضتي؟ السفر بعد شهر.

الله غالب، وما كتب يكون.

***

لو قعدت أتخيل للحظة أنني سأكون ضمن فريق يُعِدُّ لقاءً مع الطاغوت، لكُنْتُ كَفَّرْتُ نفسي بنفسي.

وجبت ساعة أخرى من المراجعة، جلسة أخرى ونفسي، كل المراجعات فشلت، أغلب الجلسات لم تتم؛ لأني لم أنفرد بنفسي ليلة واحدة، ما زلت هاربًا من نفسي. نفسي إياكِ أُحدث، فالتقطي من خيوط الحكاية خيطًا به يتبين حق الطريق: سأتذكر مفردات ما لم أَنْسَ تفاصيله يومًا، لعلّي أصِل.

***

سِفْرُ الحب

مبتدأ الحكاية

أشارتْ بطرفِ العينِ خِيفةَ أهْلِها إشارةَ مَحْزُونٍ ولَمْ تتكلَّمِ

عمر بن أبي ربيعة

ما هو الحب؟

خفيٌّ لا نمسك به، لكنا نُحسُّه، رائحة عطرة تزهو في صدورنا فننشرح، ولا يشمها المجاورون لنا في ذات المكان، ضوء يَكْسُو بياضَنا بعضَ حُمرة، وسُمرتَنا فيضَ حيوية، وضمائرَنا شفافيةً صافية.

الحب هو ذلك الذي يجمعنا دون سبب، ويُوجعنا في كل فراق، ولا نملك شرحًا للسبب، هو المقيم على صفحة القلب يكتب فوق نسيجه شعرًا، يُغنَّى ولا يُقْرَأ، يُرْسَم ولا يُكتب.

هو ذاك الجميل الذي يمنحنا الإحساس بأننا ملائكة، وهو الخافت يبعث في صدورنا الشجن.

الحب هو الذي يجعلنا نتعطر بغير عطر، ونغتسل بغير ماء، ونستمر.. الحب هو ذلك المتدفق الذي يجعلنا نستمر دائمًا.

هو الروتينيُّ الذي يختار لنا نفس المتر على سور كورنيش يحرس الشاطئ الغربي لجزيرتنا. أحيانًا أشعر أن هذي المساحة فترة زمنية بعيدة، تمتد حين بدأ النهر يحوط ذرات طمي، ويجمعها ويرعاها، حتى صارت جزيرة.. أحيانًا أشعر أننا فوق هذي المساحة المكانية نسبح في زمن آخر، ربما روحانا سكنت جسديْ عشيقين قبلنا، وعشيقين قبلهما، وقبل قبلهما. كنَّا هنا قبل اهتداء الماء لهذا المكان.

الحب طاغوت، يحكم فينا بما يرى، ولو رأينا وجوب عصيانه، نموت.

الحب قاضٍ قاسٍ، ما بأوراقه غير قرارين: استمرار نظر القضية، أو الإعدام جرحا على أقرب عود زهرة تستقبل المساء.

الحب خيار، ما لنا فيه خيار، ولا معه اختيار، ولا حق في تقرير مصير.

لماذا في هذا المكان يختار لنا الحب مترًا لا يتغير؟

ما عندي إجابة، مع أن الكورنيش يملك ملايين الأمتار، منذ شحن فحولته في الجنوب، وحتى سكب ريق قبلته عند شمس دمياط.

الحب نهر يشق مجراه، ورغي متواصل ولا موضوع، أسئلة بالعين وإجابات باللمس.

الحب سيول الجُمَل غير المكتملة، والمفيدة أيضًا، ثرثرة صاخبة بغير صوت، ونحرص على ألَّا يسمع الآخرون صمتنا.

حبنا قول غير مكتمل دائمًا. الحب كمال وضد أي اكتمال.

الحب هو البقاء في الشمس والناس تهرب إلى غرفة مغلقة مكيفة، والرقص تحت المطر والصقيع يُصَفِّرُ ورق الشجر، ولا إحساس بخطر.

الحب حبة من حبوب النسيان، فلا شعور بجوع ولا رغبة في كوب ماء، ونحن وقوف على قدمين نراوح بينهما في ذات الجلسة الطويلة غير المملة، والقصيرة على الرغم من دخول الليل وسكون البشر.

الحب، من أعطى كوز الذرة نكهة الياسمين، وصبغ فانيليا الآيس كريم بلون السماء. المغامر بالألوان، والمسافر في دمنا الواحدِ.

الحب، هو ما أنام على مخدة رائحته كل ليلة، لأعيشه في الصباح.

صباحُك جيهان، وليلُك كذلك.

***

روضة المنيل.. مبتدأ الحكاية

يَمَسُّنا منها طيفُ حظٍّ فنفرح، تزهو الحياةُ، لا تتوقف ومضاتُ بريقِها والطمعُ، تدخلُ غرفتَها الفاتنةَ، الجاذبةَ، المُلَوِّحةَ بكل فساتينِ زينتِها. نَلِجُ بخُطُواتٍ فَتيّةٍ، فإذا الغَرورةُ وعدُها كذابٌ.

شارع طويل، من النيل يبدأ، وإليه يصل. أشجار أقدم منه عُمرًا على جانبيه، طيور تسكنها مطمئنة، شعاعات شمس صباحية تشتجر اصطفافًا، تتجادل في أسبقية النفاذ من ثنايا غصون مثقلة بالخضار، ثم تفض شمس عمودية صخب صغارها، وتجمعهم فوق جادة طريق مرحة.

في ذلك الصباح، لم يكن ينتبه لشيء، قَدْرَ تَرَقُّبِ وقعِ رائحتِها، (إسكيب) عطرهُا المميزُ وعطرُه أيضًا. رائحة ستظل مطبوعة بالعين.

في مدخل شارع المقياس من ناحية الروضة، وقف تحت ظل شجرة الكافور، تسابق انفعالاتِ انتظارِه دقاتُ قلبِه، يستعجل قدومَ حلمِه.

كل يوم تتأخر، ويعاتبها كل يوم. انتظار المحبوب محبوب.

***

حياته، واحة حلمه اليومي، شجرة أمل. جنة مُنى.

كقلبه، بيضاء من غير سوء، قليلُ نَمَشٍ، ما إن يختفي حتى يعاودَ الاختلاطَ بحمرة خديها، يزيدها حُسنًا فوق حُسن. وجهٌ أبيض مشوب بدمونية خجل، تزيده تألقًا عينان فاترتان مغرورتان، تشغل الناظرين، فيختلفون: عسليتان صافيتان؟ أم حمراوان خافتتان؟ تتسعان بغير إجهاد، تحرسهما كإطار لوحةِ غروبٍ أهدابٌ طويلةٌ حمراء. حاجبان يتماسان في كثافة، يضايقه اعتناؤها بحفهما، يغضب، يريدهما كأول أوان الخلق، بلا تدخل بشري، شعرها كالحاجبين والأهداب أحمر، كزهرة جارونيا.

لا يعرف - على الرغم من تأثراته الأخيرة- لماذا لا يغضبه سفورُ شعرِها، سَتْرُه لأكثرَ من ثلاثة أرباع ظهرها النحيف، بين حين وآخر يعاتبها ولا تضايقُها غيرتُه والعتابُ.

كلماتنا غير الجادة، لا تستقر على الجادة، تذوب كعبور الكرام.

***

في ذكاء أنثى، خرجت من ممر بيتها العتيق، تظن أن شيئًا مما حولها لا يكشفها، رفعت بصرها، مالت بطرفها يمنة ويسرة قبل استهلالة طريق، في حركات آلية اعتادتها، هل يراها من أحدٍ، أو يُحسُّ بفارسها المستظل بفروع الشجرة الوافرة ظِلَّ أحد؟

الروضة تعرف جيهان، ولا يعرفها غير أحمد، وهما حريصان.

سيرةُ البنتِ كوبُ حليبٍ، تعلوه عكارة لو تعلق بحروفه ما قد يثير شك حديث قارغ.

عاشقان أفرغَا أحاديث ما بينهما في بئر عميقة.

***

كل ما فيها يشتاق إليه، كل ما فيها يشتاقه أحمد. تمَشَّى، مشت خلفه. من نهاية جسر عباس لجسر الملك الصالح، تتزاحمٍ المحالُ على جانبي الشارع، لكل محلٍّ ذكرى، ولكل محلٍّ محلٌّ بالقلب، وشظايا سرور.

هل يتأهب للهرب؟

***

جسر الملك الصالح على مرمى تنهدات، خطوات عاشقين على موعد ثابت في صباحات ترتبك فيها السيارات وتتبعثر المفارق. بلا عمد، ودون استئذان، يلتقط كفها الصغيرة. يعبران، فرع النهر يجري، وداخلهما يموج نيلٌ صغيرٌ، و«تحتهما يفور».

***

كحياة عفية، وصباح شهي، سكة قصيرة إلى محطة المترو، لا تستغرق من قدم كسلان أكثر من ربع ساعة، يقطعها عاشقان في ساعة.

بانتظارهما شوارع جانبية، تعرفهما، تُظللهما جدران بيوت ربضت بغير قصد ولا مباشرة بجوار محطة المترو في حي

السادات، كلها تلقي التحية، كل الغسيل، المتدلِّي فرحًا من الشرفات، يرقص على وقع الهوى. كل ذرة تراب علقتِ بواجهة زجاجية، كل قطرة عصير قصب في المحل العتيق أمام المحطة القديمة، كل شيء يرقص.

***

جيهان النجار

كحليب الصباح. حبة عنب واستوت، في السنة النهائية بقسم اللغة الإنجليزية في آداب عين شمس. الكل حولها يشاغلها، حتى زخات الماء التي تحاول تسجيل درجة أعلى على حائط المقياس، ترتفع لتراها.

تَعلمْ كم هي جميلة، لكنها لا ترى غيره. ليس للحب سبب.

قبل سنوات وقف أمام مدرسة جيهان السادات المجاورة ينتظرها. لا كلام ولا سلام. فقط ابتسام من جانب واحد. قالت صديقتها:

«هو متفوق وفي السنة الثانية بكلية الإعلام.. يترك كل بنات الجامعة، وينتظرك يا طفلة!».

فاجأتها جُرأتُه، فتحت لطارق جامعي ساحر.

بعد عام سألته في لقائهما الثاني:

- لماذا أنا؟

- لأنك أنتِ.

- لماذا تترك بنات الجامعة وتنتظرني؟

- أحبك.

- والسبب.

- السبب أنك أنت، أنت، وأحبك.

- أحبك.

في سنة ثانية آداب، تركت له يدها بعد طول استجداء ومحاولات مكشوفة. مس يدها، تعطر بنداها، تعطرت وبلّها خجل، خجلت. ارتعشت، فابتسم، بارتباك نزعت يدها. تمنت أن يخطفها ولن ترفض.

ستسير مخدرة. إذ نحب، لا يعوزنا سبب.

***

المرآة صديقتها الأثيرة. انتهت من كامل زينتها. دائمًا على أهبة الزينة. نضت عنها بعض ملابسها. تمنت لو يعرف أحمد ما لا يعرفه غيرها ومرآتها وأَرَقُ البنات والقلق.

«لا شكَّ عندي في حبي له، على الرغم من تغيره الغريب خلال الفترة الأخيرة، أشاركه أحلامه، لكن لا يسمح لي بالدخول إلى منطقة أعلم أنها مخفية، يتصور أن لديه ما يخفيه.. هو

معارض للحكومة، لا يخفي آراءه.

أحمد الله أنه ليس من أتباع الحاج حسن الجمل، عضو مجلس الشعب وزعيم الإخوان في منيل الروضة. تُطمئنني مواظبته الأخيرة على الصلاة. معي يفكر بصوت مسموع، وأحيانًا لا أستطيع فهمه، مرات أشفق عليه، وأحيانًا أخرى أخافه.

في لقائنا أمس لم ينتبه إلى قص شعري.. انشغل عني وأنا معه.. وراح يتحدث في التغيير، وأن مصر تستأهل حكمًا أفضل، ليس هذا وقت الانشغال بشيء غيري وغير مستقبلنا.

مشوارنا طويل، السياسة شعارها دائمًا للخلف در.

عبد الرحمن يؤثر فيه جدًا، لا أرتاح لعينيه الوقحتين. واضح أنه معجب، وأحمد يتخيله صديقًا مخلصًا.

في الشهرين الأخيرين، بدأ يحدثني في ضرورة الالتفات إلى ملابسي، لم يعد راضيًا عن تنورتي، هي طويلة، لا يظهر من ساقيّ إلا أقل من النصف. فتحة التنورة الخلفية لا تكاد تصل إلى باطن ركبتي. أحب ساقيّ، وكل جزء في جسدي، نعمة كبيرة أن أكون جاذبة، كل البنات يحببن لفت الأنظار، كلهن حتى شديدات التحجب، يُحببن الكلمات المعسولة، بل الفجة أيضًا، كل واحدة تطرب، وترتعش فرحًا، وإن أخفته، لو سمعت من صديقاتها أن فلانًا مشغول بها، أو أن علانًا يتابعها.. لا أستطيع أن أنتظر كثيرًا، كما لا أستطيع أن أتصور حبيبًا غيره».

الليلة الماضية، ظللت ربع ساعة أمام المرآة، المرآة عليها

صورة دلال عبد العزيز، ألصقتها لأن أحمد قال مرة:

«إنك تشبهين تلك الممثلة».

قالت، وملقط ينتزع دقائق لا تبين من شعر وجنتين: «لا يعلم حبيبي ما أخفيه، أنا بألف دلال».

«أحبك» خَطَّتْها بقلم أحمر الشفتين، وبعد دقيقة مسحتها ساخرةً:

«لابد أن يتحرك، لا تجدي حسابات الغد، نحن أبناء اليوم، ولكن اليوم بخيل، وحبيبي يرسم كل حياته، ويعلقها ببطاقة النقابة، ثم بوعد عمل في وكالة رويترز، يا مسهل الأحوال وميسرها».

***

سكتت دقيقة وهي تحدق في المرآة.. تلصصت خارج الغرفة، لا أحد.

أدارت بصوت هامس موسيقى هادرة راقصة، تأملت جسدها.. تأملته مليًّا. من غمامة حدقة تأملت، تمايلت بهدوء، تثنت فتدانت أعضاؤها الثرية.. ارتكزت على رجلها اليمنى، خفضتها، التَفَتْ نصف درجة، هدهدت بعَجُزٍ لمحته شهيًّا. لوحت بيديها «تعال».

غمزت، دخلت في نوبة رقص، نضت عنها هموم اليوم العادية.

حينما نختلي، نريد الرقص، فيمنع الجاهلين وقارُ.

***

جيهان النجار

من محطة الملك الصالح، حتى منشية الصدر، طريق دافئة بأثر أصابع حبيب، طبع كف مستقر. عربة السيدات مزدحمة، عيونهن تراقب، نظرات بعضهن تفوق عين رجل.

جوار الباب، على المقعد المنفرد القابل للطي، تدقق امرأة في العقد الرابع، تطيل التأمل في جيهان، عيناها على صدرها، تشغلها ملاحظة مراوحة كف الفتاة لأنفها، والشفاه، وأحيانًا فوق ترائبها البكر.

لفتت جيهان نظرها بعينيها، المرأة لا تكف. تتلهى جيهان بمتابعة المباني المتدحرجة وراء زجاج باب المترو، لم تستطع نسيان كفها، ترفعها كل دقيقة في حركة صارت اعتيادية بعد كل لقاءاتها مع أحمد، تُمرر الكف على فمها، تحتال بأنها تمسح العرق، ولا عرق، ولا تفكير، في غير أثر حبيب.

***

بمحطة غمرة، يلتقط القطار رويدة، الصديقة القريبة جدًا، المطلعة على كل ما يجري، وبعض ما يشغل البال ولا يجوز ذكره، لاحظت رويدة المرأة المحملقة، دخلتَا في نوبة ضحك، لم يتوقف حتى محطة المنشية. قبل النزول تذكرتا وجوب المرور على مكتب أمن الكلية للإبلاغ عن فقد بطاقة جيهان الجامعية:

«يجب إنجاز ذلك قبل المحاضرة الثانية».

بمكرٍ، ضحكت رويدة!

لامس ضحكها انشغالا تدفعه جيهان. فالحقيقة أنها لم تكن تعلم إن كانت متعجلة لعمل المحضر بفقد البطاقة، قبل محاضرة يمكن تعويضها من كشكول زميلة أو زميل، أم للتحقق من نظرات صديق ضابط حرس الجامعة؟:

«ربما كنت موهومة، تلك الشيطانة الصغيرة القصيرة رويدة هي التي نبهتني بأن الشاب الوسيم الذي يطاردني بعينيه، ضابط شرطة، وصديق ضابط الحرس».

***

معتز زهران

«ماذا يريد هؤلاء الأغبياء؟ شباب تافه يعيش وسط البنات. لا يعرف شيئًا عن الأخطار التي نلاقيها في عملنا، أو حجم التهديدات التي تواجه البلد».

بسترة جلد ونظارة سوداوين، جلس يبدي استغرابه في مكتب ابن دفعته وصديقه ضابط الحرس.

فناء الجامعة يضج بزعيق هتافات ضد إسرائيل التي زادت مؤخرًا من أعمال الحفر أسفل المسجد الأقصى.

يغضب حينما يتعدى الهتاف إسرائيل إلى مبارك والحكومة والداخلية:

«ما العلاقة؟ شباب جاهل!».

يلتفت لصاحبه:

«يا باشا، أنتم في نعيم بين بنات عين شمس.. رغم أن كل يوم مظاهرة.. شباب لا يعنيهم أزمات الاقتصاد، ولا يدركون أنهم هدف لموجات تطرف ارتكب مجازر دم بالجزائر، وكاد يعصف بنا في الصعيد لولا المواجهة، ولا يزال».

***

منذ زيارته لصديقه ضابط حرس الجامعة قبل شهرين، وجيهان التي رآها مصادفة تشغله، حصل على جدول محاضراتها، كلما سمحت ظروف العمل بالقوات الخاصة، قضى النهار في آداب عين شمس، بين الفناء الرحب وحدود مكتب الحرس، بطريقة ضابط عرف عنها الكثير.

«تسكن الروضة، منطقته القديمة، علاقاتها بزملائها عادية في الكلية، لا رائحة حب أو ارتباط، أبوها وكيل وزارة التضامن الاجتماعي، وعمها مساعد مدير أمن الفيوم.. حاجة جميلة.. تصلح لزوجة بعد سنوات الحريم والسهرات».

أمس جاءته بشارة، أبلغه «صبري» ضابط الحرس أن لديه مفاجأة.. جيهان فقدت بطاقتها الجامعية وجاءت لتسجيل مذكرة بالفقد، تعلَّل صبري بأن الأمين المسئول عن كتابة المذكرات غائب، وأن عليها أن تحضر غدًا صباحًا:

«رجاء لا تتأخري، فعندي عمل بالخارج طيلة الأسبوع».

أبلغه هاتفيًا وهو يضحك:

«كمين يا كبير».

تأنق معتز، استيقظ مبكرًا، مغتسلًا بابتسام.

***

دخل الأمين سعيد، خلفه الفتاتان. أسرَّ للضابط بأن الفتاة التي فقدت بطاقتها على الباب. دخلت رويدة، وخلفها جيهان. لافتة أينما تمر. تعلَّقت عينا معتز.. ثبت محله.. راقبها وهي تحكي، أذن (صبري بك) لها ولزميلتها بالجلوس.

ارتبكت جيهان حينما رأت ضيفًا بالمكتب. الشاب الوسيم الطويل كرمح، الرياضي، لمحته مرات وهو يشاغلها بعينه، رويدة نبهتها بهمس: «الشاب الوسيم إياه، لا يُنزل عينيه».

تشاغلت بقصة البطاقة، واعتذرت بأن لديها محاضرة بعد ربع ساعة، ويجب أن تنهي المسألة.

مرة أخرى لم تكن تعلم إن كانت متعجلة لمغادرة المكتب للحاق بالمحاضرة، أم هروبًا من نظراته.

بين سكة الحب، ومحطة الطمع، تسكن حيرة.

***

تنتظران، جلستا، ودق الهاتف.

«يا معتز بك، تليفون لك..»، ناوله السماعة:

«المقدم عبد العاطي».

انتفض معتز، تناول السماعة، ارتكن بمرفقه على المكتب بجوار صبري وعينه ثابتة على جيهان.. جبهته تضيء، ويده لا ترتجف، على الرغم مما بدا من أهمية المكالمة:

«يا فندم أوامر، تعليمات يا رياسة، حاضر.. ربنا يخليك لنا.. الله المستعان.. دعواتك يا رياسة».

انتهت المكالمة، انشغل ضابط الحرس بصديقه، بدت محاولته في لفت الانتباه إليه مكشوفة:

«يبدو أننا سنبارك لك قريبًا.. لكن سوف تتكبر علينا.. تذكر أننا أصحاب يا باشا».

نغزتها رويدة: «الباشا عينه منك.. يا ثلاجة! نظرة للشاب!».

قشعريرة نفضت جيهان.. زاد ارتباكها، وأحست بشيء من النشوة، لا تدري سببها.

دقيقتان مرَّتا، اعتذر ضابط الحرس لتأخيرهما، وانشغل بالبحث عن قلم.

رويدة مستمرة في النظر إليه، وجيهان تحاول التأكيد للجميع أنها لا تراه.

دق الهاتف ثانية.. نفس المتصل، وذات المطلوب.

«بجد يا باشا.. في الموعد.. وسوف أمر على سيادتك بعدها..

يا باشا أنت ولي نعمتي وأخي الكبير».

وضع السماعة، لفَّ بهدوء، بثقةٍ جلس إلى كرسي يواجه جيهان مباشرة:

«يا صبري بك، أرجوك اهتم بالآنسة.. اهتم بوجه الخير».

وقّع صبري بك على الورقة بقلم جيهان، مدّ بقلمها يده نحوها، لقفه معتز:

«ممكن أحتفظ به؟».

***

معتز زهران، بطل التجديف، عاشق طابور الرماية، ضابط كما يقول كتاب الميري، كل الأسباب مؤهلة لوحدة العناصر الخاصة التابعة للأمن المركزي، بها قضى ثلاثة أعوام، تدريبات شاقة، عمليات وعمليات. رجال لا يوقفهم شيء، أو هكذا يظنون.

قُتل زميله إلى جواره بجزيرة البداري في أسيوط، قُتل وهو يوصيه على ابنتيه اللتين لم تبلغا سن المدرسة، من يومها وهو يضرب في كل عملية بلا رحمة.

في يقينه أن دم زميله لا تدانيه دماء عشرات.

***

مع علاقات نسائية متعددة ومتعدية، بقيت وحدها جيهان النجار، استبشر بها خيرًا، أحسَّ إن إشارات كثيرة تقوده

للارتباط بها، في اليوم الأول الذي لمحها فيه، تم ترشيحه للعمل في جهاز مباحث أمن الدولة. عندما كمن لها بمكتب صبري، قبل دخولها اتصل بوحدته ليستأذن من قائده في راحة للغد. سأله القائد عن مكانه، أجاب بصدق.

بمجرد دخولها، اتصل قائده وأبلغه أن مباحث أمن الدولة اتصلوا به ليملأ استمارة استطلاع رأي.

ليس ذنبًا أن نُحب، وليس خطؤنا إهمال الآخرين ما يحبون، وعذرنا جميعًا أن بعيوننا نظرًا، وفي قلوبنا عيونًا، ولأحلامنا آمالا، وبسلام نرجوها.

بالحب، نرعى.

***

أحمد

لإبريل في جزيرتي حالٌ خرافية، لا يغادرها بغير إعلان بدء مهرجان الربيع، الأرض أخذت زينتها، الأوراق منتعشة يزغرد لونها الأخضر، وتتراقص الزهور في ثناياها والألوان.

الماء الجاري العميق، يا نيل يا ساحر الغيوب، عبد الوهاب تفوح رائحة عُوده من شرفة قريبة.

البقالون مولعون برش المياه – كعادتهم- بغير حساب أمام الحوانيت العتيقة. نهرنا لا نفاد له، نؤمن أن النظافة من مفاتيح

الرزق. تردد جدتي أقصوصة جد الجيلاني المتصوف، كيف أن الناس استسقوها، سألوها أن تدعو الله بالمطر، فخرجت بمكنسة نخل، ونظفت أمام بيتها، ثم نظرت للسماء وقالت: "لقد كنست وعليك الرش"، فهطلت السماء.

امتحانات جيهان تحمل إشارة بقرب الارتباط الرسمي، والجهنميات المطلة من وراء سور بيت عبد الرحمن تغازلني بالأحمر والأصفر والأبيض من ألوانها، وتداعب أذني بجدال أثير، وطعام شهي.

بلون الجنان تزدهي الجهنميات، رائعة على الرغم من اسمها المفعم بزهو التضاد، وحانية على الأسوار، تخفي ترسانة شوك، الجهنميات - في نشوة خيلائها- تعلن أن الأرض بلغت حد الاستواء، واقتدار الحرارة، وآذنت بوضع ثمارها اليانعة ووردها المتفتح.

جمرة الشوق تعلن، أنني وحبيبتي بلغنا غاية الاستواء.

فتحت ذراعي للربيع، وانتظرت كل ربيع في كل شيء، فكل شيء يرقص لي، قلبي يرقص.

***

هل تختفي الأرض ربيعًا تحت أقنعة لاهية؟ أم مع الربيع لا يستقيم قناع؟!

لا أحب ارتداء الأقنعة، وأرفضها منذ الصغر، أحب أن أكون أنا، أن أكون الرجل الذي قررت أن أكونه. منذ التقيت (محمود

يوسف) وأنا أخشى قدرًا مقدورًا بارتداء قناع، وربما أقنعة.

كل يوم أتساءل عن طريقي، طريق السائرين لله، لست ملتزمًا، ومن يوم التقيت محمود، وضع بعنقي واجبًا تجاه عودة شمس غابت.

ترهقني الأسئلة.

جيهان، سؤالها مرهق وأكثر انغلاقًا:

«الوقت ينزف، وإغواء الخاطبين مستمر، وأنا أحبك، فما الداعي للانتظار؟ لن يسألك أحد في شيء الآن، كل ما هو مطلوب الفاتحة نقرؤها، وخاتم أنت تملك ثمنه، لا أجد لك عذرًا، ولم أعد أفهمك. مع أني واثقة من أنك تريدني، صِرْتُ كالمجنونة التي تصرعها تناقضات ما تراه».

***

الحياة تعشق الأقوياء ويستعبدها الأقوياء، بذا آمن أحمد، منذ نكسة جيله - كما أسماها- وحينما عاينها على الهواء مباشرة، ليلتها ظل ساهرًا بوقع مفاجأة الطيران الأمريكي يدكُّ بغداد.

بغداد رمز حكم المسلمين ومقرُّ بيت العلم، سكن سلسال الخلفاء. اخترقت طائرات الصوت سُحب هارون الرشيد، وألقت قنابلها قبالة حانوت أبي حنيفة النعمان. من العرب لم يَبْقَ غير كتاب الأغاني، و«كليبات» أغاني.

في هذا اليوم التقط إرسال التلفزيون الأرضي بث قناة السي إن إن. أكيد أن الأمريكان قصدوا ذلك، هم أرادوا بعث رسالة بأن البقاء للأقوى، وأن التكنولوجيا هي سلاح الأقوى، وأن الحرب لا تختلف عن الأفلام التي يظل فيها رامبو منتصرًا على الدوام، يعبر الجبال، ويقفز من الطائرات، ويحول كل ما قد تقع عليه يداه إلى سلاح فتاك.

بكى ليلتها، نزف من الطعنة، همس: «زمن لانكسارنا».

هي النكسة.. وكل شيء منذ هذه الساعة سيكون على الهواء.

منذ ثلاث سنوات، من السنة الرابعة الجامعية، وأحمد يبحث عن طريق، لم يكن إخوانيًا، ولا ناصريًا، كان شيئًا بعدُ لم يكتشفه. واحدا - كان- في جيل ارتبطت حياته بمراقبة نفس الأحداث المتكررة، وذات الأسماء الرتيبة والمحفوظة كنشيد وطني؛ بعد قصير تطواف بين الكتب والآراء، وطويل سماع لشيوخ ديوان الحماسة النفطي، وصل إلى أن القرآن غائب، وقدر المسلمين الجهاد. ربما ذلك هو المشترك بين كل الجماعات. لكن أحمد حتى تلك الساعة، لم تُعجبه أي منها. كان يردد لعبد الرحمن:

«لو طريقها سليم ما ذاقت تلك الويلات، ولما تجرعت كل تلك الهزائم».

استمر في المراقبة والتقصّي، من فتش أتته العجائب. بَيْدَ أن قناعات الصغار يغلفها التدين. كلّما مسّنا ذنب، نبت قرار توبة، تاركًا انكسارًا لخجول يتعشم في النظر نحو السماء.

في حماس الضعف، يستأنس الضعفاء الصغار بسيرة الضعفاء الأولين.

***

سِفْرُ الخوف

فالنَّفْسُ جازعةٌ والعينُ دامعةٌ والصوتُ منخفضٌ والطَّرْفُ مُنْكَسِرُ

المعتمد الأندلسي

«شطر مستقبل وحياة، تغتسل وجوهُنا.
في زهو قوتنا البادية، نعتقد أن كل التفاصيل تتضح.
تسُرُّ الحالمين، لا مكان للمفاجآت.
لسنا غير طير رقيق. طيب».

طبيب

ما الخوف؟

رعب يأكلنا، فزع يشربنا، رعشة انهيار، الانهيار، قعود، شلل، أدرينالين يتصبب عرقًا، عرق يُنبتُ شوكًا. والأفكار إذا تتشتت، والآمال إذا تتبعثر، والشمس إذا تولت، والنهار المظلم، إن كل ليل زائر ثقيل.

ارتجاف الثابت، وثبات مَنْ لا يعرف إلى أين، أو من أين تأتي عليه الدنيا.

الخوف، هو كل ذلك وزيادة، وهو غير كل ذلك أيضًا.

هو ذلك الذي نعتقد أنه لا طاقة لنا بما وراءه، يخبئه واضحًا في أجسادنا، أو يُظهره باطنًا في شل تفكيرنا.

الخوف، مشكلتنا الأصلية، حتى لو كان استجابة طبيعة وجِبِلِّية منًّا، بالتجربة يصير الخوف هو المشكلة.

الخوف أخوف ما نخاف، وأما بعدُ فواقعٌ قد نصبر عليه، أو عنده سنجزع، لكنه يبقى عند المعاينة دون الخوف الأولِ.

قالت العرب: الخوف الفزع، وهو القتل أيضًا، فلو هو القتل، فقصة إذن هي وتنتهي، فلِمَ نظلُّ مُعذَّبين، ومُعذِّبين لأنفسنا ونحن لم يَبْقَ لنا غير فترة انتظار، وبضعة أنفاس؟

بعضنا يخاف من المرتفعات أو الأماكن الضيقة، يخاف لو صار إلى أيٍّ منها. لو صار، فلربما انكشف الخوف.

فلِمَ نخاف؟

الخوف هو القلق مما يخبئه الظلام. الخوف ليس ما يداريه المجهول، الخوف هو عين المجهول.

الخوف هو ترقب الظلام والمجهول، من حركة الآخر المباغتة أو المرتقبة.

إذن هو الانشغال الكامل بالمجهول، وهو الغرق التام تحت وطأة الخطوة القادمة باتجاهنا.

الخوف من القهر هو القهر، هو الوسواس القهري.

الخوف هو المفتاح الصدِئُ السريع، لباب الانطواء والذوبان والتوهان.

الخوف هو الذي نتوقع برفقته الاكتئاب، ثم يشغلنا عن إدراك أننا في الاكتئاب غرقى.

الخوف هو الذي سيغيرنا، طالما سار معنا، وصرنا به ليل نهار.

الخوف لا عقل له، ولا لنا بصحبته عقل.

لو كان الخوف رجلا، لَخِفْتُ أن أقتله.

لو كان للخوف قلب، لأدرك ما هو موت أحلام القلوب.

هل للخوف دين؟

***

أحمد

لو تم المراد، أتسلم «كارنيه» النقابة خلال شهر، وأملك حصانة صحفي. مبارك يتباهى وتكذب بطانته:

«لا حبس لصحفي بسبب رأيه».

لو تم المراد، فأنا شبه حر في بلد مستعبدة.

أول الشهر، أُعيِّن برويترز. ترجمت بحرفية في الامتحان، والنتيجة خيرٌ. الحمد لله بطاقة النقابة ومعها مرتب شهري، وأخطب جيهان رسميًّا.

يا ما أنت كريم يا رب.

عافية صباح، بكور مثمر. قبل نزولي، التمست قبلة بركة على كف جدتي.

العجوز أرض حكمة، سنابل قمحها ذهبية، على وشك الحصاد.

***

معتز

«مصر تستأهل منا الكثير، البلد في خطر، احرص على كتابة كل شيء بالتفصيل. كل معلومة باستطلاع الرأي مهمة، لا يجوز إهمالها، نحن نعرفك جيدًا، لكنها أوراق لا بد منها».

استأذن في إجراء مكالمة. قال بصراحة: «هناك معلومات تنقصني».

أكمل كل البيانات.

***

أحمد

صدق خبر النقابة. ستفرح جيهان. وكذلك عبد الرحمن، أخي الذي لم تلدني أُمِّي.

***

عبد الرحمن

بحديقة بيته ينتظر، ثلاثة أحواض منسقة بحرفية، تفوح كف مريم، فتشعلها دموية الورد البلدي، ويختلط ياسمين مُندّى بقرنفل وبردقوش، دائرة عطر، وألوان جارونيا متدرجة من الأحمر القاني حتى الوردي، تهبُّ بنسائم باتجاه شجرة مانجو عملاقة، تحتها طاولة لا تخلو من كتاب، وكاسيت صغير.

دخل أحمد متهللًا، مسكونًا بإيقاع تفاعيل البحور، لعبة بينهما، ويعجز عن مجاراة صاحب البيت الدرعمي.

- إني أنا الرجل الذي قد صار صحافيًّا ببطاقة نقابة.

- قل إن شاء الله.

- إن شاء الله.

- ما شاء الله، مبارك مبارك.

- وما الذي حشر مبارك؟ ألا يكفيه مصر كلها؟! وما هذا الكتاب؟

- «رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار» للشيخ الألباني.

- يا أخي، النار حولنا، وأنت لا زلت غارقًا في قضايا بالية.

- اتَّقِ الله. الكتاب للشيخ الألباني، مُحَدِّث القرن.

- فوق رأسي، ولكن الدنيا تغيرت، ومصر لن يغيرها أصحابُ كهف يصْفرُّون قبل أن تَبْلَى كتبهم القديمة.

- المهم يا أخي ألف مبروك، احكِ ونحن نتغدى. وبعدها نتمشى لمنتهى الكورنيش.

***

صفحة النهر موفورة، كبطنيهما متخمة. الكورنيش واحد على طول رحلته بمصر، غير تلك القطعة، مقطوفة من الزمان، وعن المكان. شرفة مرتفعة، تلتف قوسًا فوق ماء يداعب صخرات حجر جيري مكعبة، تشبعت بالماء، ما ذابت. وهي ترعى طحالب خضراء دقيقة تجمعت كخصلة شعر على خد الحجر.

- انظر يا عبد الرحمن: موجة تداعب الحجر، وصلت إليه في رحلة امتدت أربعة عشر يومًا من خزان أسوان.

- وربما نفس الحجر قطع رحلته في المدة نفسها على ظهور الجمال من محاجر المنيا قبل قرون.

- مصر يا صديقي بلد لها جذر أصيل، وستنبت أوراقه خضراء، ماحية أشرار الزمان.

***

جلس وظهره للماء الجاري، وعبد الرحمن يطعن قدمه اليسرى الضخمة على سور الكورنيش، ويسند اليمنى على الأرض، ينظر للنهر ممسكًا بلحيته النحيلة، يشدُّ خصلة شعر وحيدة يرجوها أن تطول، طال الصمت، وارتبكت أصابعه العابثة بلحيته، مَخَرَ قارب شرطة، ارتبك الماء وغطى على قنبلة سؤال عبد الرحمن:

«إلى أي حد وصلت علاقتك بمحمود يوسف؟».

***

أحمد

هل قال شيئًا؟

سَكَتُّ، لعل ضجيج القارب أسمعني ما لا أريد. لم يكرر سؤاله، وما امتد كلام. سهمنا في دهر من التأمل وتساؤلات الذاكرة. هممت بالوقوف، أقعدني هبوطٌ مالَ بي ودُوار.

تنتهي الحكايا وتذبل ورودٌ قبل تفتُّحها. حكايا الصغار تموت على الشط، لا طاقة بركوب الموج.

كيف سأواجه مصيرًا، أعلمُ مسبقًا أني لا قِبَلَ لي به. ملَني

سرحان، واستبد صمت.

ضاقت دنيا، قبل دقائق لا أفسح منها.

فزعت لتعليلات الريبة، فالمفترض أني و«محمود» بيننا سر. والسؤال يعني شيئًا. بالتأكيد هو لم يخبر عبد الرحمن، أو لعلي لم أُقدِّر ذكاء صاحبي.

***

صيادٌ فوق قارب فقير يمُدُّ شِباكه، بانتظار صباح مأمول. أشباح غروب تمدُّ غمامات مرعبة بغير استئذان.

دائمًا يأتي الغروب عند احتياجنا لبصيص نور.

«لقد قبضوا على محمود، والآن يبحثون عن كل شيء له علاقة به، كل شخص التقاه، صلّى معه، اجتمع به. أخذوا محمود».

ارتفع ضجيج القلب بضجيج كل حرف، والصمت صاخب.

المفاجآت تسلبنا طبائعنا المعتادة، كما تسلب الكلمات معناها. تائهًا أمام هول ما لا يستوعب أو يُطيق، تأسره حكايا الجمل غير المفهومة. ما أكثرها في حياته الصغيرة!



معتز

بَعْدُ، لم يجفَّ حبر الورق، ويملؤه اعتزاز، مفعم بقوة غير متناهية.

«ليت جيهان تراني». يتمنى. كل حلم يتحقق، يقربنا بثقة من آخر.

أحلامنا فروع على جذع شجرة حظ. ذراعه جذع شجرة سنط.

***

أحمد

كقبر مفتوح فَمُه. وأنا؟ أنا لم أنضمَّ بعدُ لما حدثني به محمود. نعم، حَدَثَ بيننا تقارب في التفكير.

كل لقاءاتي به تصدمني كنهايات اضطراب الماء عند الحجر. ليتني حجر.

المرة قبل الأخيرة، طلب مني بيانات بطاقتي الشخصية، لأتلقى نيابة عنه حوالة من الإمارات. على الفور رفضت، تعللت بأن بطاقتي سلمتها للجريدة لإنهاء إجراءات القيد بالنقابة، ولا أذكر رقمها.

كذبت عليه. الكذب إشارةٌ ما لشيء مريب.

لقاءاتنا لا يعرف بها غيرنا حسب العهد، محمود مُمعِنٌ في التخفي. أحيانًا كنا نعبر جسر المانسترلي الخشبي، ونمر بمصر القديمة، أو نعبر للجيزة، نقطع الشوارع المتوازية، وتمر ساعات وقد سرنا في أكثر من عشرة شوارع، وبانعطافات مفاجئة.

كانت مفاجئة أيضًا لي لَمْ أعْتَدْها.

عبد الرحمن أدرك منذ البداية أن ثمة شبهًا في الرؤية بيني ومحمود، بل حدث ذات ليلة أنْ فتش مكتبتي كعادته، كعادته التي لم يَنْهَهُ عنها ما يدّعيه من أخلاق السلف، ليلتها وجد كتابًا وبداخله هوامش كتبها محمود بخط يده، وعددًا من مجلة تصدر في «بيشاور»، ولولا العِشرة لخاصمته. سألني: ما هذا؟

لماذا ببلاهة استمعتُ لمحمود ولم أُقَدِّر الخطر؟ ولماذا فتشتَ يا عبد الرحمن؟ أَلَمْ تقرأ: «لا تفتحه.. إنك إنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْه». إنَّا وَلَجْنا ما بأيدينا فتحناه».

***

الشاطئ الغربي

شمس تتكسر على صفحة نهر، هل تحمل إشارة؟ قلبه بعد ما جرّب انكسارًا، ويرفض أن يعرفه، تغيب الشموس.

هل يمكن ألَّا تسطع ثانية؟

شمس تتكسر بقلب يتوه، وأسئلة. صمتٌ تغتاله خطوات

شر متوقع. يتخيل كلٌّ منهما نفسه ذبيحة بحجرة تحقيق. قد يتساهلون، أو يمنعون البطش مع الجميع، إلَّا أمام كلمة واحدة غائبة، وفكر واحد منفجر: «الجهاد».

لا رحمة داخل غرف ظلمة كئيبة.

«تخلص من أي كتاب، شريط كاسيت، ورقة، أي شيء له علاقة بمحمود وفكره. درِّب نفسك على نسيانه؛ حتى إذا سألوك، استقامت الإجابة مع الخداع. عليك أن تقنع نفسك وتخدعها. وكذلك سوف أفعل».

من قلق تنبَّه إلى قلق على نصيحته الحازمة.

من محمود تعلَّم مبادئ التخفي والمناورة، ومع عبد الرحمن سيبدأ بما تعلم. عبثًا لَمْلَمَ شتاته، أكد باطمئنان زائف:

«لا علاقة لي مطلقًا بما تقول. لقاءاتي به لم تتجاوز مرتين أو ثلاثًا، أحدها ببيتك أنت».

ارتجف كالمتوسل:

«بيتك أنت يا صديقي، وأمامك».

والخوف إذ يبدأ، هل له نهاية؟

***

لاظوغلي

داخل الوزارة، وعنها منفصل، لا يكاد يُرَى. مهيب، يكسو أبناءه هيبته، يُطالع العابرين بوجه جليل غامض، يعرف الداخلين إليه، ويكره الناسُ تَخيُّلَ ما فيه. في ذاكرة البعض له موضع ألم. في خاطر الجميع له محل رهبة.

هنا مصر كلها.

له مطلق الاحترام. صمام أمان البلاد، منقذها من الإرهاب الديني؟ أم كما تردد كل مظاهرة وتنادي: «يا مباحث أمن الدولة، أنت مباحث دولة مين؟»؟!

قال الأجداد: «امْشِ جنب الحائط»، فعقّب عابرون: «إلا جنب الجدار المرعب».

على مرمى خطوات ينتصب لاظوغلي باشا، سيد الدهاء في ولاية محمد علي. أوعز إلى الباشا بعشاء الذبح للماليك، عاليًا يقف بكامل أُبَّهته، موفور الهندام. بشماله يقبض على سيفه فوق مصطبته. تزعجه عوادم العابرين، يستغرب كيف تغير العباد؟ ومن أين كل هذا الازدحام؟ لا يزال الصنم الأعمى على ولائه للوالي، ينظر من عَلٍ. يشير بسبابته اليمنى لأسفل.

تُرى هل اكتشف مؤامرة؟

لو تكلم لاظوغلي، لسكت فورًا كل المماليك، وهرب الحرافيش

للخرابات.

المضحك أن التمثال لسقَّاء مصري فقير وليس للباشا الحقيقي!

في مصر وحدها تُتبادَل الأدوار، ويلعب لاظوغلي باشا أدوار الجميع.

***

هنا مصر مؤرشفة، في أقبية لا تطول رفوفَها عادياتُ غبار إبريل، ولا يزينها ربيعه. بكل مكتب مؤشر حرارة لتوقُّع الخطر في جهةٍ ما. كل ضابط يراقب ويحدد هدفًا خطرًا. يقولُ من يحبون أن نسميهم بالمثقفين من كل الاتجاهات:

«الخطر أن يتحول أمن الدولة إلى أمن نظام قد يتغير».

الواقع أن كل شيء بمصر قابل للتغيير - يُخيَّل للناس- إلا النظام.

***

الشاطئ الغربي

فصل من النصيحة، وفصول من غياب الكلام، دقائق كدهر تتعلق بشمس هاربة. كرَّر علي سمعه ضرورة ألَّا يبيت بمكان واحد، ملتحفًا بأُهبة حَذِرٍ. أن يستعين بالاستغفار، ويلهث بدعاء

يونس ليلَ نهار، أن يرتب إجاباته لو وقع المحذور.

«لا قدر الله. عندهم لا محظور».

لحق عبد الرحمن جملة وقوع المحذور بنبرة مستجير:

«ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا. أُقْسِمُ لك يا أحمد، أعاهدك أمام الله، أني لن أذكر اسمك أبدًا، لو وقع - لا قدر الله- شر.. حياتي دونك».

إلى من يوجه كلماته؟ لصديقه، أم نفسه يعني ويعزيها؟ هل يعاهد صاحبه؟ أم بدوره يرتجي عهدًا؟

هل ملحمة تبدأ؟ رحلة لا تنتهي؟ مشوارُ قلقٍ إنْ نَبَتَ فلا جفاف لسيقانه.

هل للصبر أدوية تُباع؟

***

أحمد

انتبهنا بمكبرات المساجد تغتال يومًا، ومغرب يجثمُ كطائر موت. كانت ملائكة تهبط بهدوء ترسم طريق ابتلاء، وأول درس محن. هل حقًا رأيتها؟ أم بشتات وهمٍ قبضتُ على حفنة يقين؟

الليل ستار.

***

«الله أكبر والعزة والكمال لله»، بالصمت ثَوَّبْتُ خلف المؤذن. صلينا المغرب، لعله الاجتراء الأخير على الصلاة علانية. زمن الهجرة الأولى يعود. ختمنا الصلاة بلسان واحد يسأل اللطف. مَضَيْنا دون وداع.

***

اختفى ظِلُّ عبد الرحمن ثقيلًا، وبثقيل همٍّ عُدْتُ لذات المكان، لعل ما حدث قبل ساعتين لم يكن، لعله كان وهمًا. لعل محمود شبحٌ. لعلني في زمن آخر ومكان آخر. لعلني أنا لست أنا، ولا هنا. بقوةٍ، قبضت بكفي على فخذي لعلّني لن أُحس، وبالتالي فأنا لست أنا. أحسست.

سترك يا رب.

***

لاظوغلي

«فرقة أمن الدولة». حياة جديدة، تتطلب شخصية مميزة.

«لا وقت للّعب، كل شيء بحساب، وكل علاقة بميزان، مجال النشاط، كل شيء. كل صغيرة وكل كبيرة مهمة. تَوَقُّعُ الخطر، توقع الفِعل، تقديرُ رد الفعل قبل وقوع الفعل. البلد في خطر، علاجها المجرب، معادلة لا تخيب، مجربة، ومتراكمة منذ إنشاء

قلم البوليس السياسي قبل ثورة يوليو، الحفاظ على حالة التوازن الطبيعية الموجودة داخل المجتمع».

استمر المحاضر:

«على سبيل المثال، لا يمكن محو الإخوان، ليست استراتيجيتنا القضاء عليهم تمامًا. أيضًا يجب أن يظلُّوا في حدود المسموح، والمحسوب بدقة. لو علا صوت الكنيسة، أو قام رعاياها باستعراض للقوة، أو الاستقواء بالخارج، فلا مانع من الدفع بالإخوان بحساب. لا ضرر من منح الجماعة المتطرفة مساحةَ تحرُّكٍ، الشر يواجَه بعكسه، لكل تطرفٍ تطرفٌ يواجهه.

لو نشط الشيوعيون، فالطريق مجربة معروفة: الإعلان عن ضبط تنظيم، وتجهيز قضية لمجموعة منهم، فيخاف كل المثقفين ويعودون لحجمهم الطبيعي المطلوب.

لو تمادَى الإخوان، فلدينا السلفيون، نفسح لهم المساجد، ونغضُّ الطرف عن تدفق الأموال من الخليج، مع رصدها لوقت الحاجة، ونتركهم يغرقون من طبق فتة الدعوة.

حتى رجال الأعمال، لا أحد يطغى ويحتكر، وعلى الجميع السير في مضمار مصلحة الدولة العليا، كما تحددها القيادة السياسية، لو خرج أحدهم عن الطريق، دفعنا بآخر.

لا أحد كبير، هذه هي آليات اللعبة السياسية، لعبة المواءمات والتوازنات؛ حتى تظل مصر آمنة.

الحقيقة السياسية والأمنية المتفق عليها والمسلَّم بها،

أنه لا يمكن مطلقًا استئصال فكر أو تجفيف منابعه، الأفكار بالرءوس، الرءوس يمكننا الدقُّ عليها، لكن حتى مع الدقّ، يبقى برءوس البعض معتقدات ضارة لا يصلح معها التعنيف، لو تركناها ستنطلق وتُعدي آخرين محيطين ومهيَّئين لتلقى الفكر المريض.

دورنا هنا، العزل بالاعتقال لفترة، حتى يظهر تمامًا أنه لا خطر من تلك الرأس.

الاستئصال كلمة لا تُستعمل إلا في حالة واحدة، حالة العنف، حالة الإرهاب، أكثر الذين يحملون هذا الفكر هم مجموعات متناثرة كلها تلتقي تحت فكر الجهاد أو ممارسات التكفير. ثم إن عنفهم في بعض الأحيان مفيدٌ لنا، فهو يمنحنا تفسير كل إجراء نتخذه لضبط الإيقاع العام، وحفظ الجميع داخل نطاق السيطرة».

انتهت المحاضرة التمهيدية، مقدمة عامة، والتفاصيل في دورات كثيرة، وسيحضر الضباط الأصاغر بعض التحقيقات الجارية كتطبيق عملي.

***

أحمد

لساعة بقيت وحدي أراجع شريط معرفتي بمحمود:

صديقي؟ لا.

لا، لم تكن بيننا صداقة. قررناها أُخُوَّةً في الله. أو للدقة، قررها هو، واستجبت بشغف، بحب استطلاع، بدعوَى التفتيش عن شيء ما، مثير، قريب من تفكيري، لكنه أيضًا مخيف.

عادة الفتوة الدخول بقوة، وديدن الإخلاص التمسك بكل أمل في طريق.

قبل شهور رتب عبد الرحمن ببيته غداء.

دمياطي ذكي، ودود، ذو قسمات جميلة أقرب لفتاة، منذ كلماته الأولى راق لي أسلوبه ونظامه. يتكلم كأنه يقرأ من ورقة أمامه. ينتقي ألفاظه، يسردها جملًا متتابعة. له إقناع ومنطق.

على الغداء قدم بيده قطعة لحم، شكرته، قلت: «الطعام أمامي»، أَصَرَّ بأدب.

بعد دقائق ناولني أخرى. أبديت اندهاشي:

– كأنك تطعم ولدك الصغير

– تهادوا تحابوا.

***

لاظوغلي

قال المحاضر:

«المشكلة الأساسية هي في مصطلح الجهاد، الجهاد كلمة عظيمة، وهي من أساسيات الدين الحنيف، لا يسع أحدًا إنكارُ ذلك، لكن الشطط في أية فكرة، هو سبب كل المشاكل، الشطط أبو الشرور، كل الجماعات الإسلامية متفقة على الجهاد، لكن بينهم مراحل من الخلاف والتفسير. حتى أيام الرسول الكريم ﷺ كان هناك متشددون، وهناك حديث عن الذي أراد ألّا يتزوج وأن يقيم الليل ولا ينام.. ونهاهم الرسول".

***

قال المحاضر.. أو اتفق كل المحاضرين على جملة واحدة، دخلت نفوسهم:

«نحن جنود، نحمل أرواحنا على الأكُفِّ لحفظ أمن هذه البلد العظيمة».

بحماس أُشْرِبوها وبشغف.

***

أحمد

شغفني الصحافي صادف غموض محمود، وأفكاره لاقت فراغًا تعزف به ريح أسئلة. قلت:

«أفكاره جديدة. وراءه حكاية».

مع أن الكلام كان عاديًّا لا يتعدى قضايا الأدب الذي شاركني الاهتمام به، وحكايات مصر وأحوالها.

تمامًا هذا هو المدخل.. جسُّ نبض الأخ الذي تحاول دعوته، وإثارة معارضته السياسية وغضبه من نظام الحكم.. كان واضحَ الاطلاع، مدرَّبًا على التجنيد.

***

طريقته بدت مناسبة. أو هي تناسب كل اختلافاتي مع عبد الرحمن، الذي يؤمن أن العلم الشرعي غاية وهدف، وأن التغيير ليس بيدنا، فقط علينا أن نتعلم، وأن نسير إلى رب العالمين كما سار السلف الصالح.

تكرر لقاء ببيت عبد الرحمن. وخارجه جرت وقائع.

ليتها ما كانت ولا كنَّا.

***

أول مقابلة بيننا بعيدًا عن بيت عبد الرحمن، في صلاة جمعة

بيوم شديد البرد، في شتاء عام اثنين وتسعين، ولم يكن قد مر أسبوعان على تعارفنا. على عجل تقاربنا، وبطريقة مثيرة كانت المواعيد، كل أربعاء عقب صلاة المغرب بأحد المساجد القريبة، وكل موعد نتفق على مسجد الأربعاء التالي.

***

بعد شهرين زارني للمرة الأولى بالبيت.. بمجرد الجلوس وأثناء تقديمي الشاي، قام إلى جهاز الراديو الصغير، أداره.. كانت الإشارة ثابتة على إذاعة القرآن الكريم. راح يتنقل بين أغنيات وأخبار. توقف على حوار في البرنامج العام، ما زلت أذكره. كان مع العالم المصري المعروف رشدي سعيد، يتحدث عن نهر النيل.

«الراديو يا أخ أحمد يجعلك بأمان من التنصُّت. لو أراد أحدهم التجسس فلن يتمكن من تداخل الأصوات».

في البداية، استغربت من طريقته الممعنة في التخفي والمناورة، ثم اعتدتُ تلك الطريقة وأمعنت في السير عليها، وقد تركتْ على خطواتي بصمتها.

أهداني كتبًا عرفت فيما بعد أنها تُقرأ بترتيب مقصود وبتدرج محترف، فبعد «واقعنا المعاصر» أعطاني كتابًا خفيفًا بعنوان «عندما ترعى الذئاب الغنم»، قرأته ونسيته في اليوم التالي، وبعدها «معالم في الطريق»، ثم أهداني ثلاثة كتب دفعة واحدة، تتحدث عن الجاسوسية، وكيف تعمل أجهزة المخابرات، ثم

أمدني بمجموعة كتب تنتقد منهج الإخوان في التغيير، وبتحريم دخول مجلس الشعب، لأنه هيئة تشريعية، مع أن التشريع هو ملك خالص وخاص وحصري لله.

أحيانًا كنت أفكر كيف لجماعة ما أن تهاجم بقية الجماعات، ثم أزداد حيرة وأنا أرى كل جماعة من «بقية تلك الجماعات» تهاجم كل جماعة غيرها.

سألته مرة عن ذلك:

– جماعتنا على الحق.

– جماعتنا؟ أنا لا زلت وحدي.

– غدًا بإذن الله، قريبًا بعد فترة التأهيل، تتلو البيعة.

– أي بيعة؟

– لا تستبق الأحداث.

– طيب، أي جماعة؟

– لا تستبق الأحداث.

– طيب، أيٌّ أيٍّ؟

– أخي الكريم، صدقني إننا نتبع مبدأ قرآنيًا عظيمًا، تذكَّرْ قول الله تعالى لموسى عليه السلام:]وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي[.

– يا أخي، هذا الله تعالى، وذلك كان موسى!

– نعم، لم أقصد. أقصد: لو تأملنا قصة موسى، لتعجبنا كيف بدأت معه طفلًا رضيعًا مُلْقًى بالنهر، ثم تربيته في بيت الفرعون، وقتله للمصري، حتى بعثه وخروجه بقومه. مرحلة زمنية مهمة تستغرق جملة:]وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي[. أرجوك لا تتعجل، فربما قد لا نتفق، وإذا اتفقنا فعند الصباح يحمد القومُ السُّرَى.

«لا يجب، وليس من مصلحتك، أن تعرف أسماء أو أشياء ليس هذا بوقتها مطلقًا».

راح يتفرَّس استجابة ملامحي:

"يا أخ أحمد،]وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي[. تذكَّرْ".

كيف لم أُعلِّق؟ الصراحة، مستني قناعة.

***

لاظوغلي

ضباط أمن الدولة لديهم قناعة قد تهتز في لحظات، لكنها تعود ثابتة، بأنهم يحاربون أعداء بلد التاريخ، المحوط بحسد الجغرافيا. في تلك الدورة يتم إعادة ترتيب الأفكار، وتهيئة الاستعداد لطريقة العمل الجديدة.

«بعض المثقفين اليساريين يعتبرونها عملية غسيل مخ».

قال المحاضر:

«فلْيُسَمُّوها بما شاءوا، فنحن أقسمنا بالله العظيم على حفظ أمن هذه الدولة العريقة».

خرج معتز يحمله حماس ويدفعه لاستكمال مشواره مع جيهان.

***

أحمد

آخر كتابين أخذتهما من محمود يوسف، لم يكونا عاديين، أحدهما صعب وطويل، وممل أيضًا، والثاني أقرب إلى لغم يريد أن ينفجر، الأول مجلد ضخم قارب السبعمائة صفحة من القطع المتوسط بعنوان طويل: «العمدة في إعداد العدة للجهاد في سبيل الله».

الثاني كان مشكلة، قنبلة، فتيلة مبتلَّة بنفط، شديد الحنق على جماعة الإخوان المسلمين.

في آخر ليلة التقيته، وقبل أن يُحَمِّلَني ما حَمَّلَني، علَّقت على ذلك: «الحصاد المر».

– إنه مُرّ.

– ما رأيك؟

— قلت لك رأيي. إنه مر، مليء بحقد على جماعة المفترض أنها شريكة في كفاح الدعوة، وإن اختلفت الرؤى.

— أليس ما فيه حقيقيًّا؟

بل ما فيه تَرَصُّد.

— الإخوان خالفوا فكرة مؤسس دعوتهم. انتقلوا عن القاعدة الأساسية التي لا يمكن التنازل عنها، لقد شاركوا الحاكم الكافر في مظاهر الكفر.

— ربما هو اجتهاد.

— هل مع الأصول اجتهاد؟ ثم إن الكتاب كما في المقدمة مجرد نصيحة، من باب "الدين النصيحة".

— كيف نصيحة، وهو يُفَسِّق، بل يُكَفِّر الإخوان في مواضع كثيرة منه. يا أخي، هو يرمي "حسن البنا" نفسه بالنفاق.

— هو لم يقل ذلك.

— بل لف حوله، خذ.

وفتحت الكتاب أو الملزمة ورحت أقرأ أمامه:

"... البنا كان يُمْلِي على طلبته موضوعات في الثناء على الملك ويُعدِّد مآثره، كما أنه دفع العمال يوم مرور الملك بالإسماعيلية إلى تحيته، وقال لهم: لازم تذهبوا إلى الأرصفة وتحيوا الملك، حتى يفهم الأجانب في هذه البلد أننا نحترم ملكنا ونحبه، فيزيد

احترامنا عندهم. وكان ذلك دافعًا لأنْ يكتب أحد رجال البوليس تقريرًا بهذه المناسبة، يقترح فيه تشجيع الحكومة للجماعة، وتعميمَ فروعها في البلاد".

قلت بعدها:

– ربما هذا من باب التمهيد لطريق الدعوة، وليس نفاقًا.

– كيف والملك لا يحكم بشرع الله، يقول لمنافق: "سيدي" ويُبَجِّلُه؟ هل يجوز ذلك؟

– الأمور وقتها لم تكن بهذا السواد الذي هي عليه الآن.

– طيب، دَعْكَ من هذا، ما رأيك في..

استلم الكتاب وقلب بضعة صفحات بغير تأنٍّ، لدرجة أني تخيلت أنه يحفظه، ثم توقف:

"... تقول "مجلة المجتمع" الإخوانية: (إنه ليس هناك حرج شرعي من إنشاء حزب سياسي على مبادئ الإسلام، فالإمام الشهيد حسن البنا – مؤسس الجماعة – خاض المعركة الانتخابية مرتين، والإمام الهضيبي رحمه الله، قد وافق قبل الصدام مع عبد الناصر على مبدأ إنشاء حزب سياسي)، وهذا الكلام يبيِّن فساد طرق الاستدلال الشرعي عند الإخوان؛ فالحجة عندهم في أعمال مرشدهم، لا في الكتاب والسنة".

تخيلت أنه توقف، وقبل ردّي استدرك، كأنه وقع على كنز:

– انظر أيضًا: «بيان: (ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين) حاول

النظام الخاص أن يحرق أوراق قضية السيارة الجيب، فكلف شفيق أنس بوضع قنبلة حارقة بجانب دولاب حفظ أوراق القضية، ولكن القنبلة اكتُشِفَت، فأصدر حسن البنا بيانًا يتبرأ فيه من العملية، بعنوان (ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين)، ويقول فيه إن الذين فعلوا هذا ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين، ولا يستحقون شرف المواطنة المصرية».

نشط بسرعة باحث، قفز سطرًا بعد آخر حتى توقف عند:

"وهكذا أصدر حسن البنا البيان الأول، وتنازل فيه - كما اعترف الإخوان أنفسهم- طمعًا في الإفراج عن المعتقلين، ولكن الحكومة استغلت البيان الذي صوَّر أعداء الإسلام بصورة أولياء الله الصالحين، في تحطيم أعصاب عبد المجيد أحمد حسن - باعتراف الإخوان- حتى أصبح أداة طيِّعة في يد البوليس السياسي للاعتراف على إخوانه، ثم تنازل حسن البنا مرة ثانية، فأصدر البيان الثاني (ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين)، فأخرج تلاميذَه من الإسلام. ومن الطريف أن الإخوان لا يَمَلُّون من قولهم إنهم لا يُكَفِّرون أحدًا".

طوى الكتاب وسبابته اليسرى لا تزال على نفس الصفحة، وبنبرة متأكد من أمره:

— يا أخ أحمد، هل رأيت كيف نافق البنا الملك، ثم الحكومة، بالتبرؤ من مجاهدين أرادوا استهداف دار محكمة تحكم بشرع نابليون؟ هل رأيت كيف باعهم لقمة سائغة؟ نفس المنطق يتبعه الإخوان الآن مع بقية الجماعات، لم يصدروا

تعليقًا يتيمًا عن شهداء الإخوة في الصعيد، بل ندَّدوا بقتل السادات.

– هذه سياسة.

– طيب، وهل من السياسة موالاة النصارى وتهنئتهم في أعيادهم؟ بل ذهاب كبار الإخوان إلى الكنائس لالتماس رضا البابا الكافر الذي يدَّعي أن المسيح هو الله؟

تذكرت أنني قبل شهرين هنأت أم صديقي الطبيب المسيحي بعيد القيامة، فحاولت تغيير نقطة النقاش.

- دعك من هذه المسألة الشكلية، لكنَّ للإخوان تاريخًا في الجهاد بفلسطين وضد الاحتلال البريطاني.

- وكثير من الأحزاب السياسية في ذلك الوقت أيضًا حاربت الاحتلال، لكن لا يمكن أن تعتبر تهنئة النصارى مسألة عادية شكلية.

فتح الكتاب، قلب بين الصفحات، ثم نسي قصة تهنئة الأقباط وهو يقرأ اسم إخواني من منطقتي:

- نعم، انظر أيضًا هذا الذي يتزعم الإخوان في منيل الروضة، الحاج حسن الجمل.

– ليس له ذكر في الكتاب.

– أنت إذن لم تقرأ الكتاب كاملًا، أو قرأته بغير اهتمام "قالها بتعنيف هادئ".

– اسمع يا سيدي:

«يقول حسن الجمل وهو يندد بمحاولة اغتيال عدو الله (حسن أبو باشا وزير الداخلية المجرم السابق): إن الحكومة تخلط بين التيار الإسلامي ممثلًا في الإخوان المسلمين وبين بعض الجماعات الأخرى، وتعتبرهم اتجاهًا واحدًا»، وهذا عصام العريان فتاهم المثقف، النجم الصاعد في سماء الإخوان، المجدد لمدرسة التلمساني يقول: (إن هذا الحادث غريب على مصر وعلى طبيعة الشعب المصري، وهو حادث غير مقبول مهما قيل من أنه تصفية حسابات، أو معالجة لمواقف سابقة، هي جريمة نكراء لا يستطيع أي منصف أن يلتمس لها مبررًا أو يدافع عنها)».

التفت إليَّ ناصحًا:

– يا أخ أحمد، لو استمعت لحكايا الإخوة الذين عذبهم حسن أبو باشا، لعلمت مقدار جريمة الإخوان الذين ينافقون ويندددون باستهدافه.

– يا أخ محمود، حتى لو اتفقنا على كل ذلك، فليس معنى هذا تفسيقهم وإخراجهم من الملة.

قبل أن ييأس من الحوار، فضَّل أن نُهمله كأنه ليس نقطة

خلافية بيننا، كان ذكيًّا في التنقل بين السطور، فالتقطت أنا طرف الخيط هذه المرة لعلّي أنتقل من نقطة سوداء لا أريدها أن تعطل تطلعاتي لبقية أفكاره، لكن ظلت في حلقي مرارة من الحصاد المر.

مُرًّا كان بحق. لم أبتلعه.

- يا أخي الفاضل، لم أكن يومًا راضيًا عن أداء الإخوان، أعتبر أن تكالبهم على مجلس الشعب والنقابات، يمنح أجهزة الأمن فرصة عظيمة لاصطياد شبابهم، إنهم يعلفون الشباب ثم يدفعون بهم لمعارك لا قيمة لها، فيقعون فريسة سهلة في يد جلّاد لا يرحم. لكن على أي حال لا يمكن انتقادهم لحد التعريض بتهمة الكفر. عمومًا دعنا من هذا، أنت قلت إن هناك أمرًا مهمًّا؟

ليتني ما سألته!

***

لاظوغلي

صلاحيات بعيدة، وأخطار أبعد، بلغت الذروة مرات. لا ينسى الضباط القدامى مقتل السادات، وقتها لم يكن خطر الإرهاب كما هو اليوم. تقدمت أساليب المواجهة والإحاطة، فتطورت

بالمقابل المخاطر.

الذروة الخطيرة مثلت المواجهة الأكثر دموية في تاريخ الجهاز، جاءت مع ريح الرصاص، ودوي مواجهة تسعينيات الصعيد. استحق عقد التسعينيات، رغم حوادث القاهرة، أن يُسمى بجدارة عقد الصعيد، الصعيد له سِنُونَ من العنف. لكن عنف تلك الفترة التي لا زالت مستمرة، مختلف.

السياحة ماتت أو قاربت، المصدر الثاني للدخل، المدخل المباشر لملايين المصريين، الكسب غير المباشر للملايين الباقية، دخل ما بعد اليأس.

بدأت بخلاف على أرض في ديروط بين مسلم ومسيحي، معادلة معملية معروفة لنار لا تنطفئ في قريب عاجل، تدخل الأمن فانتقلت المعركة للسياحة، وانشغلت الدروس المسجدية بجدل الحلال والحرام في زيارات المعابد وتقديم الخمور. عرفت الجماعة الإسلامية أين يكمن مَرْمَى وجع النظام فاستهدفته. الفتاوى إذا ذُكر فيها النصارى واليهود والأمريكان، فهي شرائط مسجلة سلفًا، وموقوتة لساعة انفجار قادمة، أو فورًا.

دور ضباط الجهاز المعني بالقضية، تعدَّى المراقبة والتقارير والاستجواب والتحقيق العادي والمُعَنِّف، إلى أدوار المواجهة المباشرة، سلاح مقابل سلاح، ونفس إزاء نفس.

حينما تتعرض للقتل وأنت تقاتل، فلابد أن تراجع عقيدة القتال.

تكررت محاضرات، كانت دورية كل مدة، لكن كان لا بد من تكثيفها في ظل الأحداث. يحضر شيوخ معروفون بينهم مفتي الديار، كان الشعور خلالها كطيران في فضاء رحب. ثلج يغزو الضمير، ويهدِّئ البال:

«أنتم على الدين الحق» أكد المفتي.

***

أحمد

غاب عبد الرحمن وبقيت بمكاني، أطلت صورة محمود، وغابت شمس، سبحت كائنات بدخول ليل. مرت ساعة ونودي للعشاء وأنا واقف أنظر في صفحة ماء سوداء تشير لقادمِ أيامي.

قطعت شوارع جزيرتي، غالبت بعض الخوف التماسًا لمعيَّة ربي، صليت العشاء بزاوية تلامس مياه البحر الصغير بجوار المعدية، قضيت الصلاة وزقزقت تسابيح ختام. أغلب المصلين شيوخ ينتظرون أمر الله المقدور.

«طُوبَى لمن ابْيَضَّ شعره وقد غلبت عبادتُه عوائدَه».

حسدتهم.

***

لاظوغلي

استمرت محاضرة المفتي بتركيز الحضور:

«نحن نطبق تعاليم الدين كما ينبغي، أو أقل مما ينبغي. طاعة ولي الأمر واجبة. لا يجوز الخروج عليه بحال من الأحوال. الخارجون على حاكم مسلم، حتى لو كان فاسقًا ويشرب الخمر ولا يصلي، هم الخوارج، كالذين قتلوا الإمام عليًا وهو يصلي.

حذرنا منهم الرسولُ ﷺ . وصفهم بأنه يُصلون الليل، يجتهدون في العبادة، يقرأون القرآن ويحفظونه، لكنه لا يغادر تراقيَهم، يعني عظام الصدر، لا يدخل القلبَ. يتمسكون بالسقاسف، الأمور البسيطة، ويضخمون حولها الخلاف، ويُكَفِّرون الناس بالذنب. طُوبَى لمن قتلهم".

تفاعل الضباط والمفتي يردد بثقة ينتظرونها:

"يا أبنائي، أنتم في رباط، تواجهون خوارج، قُطَّاع طرق يستأهلون حد الحرابة. لو طبقنا ما يدعون إليه – جاهلين- من تحكيم الشريعة، فلا خلاف على وجوب قطع أيديهم وأرجلهم من خِلاف أو نَفْيهم من الأرض.

الدولة حريصة أكثر منهم على شرع الله، نعاملهم بالقانون والرحمة، فنطبق فيهم أحكامًا لا تتعدَّى السجن أو الإعدام للقاتلين.

الذي يقاتلك بحجة أنك كافر وهو المسلم، خارج على شرع

الله، الإيمان والكفر محلُّه القلب، هل اطَّلع أحدٌ على ما في القلوب؟ القلوب وما فيها من الغيبيات التي لا يعلمها غير الله سبحانه.

أنتم تحافظون على أمن هذه الدولة العريقة، وتمنعونها من المفاهيم المغلوطة المنحرفة، التي لو فشت، تصدَّعت مصر وأصابها زلزالُ فوضى".

كلُ قتلٍ، باسْمِ الله.

***

أحمد

ختمت الصلاة وأديت بخشوع ركعتين، التجأت لمن لا يُغلَق بابُه، ومن هو فوق عرشه كان، حيث لم يكن شيء، ناديت في سجودي، سجد قلبي، كاد ينخلع، لا نجاة من الخوف إلا بالارتكان إلى من خلق الأمن والخوف، ربي سبحانه.

«يا ربّ، لا ملجأ منك إلا إليك. طريقك سكة ابتلاء، وأنا ضعيف لا أحتمل سجنًا وعذابًا. باسمك الأعظم أَحْتَمِي، لا تجعل لأمن الدولة إليَّ سبيلًا».

ردَّدت ثانية وثالثة وربما رابعة: «يا لطيف، يا من هو هو، باسْمِكَ الأعظم أحتمي، باسمك الأعظم أقسم عليك بك، أَجِرْني منهم. أمِّنّي».

***

أومأت برأسي شمالًا في سلام الصلاة، ومسحت دمعي، لمحته يراقبني بعطف، شيخ مُسِنٌّ شديد السمرة، ابتسم حتى ضاقت عيناه وتقطب جبينه.

«يا شاب، الدنيا أمامك، رسالتك وصلت مولاك»، كأني سمعته.

شغلني، وبينا أربط حذائي مسَّتْني طُمأنينة، تنسمت حفظ ربي ورعايته.

وبدخان أفران القُللية يكسو بأحزان، مضيت ماشيًا فعبرت للجيزة. إلى لا مكان.

بعد ثلاث ساعات تقريبًا عُدْتُ للبيت أنظف آثار محمود.

كل بقاياه، غير واحدة ثقيلة!

***

عبد الرحمن

ترك أحمد وغاب على مقهى قريب، انتصف الليل ولم يؤدِّ فرض العتمة الأخيرة.

راعَهُ غراب واقف على سور الحديقة، وجُّه الطائر الكالح طلقة شؤم، استعاذ بالله. تفحص السماء، لم يكن قمر بها، ولا شبح نجم، لم يكن للأفق أثر. دخان أفران الفخار غطًى فوق

القسطاط، وامتد لمنيل الروضة.

قطع الحديقة الصغيرة. تأنَّى في إخراج سلسلة المفاتيح. توجه لخرطوم المياه. لم تكن الحديقة بحاجة للري في ليلٍ مشوبٍ بلفحة باردة. في حاجة ماسة للتوهان. لشيء يُمضي به الوقت. لا يريد أن يفتح البيت فيفاجأ باللاأحد. ماتت أمه قبل شهر، فكيف انفتحت كوة كوارث؟

«هل عائشة كانت حائط الصد المنيع.. بعد عائشة تُربينا الرياح وتذرونا».

تساءلَ والماء يفيض بحوض شجرة (أكاسيا نودوزا) غرسها قبل عام. فاض قلبه أسى. ستكبر الشجرة، وستكبر الجراح.. وكل يوم مفجع برحيل أمه.

لن تستظل عائشة بالأكاسيا.. لن تلمح زهرها الأحمر، أو توجهه لتقليمها. حنَّ لتقليمها أظافره طفلًا. لن يزعجها وجع صغيرها. كمْ حذرته من كثرة زائريه ومعارفه. قال: «يا أمّ، كثرة الإخوان نافعة، وبيتنا بيت كرم».

مصمصت شفتيها. تَلَتْ عليه واحدًا من عشرات الأمثال الشعبية التي سمعها مرارًا وتكرارًا:

«قال له موت يابا، علشان تشرفني.. قال له: يابني لما يموت اللي يعرفني».

ردد المثل، تمنَّى لو يموت محمود في أقبية أمن الدولة، تمناها بحنق لا يلومه عليه ضميره. هو سبب كل هذا القلق.

استعاذ بالله:

«لو يُحْكَم على محمود بالإعدام سريعًا، يُريح ويستريح. لو مات لما فطنوا لي، ولا لأحمد».

همس لنفسه بصوت مسموع. أجابته أمه كأن الحديث أمس القريب:

«يا عُبيد، جدك عاش ومات كريمًا، وتعرض لمأساة لم تطل. صومعة قمحه ورث جوارها مقعدة كانت قبلة للجميع، يتسامر الرجال فيها ويدخنون. وجد الغرباء بها أُنسًا وضيافة. لم يكن يتفقد حقائقهم، كان تاركها مثلك على الله. حتى فوجئ بالمأمور ورجاله يُغِيرون عليها ويقلبونها رأسًا على عقب، ثم استخرجوا جنيهات ذهبية مسروقة، لولا فضل الله لشالها، فقد أقر السارق وكان غريبًا عن البلد، أنه دسَّها دون علم جدك. احذر الناس يا صغيري. لا تأمن كل غريب».

***

اقترب من الأكاسيا، غاص في وحل يحوطها، كلَّمَ الشجرةَ الرفيعة:

«كأنك يا أمي، كنتِ تعلمين بما وراء محمود من خطر. يوم حدثتك عنه، لم تُبدِي ارتياحًا، الله يرحمك ويرحمني».

أسكتَ خرير المياه، دخل شقة أمست قفرًا بعد زواج أخته، ورحيل نهر مياهٍ، يسميه «عائشة».

نظر لمكتبته الضخمة، فكر لو يُبعد عنها ما قد يكون دليلًا. اكتشف أن كل كتاب فيها دليل على تهمة، وكل التهم ستكون متضادة. لا حلَّ سوى التخلص من المكتبة بكاملها.

همس: « هذا مما تفنَى دونه ليالينا القصيرة».

استلقَى على سرير رتبته أخته في زيارتها شبه اليومية. فتح الجزء الثالث من «البداية والنهاية»، قرأ وخواطر متلاحقة تتقاطر:

«قُتل الحسين ، وعاش ابن أبيه. الحسين لا خلاف أنه كان على الحق. حذره ابن عباس. فكر لو يُمسك بخناق ابن بنت الرسول ،، حتى لا يخرج للعراق.

الحقُّ دونَ قوة، هزيمةٌ محققة. انتصر ابن زياد ليزيد، هم يمثلون حكومة وجيشًا نظاميًّا ودواوين، يُديرون مصائر العباد، ويُمسكون بقيادة البلاد.

استشهد صاحب الحق. حتى الأطفال الصغار الذين لم يكن لهم حلم بالملك، ذبحتهم مُدية ابن الأشتر. (ستُفطر عندنا يا حسين) صرخت زينب».

بكى عبد الرحمن. تاهت عيونه تفتش السطور عن مصير آل البيت. ارتجف وهو عاجز بين ابن الأشتر وزين العابدين علي بن الحسين:

«.. سيق ما تبقى من آل البيت إلى الحاكم المتغلب القوي. ليس مهمًّا أن تملك الحق. القوة قبل الحق. رعونةٌ أنْ تعاند حكم

الله. أن تكابر أمام مُلكٍ آتاه سبحانه من يشاء. بقيت القوة، ومات صاحب الحق».

وماتت عائشة، سيدة نساء ما تقدم من حياته وما تأخر. طوى الكتاب الثقيل، لكن الأوجاع لم تُطْوَ.

***

أحمد

كل ما يتخيله عبد الرحمن عن علاقتي بمحمود هو ضرر مطلق، لو - لا قدر الله- نطق محمود باسمي، أو كان الأمن متنبهًا ومراقبًا لمحمود قبل اعتقاله، المصيبة التي لا يعرفها عبد الرحمن أكبر من ذلك بكثير.

أين أذهب يا رب؟ وكيف أتصرف؟

الحقيقة، ليست مصيبة واحدة، بل اثنتين أخريين، ثقيلتين كجَندلة قبر، ومشتعلتين.

***

عبد الرحمن

إلى أين؟ لا يعرف. بعجلة خرج (إلى أين؟). إذا ارتفعت فوق الأهداف شعلات الرعب، فإن (إلى أين) تصير هدفًا.

لا طاقة له بالهلاوس. ثانية لمح ذات الغراب. شم نعيقه، لمس دخانًا يسكن ليلًا مذعورًا. ذاب في الخوف.

مشى خطوات بالخارج. عاد لحديقة بيته. اطمأن لرحيل الغراب. أدار المفتاح. بملابسه لم يبدلها، نام متوركًا مخدة القلق.

مخدة طويلة مطرزة بشوك جهنمية.

***

لاظوغلي

في استراحة الغداء بعد محاضرة مفعمة برائحة الإيمان ألقاها فضيلة مفتي الديار، انضم للضباط الجدد أحد قيادات قسم المتطرف «القسم الذي يُعْنَى بكل التوجهات الدينية التي تحملها الجماعات المختلفة». بصحبته أحد الدعاة الجدد، المشهورين والمقربين من شباب الأندية، عرَّفهم إليه، وجرى كلام مؤكدًا لمحاضرة المفتي.

أضاف الداعية أنهم مجرد انتمائهم لهذا الجهاز العظيم، فإنهم في جهاد. ساعات عملهم جهاد، نومهم للراحة بين الفترتين النهارية والمسائية أشبه بسِنَة النوم في معركة. ثم استأذن الداعية لموعد من نائب رئيس الجهاز.

أُذن للعصر، وأقيمت الصلاة. صلى أغلب الحاضرين في ممر

طويل على يساره مكاتب مغلقة. صلى معتز وختم الصلاة وحمد الله على نعمته الجليلة. دهشة عَرَتْهُ بسعادة وهو ينصرف، فالحُصر البلاستيكية مفروشة بأكثر من ممر.

دخل صالة المحاضرات وهو يتأمل الموقف الجديد:

«الرئيس مبارك يصلي الجمعة، ويراه الناس جميعًا في التلفزيون. رئيس الجهاز - كما عرفت- يصلي. الحمد لله كلنا نصلي. من قال إننا أعداء الدين؟! في أعناقنا مصر أمانة، والدين السمح أيضًا. وهؤلاء المتطرفون يحملون تعليمات خارجية بالخراب».

***

أحمد

ثقيلتان وفاجعتان، دم أشك فيه، و»خبيثة»، هكذا سميناها ونحن نضحك لدرء الخوف ليلتها.. وسأبدأ بها:

زيارته الأخيرة لي أشبه بلمحة بصر، سريعة ومرتبكة ومربكة:

– الحذر أساس تحرك الإخوة. وأنت وجه يجب أن يظل غامضًا وغير معروف.

– المفترض أننا متفقان على الحذر.

– لا، المسألة مختلفة بالنسبة لك.

– كيف؟

– مهمتك التي حددتها الجماعة مختلفة كليًّا عن بقية الإخوة.

– يا محمود، اسمح لي، مرة أخرى أسألك: أي جماعة؟ وأي إخوة؟ وأي مهمة تلك التي "حددتها"؟

– ليس لنا اسم محدد، نحمل فكرًا، ونجتمع بطرق غير مباشرة لتحويل التفكير إلى واقع، نبني في الليل ما سوف نفرح به ذات صباح.

– لكن أكيد لكم قيادة، أو لنا قيادة معروفة لك.

– كل ما أعرفه هو قائد مباشر لي ولغيري. ولا أعرف غيري، ولا أعرف من فوق هذا القائد. ولعل ذلك يبعث لك براحة وطُمأنينة. المهم.

– مع أني لست مرتاحًا ولا فاهمًا أو مقتنعًا. لكن هات المهم.

– المهم هو مهمتك، لست معنيًّا بالدعوة، ولا مطلوب منك تجنيد آخرين، ولا حتى تنفيذ أي مهمة. مهمتك مهمتان: الثانية أن تظل في طريقك التي اخترتها أنت.

– أية طريق؟

– طريق الصحافة، أنت صحافي نابه وطموح. يجب أن تستمر هكذا، مهنيًّا واجتماعيًّا، تصبح نارًا تحت رمادهم لا

يشمون حرارتك، حتى يأذن الله بيوم يستخدمك ويستخدمنا فيه.

– أراحتني المهمة الثانية، فعلى الأقل أنا معهم ولست معهم. معهم أمام الله تعالى ولست معهم لو حدث مكروه. كما مست الكلمات أساسًا يقينيًّا لديَّ، وهو أن العجلة شر مطلق في عمر الدول، والصبر مفتاح الفرج. فلا يجب التحرك بصورة صبيانية كما تفعل الجماعة الإسلامية في الصعيد، أو كما فعلوا في القاهرة باستهدافهم وزير الداخلية، فكان القتيل رئيسَ مجلس الشعب، الحادث فتح عليهم عيون الشيطان، ودخلوا في معركة معلوم نهايتها ولو طالت، وبالطبع في غير كفتهم العشوائية. سألته:

– والأولى يا أخ محمود؟

– المهمة الأولى هي مصير الدعوة، مستقبل الحركة، بذرة لا تفسد، أرض بكر لا تبور.

– لا أفهم.

– انتظر، وأرجوك لا تقاطعني. يجب أن تتأكد أنه لا يعرف اسمك أحد غيري وأمير الجماعة في مصر وأميرها في الخارج. حتى قائدي المباشر لا يعرف اسمك، أنت مجرد وصف. واسمك لا يعرفه؟

– أحجية؟

– اسمك كُتب بشيفرة في ظرف مغلق، وكل ما فعله قائدي

المباشر أنه كتب عنوانًا فوق ظرف وطيَّره.

– يعني؟

– يعني أنت في أمان تام.

– يا محمود، ما زلتُ غير مقتنع بأنك لا تعرف أميرك الأخير.

– يا أخي، دعني أكمل، وصدقني من مصلحتك ومصلحتي ومصلحة الجميع ألَّا تعرف أحدًا. ودعني أكمل، أرجوك. تمت مراقبتك من الجماعة، ثبت إخلاصك.

– لا، لا اسمح لي، الجماعة راقبتني وهي لا تعرفني؟

– لا تقلق، مراقبتك لم تكن تقليدية، ليست مراقبة، ربما أكون أخطأت التعبير، قصدت أن ما وصلهم عنك، اشْتَمَّ منه الأميران أنك عنصر مهم يُعتمد عليه، مخلص – ولا نزكيك على الله- تمثل أملًا في مستقبل الجماعة والجهاد في سبيل الله. والمتيقن لدى القيادة أن لك دورًا لم يَحِنْ بعد، حتى أنا لا أعرف ما طبيعة هذا الدور ولا محتوى ما بين يدي!

لم أنتبه لحمله صندوقًا متوسْط الحجم، ملفوفًا بشريط لاصق بإحكام، وضعه بجواره على الكنبة الاستامبوللي، ثم سحبه برفق وأزاح كتابًا على طاولة صغيرة بيننا، وأراح صندوقه.

– ما هذا؟

– انتظر، وأرجوك لا تقاطعني، فلديَّ موعد مهم آخر. المهمة الأولى يا أخ أحمد هي الدور الذي حدثتك عنه، وله وقته.

– دعك من "وقته" لكن ما هو الدور؟ أحتاج توضيحًا.

– هذه الأمانة هي دورك الكبير، هي مهمتك الأولى، الخطيرة والمصيرية.

– وما فيها؟

– لا أعرف.

– كيف، وهي في يديك؟

– صدقني وثِقْ بي، أنا حتى لا يحق لي التكهن بما فيها.

– لا يمكن أن أسير كالأعمى، وأكيد أنك فكرت فيما فيها، وفي شكل هذا الدور.

– لو جاز لي ذلك، مع أنه – كما قلت لك- لا يجوز، فأعتقد أنه دور يمثل تأمينًا للجماعة كلها، في حال أصابها ضرر بالغ، لا قدر الله.

– يا أخ محمود، ماذا في هذا الصندوق؟

– يا أخ أحمد، كل ما يمكنني قوله، أو كل ما أمكنني معرفته لمجرد طمأنتك، توقعًا لهذا الحوار الدائر الآن، هو أن الصندوق لا يحوي غير أوراق، ولا يحق لك فتح الصندوق إلا في حال الاضطرار الأمني فقط. دون فتح الكيس داخله.

– أنت تقول ألغازًا.

– باختصار، هذه أمانة تُسَلَّم إلى من يطلبها بكلمة سر

خلال خمس سنوات من الآن.

– وبعد السنوات الخمس إن لم يأتِ أحد؟

– أكيد أن أحدًا سيأتيك. وإلا فدورك المهم أن تفتحها وتنفذ ورقة تعليمات بها، وفقًا لباقي ما فيها.

– لم يُمهلني فرصة رد، تنهد بحزن:

– يجب الحفاظ عليها كالحفاظ على الحياة، فهي باختصار - حسب ما تكهنت به- خزنة بذور لم يَحِنْ زمن غرسها.

– أخي الفاضل، لن أقبلها.

– هذا أمر قد فرغنا منه.

– كيف فرغنا منه؟

– يا أخ أحمد، تذكَّرْ كل كلامنا، كل بكائنا على الخلافة الضائعة، نحيبنا على شرع الله الغائب، حسرتنا على ركوب سفلة رعاع على رقابنا، مصيبتنا في غياب دين الله، وهوان المسلمين.

«اضطربت».

– ما لي وللأمانات! لقد عُرضت على السماوات والأرض والجبال فأَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها، فلماذا لا تشفقون عليّ؟

كررت عليه ما قلته قبل دقائق ويقلقني:

– هذه الساعة، لا أعرف الجماعة، ولا أعرف اسمًا واحدًا، بل الأدهَى أني بتُّ أشك في اسمك أنت شخصيًّا، قد يكون مستعارًا، حركيًّا.. ولماذا أنا تحديدًا؟ فبعض كلامك - قلتها بغضب- غير مقنع، فلَسْتُ عضوًا حتى هذه اللحظة، ولَسْتُ ملتزمًا كما ينبغي، والوقت غير كافٍ لتحديد أهليتي لهذه الأشياء، ثم كيف أشيل حمولة لا أعرف شيئًا عنها، ولا حتى الجهة التي أتوجه إليها للتسليم؟!

– يا أخ أحمد..

– أرجوك لا تقاطعني أنت هذه المرة. فوق ذلك، نحن لم نصل إلى اتفاق كامل وتغيب عني معلومات أساسية، فكيف تأمرني أن أفتحها بعد خمس سنوات، وأن أنفذ ما فيها، وأمشي على إرشادات تحتويها. كل لقاءاتي معك لا تتعدى سبعة أو ثمانية.. بضع ساعات قضيناها في الكلام.. كيف يستقيم الأمر؟

– لا اعتراض لي على كثير من كلامك.. لكن قد تجري الأمور بما لا تشتهي السفن وبما لم يكن في حسبانها.. لدينا معلومات أن أحد الإخوة مراقَب.. ربما تكون مراقبة عادية لعلاقاته السابقة بإخوة من غيرنا.. وربما لا يكون مراقبًا.. لكن هناك خطرًا أنت بعيد عنه، وأنا أقسم لك بذلك، أنت بعيد عنه تمامًا. وأمَّا معرفتنا بك، فقد رأيت فيك إخلاصًا غير موجود في شيوخ كبار، وهذا كافٍ. فلو -لا قدر الله- كان ما نخاف أن يكون، ستكون بمأمن، وستكون هذه الأمانة كفيلة

بإحداث نقلة نوعية وإحياء حركة كبيرة.. كما قلت لك، أنا لا أعرف ما بها.. لكن اعتبِرْها - كما اعتبرتها أنا- بذرة لو وضعت بأرض أنبتت أشجارًا من الصعب قلعها. ومن واقع لقاءاتنا ومعرفتنا بك، فأنا على يقين كامل بأنك سوف تنفذ ما فيها، ستنفذه باقتناع.

***

سكت لحظات ونطق بثبات: يا أخ أحمد، نشترك كلنا في أصول راسية، الحاكم كافر.. مبارك كافر، وكبار معاونيه وأعضاء حكومته، وأعضاء مجلس الشعب، وضباط أمن الدولة وأمناؤها ومخبروها والمتعاملون معهم. وأن الخلافة قادمة لا محالة.

هذه أصول، من واقع الخبرة قد تجد إخوة آمنوا بذلك، ثم دارت بهم الدنيا ووقعوا في الذنوب بل الكبائر، زنوا، شربوا الخمر، تعاملوا بالربا.. لكنهم مع كل ذلك ظلوا على قناعتهم الصارمة بالأصول.. كل شيء مقبول إلا نسيان الأصول.. وأنت مقتنع بتلك الأصول.

أجبته بغضب:

- يا أخي الفاضل، قد أتفق معك، أو معكم - يا من لا أدري من تكونون- في بعض تلك الأصول، وليس كلها، فأنا لا أُكَفِّر كل أعضاء الحكومة، ولا أعضاء مجلس الشعب، ثم من بين أعضاء مجلس الشعب أفراد من الإخوان المسلمين.. كما لا أُكَفِّر السواد الأعظم من الضباط.. هناك ضباط يتعاملون

بملفات لا علاقة لها بالتيار الإسلامي، وهناك مُجْبَرون على ذلك.. وهناك قاعدة العذر بالجهل.

— هذا كلام عبد الرحمن، وكلام شيوخ سلفيين مغيبين يا أخي.

— دعك من الشيوخ ومن عبد الرحمن، ودعك أيضًا من قاعدة العذر بالجهل التي أجهلها ولا أفهمها، لكن أنا مجرد مثقف ثقافة إسلامية لا ترتقي لكل هذا. عقيدتي يا أخ محمود، تكفير من لم يحكم بما أنزل الله تعالى وفقط ولا غير، ولا تعيين.

— أَتَفَهَّم يا أخي بعض لبس لديك.. هو طبيعي في البدايات، وسوف تتخطاه باستمرار القراءة والبحث.. وأَتَفَهَّم مخاوفك.. لكني أقسم لك ثانية وثالثة بالله العظيم، أنه لا أحد يعرف اسمك، أو أي شيء يدل عليك غير القيادة، ثم إن الأمير لن يدخل أرض مصر إلا في حالة من اثنتين لا ثالث لهما، جسدًا لو قدر له الدفن بأرضها، أو زعيمًا مستلمًا سلطة مغتصبة منذ سقوط الخلافة.. وأنا أعيد قسمي الشخصي بأني لن أذكرك مطلقًا لو - لا قدر الله- تعرضت لما لا أرجوه.. اطمئن. ثم يا أخي، أنا أحبك في الله، ولي حق عليك أن أودعك أمانة. ابسط يدك على هذا المصحف.

سَحَبَ المصحف الأخضر من فوق المكتب.. طلب أنْ أردد خلفه. ترددت.. سحبت يدي وقلت: سأقسم على حفظ تلك الأمانة حتى تستلموها.. لكن لا أعدك ولا أعدكم يا من لا أعرفكم

بأن أنفذ ما فيها.

زمَّ شفتيه، ثم وافق بعد إلحاحي وإصراري، على طلبي:

في خشوع ونحيب مكتوم رددت وراءه:

"أقسم بالله العظيم، أن أخلص في الدعوة إلى دين الله تعالى، وأن أسعى بكل ما أوتيت من قوة إلى العمل لإعادة دولة الخلافة، وألا أخون عهد الله.. يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض.. الله أكبر والخلافة قادمة".

ختم القسم، فقبضت علي يده، وأكملت:

"وأقسم بالله العظيم ألَّا يتعدَّى دوري في هذه الأمانة أكثرَ من حملها، وأنا في حِلٍّ منها لو جرَّتْ خطرًا لا أطيقه".

ابتسم: "سيغلبك تديُّنك، وسيحملك جهادُك على حفظها".

***

لاظوغلي

في محاضرة لوكيل سابق للجهاز، أكد أن الاعتقال ليس بغرض العقاب، أمن الدولة ليس جهة تأديب. المعتقلون جراثيم لو تُركت في جسد المجتمع، انتشرت وأنهكته. من أدوات الدفاع عزل الجراثيم.

قال المحاضر: «كل أربعة أشهر، نقوم باستدعاء المعتقل، نحاوره، لو اتضح أن العزل أفاده وغيَّر فكره، يخرج، مع المتابعة عن طريق مكتب فرعي».

بدت الرحمة على صوته وهو يقول:

«أحيانًا نبحث عن أي سبب نجد به مخرجًا للإفراج عن أحدهم.. المسألة ليست تعنيفًا للتعنيف، ولا نفيًا لمجرد النفي. نحن مُجْبَرون على استئصال الورم الخبيث. ونطلقه لو زال. لو قام شيوخ الأوقاف ورجال الأزهر بدورهم في التوعية، لشالوا عن أكتافنا الكثير، قَدَرُنا أن نملأ فُراغات في مهام الآخرين».

***

قَدَرُ مصر أنْ صارَ الجهاز المهيب معنيًّا بكل الملفات، بعد أن أضحى كل الناس يتكلمون في كل شيء، ثم لا يفعلون أي شيء، أي شيء، اللهم إلا كلامًا.

***

عبد الرحمن

كحيَّةٍ تبتلع فريستها مرت الليالي ببطء موحش، كشياطين منتفخة في كل ليلة. أوراده لا تتوقف والأذكار، طلبًا لعفو الرحمن وأمنه.. نام، وتمنَّى ألَّا يصحو.

***

أحمد

انتهينا من القَسَم الذي أمرني به، بكى كِلَانا، تعانقنا.

هَدَأنا، فسألته عن تفصيل مخاوفه، وعن المعلومات التي رواها عن الشك في اختراق الأمن بصورة أو بأخرى للجماعة.

بصعوبة أخبرني عن أمين شرطة كان يظنه يعمل في مديرية الأمن، ثم تأكد للجماعة أنه من أمن الدولة، وهو منذ فترة يتبع أحد الإخوة.

«لا تقلق، الإخوة سيتكفلون به»، قالها بابتسام ثعلب.

سألته: كيف؟

— لا تُقلق نفسك، لا عليك سوى الاستمساك بما في يديك وحفظه.

— ربنا يستر.

— أنت منذ الآن خلية حية ستظل خاملة حتى يأذن الله.. لكنها في وقت ما، وظرف ما، ومكان ما، سينبت منها جسد عفي له جناحان: قوة، ومال".

عُدت أستفسر عن جملته الأخيرة.

بلا إجابة، أجاب.. ودَّعني باكيًا. تعثر قبل عتبة الغرفة.

من أين جاءني إحساسٌ بأني "لن أراه ثانية"؟

ما أخطر من خرج ولم يعد.

***

عبد الرحمن

استيقظ والفجر، لم يسمع ديكًا، كأن لم يعد بأرض الله ديك. فتح شرفته. لا صوت يعلو دخانًا لف بالسماء فغطًّاها كجناحي غراب عملاق.

راعه الغراب، للمرة الثانية أو الثالثة. راعته السماء المختفية خلف ملاءات الدخان المتقطعة. استمر في أفكاره المتداخلة.

«لم يكن أمامي من خيار غير تنبيه أحمد».

هندم ملابس طالتها عشوائية نوم، لَابِسُها لم يَنَمْ. بأصابع ثلاثة الْتَهَمَ نصف علبة حلاوة. توضأ بماء بارد. استغفر.

***

أحمد

بعد ثلاثة أيام، تحدث الناس عن اكتشاف جثة مجهولة طافية على صفحة النهر أمام المقياس. في جزيرتي لا ينكتم

سر، المجهول يشغل ناسًا تعيش في المجهول.

بعد ثلاثة أيام عرفنا أن الجثة لأمين شرطة يسكن بغرفة فوق سطح العمارة الأثرية، وقد جاء أبوه واستلم جثته.

عاد بها لدمياط.

أمين شرطة بمباحث المخدرات.

شعرت أني أنا من ألقى بجثته في النهر.

***

أحمد

جثة وخبيئة، حجَرَا رَحى، وبينهما مطحون بظنٍّ، أَلُفُّ مصلوبًا داخل الرحايا وتدهسني، فلا دقيق أصير، ولا واحد صحيحًا أستقر. شتات يَلُفُّني ككفن.

اختفى محمود تاركًا أمانة، وغارزًا شهادة مكتومة عن جريمة قتل، أعرف منفذيها، أو على الأقل المخرضين عليها. لم أتكلم؛ لأني في ذلك الوقت الغريب كنت أميل بالفعل إلى تكفير كل من يفكر في إيذاء أبناء التيار الإسلامي من أبناء لاظوغلي. ثم أصابتني صاعقة أنه ليس من أمن الدولة كما زعم محمود، مع أني لا أدري إن كان هذا القتيل هو نفسه الأمين الذي عناه وقصده.

من يومها وأنا في حيرة وألم. ربما في قرف أيضًا، وددت لو سألت:

«هل عليَّ دية أدفعها لوالده الفقير؟».

من قال إن كاتم الشهادة ملعون؟

***

قبل أن يفجر عبد الرحمن قنبلة القبض على محمود، كان الذي كان ذلك الصباح، استوقفتني بنت صاحبة الكشك على ناصية بيتي:

– يا أستاذ أحمد.

– خيرًا؟

– صباح الخير.

– صباح النور، أي أوامر؟

– كنت أريدك في مسألة شخصية. هل يمكن أن ألتقيك؟

– تحركت شهوتي التي لا تقف على محطة، مع أني في طريقي للقاء جيهان.

– أين ومتى؟

– الآن أرجوك.

– طيب، اتبعيني ولا تحاذيني.

– عبرت شارعين وهي خلفي حتى تأكدت من شارع خالٍ في هدأة الصباح.

– خير يا آنسة؟

– لست آنسة.

– آسف.

– هذه هي المصيبة.

– هل أحدهم غرَّر بكِ؟

– لم يُغرر بي أحد، اسمع طلبي.

– تفضلي.

– أكيد أنك سمعت بموضوع الجثة التي انتشلوها، جثة أمين الشرطة.

ارتعدت، وبعجلة أجبتها:

– لا لم أسمع، وما علاقتي أو علاقتك بالمسألة؟

– يا أستاذ أحمد، الغريق أمين شرطة مسكين، كان يسكن غرفة فقيرة، وكان بيننا ما كان، وسلمت له نفسي، وكتبنا ورقة عُرفية، على وعد زواج بعد إجازته، وأنا حامل.

– كيف عرفت أنك حامل؟ ثم ما دوري أنا؟

– أنا متأكدة أني حامل منذ شهرين، وهو أقسم بالله العظيم

على المصحف أنه سيتزوجني رسميًّا في غضون شهر، لم يمهلنا القدر، قتله أحدهم ورمى بجثته في النهر.

زاد ارتباكي، تُهت عنها:

"إذن قد تأكدت أنه نفس أمين الشرطة الذي حدثني عنه محمود. لقد قتلوه". التفتُّ إليها:

– طيب، أنت قلتِ إن بينكما ورقة عرفية، أعتقد أنها كافية لإثبات النسب، ويمكن أيضًا أن تحصلي على معاش المرحوم.

– الورقة معه، كانت في حافظته لا تفارق جيبه، ولا أدري إن كانت موجودة بحوزة الشرطة، فلو تكرمت ووقفت بجانبي وتوسطت عند معارفك الكبار لاستلام هذه الورقة.

– لو كانت الورقة معه ساعة الحادث، فطبيعي أن يسلموها لأبيه، لماذا لم تحاولي الوصول إليه؟

– كل ما أعرفه أنه من دمياط، وقد احترت، أروح من أين؟ أو أجيء من أين؟

– طيب، أول شيء يجب أن تكوني على علم باسمه بالكامل.

– معي.

أدخلت يدها في فتحة صدرها، لاح شقٌّ دقيق غائر ينتصف بياضًا كثلج، لولا القلق لأطلت النظر، استخرجت من جيبها المشرع ورقة، دسَّتها ضاغطة على يدي.

– أريدك أن تساعدني، أريد أن أسجل المولود باسم أبيه، أنا يتيمة والمولود القادم يتيم. وصاحبتي أخبرتني أنك صحفي مهم، ويمكنك أن تجد حلًّا، واسطة في مكتب الصحة، وقبل ذلك يمكنك الاتصال بأبيه والتفاهم في المسألة. ليس لنا أحد، أمي تموت غمًّا بعد أن عرفت. وكانت تعتبر أباك – الله يرحمه- سندها في المنطقة. كم كان يتعطف علينا. حملي ما زال في البداية، وأمامنا وقت قبل أن تنكشف الفضيحة. ليس لنا أحد يا أستاذ، إلهي يستر عرضك ويحفظ سرك.

– ربنا يكتب الخير، على عيني، لكن اسمحي لي، شارعنا به شخصيات مهمة، وموظفون كبار، لماذا لم تلجئي لأحدهم؟ ربما أفادك أكثر مني.

– أنت طيب القلب يا أستاذ أحمد، ولدي شعور قديم أنك تهتم بي.

ويح النسوان! زوجها أو عشيقها مات قبل أيام، وهي ترخي جفنها وتتهدهد بالكلام. أُفٍّ لي، لماذا أَطَلْتُ الضغط على كفها في السلام؟ وكيف التقت عينانا؟ سلام استمر دقيقة.

وعدتها بالاهتمام. وقررت أن أبتعد تمامًا. ولا زلت متوجسًا من عاقبة خذلانها.

***

جثة، وخبيئة، ثم طفل في عنقي. هل بالدنيا مصائب أخرى؟

خفيفةٌ هي الجبال على ظهر البسيطة.

***

اختفى محمود، وأخفيت الخبيئة، تلك التي ليتني ما حملتها.. وليتني ما عشت أردد أنْ يا ليتني أعرف ما فيها.

لا يعرفُ عبد الرحمن حجم جبلين أمشي بهما، قتيل وخبيئة على وشك الفتك. ثم مولود يستعد للصراخ في وجهي.

أنت ما تحمله.

***

سِفْرُ الفراق

يقولون لا تَبْعُدْ وهم يدفنوني   وليس مَكَانُ البُعْدِ إلَّا مَكَانِيَا

مالك بن الريب

***

الفراق، أن يتوقف قطار على رصيف محطته الأخيرة، اتقاء لمصدات صُلب تخشى هي الأخرى لقاءه.

الفراق ذبح بسِكّين باردٍ كَهَام – غير مسنون- والعنق تئنُّ، لا تنفصل، ولا يتوقف مشوار الذبح، وذبيحة لا ترتاح.

الفراق جرح ناتئ على عظمة الصدر الغائرة. شَقٌّ بجنب لا يبرد، غمام كاذب الوعد، وطن يبتعد قريبًا، ويقترب بعيدًا. وطن يذوب فينا، فلا نمسكه، وطن نذوب فيه، ولا ينتبهون.

الفراق، دفن الوطن في لوحة نُعلِّقها بغرفة النوم، صورة نخبئها بين صفحات كتاب، عليها نيل راكد، وهرم مزيف، وشبح مُضاء لجسر قصر النيل. زهرة نزعوها من أرضها المشمسة،

وشكُّوها في ظِلٍّ، فشَكَّتْ في نفسها، وبكت على شمس لا تراها.

قالوا: الحب بيد السماء، وما لنا فيه يدٌ، قلت: الفراق قدر السماء لكن بأيدينا.

الفراق هجوم تَتَريٌّ مباغت، من دنيا لا تُبقي ظلًّا على حائط، ولا تترك حائطًا يأنس بظلِّه.

الفراق يعني أن كل كل الجُدُر تريد أن تنقضَّ، وأعمارها فوق أعمارنا.

الفراق ألَّا يكون أملٌ في انتظارها كل صباح، ولا أمنية للاطمئنان عليها كل ليل.

الفراق أن تغلق المذياع في وجه صوتها، وتلعن مشنقة أحبالها الصوتية وهي ترميك بـ:

«كل ليلة وكل يوم، بعد ما اطمن عليك هيجيني نوم».

***

أحمد

بعد ليْلَتَيْنِ مِن الصّدمةِ الّتي أكره حتّى الحديث عنها. اشتكت عيْني، ما غفت غيْر دقائِقَ على مِخدّةٍ بِها مائةُ مَطَبٌّ صناعي. فُوجِئتُ بِأنِّي نسِيتُ موْعِدًا، ثمّ موْعِدًا ثانيًا معها. غَرِقْتُ في بحرٍ مضطربٍ من توَجُّسٍ، وخيالاتٍ سيِّئةٍ، تشبيحٍ، تعليقٍ. قبل غِيابٍ

بلَا انتِهاء.

وأنا أُفكرُ في المصائرِ الموجعةِ اكتشفتُ أنني حالةٌ خاصّةٌ، يمكنني تسميتُها: «الكائنُ مِصريٌّ»، كائنٌ نِيليٌّ. فيها كائِن، وخارِجها لا كَوْنَ، في شمسِها عافيَتي، وبلَا عافيَةٍ أموْت. سمكٌ بُلطيٌّ أنا، وهي نيلي.

التعذيبُ ما خشِيتُه، بِقَدْرِ تخيُّلِ الغِيابِ.

***

أَخشى عدمَ حُضوري لِموْعِدِها. أن أَصيرَ هيْكلا، شَبحًا، لا شيْءَ في مُعتقَلٍ مُظلِمٍ بِصحراءَ تكرهُ نفسَها. أخشى مُجردَ الاعتِقالِ، العزلَ والإفرادَ، وكُلّ مُفردةٍ تعني: «ألّا أكونَ هُنا». أخشى ما أخشاهُ ألا أكونَ حُرًّا، وهُنا، وأرتعد. لوْ خُيِّرتُ، فخياري اثنان، ثالِثهُما لن يُكونَ: حُرِّيَتِي أو الموْتُ. ليْس ثمّة طريقٌ ثالِثةٌ. وأنا في ذلِك يا مِصرُ، مُصِرٌّ.

***

ذهبتُ وعيْناي يغزوهُما الأحمرُ، ورِعشةٌ تَسْكُنُ أناملي، بعد توالي فناجيلِ القهوةِ السّوْداءِ السّادةِ. في الطّريقِ نَفَدَتْ خزائنُ جسدي النّحيل مِن الأدرينالين، انْسَحبتْ مِنّي الروحُ في هُبوطٍ مُرعش. لدقائقَ تخيَّلتُ أنّه الموْتُ الّذي بتُّ أتمّناهُ.

بِالكذِبِ عُدْتُ مُهروِلًا، ذوَّبتَ بِضعَ ملاعِقِ سُكّرٍ في كوبِ ماءٍ، ارتميْتُ على الأريكة غيْرَ نائِمٍ، وظلّ ميْتٍ.

الموتى يُخلِفون مواعيدَهُم مع الأحبة. وأنا شبحي. اعذرِيني؛ ليْس على مَيتٍ عِتابٌ.

***

عبد الرحمن

تقلَّبَ كثيرًا والخوْفَ، مع اللّوْم، لا محلَّ لإعرابِ النّوْم. فتح النّافِذةَ، لا شيْءَ غريبٌ، لا أحدَ بالشّارِعِ، أغلَقَها، راح، تأكّد مِن وِصادِ البابِ. ضحِكَ: «وهل يَمْنَعُهُم باب؟».

«إذَا لم تستطع النَّوْمَ، فَدَعْهُ وجاوِزْهُ إلى سهرٍ مُتواصِلٍ، ورغْمًا عن أنفِهِ سيَأتي النّوْم».

فتح مادّةَ «نوم» في القاموسِ المُحيطِ، ضحِكَ وهوَ يُعدِّد كم جمْعًا لِكلِمة «نائِم»؟ سبعةُ جُموعٍ، كُلُّ هذِهِ النُّوَم، ولا نوْم. استقرت سبّابتُهُ داخِلَ المجلدِ الثقيلِ، وعلى جانِبٍ أحاط بِثلاثةِ أصابعَ، وراح يحُكُّ إبهامه على الجانِبِ الثّاني، مع القلقِ يفورُ الجِلدُ. ضحِكَ ثانية على حالِه، كتبَ هامِشًا بِقلمِ رصاصٍ:

«كيْف يلتهِمُنا الجزءُ كُلّما فاقتْ توَقُّعاتُ الأحداث تفكيرَنا! أمْنِي هذِهِ اللّيْلة وبقيّةَ اللّيالي، صار مُرتبِطًا بِمَدى عَمَى أمنِ الدّوْلة عني».

اغتسلَ، فكّرَ لوْ يزورُ المقهى القريبَ، مقهى لا يُغلَقُ بابُهُ.

***

أحمد

ما نملكه يملِكُنا، ما نُخفيهُ يُخفينا، ودائِمًا يُخيفُنا. ليْلةَ تسلَّمتُ الأمانةَ، استلمتني؛ لم أنَمْ. تركني صاحِبُها وتقلُّبَ الجمرِ، صدقت يا رسول اللهِ، القابِض على دينِه كالقابِضِ على الجمرِ. أعمى يَقبِضُ جمرًا.

اتَّصلَ ليْلي بِالصّباحِ، من التفكير بِالخبيئةِ إلى التحديق في صُندوقِها. لم يشغلني ما فيه قدرَ ما شغلتني فِكرةُ حملِ أمانةٍ، هي بالتأكيد خطيرةٌ، ولوْ انكشفَ أمرُها؛ قد تُكلِفنّي الكثيرَ، حياتي وحرّيَّتي.

حاوَلت توَسُّمَ أنَّها لا تحوي غيْرَ أوَراقٍ. هي خفيفةُ الوَزنِ بِالفعلِ. أيْن أشيلُها؟

بعد صلاةِ الفجرِ صعدتُ لِلسطحِ. تَرَقُّبُ الشروقِ يتحدَّى ألفَ ليْلٍ، غبشُ الفجرِ مُريح، باعِثٌ لِلشُّجونِ. تُرى ما القادِمُ؟ وكيْف لا يَكونُ لي يدٌ في تصويرِ أحلامي. حتّى جيهان صرتُ أشكُّ كثيرًا في جديَّةِ الارتِباطِ بِها. كيْف أرْبِطُها بي وأنا ارتبطُ بِصُندوقٍ غامِضٍ مغلقٍ.

هل مِن الأمانةِ أن أربطَها بتلك الأمانة؟

هل آنَ التحررُ من عبوديةِ أحدهما، والاكتفاء بهمومِ رِقٍّ واحدٍ؟

***

عبد الرحمن

كعادته همَّ للصلاة بالمسجد. بدأ قعود الخوف. كشلل مفاجئ وجلطة غادرة. صلَّى خائفًا، صلَّى أكثر من مائة وخمسين صلاة بالبيت ولم يحضروا. الوقت وحده كفيلٌ بتغييب قلق الوقت. وما غاب.

مضت الليالي بقلقها، ومرارها لا يزال نبعًا لا يغور في باطن النسيان، للفزع بالحلق رائحة. خفّفها ببقايا حلوى تركتها أخته.

***

أحمد

نحبُّ، فينسابُ على جباهنا ضوءٌ. وحينما رحيلٌ يبدأُ، تنسكبُ ظلمةٌ بالقلب، وينطفئُ الجبينُ.

كان لا بدَّ أن أُبررَ لها انشغالي عنها. تكررت الأيامُ وتوالتْ، ولم نلتقِ. كان -في الماضي القريب- يومٌ يمُرُّ بلا لقاءٍ أو اتصالٍ طويلًا غائمًا.

الْتَقَيْنَا وبَدَا شَيْءٌ نَاقِصٌ. شَيْءٌ مَفْقُودٌ، المكَانُ نَفْسُه. والمساء، لَكِنَّه مُخْتَلِفٌ. رُبَّما أَثَّرَ فِيهَا طُولُ الْبُعْدِ النِّسْبي - عُمُومًا هُو لَم يَتَعَدَّ أَيَّامًا- الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الْمُتَغَيِّرُ كُلِيًّا كُنْتُ أَنَا، التَّائِهُ بَيْن حَبِيبَةٍ وخَبِيئَةٍ.

مَضَتْ، وعُدْتُ لِوحدتي.. قَطَعْتُ الشّوارع لِلنِّيْل الصَّغير، وكَان لَيْلٌ، ومَرْكَبُ صَيْدٍ صَغِيرةٌ تطْرَحُ شَبَكَةً، تشْتَاقُ سَمَكَةً. تَمَنَّيْت لَو يَسْقُطُ مِن عَلَى ظَهْرِهِ أَحَدُهُمْ ويَسْتَغِيثُ، فَأَقْفِزَ وأَنَقْذَه، وأَغْرَقَ.

أَنَا غَرِيق.

***

عبد الرحمن

لا لسبب، قصد المقهى، شدَّتْهُ رائحةُ نرجيلةِ التفاح. طلب شيشة. حينما تريد الاختفاء، فأقرب مكان داخلك.

حتى تُقنع الآخرين وتخدعَهم بالتلون، لا بد أن تختفيَ أنت داخلك. أن تغيبَ عن نفسك. حتى إذا سألوك، كنتَ صادقًا وضرباتُ قلبك منتظمة كدليل على الصدق.

على المقهى لاحَتْ حقائق منسية. بين الدخان وضوء خافت، تَقَرَّبَ لنفسه. حتى لو كان خداعًا فلا بد منه. قرر مواجهة ذاته:

«منذ البداية، أدركتُ أني غير مؤهل لأكون أخًا. فقط أنا أبحث عن التميز، عن كل غريب. في طفولتي كان لفت الأنظار طريقي للتميز، ولو في أي شيء عن بقية الرفاق. كان مفترضًا أن يتم تعييني بالكلية، لكن خانتني السنة النهائية، وقراءاتٌ خارج المناهج، فقط لأتميز عن الجميع».

يغيب أكثر في ماضيه: «ماذا لو كنت قتلت حرصي وشغفي

الغريب في الجامعة للتعرف إلى التيارات المختلفة، الجماعة الإسلامية وأسرة الإخوان، شغلني أمر الصراع بين الجماعتين. مصحف يتوسط سيفين كالمقص. ومصحف ينطلق منه سيف. هل السيوف للدفاع عن المصحف؟ أم أن الشعارَ الأولَ يعني البترَ لكل من يحاول الاقتراب والتحدثَ باسم الدعوة.. الإخوان اعتبروها حكرًا عليهم.. الجماعة الإسلامية كان شعارها يوحي بأن المصحف للقوة دون سواها، وكأن الكتاب الكريم ليس فيه موضع آية للرحمة.. مع أن السر الأعظم لبعث النبي ﷺ هو الرحمة. وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين.. لكنهم لم يروا إلا النهي عن المنكر. والله، ما اقتنعت بواحدة منهما يومًا.. صدقوني.. صدقيني يا نفسي".

تمنى لو نادى على الجالسين وقال لهم: "صدقوني".

***

أحمد

في الليل لا نوم، نهاري بالعمل، ومسائي هائم بالشوارع. لو ينسى عبد الرحمن! قبل ثلاثة أشهر قلت له بزهو خبير:

«إن فكر الجهاد يقوم بالأساس على استعادة الخلافة، أسقطها كمال أتاتورك بانقلابه الناعم عام أربعة وعشرين، منهيًا تاريخًا زاخرًا. منذ سقوطها والسعي نحوها لم يتوقف، بدءًا من انطلاق حركة حسن البنا بعد أربع سنوات من إلغائها،

ومرورًا بآهات في سجون عبد الناصر ومَن بعده. يجب أن يكون لنا دور».

تلك كانت المرة الوحيدة التي تحدثت فيها معه بهذا الكلام. كيف لم أنتبه أنها كلمات محمود.

***

عبد الرحمن

كجملة اعتراضية طال جلوسه على المقهى، والتفت ينادي النادل، تلكأ. سعد واضطرب في آنٍ لما التفت فوجد أحمد يمر بحذائه مصادفة، ناداه على الفور، فأقبل.

– يا أيها الرجل الذي يمر من أمامنا، ولا يَلْوِي علينا، هلَّا جلست؟

جلس، وضحك مهمومًا لمَّا رأى الشيشة.

– أهلًا يا شيخ.

– لست بشيخ يا فتى، فأنا أدخن، وأنت ما رأيك؟ أخي، هل تشيش؟

– أخي جاوز الظالمون المدى.

– إذن فحُقَّ الغناء ولزم الهرب.

– أخي هل تشيش؟

– بل، قل: هل تدخن؟

– ألا فاعلم أيُّهذا الغلام أن "شيش" هي من المفردات المعربات اللاتي دخلن اللغة، واستقرت بالدماغ، ولا نظير لها، فجرى استلامها وصكها بلغة الضاد، وسحبها بنظرية الكركرة.

– إذن أكركر، وأدخن.

– تُكركر، وتدخن؟ أم تُشيش وتؤرجل وتُنرجل وتُشيِّك؟!

– يا عم، أي حاجة من تلك التي قلتها؛ لكن ماذا تشرب أنت يا طروب؟

– تلك التي يسمونها تفاحة، لو طربت للرائحة نرصّ لك؟

– لا، بل أنا من قوم عادتهم المعسل، قصًّا كان أو سلومًا أو مزاجًا كاملًا.

غاب الصبي وعاد بالشيشة، ضحك أحمد وصديقه يأمر الصبي بأن يستحمر ويستصغر.

غضب الغلام، فراح أحمد يُهَدِّئ من خاطره ويترجم له:

"يا حبيبي، صديقي مريض بحُمَّى المعجم، وهي ليست مُعْدِية، ويطلب منك أن تستحمر وتستصغر، تختار الصغير من الفحم، والمشتعل كاللهب الأحمر".

استمر يحنو على المهمومِيْنِ ضحكٌ. مضى الصبي خطواتٍ ثم عاد متذكرًا: يا أستاذ، وماذا تشربُ؟

قال أحمد: هات لي شاي الغلب مر!

فأكمل عبد الرحمن ما تيسر بذاكرته من سيرة شفيقة ومتولي.

سطا الدخان، والصمت ارتاح. سكت الكلام، بل لم يعد للكلام شهوة كما في كل جلساتهما السابقة.. سكتا، حتى انتهى حجران، من بعدهما حجران.

قال أحمد:

– يا عبد الرحمن، بخصوص الموضوع، صدقني أنا ليس لي علاقة بذلك الشخص. وعمومًا هو كان رجلًا مهذبًا، ونسأل الله له السلامة.

– ولنا أيضًا.

– يا أخي، لا علاقة لنا.. كبيرُ خطرهم أن يتابعونا من منطلق متابعتهم لمعارفه، هذا إنْ كُشِفَ لهم أننا أو أحدنا من معارفه.

– كلامك مضبوط.. دعنا نستأنف حياتنا. كيف حالك مع جيهان؟

سكت أحمد ولم يرد.. تناسَى عبد الرحمن سؤاله، وذهب في حديثه عن شغفه القديم بالشيشة، وأنه كان يداري ذلك، لكن

المفاجأة التي حدثت. قال عبد الرحمن «جعلت رأسي فارغةً.. الحقيقة أنني كنت خجلًا بعض الشيء من تدخيني».

لم يعلِّق أحمد والتدخين استمر بهما، والتأمل للا شيء.

قال عبد الرحمن إنه يفكر جديًا في التقدم للماجستير.

– كنت تسألني عن جيهان؟

– نعم، لكن شعرت أنك تضايقت.

– جيهان.. كيف أفكر فيها؟ الخوف يذبحني.. صدقني لا علاقة لي بهذا الشخص.. لكن مجرد شكِّك في علاقة ما يعني أن الذين أخذوه يمكن أن يفكروا بنفس طريقتك، لم أعد أفكر كثيرًا في جيهان.. أفكر في نفسي.. لا أعتقد أن العلاقة التي ظننتُ ألَّا تنتهي سوف تستمر.. أخاف لو حدث ذلك.. وأتمنى السفر.

– إن شاء الله خير، شعوري أنك لن تُصاب بأذى، ومن ناحيتي اطمئن، فأقسم لك بالله العظيم الذي جمعنا على الخير، بأنه في حال – لا قدر الله– كان ما أخاف أن يكون، فلن أذكر اسمك، والله يا صاحبي لن أذكرك.

– ربنا يكرمك، الله غالب.

– الله غالب.

***

أحمد

صليت العشاء متأخرًا. صعدت حيث الخبيئة المصيبة، كيف أخفيها، ولو بشكل مؤقت؟ فكرت أن أدسَّها بعشوائية وبإهمال مقصود وسط الكراكيب، قرب الغرفة المهجورة. كل أسطحنا كراكيب، كرءوسنا.

بعد ساعة اهتديت لحيلة هدأت لها. غلفتها بكل ما بالبيت من بكرات لاصقة وحشرتها في جوال به بقية مصيص، وأسفلها وفوقها ضغطت جرائد قديمة، فصارت تتوسط الجوال.

في إناء خلطت بقايا إسمنت مع جبس، وملطت فتحة الجوال وأغلقتها، ونسمته بالملاط.

ألقيته بقاع تلة كراكيبي.

الشمس تشرق، فتكشف ما نسيناه ليلا. موعد حبيبتي اقترب. صباحها فنجال قهوة يُعيد لعقل التائه بعض نباهة.

عقل، لم ينم.

مصادفة في ذلك الصباح، كانت صباح «بنت صاحبة الكشك» جالسة مكان أمها المعتاد. همَّتْ بالتوجه نحوي؛ فابتعدتُ كي لا ترانا جيهان. وفكرت لو مساءً مررت بصباح.

هل أمسيتُ أعرف ماذا أريد؟!

***

عبد الرحمن

مضى أحمد، وبقي مكانه يتأمل ما كان من حوار، وما قد يكون من رعب. مضى ولا ظن لأحدهما أن لقاء قريبًا بينهما قد يتم. ربما يحدث بعد مرور الخوف، أو في غرفة مظلمة. برد الشاي، حجر المعسل احترق، فأحرقته تأملات ما كان من حوار مع صاحبه:

«مضى.. تركني لنفسي المتهورة.. تركني أبعثر ما أكره أن يبقى ملمومًا في هواجسي. للحظة شريرة تمنيت لو يسافر ويترك جيهان.. للحظة اعتراف لم أتخيل أني يمكن مصارحة نفسي بأنه بالإمكان نَيْلُ جيهان والزواج منها، وأنا أعلم كل ما بينها وصاحبي، وكيف أخون صديقي؟ ألا يكفيني ما سببته له من قلق؟!».

عاد لما حاول لمَّه من هواجس وذكريات تهور. تهوره جزء من طبيعة تيار عريض نشيط، مظلوم وظالم، لا يُسمح له بموقع قدم، ولو قَدَرَ فقد يُلغي كل مساحات الأقدام الأخرى. تيار نسميه إسلاميًا.

حديث أحمد عن الجماعة الإسلامية والصعيد ساقَهُ لمزيد من الماضي والتأمل:

«أنا متهور، والجماعة الإسلامية قتلها التهور، كنتم تعملون في أمان حتى فتحتم على أنفسكم بوابات جهنم. عملية المحجوب

نبهت الأمن إلى العائدين من الجهاد في أفغانستان. كان بوسع هؤلاء أن يصبحوا أبطالًا، لولا الرعونة. مصر بلد كبيرة لا تصلح فيه عمليات الصبيان. استفزوا كيانًا بحجم دولة كبيرة جدًّا، ولن يستطيعوا مع ذلك صبرًا. أو عليهم أن يُعدوا أنفسهم لصبر مرير طويل، فلا حل سوى الصبر، وسوى الصبر لا شيء غير جنون خلف بوابات كبيرة مرعبة، من خلفها جدران. أغبياء!».

بالغباء اتهم نفسه أيضًا، ومحمود الذي – بتهوره- جعله وأحمد قاب قوسين من اعتقال وتعذيب.

«هل ظن أن باستطاعته إزاحة مبارك بمجموعات من تنظيمات الصبيان. الله يسامحك، ويخفف عنك ما أنت فيه».

أفَاقَ بشهيق عميق، وهمس:

«لن أداري، ربنا يُريحك من العذاب ويأتيك الذي أنا شخصيًّا أتمناه. لعل في موتك راحتنا أجمعين».

***

نادى على الصبي.. أمره بتغيير الشيشة التفاح بأخرى قص، ابتسم الصبي، وجدها فرصة لرد إساءة «استصغر واستحمر».

– يا شيخ.

– يا بني أنا لست شيخًا.

– طيب، يا أستاذ.

- تفضل.

- القص شديد.

- افتي، تفلسف، تمنطق، تهرطق، تفضل.

- والله أتكلم بجد، القص شديد، لو أردت أن تنتقل من الفواكه للمعسل، وهو أفضل طبعًا، فيجب التدرج. القص من أول نفس ستسعل، سيتنبه من حولك ويضحكون. ابدأ بالسلوم، هو أهدأ.

انطلق الصبي، وانشغل صاحبنا بما قاله عن وجوب التدرج حتى لا يتنبه الناس. كيف قال هذا؟، هل أحس بشيء مما في داخل الزبون الجديد؟

"يضع سره في صغيرٍ من خلقه".

رأى أنها رسالة مهمة، يجب التدرج في تغيير المظهر، الجوهر لا يتغير، لحيته خفيفة، لكن سيتدرج في حلقها، سيشذبها، ثم بعد أسبوع حلاقة كاملة. تأمل ما حوله، مقاعد متناثرة على الرصيف، لا تخلو طاولة من مدخن، طابات الطاولة وتخبط الخشب، بنفسية منتصر.

من ينتصر له الحق في الصخب، المغلوب يحاسب على كل الطلبات. تمامًا كحال مصر، تلتصق بالمهزوم كل البلايا، كل الجرائم، ما ارتكب وما لم يشهد. قضى قانون البشر بأنه لا حق للمنهزمين في الدفاع.

"ما لا تقدر عليه، تجنبه. سأذوب بين الناس، سامحني يا رب. وأسبل عليَّ من سترك".

تمتم، ومضى.

***

أحمد

لم أتركها كالعادة عند محطة مترو الملك الصالح، استقليناه معًا، معها، ولستُ معها. شرودي واضحٌ. زوغانُ العينين فاضحٌ. مع وصول القطار لمحطة المنشية، كان قطاري يتحسس طريقه بغير قضبان، بين الحين والآخر أنسى ما أنا فيه وأعود إلى من أنا معها، ويجب التمسك بأن أظل معها. يدها في يدي، حتى ما قبل باب الكلية بأمتار. تمشينا، لقلبي رائحة، ووجيبي لا يعرفه غير ربي. أُحِسُّ بثقل خطواتي جوارها. طريقي طويلة. وهي حياتي التي لا تعرف أني ما عدت أهتم للحياة.

***

قبل بابٍ جانبي وقفتُ أتابعها، تشقُّ طريقَها نحو الامتحانِ بدوني، تركتني في امتحاني المستحيل ومضت. شَخَصْتُ لاهتزازِ مِشيتِها، حاولتُ استثارة نفسي. نسيت طعم الاشتهاء منذ ليالٍ. هل يمكن أن أفقدها؟.. لا أطيق. وَدَّعْتُها ولا أدري أين أبيتُ ليلتي، مع أن النهارَ لا يزال على طوله.

يا لَيْلُ، كمْ بِتُّ أكرهُك.

***

اختفت جيهان وأخذني طريقٌ. شوارع جانبية، خلايا نحل، طلبة منهمكون في مراجعة أوراق ستُرمَى في القمامة بعد يومين. آلات التصوير تُصفر برائحة الجاز. الامتحانات بدأ الأساتذةُ في وضعِها بسرية، امتحاناتي تعصرني بسريتها، خيرٌ لي أن تبقى سرية.

على سور محطة المنشية، انحنيت عند فرشة بائع كتب قديمة، أغلبها جامعية، قلبت بصري. فَقَدَ البصرُ شهيتَه لعناوين الكتب. انتقلت إلى الجرائد. اشتريت الحياة اللندنية والشرق الأوسط والأهرام.

في المترو، قلَّبت سريعًا الجرائد الثلاثة بحثًا عن أي خبر. التحقيقاتُ لا تزال جاريةً، لم يتم نشرُ شيءٍ.. بعض الصحافيين الذين يديرون مكاتب الجرائد الأجنبية لهم صلات وثيقة بالأمن. كثيرًا ما يكتبون أخبارًا لا تكشفها صحفنا، كل شيء بالصحف الثلاثة عادي. لا جديد. خيرًا.

في زاوية بالأهرام «حياة البشرية في خطر. الأوزون يتآكل. والعالم في خطر، لو لم ينتبه».

انتبهت. يا ليت الخطر يدهم العالم. يا ليت القيامة تريحنا من هول ما نشم لأصوات الوقائع المؤلمة.

***

قضيت أول يوم برويترز، مر اليوم. والليل تمساح يركد، ليس من شيمته الركض. صباحات تتوالى في مقابل تجبر ليل متوحش كعبدٍ لئيم.

***

عبد الرحمن

لا همَّ غير إزاحة الهمِّ بتوالي الأيام، وقد مضت.. كئيبة مضت.. مضطربة مضت.. المهم أنها مضت، وتمضي وهو بعيد عن قبضة الأمن. يراها:

«إن قبضت، فلا فكاك منها إلا بمعجزة».

هل لا يزال بالزمان معجزات؟

***

أحمد

دنيا لو وَلَّتْ، فوَيْلٌ لمن عنه تَخَلَّتْ، وإن هي أقبلت، فقد تنجح مناورة، تخفي التداعي في معاني الهروب، ولعلَّ محمود لن يذكر اسمي تحت الضربات وأهوال التعذيب، محمود نحيف، ضعيف، قد ينهار ويحاول استجداء آلة الجحيم بأي ثمن، حتى لو كان اسمي. استرني يا رب.

***

لسبعة وعشرين يومًا، لم أَنَمْ في مكان واحد ليلتين متواليتين، وفي الصباح يتولد إصرارٌ على إثباتِ جدارةٍ في عملي الجديد. لا أحدَ من أقاربَ أبِيتُ عندهم يعرف شيئًا. غطيت على رماد معتم داخلي. لا طعم للطعام، كل ساعة لا يفارق بطني انقباض، ويسكنها تقلص.

بي إرادة صُلبة لصد الاعتقال، بأي ثمن. قررت أن أواجه حتى الموت، سأظل أضرب من يقابلني لهدف واحد هو موتي، لست مجنونًا لأضع احتمالات انتصار، ولست شجاعًا لأخطط فرارًا.

***

في وجيب الليل، ينمو الوجد انفتاحًا على المولى. فرشت السجادة، أطفأت النور، ارتميت على أعتابه، في ركعتين قرأت الفرقان كاملة، مسَّتني، سكن بقلبي كل حرف، الحروف للتو تتنزل من فوق.

في سجودي، ابتلَّ محل سجودي. رشح أنفي وامتلأ فمي، تذللًا إلى المعز المذل، في السجود الأخير أطلت، قلت:

«يا ربِّ، لن أرفع رأسي حتى تأذن لي برحمة أطمئن إليها ويسكن قلبي».

لمست بيد قلبي قلبَ يدِ أبوابِ رحمتِه.

***

معتز

ظهرت نتيجة ليسانس جيهان، جاءه الخبر قبل إعلان النتيجة رسميًّا. قرر الاتصال، أرجأه للمساء. فور صوله المكتب في نوبة الليل وجدها فرصة.

حينما يريد القدر، تتراقص الفرص على جبهة الأقوياء.

***

عبد الرحمن

الليلة لم يمانع في مشاركة أحدهم سيجارة مُعَمَّرة، سعل بشدة.

«اسحب بهدوء» نصحه شريكه وقد ضحك.

بهدوء مسّه تفتير، خفف من كثافة الأحزان. من سار على الدرب، سحبه الدرب.

***

أحمد

لبلاية شيطانية تخنق جذع شجرة وليدة، تلتف بخواطرها،

ترتفع كغمامة بأوراق سوداء. زرعٌ مستبدٌّ. عزف ريح من فُرجة حلق شباكي يُعوي. حاولت استجلاب اطمئنان، أو استحلاب شهوة. لم يُفق لي عضو. حاولت ثانية وأنا أستحضر صدرها الأبيض، صدر صباح. فسالت عافية.. توسلت للنوم، لماذا إن طلبنا النوم خفّت الجفون، زاغت العيون في كوابيس اليقظة؟ لماذا إذا تمنينا الصباح تعثرنا بشِباكِ ليلٍ لا يتحرك.

جلست للمكتب بي رغبة في كتابة شيء.

***

جيهان

تتساءل كيف انشغل عنها؟ ما سرُّ تَغَيُّرِه المفاجئ؟ تعلم أنها أهم شيء بحياته، وكذلك هو. كيف يُهملها؟ نعم التقاها أكثر من مرة، لكن حاله تبدلت، وزنه خف في أسبوع أكثر من خمسة كيلوجرامات. كذا قدّرت.

لم يعد أحمد المتأنق، الذي يختار ماذا يرتدي للقائها بعناية. شاردًا صار، وشاحبًا مهمومًا بغير سبب معلن، وعنها مشغولًا وهو معها.

أكبر إشارات التَغَيُّرِ، أنه لم يهتم - كما توقعت غضبًا- لمَّا حدثته عن ضرورة الجدية في المسألة، أن هناك من يُلِحُّ في التقدم لخطبتها، وأنه ضابط شرطة.

المهموم، عزاؤه الوحيد، أن بعض الهم أهمُّ.

***

أحمد

في الصباح اكتملت عشر ورقات بمقال طويل عنونته «رؤيتي لأوضاع مصر». اعتبرت فيه أن التطرف هو الخطر الأكبر الذي يواجه مصر، وأن التغيير بالعنف من أفعال الخوارج، وأن رجال الشرطة يؤدون دورًا وطنيًا، وأن الوصول إلى الله تعالى مرتبط بمدى حسن الخلق، وأن مسائل السياسة العامة أمر خالص للحاكم، وفي مقال منفصل نددت باغتيال الرئيس السادات، وبممارسات الجماعات الإسلامية. بل كتبت عن أهمية تنظيم الأسرة!

كتبت كل ما لا أعتقده. بحثت عن أي فرشاة ألوان، بها أغطي لوني الحقيقي.

أعدت قراءة ما سطرته، مسحت يدي بالماء ومررته على غلاف الدفتر، تركته في الشرفة، دونت على الهوامش ملاحظات وأرَّخْتُها بما يفيد أني كتبت ذلك الكلام في تواريخ متفرقة خلال عامين مضيا.

تخيلت أنه لو تم القبض علي وتفتيش منزلي، فإن مقالًا كهذا يمكن أن يمثل قناعًا وخداعًا لجهات التحقيق في أمن الدولة.

أعدت ترتيب مكتبتي، هي لا ترقى لوصف مكتبة، ثلاثة أرفف معلقة، عرضها متر وعشرون سنتيمترًا. وضعت في وسط الرف الثاني مجموعتين قصصيتين ليوسف إدريس، وثلاث روايات لنجيب محفوظ، «الحرافيش، يوم قُتل الزعيم، وللغرابة المؤسفة، أولاد حارتنا» نسخة لبنانية مهربة. وضغطت بأصابعي عند حروف الورقات حتى أمنحها شكل الاستهلاك من كثرة القراءة، لم أقصد أن أقرأ فيها، فقط أريد الاختفاء بها وفيها.

أحيانًا حينما نحاول الاختفاء، يختفي داخلنا الاختفاء، يصبح الباطن ظاهرًا، ويختفي الأصل. أحيانًا، ونحن نُوهمُ الآخرين بتغيرنا، نتغير.

أثوابنا الجديدة، قصات شعرنا المختلفة، طريقتنا في الكلام، بمرور وقت على اصطناع زيفها، تصبح نحن، تصير طبيعتنا الأصيلة وليست هامشًا لاختفاء.

فكرت لو قرأت، لكن لم أجرؤ على فتح «أولاد حارتنا»، فيكفينا إثمًا وجودها، والله يعلم السبب. «نجيب» الذي تجرأ على الثوابت، كان يستحق القتل. فتحت «يوم قتل الزعيم». عنوانها مس رغبة أتمناها.

في الصفحة الأولى أطربني استغراب. كيف يكتب ملحدٌ كلامًا كهذا؟ وكيف أجدني شخصية داخل الرواية؟ أنا أحمد الفخراني، والفصل بعنوان «محتشمي زايد» والكلام يبدو أنّي أنا المَعْنِيُّ به، على الرغم من أني لا زلت بقوتي ومحتشمي زايد شيخ مسن على المعاش:

«نوم قليل وفترة انتظار.. اللهم إني أنام بأمرك وأصحو بأمرك. ما أبرد ماء الوضوء، ولكني أستمد الحرارة من رحمتك، الصلاة لقاء وفناء. من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه..».

كلام غريب، الكلام يشدني، أستمر، أتابع القراءة مرغمًا أو كارهًا، أتعلل بأني سأظل مع هذا الذي أَلِّفَ أولاد حارتنا، فلْنَرَ ماذا كتب؟ أعوذ بالله من فتنة زيغ، إنها شيء مدهش، للكلام رائحة إيمان. بهدوء صاخب تحولت من انجذاب الخوف إلى خوف الانجذاب. ولم أزل.

فكرت لو قلت لعبد الرحمن إن نجيب محفوظ سلفيٌّ أكثر منك.

***

عبد الرحمن

كأمس المنصرم مرت الأيام طويلة، أُعلن عن القضية، قد انتهت إذن، وخفَّ القلق. انتهت رحلة بحث وتحقيق وضبط لكل من له علاقة. لأول مرة منذ أمس البعيد يهدأ عبد الرحمن. بكى وهو يغتال لحيته النحيلة. على المقهى انتظر عرضًا للتفتير، سحبته عادة التدخين، ولا حاجة للتوقف، كما لم تتوقف القراءة والمذاكرة، في كل فروع العلوم الشرعية. مع أنه سجل لنيل الماجستير. المضحك أن الموضوع اقترحه أحمد رغم عدم تخصصه، ووافق عليه المشرف بعد تعديلاتٍ مملة: «إثراء

المعجم المعاصر روائيًّا: ثلاثية نجيب محفوظ كنموذج».

موضوع سعد به لسببين، أن موضوعًا كهذا يضاد تهمة التطرف، وثاني الأسباب بعض ما حكاه أحمد عن ظلمنا لهذا الرجل.

«حاول أحمد إقناع نفسه وخداعها. هل انتقل بخداعه إليّ؟ لا بأس».

***

أحمد

بعد أربعين ليلة، نمّى القلقُ في أنسجتي ورمًا خبيثًا. نُشر الخبر الأول وتوالت الأخبار، أكبر تنظيم في تاريخ التطرف الديني قارب أعضاؤه ألفًا، نُشرت بعض الأسماء. محمود من البارزين. قيادات الصف الأول. شبكة عنقودية غير متصلة في بناء مخابراتي خطير، تتبع أيمن الظواهري. سعدت بنشر الخبر؟ نعم، وفرحت. الإعلان عن الحدث يعني اكتمال المطلوبين. صفحة قد تُغلق. ولابد من استعادة الروح. لحمي لم يدخل التجربة. لك الحمد يا رب.

اغتسلت وتعطرت. قررت التصدق بخُمس ما معي من نقود، امتنانًا بجميل فضل مولاي، وقلت: أُعطيها لـ«صباح».

راقت لي.

في مدخل البيت بكت، فسحبتها لصدري. مسَّتْ حرارتُها برودةً طَبَعَتْها مخاوف.

***

جيهان

انتهت الامتحانات، وفيلم «الزوجة الـ13» تذيعه سهرة القناة الأولى، رشدي أباظة يشبه معتز. تمنت لو استجابت له شادية، مرت بأناملها على أناملها، فذكرتها أصابعها بأحمد.

«لماذا يهجرني؟ هل لي عذر؟» ارتدت قميص نوم جديدًا.

«أُحبُّ أحمد، شرط أن يتقدم».

همست وهي تدفع رغبة في نوبة رقص، وتستعد للنوم.

***

أحمد

نجوت. كيف نجوت؟ لا أدري غير أن الله سَلَّمَ، خطرت لي «صباح» وقصتها. تساءلت: هل أنا ما زلت أومن بالطريق التي سلكتها؟ هل تلك طريق الرشاد، أم أن الجهاد اسمٌ لما كُنَّا ننويه، وكان - مع الحيرة- على غير مُسمَّاه الحقيقي.

من يدري؟ المهم أني نجوت بفضلٍ من الله.

***

لاظوغلي

انتهت الدورات الأساسية، بدأ معتز بإدارة المراقبات. تابع مرشحين لوظائف كبيرة، تتبع تحركات قيادات إخوانية. أثبت جدارة في التسجيل، وكفاءة في الرصد. صادف نجاحُه محلًّا شاغرًا بأهم إدارة.

«الرائد/معتز زهران. إدارة النشاط المتطرف».

***

أحمد

التوجسُ يثيرُ رغبةَ المتابعة، حرصت على قراءة كل ما ينشر عن القضية، وبالتبعية كل ما ينشر عن جماعة الجهاد. أصبحت مُراقبًا لشأن الحركة الإسلامية من بعيد.

هدأ القلق هونًا ما، والحذر مرض.

***

عبد الرحمن

خط جدولًا للمذاكرة. جدولين، الأول لعالم نجيب محفوظ، والثاني كان بعيدًا عن الدراسات اللغوية. عنده ما يكفي، ولديه سؤال يشغله عن زمن الفتن. لعله يصل لسبب الزيغ الذي ركبه محمود وجماعته.

تذكر يوم أعطاه محمود مذكرة مكتوبة على آلة كاتبة بطريقة متسرعة:

«المرة الأولى التي حاول فيها دعوتي لفكر الجهاد، والمرة الأخيرة. فإجابتي المنطقية والطبيعية وقتها، ثقبته بيأس. كانت بحثًا مستفيضًا عن حديث في الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ. فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟

قَالَ: "نَعَمْ".

قَالَ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟

قَالَ: "نَعَمْ، وفِيهِ دَخَنٌ".

فَقُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟

قَالَ: "قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ".

قُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟

قَالَ: "نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا".

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا.

قَالَ: "هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا".

قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟

قَالَ: "تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ".

قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لهم جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟

قَالَ: "فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ كَذَلِكَ".

وفي لفظ مسلم:

قُلْتُ: فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ؟

قَالَ: "نَعَمْ".

قُلْتُ: كَيْفَ يَكُونُ؟

قَالَ: "يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، ولَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ".

قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟

قَالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ، وإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وأُخِذَ مَالُكَ. فَاسْمَعْ وَأَطِعْ".

كانت فكرة البحث أن هذا ليس زمان العض على أصل شجرة، بل هو زمان السعي لأن يكون للمسلمين جماعة وإمام.

قال محمود كلامًا، سمعته متعجبًا بعد ذلك من أحمد، عن ضياع الخلافة ودورنا في استعادتها، وتحدث عن الحكومات التي أعقبت ثورة يوليو، وأنهم لم يُحَكِّموا شرعَ الله، استبدلوه بقوانينَ وضعيةٍ، ترجموها من نصوص فرنسية بالية من صُنعِ بَشَر، ليسوا من أبناء جلدتنا، ولا هم يتكلمون بألسنتنا. ذبحوا كلَّ من نادى بتحكيم شرع الله. لم يتوقف محمود في كلامه المنطلق كمذياع، تغيرت نَبْرَتُه حماسًا: "لا بد من تجمع منظم، الجماعة تكونت، ينقصها رجال صالحون مخلصون متجردون لرب العالمين، ولشرعه الحنيف".

تَعَجَّبَ محمود لمَّا لم أتأثر من فرط حماسته البادية، قلت له:

إن الكلام ظاهره حسن، لكنه يبقى فارغًا. فراغه أساسه تلبيس النصوص ثياب الزمن الحاضر. أنت تعرف يا محمود أني سَلَفيٌّ قُح. وخذ بالك من "قح"، يعني: أَصِلُ بالنص حيث يقف العقل، وأُسَلِّم الأمرَ كلَّه لله، ولا أومن بغير تحيكم شرع الله، وأعتقد في عودة الخلافة اعتقادَ من يؤمن بأن الصلاة عِمادُ الدين، وأن كلَّ ما نَبَّأنا به الرسولُ المعصومُ - صلوات ربي وسلامه عليه- واقعٌ لا محالة.

لكن ليس بهذا الترصد، وإسقاطِ النص على الواقع.. هناك اختلاف، قصور في الفهم. ثمة حاجةٌ ماسَّةٌ لفَهْم جديدٍ للواقع الذي نعيشه. ثم لو سعينا لتكوين جماعة للمسلمين؛ فإنَّا بذلك ننزلقُ إلى متاهات التكفير، وجماعات التفجير، التي تعرف وأعرف أنها موجودة، ليست خيالًا من صنع الأمن.

هؤلاء يعتبرون أنهم "المسلمون"، وأن كلًّ من هو خارجَهم يجبُ التوقفُ في تَبَيُّنِ هويته حتى تثبت أحقيته بصفة "مسلم".. أنا شخصيًّا أوثر الانشغال بطلب العلم، حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

مصر لا يكون التغيير فيها بهذه الطريقة.. مصر دولة كبيرة ومستقرة، بها جهاز أمني جبار، ولها جيش لن يسمح بتهديد نموذج الدولة التي يراها، ويرى أنها صمام أمان استقرارها الداخلي.. مصر على كل كيلومتر مربع من المليون كيلومتر، فوقه ستجد جابيًا للضرائب ومحصلًا للكهرباء وجنديًّا للأمن أو للجيش، وموظفَ صحةٍ.. مصرُ دولة وليست قبائلَ وعشائر عرقية.. ستكون فتنة.. انظر لكل حقب التاريخ، ستجد أن الجيوش هي دائمًا المنتصرة.

الحق لم يكن الفيصل دائمًا في النصر.. انظر إلى مقتل الحسين t.. في وقتها وبعد وقتها وفي كل وقت، لا يختلف اثنان في أحقية الحسين بالخلافة، أو على أضعف الاعتقاد كان هو الأَوْلَى بالحق في أي معركة.. سيد شباب أهل الجنة بالاتفاق. لكنه واجه جيشًا نظاميًّا لـ"يزيد بن معاوية"، بعث به "زياد

ابن أبيه"، زياد ابن مومس. ماذا حدث؟ انتصر ابن الزانية وقُتل ابن أطهر النساء وانهزمت جماعته، قُتلوا شر تقتيل. نفس الأمر تكرر مع "عبد الله بن الزبير"، قتلوه عند الكعبة، وصلبوه مقلوبًا.

في كل تاريخ الإسلام لم تنجح حركة دون قوة. ستظل الغلبة للأقوى، طالما نحن متسرعون.

يا صديقي، إن السعي لتكوين جماعة للمسلمين، كما تشير من طرف خفي، قولٌ هو عين الفتنة وهو مفجرها، والعاقبة السيئة سترتد إليه".

استمع لي محمود، جادلني، قاطعني وقاطعته، علا صوتنا، وحرصنا مراتٍ على عودته هادئًا. بالنهاية يَئسَ مني. عرف أنني لست فقط بعيدًا عن الانضمام له أو لجماعته، بل قد أشكل خطرًا، تعطيلًا وتقعيدًا لآخرين يعمل على دعوتهم.

صارت لقاءاتنا قليلة.. نتحدث ونتجادل في غير الجهاد وفكره. صرت برأيه من المعوِّقين القائلين لإخوانهم: اقعدوا.

هل خَزَنَ حَنَقًا عليَّ مِنْ يومها، لأني ضد تفكيره وجماعته، وما زلت؟

هل يمكن للأمن أن يصدق؟ صدقوني.

ولِمَ لا يصدق وأنا - والله العظيم- صادق، وغير مُصدِّق لما جرى؟ سأتخلص من أي شبهة قد تنبه إليَّ الأمن. يا أمن الدولة، لم أَنْتَمِ لجماعة محمود.. يا أمن الدولة لا أعتقد فكره، لا أنتمي

للجهاد.. يا أمن الدولة، الجهاد جهاد النفس.. جهاد النفس فقط. لو أمرني مبارك بالجهاد لأجبتُ. يا أمن الدولة - والله العظيم- رفضت دعوة محمود منذ الوهلة الأولى، والدقيقة الأولى، وحتى هذه اللحظة.

يا أمن الدولة، صدقوني: ليست هذه الطريق الصحيحة للتغيير، وأساسًا لِمَ التغيير؟ "الملك لله يؤتيه من يشاء".

الملك لك لك يا صاحب الملك. هل يصل الصوت؟

أنا شربت حشيشًا.. صدقوني".

***

جيهان

اتصلتْ به ثلاث مرات، ولم تجده. افتقدته حيث احتاجته. المفترض أن يهتم ويسأل عن نتيجة الليسانس.

«لو أراد انسحابًا وطيَّ صفحة، فلماذا لا يقولها صراحة؟ لا يعلم أني رأيت بنت صاحبة الكشك وهي تشير إليه، رأيتها وتعمدت إهمال ذلك».

قررتْ أن تتصلَ به للمرة الأخيرة. ذنبُه على جنبه.

***

معتز

يفكر كل يوم فيها، كيف يصل إليها. على الرغم من انشغاله الشديد وإصراره على تثبيت قدميه بالجهاز الكبير، لم ينشغل عن جيهان. استمر في إلحاحه، ومباغتاته، لم يكن غبيًّا في التعامل مع النساء، رقيقًا كان، ورومانسيًّا إلى أقصى حد، اتصل بهاتف بيتها قبل ظهور النتيجة. بسهولة حصل على الرقم.

مصادفة القدر أنها هي من استلم السماعة.

— جيهان ألف مبروك.

— من؟

— أنا معتز، ألف مبروك.

— كيف حصلت على رقمي؟ ماذا تريد؟ مبروك على أي شيء؟

— مبروك على النتيجة، ولا تشغلي بالك بكيف حصلت على الرقم، ألف مبروك، جيد جدًّا، ولا مانع عندي من الدراسات العليا، لو أردتِ؛ سأجد طريقةً لتعيينك مُعيدة، فتاة أحلامي يجب أن يكون أمامها كلُّ شيء سهلًا، وكلُّ غالٍ رخيصًا. أريد أن أقابلك لأمر مهم جدًّا.

— خيرًا؟

— قلتُ: أمر مهم.

– ربما لا يعنيني.

– كنت متأكدًا أنك سوف تمانعين، عمومًا النتيجة رسميًّا بعد أربعة أيام. سأنتظرك بالكلية، لن أُعطلك، خمس دقائق فقط ولي الحلاوة.

***

أحمد

آخر مرة مضى عليها أسبوعان، تركتها في حيرة شديدة. مع انكماش صولة القلق كان لا بد من استعادة حياتي كما كانت. وأنا أفكر فيها، جاءني صوتها، بجملة غريبة. في أيام الغرائب لا شيء غريب.

– يجب أن نضع حدًّا لهذا التخبط. هل ستتقدم؟ يجب أن ألقاك.

– غدًا في نفس المتر الذي يحفظ كلامنا على سور الروضة يا حبيبتي.

– لا، بعد غد أفضل.

– وهو كذلك.

وضعتني جيهان أمام حقيقة خوفي. قررت أن أتحدى الخوف، طفت بشوارع وسط البلد، اشتريت مجموعة أقلام

ودفاتر. اشتريت قميصًا وسترة، وعبوتين من عطر الإسكيب، لها ولي. مضى نصف الخوف، وتبقى العمر.

***

لاظوغلي

في اليوم الأول حضر معتز أول تحقيق بحياته العملية الجديدة.

مشتبه بسبب علاقته مع أحد عناصر الجهاد.

– وصلت لحد فين في الجهاد؟

– لم أصل لشيء، لا علاقة لي بهذا. أنا مجرد ملتزم.

– ماذا تعني بملتزم؟

– ملتزم يا باشا، أُطلق لحيتي، أُقصِّر جلبابي، وأحضر دروسًا لبعض المشايخ.

– جميل.. من هؤلاء المشايخ؟

– الشيخ أسامة عبد العظيم، وعمر عبد الكافي.

– ولماذا لم تقل: والشيخ محمد عبد المقصود، وفوزي السعيد؟

– لم أحضر لهم يا باشا.

– وما رأيك فيهما؟

– لم أسمعهما.

– وحياة أمك؟

– يا باشا والله لم أحضر لهما.

– لا تحلف، لا أحب الكذب. طيب تعال من الأول.. بعد الفجر، لماذا كنت تتأخر في الخروج من المسجد؟

– كنا نقعد، ونقرأ بعض الكتب.

– من كان يقعد في تلك الجلسات.

– فلان وفلان.

......

......

انتهى التحقيق السريع.. بدا كأنه تدريب عملي مقصود.. قال المدير:

"هؤلاء كذابون.. الحوار العادي المحترم لا ينفع مع هؤلاء".

قعد مدير القسم يبين المحاولات المحترمة قبل الاضطرار إلى التعنيف. شرح:

"التحقيق ليس مجرد تعنيف، التعنيف يبدأ، ويكون ضروريًا عند العمل على منع مصيبة، أو حينما أكون على وشك أخذ

معلومة من شخص توقف لسانه.

يأتينا عشرة متطرفين، لم يصل التحقيق بمكتب فرعي معهم لشيء، ولا يقتنع رئيس الجهاز بالتقرير الوارد، يأتون إلينا، نُهملهم أيامًا بالحجز يُفسدون بعضهم، يعني، يتم الاتفاق فيما بينهم على إعادة تنسيق الاعترافات، وكل عملنا يتركز على اختيار اثنين من بينهم، نُعَنِّفُهم، يصل صراخهم للباقين، فيتكلمون، يُقرون بكل شيء، وبما تم الاتفاق عليه في الحجز من تغيير الكلام، ثم تتم المواجهة، مواجهة واحد بآخر، وهكذا، فتنهمر الاعترافات.

نحن نعتبر أن كل من يصل لهذه الغرفة يصبح "على الأبيض"، ومن يكذب، يُصَعِّب المسألةَ على نفسه، لا سبيل غير أن نقتنع. وبأي وسيلة".

في الليلة التالية. بدأ التدريب على التعنيف.

بدأ عنيفًا مع أول متهم بخلية خططت لمهاجمة محالٍ ذهب لمسيحيين. اتضح لمعتز أن لديه واجبات من المذاكرة. القراءة المستفيضة عن جماعات العنف والإرهاب. غمر نفسَه، عَمَّدها بماء العمل الجديد. غير العمل، لا شيء إلا جيهان.

***

آداب عين شمس

- لا لعب ولا تهريج، أريدك زوجة.

- لك أن تريد ما شئت، لكن ربما المسألة لا تعنيني، البنات كثيرات.

- مثلك لم أجد.

- عن إذنك.

- أرجوكِ، اسمعيني دقيقة.

- دقيقة واحدة.

- منذ رأيتك، من اليوم الأول انشغلت بكِ، وفكرتُ بجدية في الارتباط.

- أي ارتباطٍ تقصد؟ يبدو أنك تحسب كُلَّهن صنفًا واحدًا.

- لا، بالمرة. فكرت في الزواج منك، أنا ضابط بأمن الدولة، لدي شقة بمكان رائع ستعجبك، ودخلي كبير، لا يقتصر على الداخلية. قولي موافقة، ونأتي فورًا.

لم ترُد.

- السكوت علامة الرضا.

- لا، لم أقل إني موافقة.

- وما المانع؟ هل هناك غيري؟

– لا، المسألة ليست بهذه الصورة. أحتاج وقتًا للتفكير، لا أعرفك، لا أعرف عنك شيئًا.

«قررت داخلها أن تكون المهلة مسافة لقاء حاسم مع حبيبها، لو تمسك بها فسوف تنسى قصة معتز».

– خذي وقتك.

– اسمح لي، يجب أن أذهب.

– متى ستأتين لاستخراج الشهادة.

– لماذا؟

– قد أنتظرك.

– لا داعي.

– أرجوك. أنت قلت تحتاجين مهلة للتفكير، إذن اجعليها أسبوعًا، في نفس الموعد سأنتظر هنا بالكلية.

– بعد أسبوع، قد لا تكون الشهادة جاهزة.

– أعدك أن تكون جاهزة.

تركها مسحورة بقدراته. وسيم. فعلًا يشبه رشدي أباظة. هو أطول منه أيضًا، ورقيق.

تركها في حيرة.

"لا بد من إنهاء الحيرة، أحمد ابتعد، ويبتعد".

لاحت رويدة زميلتها، ضحكت وهي تحتضنها:

— رائحتك ارتباك، لمحتكما.

— تعالي نتكلم.

شرحت لها بالكامل آخر لقاءاتها مع أحمد، ومشهد بنت صاحبة الكشك، أرادت أن تجد عيبًا. مَنْ بَحَثَ وَجَدَ.

— الاكتئاب عدوى.

نصحتها رويدة.

— لكن أنا أحب أحمد، كيف أنسى كل تلك السنوات؟

— ببساطة، ثم من قال لك: "انسي"، أيام جميلة وانقضت لتُفسِحَ مكانًا لأيام أجمل، حلم جميل وانتهى؛ لأن واقعًا أجمل ينتظر.

— أنت تُبَسِّطين الأمور، أشعر أني خائنة.

— أنت لم تخوني، هو من بدأ بالابتعاد، كما قلتِ، ويتغير.

— نعم، يتغير بصورة غريبة، لم يعد كما كان.

— إذن، فِرِّي منه فرارَك من الفقر والهم، الضابط لا غبار عليه، ليس به عيب واحد، بل كله مزايا.

تحدثتا طويلا عن معتز، والأيام القادمة. وغاب أحمد عن بقية الحديث.

البعيد عن العين، بعيد عن القلب.

***

جيهان

الخوف زارها كما زار أحمد واستقر عنده، خوفها من التنازل عن حبيبها مضطرة، أو من تنازل أحمد عنها.. تمنت مرات أن يقرر هو ويتنازل، فلا تكون لها يدٌ في قطع علاقة لم يكن يظن أحد أن تنقطع. تُفكر:

«يتركني بينما معتز يهتم، لماذا يدفعني للحيرة؟ وكيف يهمل زهرته التي أحبها؟ بإهمالك يا حبيبي قد أضيع من يدك.. معتز ضابط له مستقبل واضح».

تُردد ببالها كلمات رويدة.

***

فكرت لو اتصلت به لتأكيد الموعد وإظهار أنها متمسكة لآخر أمل، ووفية.

«سأخبره وسأظل وفية له. بقيت خطوة، عليه أن يتقدمها لا أكثر».

قالت لخالتها الطبيبة النفسية التي تكبرها بخمسة أعوام:

— لا أريد أن أغير حلمي.. حلمي بسيط، معتز لا غبار عليه،

لكني أحب أحمد.

– أنت صديقتي قبل أن تكوني ابنة أختي، الحبُّ شيء والزواج شيء آخر.

– ولماذا لا يكون الحب زواجًا والزواج حبًّا؟

– أنا أعرف كثيرات ارتبطن، وكدن يحترقن في علاقات عاطفية عنيفة. لكن في ساعة الجد فضلن الزواج.. الزواج هو الواقع، وحب بلا جدية وهمٌ جميلٌ. البنت الذكية هي التي إن أتيحت أمامها فرصة كالتي بين يديك، انتصر عقلها على مشاعرها، الحياة هي التمسك بأول عريس جاهز.

– قد يكون أحمد شبه جاهز.

– ماذا تعنين بشبه جاهز؟ ما زال أمامه الكثير، ومعتز جاهز وفوق الجاهز، هذا لا يُرفض. مال وجمال ومنصب وشباب.. ماذا تريدين فوق ذلك؟! صاحبك الآخر ليس جادًّا، من كلامك هو متخبط، متردد، مشواره طويل.

– أنا أحبه.

– من الحب وَهْمٌ. حديثك عن تغيره الأخير مقلق. شكله عامل مصيبة، أو وراءه مصيبة.

– أحمد طيب، ومستقيم. لا أعتقد. أنا أحبه.

– وماذا بعد الحب؟ هل تدرين ماذا بعد الحب؟

– هيه.

صارت غائبة.

– بعد الحب يا حبيبتي يفوتنا القطار، فلا حب يبقى ولا الزواج لحقنا بعربته التي فاتت. يا جيهان، هناك فرق كيميائي.. الحب كيمياؤه لوعة، حنين، شوق وكلام.. الزواج له كيمياء الواقع والاستقرار والدفء.

تركتها خالتها على محطة قطار، تمسك بتذكرة الحيرة، هل تركب، أم تظل واقفة على سور الكورنيش منتظرة حبيبًا يصير غريبًا؟

هل جِذْرُ المفردتين واحد؟

حياة. حواء.

***

أحمد

ذهبت للقائها، لأبدأ أو نبدأ من جديد، بدأت بالحديث عن العمل في رويترز.. عن قرب استلام كارنيه النقابة.

– النقابة تقدم شققًا بالتقسيط في أكتوبر.

– أحمد.

– عيون أحمد.

– لا وقت للانتظار، يجب أن تتقدم، كل ما هو مطلوب منك خاتم ذهب أنت تملك ثمنه، وتأتي لوضع العلاقة على طريق الرسمية.

استغربت طريقتها الجادة جدًّا، تساءلت ببديهة:

– هذا ما أنويه. لكن حبيبتي، نبرة صوتك تخفي شيئًا، هل هناك ما لا أعرفه؟

– نعم هناك ضغوط شديدة عليَّ في البيت، بعد أن عرفوا بأن ضابطًا يريد خطبتي، وأنا لم أعد أملك سببًا للرفض، الليسانس وحصلت عليه.

استدركت كلمة «الليسانس»..

– أحمد، أنت لم تهتم بمعرفة نتيجة الليسانس، طلبت منك الذهاب سويًّا ولم تأتِ.. سألتك مرارًا عن سبب التغييرات الأخيرة الطارئة عليك لم تخبرني.

– دعينا في موضوع الضابط. أين رآك؟

– انظر، أنت حتى لا تتذكر.. رآني كما أخبرتك في مكتب حرس الجامعة.

– هو ضابط الحرس إذن الذي قلت لي إن صديقتك رويدة معجبة به، والذي يتضح لي الآن أنك أنت المعجبة.

– لا تُسئ بي الظن كعادتك. ليس ضابط الحرس.

– أُحْجِيَةٌ هي؟ من هو الشاب الوسيم؟

– أحمد، المسألة جدية.. إما أن تتقدم، وأنا أرجوك أن تتقدم، وإلا فأنا في موقف لا أحتمله.

– أي ضابط؟ من هو؟

– ضابط أمن دولة.

***

«أمن دولة». الْتَفَتُّ عنها، فالتفت القلبُ عن صخرة الزمن التي أقف عليها، أبحث عن زمن لم أكن به شيئًا، سقط قلبي في الماء الجاري، تبعته على صفحة النهر، رأيت محمود وهو يستودعني خبيئته، رأيت عبد الرحمن في نفس المكان وهو يبلغني الفاجعة، رأيت أمين الشرطة الذي ظن محمود أنه يتبعه، رأيت جثته طافية يجرُّها فرس نهر مكتوب على جبهته «خطيئة مجاهد».

رأيت جدتي جالسة تدعو الله لي بالسلامة، وأنا بين يد الجلادين. رأيتني جثة هامدة منفوخة على النهر الغادر، رأيت تماسيح لا عدد لها تفتح أفواهها. رأيت معادلات رياضية عجيبة مكتوبة بالماء على سطح الماء:

«أنا زائد الخبيئة ناقص جيهان. كلنا مضروبون في ضابط أمن دولة، يساوي.. يساوي: مصيبة».

رأيتني أعود لنفس نقطة ولادة الفزع. بفزع قبضت ذراعها حتى تألمت.

- كل شيء قسمة ونصيب. أنا لست أنا.. انسيني يا خير زهرة تفتحت في شمسي الذاهبة.

***

ضممتها. لم تعارض، عصرتها. قبَّلتها، قبَّلتها قبلة أولى وأخيرة.

مضيت أتمنى الموت.

***

الشيخ عثمان القرافي

حاولت الغرق فغرقت في الحياة، كذبت في تمني الموت؛ فأحاطتني الحياة. ليلتها لم أسمع ما قال لي الشيخ، غير أني بطشت في الماء فأمسكت بعصاه، ألقاها إليَّ وكنت على مرمى متر، غريقًا كنت، وخشبةً وجدتُ، وبكل ما أوتيت من قوة، بكل تشنجات الفزع أمسكت، سحبني الرجل الطيب، ظللت مطروحًا على وجهي دقائق، أو لساعة!

تحت بطانية غبت عن الوعي. الحقيقة أني لم أغب عن الوعي، بل خَيَّلَتْ لي نفسي وزينتْ أن أغيب. أن أستهلَّ مرحلة جديدة من حياتي. لعلها كل حياتي.

كهوامِّ الليل آويت إلى النار، كل ما مر من أيام جميلة أراها، وأيام قاسية أُبعدها، الأيام تتساقط أمامي، تذوب عارية من فيح الفحم حول قطع الخشب المتوهجة، تدثرت ببطانية سوداء من مهمات الجيش، عاريًا كما ولدتني أمي، ويائسًا.

«ما الحكاية؟.. لماذا يا بني؟.. لماذا؟».

قدم لي الشيخ الطيب شايًا ثقيلًا في لبّانية فخار.

– لا تتكلم إن كنت لا تريد. يا بني لا شيء في الحياة يستأهل فقدان الحياة، كلُّه بأمرِه، هو المُطَّلِعُ، يعلم كل شيء، أقرب إلينا من كل شيءٍ، لطيفٌ بما تحملُ الصدور، هو الغني، لا فقير يرجوه فيظل فقيرًا، فارِجُ الهمِّ، كاشف الغم، هل ثمة هَمٌّ أو ضيقٌ أو ضنكٌ، يُخرجنا من الملِةِ ولنا ربٌ؟ إنه كريم، وكبير. اسْتَغْفرِ الله».

– أستغفر الله العظيم.. استغفر الله العظيم.. يا "با" صدقني، ما أردت الانتحار، أنا فقط.. فقط.

لم أُكمل، ما استطعت لحبس الدمع صبرًا، بكيت، توسلت:

"ادع لي يا با، أنا في كرب شديد".

استغفرتُ، تمالكت نفسي، حكيت له كل شيء بالرموز، بالإشارات، بالتورية، بكل ما أملك من قدرة على التشبيه، قلت:

"أنا في كرب، الفتاة التي أحببتها، ودعوت الله أن يجمعني بها، فقدتها الليلة، تقدم إليها رجل ظالم قادر على سحقي،

وتنازلتُ خوفًا، لست جبانًا، ولكن فوق ظهري حمول الدنيا. الخوف أكبر مما تتخيل، القضية أكبر مما تظن، أنا.. مصر.. حبيبتي".

بدأت أحس أن كل شيء حولِي بطيء.. كلامي يتباطأ، رأسي ثقيلة، غبت عن الوعي، نمت، لم أَنَمْ منذ أسابيع.

***

تركني الشيخ حتى الضحى. «صبح الصباح، فتاح يا عليم»، أجمل أغنيات الصباح رغم تعاستها. أفقت على صوت المذياع، تأملت مكاني، تحسستُ كلَّ ما وَصَلَتْ إليهِ يدي، لم يكن حُلمًا إذن، كانت حقيقة، كنت غريقًا، فنجوت، أمسيت عاشقًا ولم أَزَلْ، وكنت ممسكًا بالمستقبل، فهجرني الأمل.

– صباح الخير، أقلقتني عليك، طول الليل وأنت تهذي، تكرر جملة واحدة، وتكرر ثلاثة أسماء، سيبها على الله يا زول.

– لقد أتعبتك وتسببت لك في فزع، سامحني يابا.

في نور الصباح، تعجبت كيف لم ألحظ وجه العجوز شديد السمرة، ولا أن أتبين لهجته السودانية الخالصة، تذكرته، هو نفسُه الذي قابلته ليلتها، بعد صلاة العشاء في المسجد الصغير، ونبهني أن رسالتي وصلت مولاي.

أي سكة إشارات أعبرها؟

عرفت قبل أن أغادره أنه من الخرطوم، درس قبل زمن في الأزهر، ويحمل دكتوراه في الشريعة، ولكن عمله تجارة الجمال، وقد حضر قبل شهرين؛ لأن له مالًا لدى تاجر في المدبح. وله ذكريات مع الروضة، وهو دائم البيات عند صديق قديم يمتلك ذلك المشتل، ليكون إزاء الروضة!

«أتعبتني. ما الذي أنزلك للنهر في ساعة متأخرة، وفي يوم قارس البرد؟ بوجهك علامة صلاح. مثلُكَ لا يُقْدِم على انتحار. كما بدت عليك أيضا دراية بالسباحة. كيف يغادر الحياة من اختارته الحياة؟ حياتنا ليست ملكنا حتى نهجرها».

خَفَضْتُ طرفي خجلًا.

«ارْمِ حمولك على الله، وصدرُ الفقير الذي يجلس أمامك أعمقُ مِن بئر، صدري كالطين الذي علقت به أمس، هل يتكلم الطمي؟ لو أردت الحديث تفضّلْ، وإلّا فلا عليك، ليس عليك إلا الدعاء لله».

***

لا أعرف لماذا – لأول مرة، ولعلها آخر مرة- أحكي قصتي نصف كاملة، قصة الحلم الضائع، والفتاة المفقودة، والصياد الظالم، والصديق الغائب، ومصر التي ذهبت بلا وعد بعودة قريبة.

قلت له: إني أخاف لو تمسكت بحقي في حبيبتي أن يطاردني الضابط، لن يستطيع فعل شيء لي، لكن ربما لو أثرت غيرته، وتَنَبَّه؛ فتَّش حولي، قلَّب في دفاتري القريبة، وعلم عني معرفتي بأشخاص تم اعتقالهم ظلمًا. ساعتها سأكون كفراشٍ حام حول ضوء زائف حتى سقط طواعية بجهله.. استمع باهتمام يَقْطَعُه ويُثرِيه بصلوات على النبي ﷺ.

قلت: إني راحل، في أول فرصة سانحة، سأغادر ترابها، سماءها، نيلها، ووجوه شوارعها.

لا أعلم لماذا حكيت للرجل العجوز، لدقيقة تخيلت أنني غائب عن الحقيقة، أن الشخص الذي أمامي هو إشارة.. ملاك أرسله الله تعالى إليَّ مرتين في ساعتين، هما أشدُّ ساعات حياتي قتامةً وارتعابًا. لست نادمًا على البوح بكل أسراري، فلو مثل هذا الرجل الطيب يفشي السر، فلا فرق بين الحرية والأسر، ستكون إذن مسخًا مشوهًا، ستكون أي شيء، لكنها لن تكون دنيا.

***

«يا بني، أنت شاب قوي، واضح أنك مثقف، الدنيا أمامك، والأحزان خلف ظهرك، لا تدري أين الخير؟ وأين النفع؟ سبحانه دائمًا يجعل في قضائه رحمة، وفي منعه عطاء. ليست هذه نهاية الدنيا، الله وحده قادر أن يجمعكما، على الرغم من كل شيء، لكن وقتها تذكر كلماتي، ولا تنسها: لا تقترب منها في

حرام، بل ربما أخاف عليك لو رأيتها ثانية أو رأتك.. هي الآن في عصمة، أو هي بعد قليل ستكون في عصمة رجل، ظالم أو فاجر، لكنها أصبحت حريمه وعياله، والدنيا واسعة، والسعد ينتظرك».

***

مسَّتْني كلمات العجوز، قام إلى ركن داخل الخوص، عاد بحقيبة جلدية متوسطة الحجم مكتوب عليها بخط واضح وكبير: (عثمان محمد علي القرافي، السودان، الخرطوم، ورقم هاتف). فتح الحقيبة، استخرج كراسة مدرسية صغيرة، ثم قَلَّبَ بيده في قاع الحقيبة، انتشل قلمًا وكتب على ورقة، نزعها وطبقها، وتناولتها:

— هذا عنواني في الخرطوم، سهل، أنتظرك لو ساقتك رحلة الحياة إلى جنوب الوادي، عندي يقين أن لقاءنا الأول لن يكونَ الأخير. ستكبر وتطمئن بإذن الله. وسيعلو شأنك. ستكون من المشاهير.

— من يدري؟ إلى أين ستسير بنا الحياة؟ فلا عجب أن ساقني النيل إليك، وساقَكَ القدرُ إليَّ.

— يا بنيَّ، تمنَّ الخير تجده.

— كل ما أعرفه الآن أني أتمنى شيئين اثنين، نعمتين: الأمان والنسيان، وإلَّا فالموت المنقذ السريع من الألم والقلق.

– اتَّقِ الله يا بني، وأَقْبِلْ على حياة خُلِقنا لنعمرها بالتسبيح لمولانا، والسير إليه. طيب، اسمع قصتي بعد كوب شاي.

خشعت مستمعًا، فقام وعاد ببراد شاي وكوبين، وأنشأ يغني:

***

هبَّتْ سَحَرًا فينا أنفاسُ رُبَى نَجْدِ   والمُهْجَةُ قد ذابتْ بالشَّوْقِ والوجدِ

***

«صلي على الحبيب؛ قلبك يطيب» قالها بحب وهو يصب كوبين من شاي ثقيل، مد أحدهما إليَّ، رشف من فوره والشاي ساخن يضوع بخاره، تأَنَّيْتُ، لا أشرب شيئًا ساخنًا. وضع الكوب، مال إلى الخلف، شبّك كفيه خلف رأسه، غزاني صوتٌ لم أسمعْ مثله:

عيون الصيد ناعسات عيوني * عيون النيل حاكن عيوني

نسيت قلبي وروحي ونسوني * وفقدت الكانوا يؤانسوني

ليالي هناي جد عاكسوني * وأخاصم النوم كيف درسوني

***

«سأحكي لك ما يشبه حكايتك، لعل الأرواح بين الشمال والجنوب بها مَسٌّ من بركة صالحين مشوا فوق صفحة النيل، إني أرى فيك صلاحًا، أنا من جزيرة كجزيرتك اسمها «توتي»:

«قبل أربعين عامًا، كنت أصغرَ منك بسنوات، أحببتُ ابنةَ عمي. وأبغضتني أمُّها. صارت حلمي الوحيدَ.

سافر عمي بأسرته لمصر، وسكن هذا الحي المقابل الذي جئت منه، الروضة. مرَّت شهور ورجع في زيارة قصيرة. راح بجلبابه الأبيض الواسع، وعاد بزيٍ أفندي. استغربت القرية كلُّها مظهرَه وطريقة حديثه. ودخل مع أبي - يرحمهما الله- في مشاكل على بيتٍ ورءوسٍ ماشية. كادت أن تحدث قطيعة، ولم أقدر أن أُكلمَه في شيء. بعد سنة كاملة زُفَّتْ حبيبتي لنجل سفير السودان بالقاهرة وقتها. غرقت في كآبة وحزن فاقا كل وصف، حتى إني فكرت أن أهاجر. بالفعل، هجرتُ الأهل والأصدقاء مكتفيًا بـ«البيرة». صارت سلوتي الوحيدة. كل ليلة أخرج وأجلس وحيدًا، أشرب زجاجتين وأعود صاخبًا أصدح بكل أغنيات الحبيب العاجز.

في ليلةٍ كليلتك تلك، لم يكن معي ما أشتريَ به خمرًا، طُفْتُ بالشوارع المتربة القديمة، وقابلتني زفة عُرس، فحملني أحد الأصدقاء الذين يحبون غنائي.

غبت عن الدنيا وأنا أغني «عيون الليل» التي أسمعتُك مَطْلعَها، موجوعًا في الزفة، التي توقفت قليلًا جوار «حولية» لمولانا الحسين، وإذا بيد تجذب طرف جلبابي بقوة وحماس صارخة: أنزلوه.

«أنزلوه. الشيخ يريده، مولانا يطلبه». وظل يكررها ويجذبني من جلبابي حتى رضخوا له في آخر الأمر وأنزلوني مستغربين.

وظل قابضًا على ذراعي كأني هاربٌ من جِناية. دخلتُ، وجدتُ حلقةَ ذِكْرٍ للطريقة البرهانية، وبصدر المجلس مولاي «الشيخ محمد عثمان عبده» رضي الله عنه، وقفت أمامه بأدب ورهبة، وهو ينشد قصيدة الشيخ النابلسي رضي الله عنه:

هبَّت سَحَرًا فينا أنفاسُ رُبَى نَجْدِ   والمُهْجَةُ قد ذابتْ بالشَّوْقِ والوجدِ

سحرني الكلام، أطربني صوتٌ، وجوٌّ مُفْعَمٌ بطِيبِ أعواد بخور ومجامر فحم.

تطلع إليَّ مولاي، توقف عن الإنشاد، أتبع بصرَه الحاضرون، شعرت أن ضوءًا مخيفًا يخترقني، الحقيقة أني خفت خوفًا شديدًا، زاد ارتباكي لمَّا أطال التحديق، أغمض عينيه، خفض رأسه، تنفس بعمق، ثم رفع رأسه يُميلها ذات اليمين وذات اليسار. في صوت جَهْوَرِيٍّ أمرني:

«غَنِّ مَا كُنْتَ تُغنِّي».

اندهش المتحلقون حوله. قال: «اقترب».

تقدمت، انفسحت الحلقة، صِرْتُ على مرمى خطوتين من الرجل المهيب، قال ثانية:

«غَنِّ مَا كُنْتَ تُغنِّي».

تلعثمت:

– يا مولاي، أستغفر الله.

– غَنِّ فإن لك صوتًا جميلًا، يا بني أنتم تقولون: كلٌّ يغنِّي على ليلاه، بينما الحقيقة أن كلًّا مِنَّا يُغني لمولاه، ومولاي فردٌ صمدٌ، لا نِدَّ له، عَدْلٌ عزيزٌ لا نظير له، غنِّ يا ولد!

نظرت لمن حولي.. شعرت بالتعجب من كلام الشيخ، ولمحت في بعض العيون رغبة بالسماع. كرر بصوت آمر: «غنِّ ليلاك، وسنستمع لغنائك إلى ليلانا».

غنيت: "عيون الصيد ناعسات عيوني".

***

توقف الشيخ القرافي عن الغناء. قال إنه توقف أيضًا بين يدي شيخه. شيخه لمح دمعاته، والرجل رأى دموعي بين يديه. تشابهنا.. طلبت منه البدء من جديد، واعتذرت مستأذنًا في كتابة الكلمات، عادةٌ لي منذ بدايات السَّماع أن أكتب كلمات الأغاني. وصوته – فعلا– عذبٌ رقراق كجريان النيل في فجر يوم دافئ.

عيون الصيد ناعسات عيوني * عيون النيل حاكن عيوني

لم أفهم كثيرًا ممَّا غنَّى، لكنه مَسَّنِي.

***

استأنف:

«انتهيت من الغناء.. لم يكن يُرْبِكني شيءٌ سوى أني لمحت مولانا يغني، أو هكذا تخيلت. سَكَتُّ، نظرت إليه.

قال: لك صوت جميل، والكلام جميل. كلام الخالدين، شاعرُك يا بني سَكَبَ آلامه، حسراته وشجونه في كلمات معبرة جارية كتدفق شلال. شبَّه عيونَه ودموعه الجاريات بمنابع النيل وتَدَفُّقِه، كيف أن العيون سببت له المرض والسقم والإعياء وفقدان العقل. ولام أصحابه على لومهم له، وطالبهم بالكف عن نُصحِه وتوبيخِه، فالعيون التي سببت الجراح، هي نفسُها نبع الأفراح، لو رآها. ودَاوِنِي بالتي كانت هي الداء. كل أطباء الدنيا عاجزون عن علاجه.

يا بني، كذلك نحن. داؤنا ابتعادُنا عن المحبوب، ودواؤنا قربه، لمَّا اقتربنا، عاينَّا روعةَ لطفه، فكان الداءُ دواءً، والدواءُ داءً.

اعتدل مّولاي وقال: ارفع صوتك خلفي:

مَوْلَايَ صَلِّ وسَلِّمْ دَائِمًا أَبَدًا عَلَى حَبِيبِكَ خَيْرِ الخَلْقِ كُلِّهِمِ

سكنتُ، فالتفتَ القلبُ، تمايلتُ، بكيتُ، غنيت صلاة على سيد ولد آدم".

***

سكت الشيخ القرافي قليلًا وهو يدقق النظر إليَّ. استأنف:

«في هذه الليلة سَكِرْتُ كما لم أسكر من قبل. رقصت، رجف قلبي. انطلقت في دنيا مولاي. أدناني منه، أجلسني في حضرة جواره، ولمَّا وقف الناسُ للذِكْرِ؛ أوقفني جانبه. ولما بلغت

السُّكْرَ، والسمر طاب، سألني:

— من أنت.

— عثمان، ابن محمد سيد القرافي.

— أعرف، إنما أسالك من أنت؟

سَكَتُّ. قال:

— أنت عَبْدُه وهو سيدُك، أنت خائفٌ وهو ملاذ الخائفين، أنت فقدت حبيبًا، وحُبُّه يُغنيك عن كل حبيب. يا بني، لك صوتٌ حَسَنٌ، استخدمه في مدح مولاك، والصلاة على سيد الخلق أجمعين.

— اللهم صل وسلم وبارك عليه.

— لا تمنعنا من رؤيتك، مع أنك لو رأيت روعةَ لُطفه، ما رأيتَ غيرَه. أنتظرك غدًا في منزلي بجوار مسجد المِجراب، حينما تختار بيتًا، فاجعله جوار بيته، قلوب المقربين معلقة بالمساجد.

في طريق عودتي وجدتني أنشد بعض أبيات من بردة البوصيري كان أبي دائم الترديد لها، مددت بها صوتي، تمنيت لو سمعتني ابنة عمي، ثم غبتُ عن نفسي وعنها.

قلت: لعل مولاي يسمعني، فيرضى".

***

استأذنت الشيخ عثمان القرافي لأُعدَّ الشاي بنفسي.. مضيت وأنا أسمع غناءه الشجي. وهو يشرب الشاي استأنف:

«الليل كله قضيته ساهرًا أتساءل: ما الذي يُريدُه هذا الرجل؟ وكيف عرف أني هارب من نفسي، وفاقد لحبيبتي؟ لا أحد مطلقًا يعرف أني أحبها، حتى أبي وإخواني.

مع الصباح، كنت خائفًا مترددًا، وهادئًا أيضًا. كلما اقتربت وجدت شيئًا يشدني، طرقت الباب المفتوح، قال:

«ادخل يا ابن القرافي».

ساحة فسيحة تُفضي لغرفتين، واحدة للرجال والثانية للنساء. وقع قلبي لمَّا رأيته جالسًا فوق سريره، ابتسم:

«أراك قد حضرت. أنت حضرت. أمس لم تحضر».

أشار إلى الأرض، جلست. صارت رأسي في متناول يده، قرأ فوقه كأنما يَرْقِيني، يتمتم بكلمات مسجوعة لا أكاد أتبينها، في ثقةٍ قال:

«يا عثمان، أعطيتك الطريقة البرهانية الدسوقية الشاذلية. اذهب وأخبر أباك».

وكان أبي من أتباع الطريقة الختمية. ثم أعطاني الشيخ مالًا قليلًا وقال: «اذهب إلى الدكان وأحضر نوتة».

بقلم البوص والدواة، كتب فيها على مدى خمس زيارات أوراده، بتقسيمٍ يُيسِّر أداءها. وما زالت هذه النوتة معي، وأهداني

مسبحة كوك، مُعَفَّرة بتراب عود وزيت مسك.

أخذت المسبحة وذهبت إلى البيت. رآها أبي، أعجبته. أخبرته بأني أخذت الطريقه من الشيخ محمد عثمان عبده.

سُرَّ، لم يعترض، قال: «أخذتها من أَدَنْدَوي»، وأثنَى عليه.

و(أدندوي) هو الاسم الذي لازم الشيخ منذ الصغر. وسببه أنه كان يخرج مساء إلى أحراش قريبة مليئة بالوحوش، ويعود إلى البيت بعد شروق الشمس والناس ذاهبون إلى المزارع. فكانت جدته تناديه أَدَنْدَوي عندما تراه داخلًا.

هذه اللفظة بلهجة الحلفاويين معناها الضبع العجوز. فـ «آدي» تعني الضبع. وكانت الضباع والذئاب تأتي من الغابة والجبل ليلًا لتشرب حتى ترتوي، وترجع مع الفجر. أما الضبع العجوز فلا يستطيع السير، لامتلاء بطنه، فيرقد إلى طلوع الفجر، ثم يسير ببطء فيراه الناس بعد شروق الشمس في الطريق فيضحكون ويقولون: (أَدَنْدَوي) أي ضبع عجوز، وهذا سببُ التسمية، وكان يفعل هذا على سبيل السياحة. والناس يعجبون عندما يرونه عائدًا كلَّ صباح من الغابة لم يمسسه سوء.

بعد أن أخبرت أبي بأني قد أخذت الطريقة البرهانية، قال: إنَّ طريقة السيد إبراهيم الدسوقي ليست بهذه السهولة، فعليك أن تسلك الطريق القويمة، وتحرص على الأوراد، عليك بالطاعة؛ وإلا كنت من الهالكين».

***

انتهى من حكايته. كسا نبرتَه لونُ حزن.

– هل تعلم؟ مرت عشرات السنين، وجئت من الخرطوم قبل شهرين. وأنشدت بمولد سيدي الحسين، ونزلت هنا عند صاحب المشتل، الذي جمعتني بأبيه صداقة وتجارة، واضطرب قلبي لمَّا رأيتك تُقلق سكون النهر، على طريق نجاة، تأتيني من شاطئٍ وراءه حبيبتي».

– أنا أيضًا اضطرب قلبي لمَّا أفقت ورأيتك، فقد تذكرت يوم التقينا بالمسجد. هل تذكر؟

– نعم، لَفَتَّ نظري ببكائك. قُلتُ: هو في كرب، دعوت لك.

– لا تنسني أبدًا من دعائك.

– يا بني، هذا عنواني، وأنا متأكد أنك ستمر من المحنة، ستعلو، ويعلو صيتك، فيك نباهة، سِترتفع عن كل من لا تستطيع مواجهتهم اليوم، استمسك بمولاك. وبإذنه لن يمسك سوء.

***

فتح حقيبته ثانية، هذه المرة أخرج دفترًا قديمًا، حفظه من البِلَى بجلاد مقوى، قال: «هذه النوتة التي كتب لي فيها مولاي بخط يده أورادًا، أرددها، لا حاجة لي فيها اليوم. أورادي بقلبي، على لساني، أنت بحاجة إليها خذها».

بتردد استقبلت عرضه، فأنا لست صوفيًّا، قلت:

– يا عمي أخاف أن أضايقك، فإن لي بعض أوراد ثابتة عن النبي ﷺ، وهناك أذكار صحيحة ثابتة، و...

لم يُمهلني للشرح وجنَّبني شظايا الحرج.

– بل خذها. خذها ولا تخف، إنها أورادٌ كما سيرة الأولين، لا شيء فيها غير طلب رضا ربنا، ولن تجد فيها ما يخالف الشرع.

نظر مليًّا باتجاه النيل. شعرت أنه ذهب مسافرًا على ظهر النهر، قال بهدوء واثق:

"يا ولدي، الشرع هو ما وافق فطرة سليمة، والفطرة السليمة هي ما توافق مقتضى طلب المُشَرِّع، ونحن كلنا نطلب رضاه سبحانه، خذها ولا تخف.

يا ولدي، اعلم وثِقْ بأنَّ في السماء إلهًا واحدًا، وفي الأرض عقولًا شتى، الناس شتات. كلٌ يريد الوصول. وحده سبحانه من يملك تسهيل السكة، وإتمام القبول، احفظها، لعلها سببٌ يُعيد إليك هدوء السيرة".

بتردد أخذت، وبقوة عزمت على حفظها غاليًا. وعاليًا حفظتها.

بسطت يميني وقبلت الدفتر، ولا أدري لماذا أخذته؟ ولا لماذا قبضت عليه بقوة؟ ولا لماذا ظلَّ معي أينما حل بي الترجال؟ ودَّعْتُه علىَ أملٍ بلقاء.

اطمأننت للنوتة، بقدر خوفي من الخيبة المجهولة.

مقدورك الأمانات.

***

الأيام تصدمنا بما لم نكن نتخيله.. استقليتُ قطارًا يعرف اتجاهه، وأنا الذي عليَّ أن أحدد اتجاهي. أخذت مفتاح شقتنا القديمة بالعجمي.. فرصة للتأمل.. للمراجعة.. للذوبان.. من جديد أُبْعَث إلى الحياة، من جديد أبدأ حياة جديدة.. شابًّا قويًّا جريئًا له مهنة محترمة، بحافظته بضع مئات من الجنيهات، وبقلبه بضع مئات من أطنان إخلاص نية التوجه إلى الله.

***

الإسكندرية، العروس التي تنتظر فارسها دائمًا، المدينة التي مارست الجهاد ضد أول شراع ظهر من سفينة بريطانية.

الثغر. الصحابة أوصوا بسُكْنَى الثغر؛ لما فيه من مرابطة، وتَحَفُّزٍ لجهاد، وتَوْقٍ لاستشهاد. كبار الفقهاء والمُحَدِّثين ركبوا البر هربًا من قاهرة المعز، حتى نزلوا الثغر تجنبًا لاضطهاد الخليفة الشيعي.

الإسكندرية.. فرصة لإمضاء وقت يجب أن يمضي، وأختفي وأحزاني. ينبغي أن أخلو بنفسي لأقرر ما الخطوة القادمة؟ قبل أنْ تُقَرِّرَ الخطوةُ القادمةُ أنها قادمة لا محالة.

من محطة مصر اشتريت رواية «ميرامار»، وتوجهت مباشرة لسيدي بشر، جلست على مقهى بغير خجل يحاول الاقتراب من البحر. يواجه أفقًا يمتد حتى بلادٍ تحترم البشر عليها ولا تُعذبهم.

لعل آخر تعذيب عندهم من بقايا هتلر. انهار جدار برلين، وشقَّت طفولةَ أحلامِنا مئاتُ الجدران. شتت النازيُّ اليهودَ، وشتتنا أنفسَنا بأنفسنا وقلنا: الفاعل ضمير ثابت كقدر، وراسخٌ كجرثومة، وماكرٌ كـ«يَهود».

عذب المتطرفون الألمان اليهود، وكذَّبنا أخبار ذلك، تمامًا كما ينفي إعلام صفوت الشريف وكل صفوت شريف في عالمنا العربي، حدوث انتهاكات بالسجون.. فهل الجزاء من جنس العمل؟ لا فرق بين لحمِ يهوديٍّ يحترق، ولحم مسلم تكشطه الكهرباء في ليلة تعذيب.

***

عبرت الكورنيش ونزلت. اقتربت من الماء، بي من صفائه رغبة في البكاء، ولي من عنفوانه رغبة في الجنون، ولي من هروب موجه نحوي، رغبة في الاعتراف. الأيام الماضية قرأت كثيرًا لنجيب محفوظ، وغيره. أعترف بأني بحاجة لإعادة القراءة في كل شيء. لكن تبقى ثوابت.

وقفت والبحر، يهرب ماؤه نحوي، وأودُّ لو أهرب على ظهر باخرة إلى الشاطئ الآخر.

يا بحر، هل أنا شيء؟

***

من الرمل حتى العجمي. تشجي روائح «بحري»، تمر السيارة الميكروباص بشوارع المدينة القديمة، بصمات مراكب الصيد،

الحبال القوية المجدولة، سلاسل الحديد، عطر البحر المُنَدَّى بالحياة. كنت متجهمًا من عراك الأفكار داخل الرأس، غاضبًا لأثبت التمسك بهمَّة مجاهد، لكن بشوق ملتمس لاستعادة بعض حياة.

***

الشقة بالدور الخامس، لا مصعد، لا بأس، القوة في الارتقاء. مغلقة منذ عرضناها للبيع قبل شهور، التراب يستعمر المكان، سأبدأ بإزالة عوالق السفر من على جسدي، وبعدها ربنا يسهل. وجهي أمامي بالمرآة غريب، غَضَبٌ يسكنُ الجبهةَ، يُزمت الشفتين، ها أنت تفشل في أول أبواب الاختفاء، والغاضب تكشفه جبهته المقطبة، افردها، اضحك.

لدقائق مارست الضحك أمام المرآة، غمزت بعيني لعيني، جذبت فرشاة الشعر، ما أجمل انصياعه تحت الصابون، مللت التسريحة القديمة، حتى هذه اللحظة شعري مفروق من الجنب، أنت قديم، قديم جدًّا، ضغطت بشدة على الفرشاة، سحبت نفسي وشعري للخلف، أنت أكثر جاذبية الآن، أنت الآن غيرك، أمسكت بـ«لُوفة» متهالكة، دعكًا طُفت بجبهتي، لتخفيف أثر السجود.

اليوم سأبدأ دنياي الجديدة، الويل لكم مني يا كلاب، لن تعرفوني، ولن تصلوا إليَّ، لن تكتشفوني، أنا في جهاد، في رباط، يجوز ارتكاب قليل مما لا يليق، دون السقوط فيما لا يجوز.

الماء ينعش، تذوب قطرات العرق، تتجلط كالدم قطرات حياة، ما أبأس الحياة، ماؤها للمجاري، وماء الضابط على مرمى أيام من رحم جيهان.

***

صليت المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا، التهمت فطيرتين من فطائر عروس البحر، التهمت «ميرامار»، حركتني «زهرة» الرواية، وأنا أفكر في «شادية» الفيلم.

بالغت في التأنق.. نزلت، وبعد ساعتين عدت بيدي ظِلُّ أول تجربة كاملة. فتاة تعرفت إليها بمقهى في بحري، وحددنا السعر.

لكل شيء سعر.

لم أسألها حتى عن اسمها، فقط كنت أبتسم، أتعجب من ذلك الذي قبل أيام، كان على طريق الجهاد في سبيل الله، واليوم بيده مومس وإلى سبيل الشيطان.

هل أكذب لو قلت إني ما أردت غير الذوبان لإكمال الاختفاء الباطني حتى يستقيم الاختفاء الظاهري. أفقت على باب الشقة وأنا أؤنب نفسي:

«احترم نفسك وافعل ما ستفعل والسلام، لا تبرر أو تعلل أو تفسر أو تقدم أعذارًا. أنت تريد ما تريد، فافعل ما تريد ولا تتفلسف».

***

لم أعرف إن كنت قويًّا وممتعًا كما قالت المرأة، أم هي لوازم الشغل، أمر واحد شغلني، سؤالها عن رأيها في حجم قضيبي، لم أَرَ قُضُبَ آخرين، دائما يُحيرني مقاسي. لم تنتظر سؤالي، كأنها قرأت حيرتي، كل الرجال متشابهون.

أرضت غرور رجل تافه، قبضت ما اتفقنا عليه وزيادة، مضت. بعِفَّتي مضت.

اغتسلت. بكيت وصليت واستغفرت حتى مطلع الفجر. وعزمت على ألَّا أعود.

كبهيمة نمت.

***

مع العصر، كنت أبحث عنها في نفس المقهى. «الذنوب تُعطل، والثوابت راسخة».

***

عبد الرحمن

بالتكرار، يصير الحشيش اعتيادًا. عادة عادية عند البعض، ووراءها ألفُ عادة عند آخرين. من مقهى لمقهى، ومن ناصيةٍ لغُرزة. في النهار راهب قراءة، وبالليل حشَّاش.

***

أحمد

أكثر من مرة راقبتها. ثم نهيت نفسي تمامًا عن ذلك، حتى لا ألتقي بغدرِ مصادفةٍ بخطيبها. أنا حتى لم أجرؤ إلى التطلع لشكله، أو معرفة اسمه.. هل الحب وهم؟

نعم..

الحب شيء والمستقبل بالنسبة لكثير منهن شيء آخر، الحب رحلة لطيفة، والزواج بيت مستقر. الحب قصة قصيرة. الزواج رواية المستقبل، مُرَّةً أو حلوة، لكنها مستقبل.

لو خُيِّرتْ – فما يبدو لي- فستختار المستقبل المضمون على قصة حب جميلة، ولو ساخنة.

حقيقة الحياة التي ما زلت أغفلها، أن الحب شيء، والقدر له ما يريد.

ولِمَ العتب؟

أنا من بدأ الاستعداد للتفكير في التفريط. رغمًا عني، وفوق طاقتي، وأبعد من حيلتي.

***

ضابط بأمن الدولة. أي حظ عاثر؟ نترك لهم كل الدنيا، ولا يكفيهم أيُّ شيء، يسيل لُعابُ شهوتِهم لقلبي الصغير. صاروا

ساداتها، لا يُسألون عما يفعلون، وقَدَرِي يستكثرُ عليَّ فتاةً وحيدة، خلصت بها من هذه السنوات.

لولا ما أخبئه لقلبتُ الدنيا وما هَمَّني شيء. تذكرة سفر بلا موعد محدد للعودة.

اللقا نصيب يا بلادي.

***

تمنيت الهجرة، فاستجاب القدر بكل بمفارقات الحياة. عقدُ عملٍ جيد بجريدة الأنباء الكويتية. وكفيلم عربي قديم، موعد السفر، ليلة زفافها.

في ثوبها الأبيض تخيلتها.. كفني.

***

عبد الرحمن

«الملك لك لك، يا صاحب الملك».

إلى وهم التخدير. أمْضَى الليلةَ حزينًا لسفر صديقه المجروح.

***

أحمد

«أخي الحبيب إلى قلبي.. عبد الرحمن،

ضاقت مصر يا عُبيد، ضاقت، وما ضاقت بنا أخلاقُنا، الصبرُ جَبْرٌ، ليس لنا فيه خيار. أمس وقفت على المقياس، رأيتها.. رأيت مصر على صفحة النيل، تقولُ لي كما قلت لي أنت، وكما تقولُ لي نفسي بعد موجات الخوف الرهيب، تقول: سَافِرْ، أَرُدُّ بأني - بعيدًا عنك- أموت، فيعيش السمك بالماء، وأنا أعيش في بلادي، ولو خرج السمك من الماء، فاقرأ على روحي الفاتحة.

تقولُ لي: غادِرْنِي.

قلت: كيف، وأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا فيك؟

هذه أرضي أنا، وأبي كدَّ، تعب، واغتسل بالعرق هنا، ثلاثةٌ من أبناء عائلتي شاركوا في رسم لوحة الصبر والعزة على أرض سيناء، وجدتي معجونة من طمي الصعيد القاسي الرحيم، ومُنتهَى بهجتي جلسة بين بَشَرِكِ الطيبين على صفحة النيل، جِذرٌ أنا، فهل يعيش جِذْرٌ خارجَ أرضه؟ لو انخلع الجذر، فرحمة رب العالمين أرجوها.

تقول لي: لا مكان لك، اذهبْ، لا حاجة لي بك، ارْحَلْ.

فَأَرُدُّ، وأنا مُمسكٌ بتلابيب جِلبابِها القشيب: خَلِّيني هنا، ربما تجدينني يومًا مُحاربًا بقلم وكلمة وطلقة دمع، بكَفٍّ تتوسل إلى

السماء حتى تظلي نور العيون وست الدنيا وأم الدنيا، وحتى يعودَ لك اسمُكِ الذي تصوروه تَبَدَّلَ، وتخيلوه تغير، وما كان له ذلك، فأنت أنت المحروسة، ونحن مُقدمة أبنائك المخلصين.

تقول لي: إن الأماكنَ مشغولةٌ، والمناصبَ مسكونةٌ، والمكاتبَ مأهولةٌ، والمصالحَ محجوزةٌ، والزنازنَ ظاهرها مفتوحٌ، وباطنها عذابٌ، تعذيب، وغربةٌ في قبر وطن. لا مُقامَ لك؛ فاذهب حيثُ بئرُ نفطٍ وشمسٌ حارقةٌ، وكيسُ نقودٍ لا يُساوي همومَ السفر.

أرد: وهل مثلُك مِثلٌ؟ هل كشكلك شكل؟ وهل حياةٌ غيرك؟ يا أيتها الجميلة في مرضها، والقوية في ضعفها، والعفية في جوعها. يا سلَّةَ غذاء التاريخ، هل جنةٌ سواك؟ فقَسَمًا بمن سَوَّاكِ وجعلَكِ أمنًا وأمانًا إلى يوم الدين، لا حاجةَ لي بغيرك، ولا ساعةَ صفاءٍ بدونك.

تقول بأن الأرض ضاقت، والعرض كالطول، واليوم كالأمس، والسياسة الدائمة والمستمرة تتلخص في: شراء الذمم، وترويض الكلاب الضالة، وإرضاء المبتزِّين، وطوبَى للطيبين الصابرين الراضين الراجين الخير، فهؤلاء موكولون لضمائرهم، هؤلاء سينفعون ساعة هجوم الأعداء، ولا مكان لهم ساعة توزيع الغنيمة.

أقول لها: وأنا يا أمي، راضٍ، فلعلك راضية، وأنا يا سيدتي، صابرٌ، فهل تصبرين على حفر إزميل حبري الناقد، وأنا يا أيتها النخلة العالية، ناظرٌ إليك، وأنتظر نظرة منك، وإن لم تنظري، فلا حسد ولا سخط بل عيوني لكِ، تُمطرُ، لو تأخر مطرك.

تقول: سافر، سافر، سافر. فأقول: حتى لو سافرت فأنا المقيمُ فيك، وأنا الزارعُ رحم طمي نيلك قمحًا وعنبًا وزيتونًا ونخلًا وكلماتٍ، فلا أملك سوى كلمات وقلبٍ أنتِ تعلمين رِقَّته رغم الغضب.

يا عبد الرحمن، في أول فرصة سوف أرسل لك، مصر ليست مصر التي نريدها، ونحن مختفون داخل داخلنا، ولو علموا بنا لذبحونا صبرًا فوق صبر جبرنا.

يا عبد الرحمن، اللقا نصيب.. مزق رسالتي فور قراءتها.. استعن بالله.. أشوفك على خير».

***

عبد الرحمن

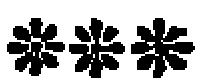
لم يمزق عبد الرحمن الرسالة، الرسالة مزقته.. مزقه ألَّا يكون صديقه المخلص إلى جواره في الروضة.. في العام الماضي، ما عادت اللقاءات كما كانت، صارت على خوف وقلق، وخجل من المكاشفة.. صارت هروبًا كي لا تكون مواجهة، وحتى لا يدورَ حديثٌ تؤلمهما أشباحُ أسمائه.

لَعَمْرُكَ – كما قال الشاعر– ما ضاقت بلادٌ بأهلها، ولكنَّ أخلاقَ الرجالِ تضيقُ. وتضيق بنا الدنيا، فلا حلَّ إلا بالاختفاء بين ضيقها وضيق أخلاق رجالها.

***

أحمد

في طريقه للمطار، توقف أمام قرافة النخال بجوار جامع عمرو، طلب من السائق أن يتباطأ.. ألقَى على أبيه السلام.. ألقى على بلاده السلام.. مضى يُمسك قلبه بيده.. زمجرت السيارةُ مُسرعةً. كل الإشارات تؤكدُ وجوبَ المغادرة.. مر من داخل نفق العروبة.. نظر لليسار.. ضحك وهو يقول لمبارك: تاركها لك.. يا رب تشبع.. تاركها لوجهك القبيح. انزع أظافرَ مَنْ شئت، واقطع ألسنة من شئت، وأطلق كلابك الأمنيين على من شئت.. لك الدنيا، فيا ليت لنا الآخرة.



عبد الرحمن

أعاد قراءة الرسالة مرات، فكر لو يكتب له بالمقابل، ليس ردًّا، بقَدْرِ ما هو فضفضة، لا لشيء سوى الفضفضة. نستريح كثيرًا حينما نتكلم، نغسل من أدرانِ هُمومنا بالحبر.. نمسح من عرق التعب باللسان. حينما نعترف على الورق، نُشركه في حمل البلايا.

لن تصل أحمدَ الرسالةُ، فليس ثمة عنوانٌ بعدُ، وحتى لو هناك عنوان، فقد صار الحذر مرضًا.. فكر لو يكتب لأحمد كيف أن

مصر صارت ضيقة جدًّا كما قال هو في رسالته.. ضاقت بعد وفاة أمه.. ثم ضاقت بعد زلزلال اعتقال محمود.

غرفة ليس لها نافذة منذ سفر صديقه الوحيد. حتى كتاب «الفرج بعد الشدة»، لم يعد له طعم أو صدى رائحة في أيام نحسات الموج، وطغيانه.. كتب، ثم مزق ما كتب:

«أخي الحبيب والحبيب جدًّا. يا أحمد، أحمدُ اللهَ الذي لا إله إلا هو إليك، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، الذي جاء غريبًا، وقال: «طوبَى للغرباء» وبعد؛

فعَلِمَ الله كم أتألَّم لمجرد إحساسي أنني سببت لك قلقًا، وإن لم أكن أقصد، وإن لم تُحَمِّلني أنت ذلك.. فأنا الذي تركتُكَ تتعرف إلى من «تَعرف».. وأنا الذي بطيشي، وسَّعْتُ دوائرَ معارفي.

أخي. أفكر جديًا في البحث عن فرصة للسفر، بمجرد انتهائي من الماجستير. في رغد من العيش أنا كما تعلم، ولكن لا طاقة لي بتوقع القلق كل ليلة.

أمس - وسأقول ذلك باطمئنان لعلمي أنك لن تقرأه- أمس تعرفت إلى امرأة تكبرني بخمسة أعوام، ومتزوجة. فعلت معها كل شيء دون الزنا الصريح.. لا أدري إن كان ذلك لممًا وسأتوب عنه، أم ستجرني المعاصي بعد أن وقفت على شفا جرف هارٍ.

أنا يا أحمد لا أعلم ماذا أفعل، ولا لماذا أفعل ما أفعل، ماذا أريد؟ لا أعرف.

يومًا بالمسجد.. أو بين مساجد مختلفة، إذ لا أستقر على

جامع واحد للمخاوف التي تعلمها، ويومًا آخر بين الدنيا وذنوبها وشرورها.. ليلي بين المقهى والقراءة.. دماغي بها فراغ.. أو على رأي المدخنين، دماغي تحتاج إلى التعمير.. الشيشة لم تعد تكفي.. أحيانًا ينتهي حجر الشيشة فأشعل سيجارة.. منذ يومين دعاني أحدهم لحجر معمر مرصوص. شربت ولم يؤثر فيَّ.. شربت خمسة كاملة ولم أتأثر، أو هكذا وَهِمْتُ.. وقبل الفجر انتصبت كالخُشُب المُسَنَّدَةِ، صليت وقرأت بهدوء شديد سورة الزلزلة في الركعتين.

يا أبو حميد، لقد صرت كل شيء وضده، كل صفة وعكسها.. شيخًا بيني وبين ربي، وشيطانًا بيني وبين نفسي.. صرت لا شيء.. كيف نحمل كل هذه التناقضات؟ ليس الخوف هو الأصل.. هو مجرد سبب لتضخيم التناقض أمام مرآة النفس.

الحقيقة أن الأصل فيَّ هو التناقض.

أحيانًا أشعر أننا نفهم ديننا على غير المراد.. ليس لدينا رهبانية.. الذنوب لا تعني نهاية الدنيا.. يجب أن نتفق مع أنفسنا أننا بشر نُصيب ونخطئ، نُذنب ونستغفر.

في عقيدة العجائز أن ربنا رب قلوب، وأنه مطلع على المحبة، وأنه لن يعذب من لم يقترف شركًا.. قرأت منذ أيام عن الإمام الألوسي قصة طريفة، ملخصها أنه أتعب نفسه كثيرًا في البحث والتحقيق في تفاصيل العقيدة، وقبل موته قرر أن يلتزم دينَ العجائز. صِرْتُ شيخًا طروبًا مُسنًّا في عز الشباب يا صديقي.. ضاقت ضاقت.. فكيف المهرب.. المهرب من النفس؟

الله معك، والله غالب يا أغلى صديق.. وأحبك في الله».

عبد الرحمن

***

أحمد

أقلعت الطائرة، انخلع قلبه. أدار وجهه للنافذة.. بكى.. حاول تبيُّنَ ملامحها من فوق. استحال البكاء نحيبًا مسموعًا. همس:

«يا مصر كم أحبك.. كم أحبك.. والله لولا اجتماع الخوف، وسيادة الظلم، ما خرجت».

اعتدل.. أخرج مفكرته وقلمًا.. فكر أن يكتب عن نفسه وعن مصر وعن جيهان، وعن عبد الرحمن. امتلأت رأسه بالذكريات، تداعت الخواطر. كتب صفحة كاملة، بجملة واحدة مكررة:

«مصر التي في خاطري وفي فمي».

***

بدأ حياته الجديدة، غاص في دروب جديدة.

يخشى، لو بهجيرها عطش، أن يتجرع عصير ألم الذكريات.

***

سِفْرُ شَتَات

في الشتات، لَمْلَمْ المغضوب عليهم أنفسهم. وتشتتنا، ونحن جميع. ذهبنا شتاتَ شتات، تفرقنا بين بلاد، كنَّا قبلةَ هجراتِها.

ضاقتْ على بَنِيها؟.. أمْ بِبَنِيها ضاقَ بَنوها؟

شتَّان بين السؤالين، ولا معنى لهما، فالنتيجةُ واحدة: شتات.

الشتات: تَفَرُّقٌ بالقلبِ فوق أرضِك، قبل أن تُفارقَ أرضَك آملًا عودةً وفيرةَ الرصيد.

دَعْ كُلَّ شيءٍ، وتَشَتَّتْ، لعلك في شتاتِك تَلُمُّ شَعَثَك، لعلها إذ تُشتتك، تَعودُ إليك. فلربما شَتَاتُك اجتماعُك، واجتماعُك شتاتُك.

شتات، أن نُفَارِقَها فلا تفارقها قلوبُنا والدموعُ. بعيدًا عنها نحيا ميتين، وفيها نموتُ ونحن نَمشي مُشتتين لا ندري إلى أين؟ ومن أين؟.. شتات، أن نُفسرَ «أين».

شتات: بَعثرةٌ من أجلِ عودةٍ قريبةٍ.

لولا الأمل ضاع «يوسف» في شتات. ولما خرج من سِجن الملك، ولا ارتدَّ للمكلومِ بصرُه، قبل بصرِه ضناه.

لولا شتاتُ يوسف لهلكت بنو إسرائيل، وكذلك اجتباه، وسيَّره قُدَّامَ من همُّوا بقتله، فكانت على يديه حياتُهم في مسغبة جوعٍ، وهدايتهم بعد مَغَبَّةِ ضلال.

تشتَّتْ؛ عساك تَجمعُ ذَرَّاتِك المتباعدةَ، وعسى رُوحَك إلى رُوحِك تَئوب..

و...

عَسَى الكَرْبُ الَّذي أَمْسَيْتَ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ
فَيَأْمَنَ خَائِفٌ وَيُفَكَّ عَانٍ وَيَأْتِي أَهْلَهُ النَّائِي الغَرِيبُ

شتات أمري، بين خبيئةٍ قُرْبَ نهرٍ، وحبيبةٍ على شاطئِه، وجثةٍ طافيةٍ على صفحتِه، وطفلٍ سيحكون له عن جثمانٍ مَنفوخٍ مَغدورٍ ويقولون: «أبوك».

شتاتٌ أنا، وأنت يا وطني.

***

الكويت: سنة ثالثة حكاية

أحمد

هل غنّاها لي وحدي؟ ربما

«سنة ورا سنة أضيع هناك هنا

في رحلتي أنا الدمعة ليها صوت

ليلى مالوهشي عيون.. قمري مالهوش لون

ده أنا كان لي في الهوى مشوار أخضر حنون»

منير

***

الكويت، الأُمنيةُ الكبرى لمن استطاعَ من المصريين سبيلا، هُروبًا من فقرٍ مُطَارِدٍ، وعلى الدوام مُطَّرِدٌ. حُلمُ حَمْلِ بضعةِ هموم مع حفنةِ نقودٍ. محطةُ عاشقٍ يبغي القرارَ، وقد وقَّع على العَقدَ بيده، ويدُه لم يكن لها في ذلك يدٌ.

أتون فتنة العرب الكبرى، غزاها صدام، ومن يومها كقِدْرٍ يغلي، المنطقةُ كلها، ومقدورُه أن يفورَ، المنطقة بعد ذلك التاريخ حُبْلَى، ربما بأجِنَّةٍ مشوهة. المخاض هو ما نخشاه

جميعًا، ونتمناه.

***

على الهواء مباشرة، وككل أبناء جيلي، رأيت غزو صدام، كنَّا - قبلها- عربَ البادية والحضر والأمصار، فصرنا مع دقيقة البَثِّ الأولى عَرب الهواء، على الهواء مباشرة، هشيمًا يذروه الهواء.

يومها تعاطفنا مع الكويتيين المفجوعين. في كل ركنٍ بمصر كنا نردد: «بيتي وبيقول بيته»، جعلناها في الأفراح أغنية ترقص على أنغامِها الكئيبةِ الفتياتُ.

مُغتوون بإبدال الأدوات غير مقصدها، وحتى يستمرَ تَضَادُّنا، غضِبنا لمَّا قررَ مبارك المشاركة بجوار جيوش التحالف، أرض المغازي والبطولات والأساطير الشعرية، تنقرها حوافر الروم الجدد.

غضبةُ كثيرٍ من صَفْوتِنا كانت لأجل دولارات صدام وسياراته المرسيدس، التي وصلت كل صحفي نافذ قبل ذلك التاريخ بشهور. حينما وقف القائد الركن المهيب زعيم الأشاوس، يصرخ في القاهرة، بأن صواريخنا تُغطِّي نصف إسرائيل، فنمنا زاعقين مطمئنين، وصحونا والسماواتُ المفتوحةُ عيونٌ مُحدقة، والمتنبي يفِرُّ من سوق مكتباته، وفضيحتُنا لا تغطي نصف أجسادنا العارية.

غضبتُنا تَلَاشَتْ وهمًا في قوة جيش عربي، وأثبت تاريخٌ يكتبه «شوارتسكوف» أننا حفنة من هشيم، ووَهْمٍ.

بالوهم، أكثرُ تاريخِنا كتبناه، ونعيشه.

***

هجير مُطْلقٌ، حرٌّ مختلفٌ، لا تدري من أين يأتيك صهده؟ خليةُ نَحْلٍ تُرتب البيتَ، وتغسلُ آثارَ العدوان، الإنشاءاتُ في كل مكان، شركاتٌ عِملاقةٌ من جنسيات مختلفة، أغلبها أمريكي. وإلى جوارها يتنامى المظهرُ السَّلَفيُّ ولا يتوقف، كخطوطِ استيراد السيارات اليابانية.

عبدًا لله ملتزمًا بكل مظاهر التَّدَيُّنِ، لو أردت هنا ستكون، وإن أردت غوايةً فهي حولك لو فتشت قليلًا.

هنا كل الجنسيات.

وأسوأ ما يصحبه المصريُّ في غربته – قد تُثبت الأيامُ- مِصريٌّ آخر.

ومضت الأيامُ كالشهور، والغربةُ كل يوم كأول يوم.. القاهرةُ لا تغيبُ عن ناظري. النيلُ أفدي جلسةً على شاطئِه بعمري.

***

العمل بالجريدة على فترتين صباحًا ومساءً، الليل دائمًا يزور بصحبته باقةٌ من ورودِ الشجون وشوكها. وستمضي الأيام. بأي شكل ستمضي.

تحقيقاتٌ لا بأسَ بها كتبتُها، حِواراتٌ ألهمتْ فِي بعض المرات كُتَّابَ أعمدةٍ أسئلةً ومجادلات، ومنحت أفكارًا لمعدي

البرامج التلفزيونية.

غرقت في العمل بكل ما أُوتِيتُ من رغبةٍ في التخدير.

التخديرُ منعني لمرات كثيرة من وَقفاتٍ مراجعةٍ كنت انتويتها منذ يوم إقلاع الطائرة. ليالٍ كثيرةٌ أُعدُّ العُدّةَ للتأمل والنظرة لوراء، أوصلني لهذا القُدَّامِ المُرِّ، ثم لا تلبثُ ألَّا تلبثَ، وتنتهي بالحسرة.

لا يُطفئ ذلكَ غيرُ أنفاسِ حَشيشٍ، بغير مُداومة، فقط تأتي مصادفةً دون ترتيب عند ترتيب المراجعة.

في الشهور الأولى، بكل أسبوع أكتب رسالة لا تصل، رسائل بعنوان معلوم، ومُرْسَلٍ إليهم معلومين، لكن ما عاد بحافظة قلبي طوابعُ بريد.

ما أضخمَ حزنَ رسائلنا التي لا تصل، وما أبهظ ثمنَ طابعِها البريدي. كتبتُ أكثر من مرة لعبد الرحمن، كتبت مرارًا وتكرارًا لجيهان، كتبت لمحمود يوسف مرتين، وكتبت لمبارك ثلاث مرات، وكتبت مرة لضابط أمن الدولة الذي تزوج جيهان، وكتبت لجدتي خواطرَ لن تنفعها في سِني النسيان.

كتبت لنفسي، بعضُها وصلَ وأكثرُها تاه. وآهٍ من نفسي، رسائلي لها دائمًا تنتهي بالبكاء وأنا أراجع شَكْلَةً تائهةً، أو فصلةً منسيةً، دائمًا أحب تنميق الكلام، وأعتني بعلامات الترقيم، وعلامات الحزن.

في ليلة، كليالٍ مكررة، زارني الأصدقاء، صاروا كل عائلتي،

في غربةٍ لا أنوي لها توقيعًا بنهاية. رتبت لهم الصالة وشرائط أفلام لا تفارقُ أعزبَ في غُربته، افترشنا الأرض. استهللت معهم الشرب، ثم ضحكوا؛ فبكيت، ولم ينتبهوا.

انتحيت جانبًا لأتساءل: من أنا؟ وما الذي أوصلني هنا؟ وتمنيت لو اختليت بجيهان. تفرق الصحب، واغتويت بوحدتي في شتاتي، ولم أستطع النومَ، مع أن المُخدِّرَ يبعثُ الدفءَ في الأنسجة فتكسل، والأوردة. نزلت، وناديت حبيبتي صامتًا. وأدرت محرك سيارة ناعم الصوت، هنا الشوارع ليس لها صوت، صوتنا وجعٌ داخلنا يا رائعة. وسَطَا المكيفُ البارد، وفتحت قميصي لمنتصف بطني، لعلك تلمحين ما أطلتِ النظرَ خِلْسةً إليه، وأنا أراقبك غير مبدٍ لاهتمام، ولعلك ترتاحين فوق عشب صدري، وتمدين كَفَّك الرقيقةَ وتلعبين بأناملك المعجونة بالزُّبدِ في شُعيراتها الخِصبة. ونظرت جواري فلم يكن بجواري حبيبي، فدندن الكاسيت:

«أنا الخريف وأنتِ ربيعي .. وأنا المُنَى لما تشبي

وأنا الهدى لما تضيعي .. وأنا الهوى لما تحبي

لبي ندايا ولا تخبي .. أزرع لك العمر جواهر

يا غربتي في ليلي الساهر»

فقلت له ولك: سأظل خريفًا، وسأظل نسيًا منسيًّا، كأني ما كنت يومًا، وكأني ما نظرت لربيعي على شاطئنا الغربي يومًا، ولا قَبَّلْتُها يومًا، ولعلي أنا الذي خُنْتُ، فرَّطتُ، وأنا الذي بعتُ وما

اشتريت.

لعلي اشتريت الأمان. الأمان يا جيهان، قبل الحب، وبعد حاجاتنا الأساسية، فكيف أحبك؟ قولي كيف أحبك، والفقر يعصر بلادًا كانت سلة الأقماح ومنسج الأقطان وبوابة الباحثين عن رزق؟ وكيف أحبك يا حبيبتي، ولا أمان في أيام الدولة الأمنية؟ وتذكرين يومَ رأيتِ بيدي كتاب «الدولة البوليسية» لمحمد عصفور، يومها قلتِ: من محمد عصفور؟

فأجبتك بأنه ذلك المثقف الذي سيبقى وستزول الدولة البوليسية، وضحكتِ، وأنا أتحسس بسبَّابتي ممر المحبة فوق مبتدأ افتراق شريان كفك. وقلتِ: «تَوَقَّفْ»، فما تَوقَّفْتُ، ولا توقفت الدولةُ البوليسية، ولا عاد أحدٌ يتذكر محمد عصفور.

من محمد عصفور؟ ومن أحمد الفخراني؟ لا أحد. مجرد أوراق ثلاثة، واحدة للميلاد، ثم بطاقة شخصية، وغدًا صَكٌّ وفاة، بعد عمر قصير، وعبودية طويلة.

ونظرت ثانية للكرسي الفارغ الجلدي، فما رأيتك، ولا لمستُ ظلَّكِ وأثرك، فقط شممت بقايا عطر «إسكيب» سكبته على ذلك الكرسي يوم اشتريت السيارة، لعل الجلد يُحدثني بأنك كنت هنا ذات مرة، أو أنك ذات مرة هنا سوف تكونين.

الإيسكيب يا جيهان، له صوتٌ يقولُ: اهرب، ثم يُدَوِّي صمتُه بجيوبي الأنفية مخادعًا متسائلًا: لماذا هربت؟

الإيسكيب عطرٌ كأي عطر، وليس كأي عطر، هناك عشرات

العطور الجديدة التي ولَّدوها، فجعلت من صاحبنا كلاسيكيًّا قديمًا، وهناك العشرات من العطور القديمة نافذة أكثر منه، وهادئة أقل منه. فلماذا الإيسكيب؟

لأنه ديوان ذاكرتي. كم حلمت أن نتعطرَ به يومًا ما، في غرفة خافتة الصمت، وبضوئها الأحمر فوَّاحة.

لكنها الحياة يا حياتي، ودار الزمن دورتَه المكررةَ من الفراق في اليوم آلاف المرات، ودارَ شريط الكاسيت دورتَه التلقائيةَ - السيارة يا جيهان بها كاسيت رائع جدًّا- فقال منير:

«الحياة للحياة اللي له في الدنيا ذكرى، لابد يوم هيعيش لها

اللي له في الدنيا فكرة يفدي نفسه لحلها دي الحياة للحياة»

هل تسمعين غنائي، هل تذكرين يوم غنيت لك بصوتي الرفيع:

«ياللي بتقرب قلوب العاشقين لبعضها

اللي دايبة يا عيني دوب، واللي مغلوب أمرها

غنوتك فوق الدروب، مش هتدبل عمرها

كلمة الحب اللي باقية، من قلوب لبعضها

الحياة للحياة الحياة للحياة»

ركنت السيارة على الخليج، ورحت أصرخ داخل سجنها الزجاجي مع منير:

«غنوتك فوق الدروب، مش هتدبل عمرها»

رحت أرقص.

يا حبيبتي، ها أنا أرقص كزهرة يعبث بها تراب مايو، كخصلة عُشب فوق خد حجر، ترهبه أمواج وأمواج. كعصفور مذبوح.

يا «جيجي»، أنا مذبوح على فيح الطبل المتخفي وراء زعيق الآلات بالأغنية. هل انتهت أغنيتي معك؟ أم أن مسير الأحياء ومصيرهم للتلاقي، والقلوب الصابرة ربك سيعوض صبرها.

روحي،

وَقَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشَّتِيتَيْنِ بَعْدَمَا يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَلَّا تَلَاقِيَا

لكن كيف يجمع الله شتيتين، وأحدهما اختار بيده طريق الشتات وأَصَرَّ عليه، وعَبَرَ جسرَ هروب اختاره مُجبرًا غير راضٍ؟ كم أكره شتاتي، وكم أخاف فراقه. من يدري؟

قد، لعل، يمكن، وربما.

بمناسبة «ربما» هل تعرفين يا حبيبتي أنها صديقة الحيارى، ولسان حال الخائفين. طيب، اسمعي هذه الحكاية:

«كنت يا حبيبتي أنطق «رُبَّما» بتشديد الباء، وكان عبد الرحمن ينطقها نطق المصحف بالتخفيف، دون «شدَّة». على فكرة يا صديقتي، قلبي بحاجة لألف شدة.

المهم كنت أشعر في «رُبَما» أن تاءها طائرٌ خفيفُ الجناحين،

وكان جناحاي يا جيهان قصيرين، وأسوارُ أمني واطئة، فكيف فوقهما أحملك؟ وكانت همومي يا جيهان ثقيلة، ولا زالت؛ فكيف تحملنا الأيام؟ وماذا تحمل لنا بعد كل ما قَدَّمَتْ؟ وتجرعنا.. الليلة يا جيهان شربت حشيشًا، وندمت. كل يوم أشرب فيه أبقى بعده أيامًا أنفخ الندم.

يا ست الحسن، من النفخ وإلى النفخ أعود».

***

الرسالة العاشرة لها

صباحك سنابل ماء، ومساؤك شلال ريحان بشرفة بحرية. صباحي غربة، ومسائي كذلك، ونهايتي – أرجوها- بين يديك، ومعك يا جيهان. وأمَّا عبد الرحمن يا قلبي، فهو بقلبي، وأخباره لا تصلني. بخيرٍ هو؟ أم شَرَرُ مَنْ نخافُ أصابَه؟

هو مِنِّي على مرمى لَفَّاتٍ فوق قُرْصٍ صُلب، وأهاب دورانه. كنت أُطَمْئِنُ نفسي وأنا أقرأ الصحف المصرية التي تأتينا بعد يوم على صدورها، كنت أَطْمئنُّ حينما لا أجد تطورًا للقضية، ولا اسمَه مدرجًا في أية أخبار مهملةٍ بعمود على صفحة الحوادث مُنْزَوٍ.

أمانة يا بنت النهر، لو مررتِ من أمام بيته العتيق، أبلغيه السلامَ، قولي له: «شد حيلك، الله غالب».

واطلبي منه أن يسامحني على جزءٍ أحرقته من «الظلال». يا جيهان، لا ظلال اليوم غير الأحزان.

أحبك جدًّا. وأُقِرُّ.

***

عبد الرحمن

أكملَ أوراق بحث الماجستير، وبعد لَأْيٍ وردٍّ، ثم ردٍّ وردٍّ، أخيرًا الخطة نالت موافقة، ولم يَنَلْ عبد الرحمن بعدُ راحةً، صباحٌ ومساء، أضداد متوالية، طول الليلِ سهرٌ فارغ، حشيشٌ إن تيسرَ، وفيلمٌ جِنْسيٌّ لو أُتيحَ، وإذا ما نادى منادٍ بالفجر؛ انتبه، اغتسل وصلي بالبيت، طالت صلوات البيت القصيرة، أحيانًا يَحِنُّ إلى المسجد، فيخرج مُطَوِّفًا بشوارع يرى نفسه بالنسبة لها وفيها: «لا شيء، فقط هو واحد من العابرين».

يعبر جسر عباس، ويصلي في أي زاوية منسية بالجيزة القريبة، ومنسيًّا يعود ماشيًا ليشتري صحف الصباح، ولسطوع النهار يذاكر، ويقرأ، ويراجع ما تيسر من كتاب الله. ينام، تفاهة أصحاب الدخان لم تعد تُضايقه. أيامٌ تنقضي.

***

شيئًا فشيئًا، أهمل بحث الماجستير، تلكأ أمام المشرف، تعلل بشواغلَ يُؤَلِّفُها، وشيئًا فشيئًا يغرق مع امرأة بسعر بسيط،

بالكاد يتذكر اسمَها كلما احتاجها واهتاج. الواقع أنه لم يواقع، لم يَزْنِ، ويحدث نفسَه الغائبة:

«أكذب وأحوم حول الحِمَى، وأوشك كل مرة أن أواقع الحِمى».

ثنتان، بهما يشعر أنه ما زال موجودًا: القراءة، في اللغة وبعضِ علوم شرعية – على خوف – وغُرزة الحشيش.

السائر لا يتوقف حتى يَنْهَدَّ، والشارب ليَنسى ويُنسى لا يتوقف حتى تُنسيَه صنوفُ المخدرات بعضُها بعضًا.

مع الحشيش بدأ التجريب، مرة لم يتخيل أنه قد يدمن مثل الآخرين، فحتى هذه الساعة يمكنه نسيانُ الحشيش في حالِ لم يجده. يمس الجميعَ تفتيرُ تخدير، ويظل هو بكثير تركيز، وبقايا أحزان:

«أعتقد أني مختلف، أني أقوى من هؤلاء».

بدأ سكةً محتومةً من التجريب، جرَّب كثيرًا بحجة الخروج من أي ماض:

«تجربة مرة أو مرتين، لن تؤثر كثيرًا، ولن تسحبني في غيبوبة أشيائهم البسيطة».

دخل حفلة تجربة، ثم ثانية وثالثة، جرَّب كل ما يُعرض عليه، شارك في الشراء، فكان لا بد أن ينال نصيبًا كاملًا. التجارب حقول. نحن بَذْرُها المُشَوَّهُ. أمسَى وأصبح معتمدًا بالكامل على أشياء لها مسميات متعددة، وهي في الأصل بداية تجربة واحدة.

وكان الكودافين الشراب الرسمي لـ«الضاربين»، شيفرة سعادة وهم، لعقد تسعيني مُخرِّف، يفتحُ الصدرَ ويسحبُ بانتشاء بديعٍ، انتشى، وأبدع في كميات التجرع.

شَرباتٌ بَقَدْرِ جُرعات الأحزان.

«لكن لم أَزْنِ»، يتساءل: لماذا لم يفعل وهو يقارب في كل مرة ويغوص؟

«الزنا حرام لا شكَّ فيه، وأمَّا الدخان وما يرتبط بالدخان، فليس فيه نص واضح حازم قاطع باتر، حتى الحشيش ليس فيه نص».

شرح للرفاق كيف أنه لا تحريم إلا بنصٍّ، ولما انصرفوا اغتسل ككل ليلة ولَامَسَها كليالٍ كثيرة، وخرج للصلاة كليالٍ قليلة. وقف على سور الجسر المعدني المنزلق، مُمسكًا بعمود كهرباء، نظر للماء وبكى على ذنبه الكبير الذي ليس فيه لبس، ندم على التبرير، ظنَّ أن الماء تحته يضطرب لرجع صوته:

«صرت كعلماء بني إسرائيل، بل أنا ألعن منهم، وعُذري أني لا شيء، حتى في وقفتي على سور الجسر، أعرف أني لن أقفز، وأنني من القوة البدنية ما يُؤهل لاتِّزان وتماسك».

مضى للمسجد، جلس حتى الشروق، قال كل وِرْدِ صباحٍ يذكره. عاهدَ اللهَ ألَّا يُبرِّرَ. أوشك أن يعاهده على الإقلاع عن أيِّ مخدر، فكر لو دعا الله أن يتوب عليه من المخدرات، ويأخذ بيده إليه، همَّ بالدعاء وثبَّطته ذكرى لذة التخدير، ما تصور في داخله

جرأةً للكَفّ:

«يا ربّ، حتى لو شربت فلن أبرر، أو أُسوِّغ، أو أُحلل. اغفر لي».

شروقٌ منعش بنسائم باردة، وصيف العقلاء يطول. بائع يفرش بضائعه، ويتبارك بإذاعة القرآن الكريم. المنشاوي يصدح كرائحة الأيام الخوالي:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

راحة الصباح باعثة للأمل، صبَّح على البائع وهو يتمتم لنفسه:

"سأنجز الماجستير".

***

أحمد

صيف هذا العام جاء مختلفًا. مع أنه ذات الحر الشديد، إلا أن إخواننا الكويتيين يقولون إنه الأشد منذ سنوات، هرب الناس من البلد، تفرقوا بين القاهرة وبيروت ومدن أوروبية، ووحدي بقيت، بقيت بين التكييف والقراءة، والتلفزيون. وجلسة نفسية، أو اثنتين!

لا أذكر.

***

هذا الصيف جاءني يونيه بشريط لفيلم توثيقي عن الحرب التي تحمل اسم الشهر نفسه، حرب العرب التي ما دخلها العرب. العالم شاهد الجنود المصريين أسرى موثَّقين على رمل سينائهم. النكسة تقول إن هناك شيئًا ما خاطئًا في كل المسيرات العربية، الأحداث التي تلتها، باستثناء حرب أكتوبر، تقول إن بلادي مُصِرَّةٌ على نفس المسيرات التي تؤصِّل لبقاء إسرائيل وحشًا مخيفًا على الحدود، بل على النيل.

من الأساسيات التي تعلمتها وأنا أقرأ ما يختاره لي محمود، في الشهور التي رافقته فيها، نظرية «العدو القريب والعدو البعيد»، من أن اليهود لَيْسُوا العدوَّ الأولَ من حيثُ الترتيبُ الزمنيُّ الاستراتيجيُّ، قال محمود:

– إسرائيل هي العدو.

– نعم، وما الجديد؟

– الجديد أنها العدو البعيد.

– والقريب، تقصد مبارك؟

– بالضبط، العدو القريب هو الحكومات التي أذعنت لإسرائيل، ومكَّنتها من التجبر في الأرض. الحالة الخاصة هي مصر، فهي الناس، هي العرب، لو قالت؛ قالوا، لو هانت؛

فالكل مُهان، حتى لو علَا بعض تلك الدول بما لديها من مال أو نفط أو علاقات استراتيجية بالولايات المتحدة. النظام الذي يجلس فوق قمته مبارك هو عدونا القريب، الأَوْلَى بالقتال والإزاحة.

– لكن أنت هنا، تجعل احتلال فلسطين قضيةً ثانوية، لا يمكن أن أتخيل قضيتنا الأم التي أدخلتني دنيا الاهتمام بالسياسة من الأساس، وعالمَ حملِ هموم الدين، تصبح ثانوية، هامشية.

– ليست ثانوية ولا هامشية، هي القضية الأساسية، هي أُمُّ الأولويات، لكنها تظل ثانية من حيث الترتيبُ المنطقي والمرحلي للمعارك.

– يعني أنت بهذا تجعلني وأنا أراجع مشاهدتي لفيلم "الرصاصة لا تزال في جيبي" أتخيل أنني لو أملك رصاصة واحدة، وأمامي عدو مصري لا يحكم بما أنزل الله، وعدو إسرائيلي لم يحكم أبدًا بما أنزل الله، بل حرَّفَ ما أنزل الله، وشتم الله – سبحانه– وسمم نبيه ﷺ، ثم اغتصب المسلمات في حيفا، وقلع الزيتون من يافا، واحتل دولة كاملة نسميها فلسطين، وهتك حرمة المسجد الأقصى وأحرقه، ويقتل المستضعفين هناك كل يوم.. لو أن العدوين أمامي، فعليَّ إذن أن أطلق رصاصتي الوحيدة في صدر المصري، واستأذن اليهودي لحين ينطق شجر الغرقد.

اعتبر محمود كلامي على سبيل المزاح، وأنا بالفعل كانت

نبرتي ساخرة، ومع ذلك مِلْتُ إلى الاقتناع بكلامه.

كيف اقتنعت؟.. حينما تملؤنا الكراهية، نفقد ميزان ترتيب الأعداء. بل نفقد الأولويات.

في الشباب يملؤنا الحماس، ويُلهبنا تمسكٌ بفكرةٍ واحدةٍ، وهدفٍ وحيدٍ، لا مكان في السنين الأولى للتوقف لحظةً لمعاودة النظر في بوصلة مهتزة، تشير إلى صحيح الأهداف.

***

هذا الصيف بدأ قبل ذلك أكثر حرارة بشهر، في غرفة التحرير على صدى متابعة الانتخابات الإسرائيلية، لو كان للعرب صوت لمنحوه حزب العمل. لا يريدون رئيس حكومة إسرائيلية صاحب موقف متشدد، يتسبب لهم في إحراج، هم في غنى عنه.

حزيران بلغة الشوام، ويونيو بلغة مرارتنا، جاء بما لا تشتهيه الكراسي العربية. جاء بـ«بنيامين نتينياهو». الليكود بكل صقوره الجارحة، أمسكوا بخيوط الموقف الصعب على الدوام.

كُلِّفْتُ حينها بكتابة تحقيق شخصي عن رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد، والخطوات المتوقعة، بناء على صفاته الشخصية، ومواقفه المتشددة السابقة.. فاحترمت نتنياهو، هل يمكن لأحد أن يصدق؟

أبرز ما توقفت عنده في ذلك التحقيق، هو الفرق بين نتنياهو وبعض الزعماء العرب - الحقيقة لفظ «بعض» حشرته بقصد- ورحت أفتش هل هناك زعيم عربي قريب قام بتأليف كتاب،

اللهم إلا أخضر القذافي المضحك؟

نتنياهو له أربعة كتب، نشرها قبل وصوله لرئاسة الوزراء، والغريب أن عناوين الكتب تشير بوضوح إلى الرسالة التي يحملها الزعيم الليكودي المتشدد في سنواته الأربع القادمة.

ثلاثة من تلك الكتب حمل في عنوانه كلمة «الإرهاب».. «الإرهاب: كيف يحقّق الغرب الانتصار»، و«الإرهاب العالمي: التحدي والرد»، ثم «مكافحة الإرهاب: كيف تستطيع الدول الديمقراطية إلحاق الهزيمة بالإرهاب المحلي والعالمي؟».

أما الكتاب الثالث من حيث ترتيب الإصدار، والأول من حيث الأهمية في نظري، فهو ما جعلني أحترم عدوي المجرم الصهيوني!

نعم جعلني أحترمه. الكتاب بعنوان: «مكان بين الأمم: إسرائيل والعالم».

***

لماذا جعلني أحترمه، كتبت رأيي بصراحة:

«لأن هذا الرجل يحب بلده اللقيطة، ويُخْلِص في جعل مكانها بين الأمم عاليًا، يجب أن تحترم عدوك، لأنه مخلص في قضيته التي يقاتلك من أجلها».

تساءلت، ولم أكتب: كم من الرؤساء العرب يُحبُّ بلادَه بقدر حب نتنياهو السَّفَّاح لبلده السِّفاح؟

هل مبارك، مع كل ما يقدمه من تنازلات، يحب مِصرَه، كما يحب «بيبي» - التسمية التي يحبها مريدو المجرم- بلده؟

هل ياسر عرفات نفسه، وهو الذي لم يُنزل الشال الفلسطيني عن كتفيه، أخلص لبلاده وقدَّمها دومًا على كل المصالح، كما يفعل نتنياهو؟.. لا أريد أن أظلم أحدًا، لكن نتنياهو بطل قومي عند قومه.

يا ليت ببلادنا نصفَ بطل.

وأما الإرهاب الذي بالتأكيد قصد به في الكتب الثلاثة «الإسلاميين»، فهذا يعني أنه لا مكان لحماس والجهاد وغيرهما من فصائل فلسطينية تحمل الصبغة الدينية، لا مكان لهم، وإلا فإنَّ أمامهم أيامًا سوداء مع الآلة العسكرية للجيش القوي.

***

«بيبي» جاء بعد أن أتم حزب العمل - المعتدل بحسب عرف الزعماء العرب- اتفاق أوسلو.. ثم اتفاق طابا، أو ما عرف بـ(اتفاق المرحلة الانتقالية)، والذي يحدد تفاصيل تنفيذ الحكم الذاتي بمعظم الأراضي المأهولة بالفلسطينيين في المدن الرئيسة بالضفة الغربية. الفلسطينيون قبلوا، وأبكانا محمود درويش وهو يغني: «لماذا تُطيلُ التفاوضَ يا ملكَ الانتظار؟»، وسكتنا شاهدين صاغرين، وكالعادة، لم تلتزم إسرائيل.

جاء «بيبي» ليعيد لكيان دولته بعضًا من تشددها، بعدما صوَّرَ المفاوضُ الإسرائيلي للعالم - زيفًا- أنه تنازل عن جزء

منه في اتفاق أوسلو، بينما الطرف العربي كان كديدنه - منذ حطت طائرة السادات المشئومة في مطار بن جوريون - الطرفَ الضعيف على طول خطوط مواجهة المفاوضات.

أُقَدِّرُ القائد الذي عبر للضفة الشرقية، لولا كامب ديفيد اللعينة.

***

جاء نتنياهو مُخلصًا لبلاده. و«بلادُه» قلت لنفسي: هي العدو البعيد الثاني، بينما نحن -حسب تصنيف مؤلفات نتنياهو- نحن الإسلاميين، على أساس أنني من الإسلاميين، أو كنت سأصير عضوًا في إحدى جماعات ذلك المصطلح. نحن نمثل العدو القريب والأَوْلَى بالحرب بالنسبة لإسرائيل. بينما «نحن» لا نرى في الدولة العبرية صفة العدو القريب.

كيف وافقت على هذا حينما شرحه محمود؟ كيف قرأت كل تلك الكتب التي غرف منها كلامه ولم أعلق، لم أُعَقِّب بتوقف، ولم أُراجع؟

نتنياهو يرانا الإرهاب، ويعتبرنا العدو القائم بالخطر، ونحن نعتبر حكومتنا العدو الأَوْلَى بالمقاتلة.. كيف لتشابكات المعادلة أن تنفكَّ؟ كيف تكون هناك جماعةٌ إسلامية تحمل شعار الجهاد في سبيل الله، ثم هي لا ترى في الذين احتلوا المدينة المقدسة التي حَطَّ بها بُراقُ النبي ﷺ، لا ترى فيهم عدوًّا أَوْلَى بالمقاتلة... أُحْجِيَةٌ؟ أَمْ مُخاتلة؟

إنها عين المخاتلة.

كتبت في كشكول خواطري: "هناك خطأ.. هناك خطأ. وبالنية وحدها، قد تكتشفه.. قد، ربما، لعل.. لكن متى؟".

***

لكي أكون صادقًا مع نفسي، فحتى الآن لا أدري إن كانت مراجعتي لبعض ما قاله محمود، والمؤلفات التي قرأتها في فترة معرفته، لا أدري إن كانت تلك المراجعة بدعوى المراجعة المجردة، أمْ كانت انعكاسًا لما تردد في الصحف المصرية عن مراجعات فكرية بدأتها قيادات الجماعة الإسلامية والجهاد في السجون؟

أو إنْ كان السبب الأساسيُّ والخفيُّ وراء ذلك إمعانًا في التخفي، أو منحَ بعضِ شرعيةٍ لرغبتي الباطنة التي لا أستطيع مواجهتها، سعيًا للتخلص من حمل الخبيئة.. مِنْ حَمْلِ ما قِيلَ لي إنها أمانة؟

***

بعد نشر تحقيق الانتخابات الإسرائيلية، أَعَدْتُ قراءته في ليلة صيف نادرة، من تلك الليالي التي قضيتها بغير ذوبان بين صَحْبِ الهوى.. بعد قراءته كاملًا، وقفت أصلي ركعتي قضاء حاجة. حاجتي كانت كبيرة وبسيطة أيضًا. قلت:

«يا ربّ، حتى لو لم تكن نيتي من المراجعة الشخصية خالصةً في سبيل الحق، فأنت قادرٌ على ردي للسبيل القويمة، فخذ بيدي

إليك أخذ الكرام عليك، وألهمني الرشد والرؤية السديدة».

نمتُ مُنشرحًا لمزيد من التأمل والمراجعة.. أريد الوصول.

***

من سار على الدرب، وجبت عليه مراجعة الدرب بين حين وآخر، الأغبياء يُصِرُّون على المشي على طريق واحدة دون السؤال مرةً عن علاقة السكة المسلوكة بالعنوان المقصود.

***

بما بين يدي من أدوات للصحافة، حرصت على كل معلومة أُحَصِّلها عن إرهاصات المراجعات التي تجري داخل السجون، بدأتْ من مبادرة حملها الشيخ الشعراوي، ثم انتهت بسرعة بعد هروبٍ دمويٍّ لثلاثة من القيادات التاريخية للجهاد، انتهت بمقتل اثنين منهم.

يحلو لجماعتَي الجهاد والجماعة الإسلامية إطلاق صفة «قيادات تاريخية»، مع أن كل التاريخ لا يعترف بعمر قصير، بدأ على أوسع التقديرات في السبعينيات، وأعلن عن نفسه صاخبًا في قتل أول رئيس مصري هدم بيده جدران سجن القلعة «التاريخي».. يا جماعة، سنواتكم القريبة لا تحمل صفة التاريخ.. اللاعبون الأولون مستمرون».

ثم استؤنفت المراجعات ثانية بلقاءات بين القيادات والأتباع المسجونين مع الشيخين الغزالي والشعراوي، قيل إنه في اللقاءات الأولى أدار الصغارُ ظهورَهم ورفضوا الاستماع، وقاموا

يُبَدِّعون الشيخين، مع أن الغزالي قضى سنوات في السجن مثلهم.

الصغير لا يرى إلَّا ما هو محفور بشمع رأس استحالت حجراً.

بدأت المراجعات بعد الهزيمة العسكرية الواضحة التي كسرت الجماعة الإسلامية في الصعيد، بعد سنوات من الثأر والرد. وتوقفت أكثر من مرة بسبب محاولات اغتيال كلها فاشلة. ثم كادت أن تموت بعد محاولة اغتيال أهم رجل في دولة مبارك بعد مبارك، صفوت الشريف.

كانت التسريبات والحوارات التي نشرتها حصريًا جريدة الحياة اللندنية مع أيمن الظواهري، عضو أول جماعة للجهاد بمصر أيام عبد الناصر، ثم الزعيم الأول للجهاد المصري، والرجل الثاني في قتال الأمريكان، كلها كانت تشير إلى أن الرجل لا يريد لهذه المراجعات أن تكتمل.

لماذا؟

هل لأنها ستُفْقِده مكانةً؟ هل لأنها تأتي تحت ضربات الأمن واضطهادات السجن؟ هل لأنها تأتي من طرف ضعيف ملَّ سنوات حبسه واشتاق للحرية بأي ثمن؟ حتى لو الثمن تنازلٌ عن كل المبادئ التي من أجلها ماتوا ووقفوا وواصلوا. هل المعارضة المسلحة صارت مهنة لمحترفين، لا يعرفون غيرها؟

أتخيل ذلك، لكن دون درجة الاعتقاد.

***

عبد الرحمن

في شهر أنجز ما يستغرق مع الأقران سنة، صار البحث شبه جاهز، بانتظار مراجعة المشرف قبل المطبوعة النهائية. لأسبوع كامل لم يتعاطَ شيئًا.

«لا بأس من راحة بعد إنجاز»، تحدث وهو يفتش بين أصدقائه عن شيء، قد يكون هناك جديد يُعيد له أشياءه الضائعة، ويرتب أفكاره المشتتة، حتى يستأنف بعثرتها. يقول:

«لا بأس من جرعة أخرى، وبعدها أهدأ قليلًا، وأواصلُ الانتباه».

انتبهت له العروس الجديدة، جارتُه.

***

أحمد

كل ما يصلني عن المراجعات كان يُشعرني أنني على سكتي الشخصية السليمة، كان يسعدني لأنني على طريق التفكير في استهلال مراجعة جدوى الاحتفاظ بتلك الأمانة، التي قد لا يكون من الأمانة الاحتفاظ بها.

أكذب لو قلت إنني نهائيًّا راجعت نفسي.

المراجعة تستمر طالما نَفَسٌ يُراجع فراغًا من نَفَسٍ سبقه بالصدر. طالما بصدرك شخشخة شهيق وزفير. قلت لنفسي: «فإيَّاك ثم إيَّاك أن تتوقف عن التفكير في طريق آخرها بين يدي مولاك».

المراجعات أصابتني بحالة من القرف من تلك القيادات التي - بين قوسين- تاريخية، فقد وصَلَنا أنهم نادمون على قتل السادات، الرئيس الوحيد الذي أفسح مجالًا للمتدينين، وأتاح لهم براحًا.

طيب، يا هؤلاء، كنتم احتفظتم بالدعوة، أو كنتم سكتُّم وظللتم تبحثون عن الدولة، كلامكم يُبين أنه لا تقابلَ بين دعوةٍ ودولةٍ، إمَّا هذه أو تلك؟ لو الاختيار الاثنتان، فلا الاثنتان، لا دعوة، ولا دولة.

ثم ماذا يعني أنكم تندمون على قتل السادات؟.. مجرد ندم؟

طيب، يا شيوخنا الأفاضل، من يعوض شبابًا بالآلاف عُذبوا؟ ومن يعيد عشرات آلاف السنوات التي ضاعت لعشرات آلاف الشباب خلف الجدارن؟.. من يعيد البسمة لعشرات آلاف الأسر التي فقدت واحدًا منها ذات ليلة، كتلك الليلة التي ضاع فيها محمود وآلاف المحاميد؟

وبالمرة، من يُعيد تلك الأرواح لرجال الشرطة، الذين قلتم لنا ولأتباعكم ذات صباح، إنهم الأولى بالقتال؟

ومن يعيد بعث أرواح عشرات السائحين، الذين ما كان لهم

يدٌ فيما بيننا وبين دولة مبارك؟ بعضهم لم يكن يعرف أساسًا أننا هنا، أننا موجودون. لا يعرفون عنا غير أننا قوم يبولون ويتغوَّطون ويتكاثرون ويأكلون في مكان ما، وأن هذا الـ«ما» هو نفسه مصادفة كان فيه، يا ما كان، قوم نسميهم فراعنة، بنوا دولة وتركوا آثارًا، وخلّدوا الموت أبديةً في أهرامات، وسحروا الدنيا بالعجائب.

من يعيد البسمة لزهرات تفتحت، فلم تُبصر فروعًا أنجبتها، سواء منكم أو من رجال مبارك؟ من يعيد لنا الأمن الذي كان أيام السادات؟

كانت لكم الجامعة واحة، وكنتم بها طوابير من نحل يَطِنُّ ويلسع اليساريين، وترعاكم الدولة، آمنين طابعين كتيباتكم ومطمئنين، وراتعين في معسكراتكم ومكبرين هنالك ومهللين.. كانت لكم، وكانت لنا وكانت لهم.. يا ليتها دامت لنا ولهم ولكم.

فهل يكفي يا سادتي الندم؟

والله لو أنفقتم ما في كل الصعيد من ثروة، لما وفَّيتم دِيَاتِ من قُتلوا خطأ أو بقصد، سهوًا أو عن عمد، بسبب مقالة صحافية محرضة أو فتوى دموية منفجرة.

أنا نفسي!

أنا، من يعيد لي أنا أمنًا كان، وابتساماتٍ كانت، وحبيبة غدرت بها؟

من يعيد جلستنا على شاطئ النهر الطيب؟ من يتركني مرة

أخرى أستمتع بعبد الوهاب يغني لنيلي، دون تنغيص ضمير بأن الموسيقى حرام.

يومًا ما سأبحث في كل ما سقتموه وسقيتمونا، من أحاديث تؤنبنا على الموسيقى، وتمنعنا من إرهاف السمع. كل ما قيل، سأعيد التفكير فيه.

الندم، الندم يا عزيزي الشيخ، ويا كل الشيوخ «التاريخيين»، وهل أهلك كلًّ من هلك قبلنا وقبلكم غيرُ ندمٍ، ولات حين مناص.

مرةً سمعت عبد الرحمن يتعالَى عليَّ بلُغتِه، ويشرح بيتَ شعر غريب يقول:

نَدِمَ البُغَاةُ وَلَاتَ سَاعَةَ مَنْدَمٍ والبَغْيُ مَرْتَعُ مُبْتَغِيهِ وَخِيمُ

الندم إذن، صِنْوُ البغي، أخوه وأمه وأبوه. فهل ما حدث من قتل السادات كان بغيًا؟

ولو كان ذلك كذلك، فهل ما تبعه من قتل منكم وفيكم كان بغيًا؟ أم أن البغي كان وحده منكم؟ أو هو فقط كان ضدكم؟ وهل أنا كنت على وشك أن أكون هدفًا لأحد البغاة، أو أكون باغيًا؟

هل عليَّ اليوم أن أندم على ما تسلَّمْتُ من خبيئة ترقد فوق سطح بيتي، أخاف لو نقب أحدهم مصادفة، وأخرجها مصادفة، وأذاع سرها مصادفة، ووقعت في أيد الأمن مصادفة، وجَدُّوا في طلبي هنا بغير مصادفة؟

سامحكم الله، كان من الممكن ألَّا أكون أنا هو «أنا» الآن!

***

فكرت أنه ببساطة:

كان من الممكن ألَّا أكون هنا الليلة، وألَّا يكون بجواري هذا التكييف وهذا التلفزيون وجهاز الفيديو، ومكتبتي الجديدة، كان من الممكن ألَّا أكون المقصودَ بضوء هذا المصباح في غرفتي، وألَّا يكون هذا السرير الوثير لي، وألَّا يكون هذا المفتاح وتلك السيارة المنتظرة أمام البناية لي، وألَّا تكون صورتي مستريحةً على رخصة قيادة كويتية.

كان ببساطة من الممكن ألَّا يكون برصيدي البنكي آلاف من الدولارات، بل كان من الممكن ألا يكونَ رصيدٌ من الأصل، ولا يعرف البنك الكويتي اسمي، ولا يعني له شيئًا.

فكرت بصعوبة، أنه كان من الممكن ألَّا أكون هنا، وألَّا يقول أحدٌ بأنه قد رآني مرة، وكان من الممكن ألَّا أكون أنا.

فكرت بقسوةٍ ووجعٍ، بأنه كان من الممكن ومن السهولة بمكان إمكان، وزمان إهمال، أن أكون هناك.. هناك حيث لا هناك مذكورٌ في سجلات تعداد جهاز الإحصاء، كان من الممكن أن أكون رقمًا في دفتر سجن، وملفًّا في أرشيف يأكله التراب بدور سفلي بلاظوغلي.

كان من الممكن أن يكون عضوي الذكري الذي يُشعرني بفتوتي كل صباح، محطةً للسعات الكهرباء، وكان من الممكن

أن يكون جلدي مسرحًا لكشط آلاتٍ لا أعرفها.. كان من الممكن أن أكون أحد ضحاياكم يا أسيادنا التاريخيين الأفاضل، ووقتها لن يجدي التصنيف، ولن ينفعني التفكير إنْ كنت لكم ضحيةً، أو لنظام مبارك.

وساعتها: «ولَاتَ سَاعَةَ مَنْدَمٍ». هكذا، ببساطة.

الضحية لا تعرف شيئًا، فهي لا تدرك حين تكون هنا أنها ليست «هنا» على مائدة عامرة. الضحية لا يُهمها إن كان من استلمها كلبُ صيدٍ، أو كان الذي سلَّمها هو زعيم الخراف الأرعن.

هل أنجاني الإخلاص؟ ربما. همست لربي:

«لا أملك غير إخلاص، فلا تُعرضني لتجربة السحق في زمن السحق».

***

وعبد الرحمن، تُرى ما هي أخباره؟ وكيف يستقبل ما يتسرب من معلومات عن تراجعات شيوخ الحركة التاريخيين؟ أو لعله لا يصله شيء ولا يهتم؟ ربما تغير تمامًا كما بدايات التغير التي لمحتها فيه في اللقاءات الأخيرة القليلة.

أكيدٌ أن أيامه تمضي، وإذن هي تمضي بخير. حين لا أخبار تصلنا، فالأخبار جيدة.

***

عبد الرحمن

شيئًا فشيئًا، فهمت الجارةُ الجديدةُ الإشارات، بمكتوم هدوءٍ تعارَفَا، غاب بَعْلُها في الخليج. كلَّما غابَ بعْلٌ، نشط بَغْلٌ. وعبد الرحمن غاب وهو يردد:

«أنا لا شيء، لا يشغلني إلا كثير شواغلي، التي لا تشغلني».

في مثل سِنِّه، جميلة، لم تستهلكها عاديات زواج دام شهرين، ثم استحال خطابات تتلقاها وتحويلات دولارية من الخليج.

قال لها:

«كم أحبك، وكم راقبتك منذ أول ليلة سكنت فيها بالجوار».

ولم يكن يحبها، فأحيانًا يكون الحب مجرد سبب لرص حجارة شواغلنا العادية، تعلو بجدار يُخفي أساسًا خائفًا من الريح.

قالت: «وأنا أُعجبت بك قبل ذلك».

بعضُ حُبِّنا وهمٌ، نتمسك به حتى نكون محبين. بالحب نصير شيئًا ماديًا محسوسًا موجودًا، موجودًا هناك.

حتى لو كان «هناك» هو وَهْمَ التفتير..

بعد الليلة الأولى معها، رجع واستغفر.

***

بعد لقائهما الأول، حدث ما كان. انتبه والمحافل تَدُقُّ بابه، تحوطه، تبعثر أثاث بيته، وتزلزل الفناء الفوَّاح بالفل والياسمين والتمر حنة.

بدأ التجربة. تجربة واقعية كمطرقة حداد، لا وَهْمَ فيها.

***

أحمد

كغرق الذي لا ماء غير ما أمامه كي يغرق فيه، غرقت في العمل. حتى كان ما كان وما سوف يكون.. حتى ذلك اليوم الذي كُلِّفْتُ فيه بكتابة حوار رئيس مصر، وبعده جاءت موافقة أمنية ضمن فريق يحمل تصريحًا بدخول مقرِّ رئاسة الجمهورية.

معنى هذا التكليف أني صرت في دنيا الصحافة – على الأقل الكويتية– شيئًا، ومعنى تلك الموافقة الأمنية أنني حرٌّ لفترة، وأنَّ ما كنت أخافه، ولا زلت، قد بدأ في التلاشي.

***

تلقيت دعوة عشاء من رئيس التحرير، على هامش اجتماع لمناقشة أوراق الحوار المرتقب، بوجود كل أفراد فريق الإعداد، بفندق «كراون بلازا» القريب من مطار الكويت. نزلت من السيارة، مسرعًا دلفت، بعد أن أرعبتني أصوات الطائرات. الهارب يخاف صفَّارة الوابور.. زعقت الطائرات بالسفر.. خشيت أن أقول: «إنه

ما زال الوقت بحاجة لتمضية وقت، والذوبان في مزيد من وقت».

قريبًا سأركب واحدة، ورغم التصريح الأمني الرفيع، فما زلت أخشى مواجهة النيل.. حياتي محطات والنيل منطلقي والنهاية.. الحياة محطات ننتقل من واحدة لأخرى دونما إرادة، أو بإرادة.

***

في ركنٍ بالمطعم الدائري، وراء شمعة دافئة، لمحتها؛ فانتبهتْ واستيقظ الذي عادتُه الاستثارة. تجلس بين رجل وامرأتين.. في بدايات الثلاثينيات، لها رائحةُ دفء، وأضواءُ غواية مغرية، مختلقة، غير نمطية، تأكل بهدوء، مثيرة في التقاطها أصابع البطاطس.

من قال إننا نأكل مثلما نذوب على السرير؟

***

نظرتُ باهتمام، بإعجابٍ أرسلتُ إشارةً بعد أخرى بأني هنا أنظرُ إليك.. نَظَرَتْ؛ وكنت أتحدث لرفاقي بثقة.. همَّتْ بالمغادرة بعد رحيل إحدى المرأتين، يبدو أن الرجل والمرأة بينهما ما بينهما، وهي أرادت أن تُخْلِيَ الجوَّ لهما، مشتعلة في عباءة سوداء، طرحة تبدي خصلة شعر فاحم ناعم.. رَمَتْ بنظرة.. استأذنتُ متعللًا بالإرهاق، وراءها أسرعتُ على قدمين من رغبة.

***

في باحة السيارات، مضطربةً وقفتْ، اقتربتُ منها بحذر.

لمحتني؛ فطال تفتيشها في حقيبة يدها، هل المفقود مفتاح سيارتها؟

– مساء الخير.. خير يا هانم؟

– المفتاح.. المفتاح لا أجده.. مساء النور.

– من الممكن أن يكون داخل الفندق حيث كنت تجلسين.

– لا؛ يبدو أن صديقتي أخذته بالخطأ.

هي حتى لم تتعب نفسها بالعودة للفندق والبحث. استجابت بعد قصير إلحاح ومظنَّة شهامة، على أساس أننا مصريان في مرآب غريب، وافقتْ على منحي فرصةَ توصيلها. وأنا أفتح لها الباب، نفذت رائحةُ «إسكيب»، فتعثر القلب، وهو من زمن ينتظر فرصة للتعثر.

– أنا اسمي أحمد الفخراني، صحفي.

– صحفي! كم تثيرني تلك المهنة!

– تُثيرك؟

– أقصد تثير حب استطلاع لدي، أكيد أنها مهنة صعبة.

– لم تخبريني عن اسمك؟

– أنا حنان توفيق، أعمل مضيفة طيران.

– الليلة عرفت كيف يختارون المضيفات.

***

حنان توفيق.. مضيفة طيران بالخطوط الكويتية.. مصرية.. مطلقة.. أنثى حقيقية.. أنثى بلون الخطر.. بطعم مغامرة. برائحة غرق.. وأنا، مِن زمنٍ يستهويني الغرق.. لم تَطُلْ مفاوضة. بعد يومين أشعلنا سيجارة حشيش من سيجارة أخرى في السيارة. الحشيش عبقري الإخراج من دوَّامة الأحزان، والدخول حيث بوابات شهوة لاذعة الهدوء.

حرصت على عدم الجنون الكامل، لكني عُدْتُ وعرضت عليها التدخين بالبيت والحديث باطمئنان، رفضتْ بخبث، أبديتُ ضيقًا مزيفًا. قبل أن تنزل أمام بيتها، قالت: «تفضل».

هل غابت بعينيها غمامة وهي تؤكد: «لكن بأدب.. ولك عندي هدية.. شيشة، فيبدو أن السجائر ليست كيفك».

كيف عَرَفَتْ؟ لا زلت أفكر.

المكان اشتعل، انتبر الفحم، فحمي وفحم المجمرة يأكل بعضه بعضًا. اشتعل الجنون دون سبق إصرار.. طوال الليل أقاربها ولا أقرب خاتمها المفضوض قبلي، حاولت الاستمتاع دون الوقوع في المحظور الكبير، تخيلت أنه بالإمكان إمتاعها دون الغوص فيها.

«شبيك لبيك ماذا تتمنى؟» سألتني، وكنت غائبًا في ذلك اليوم المطير الغائم، غارقًا أخاف من جِنِّيَّة النيل وأبحث عنها.

قلت: عادة أيامي الفعل، وأنا مجرد رد فعل.

لم تفهم، فأعادت سؤالها وعرضها.

قلت: أنا بين يديك فافعلي بي ما تشائين.

عرضت لعبة، أحضرت «كوتشينة». من يسحب ورقة أعلى، يبدأ بالفعل، وصاحب الورقة الأخرى، يستقبل مفاجآت الفعل. تمنيت لو فازت.

فازت. ودخلتِ معها في قبلة ساحرة، قبلات من نار وحشيش وفلفل وبهار، لثمات لها رائحة صوتِ كَمَان لم يهتم عازفه بشد أوتاره.

توقفنا.

ورقتي الثانية أعلى.

تسربتُ بفِيها منسابًا متسائلًا: أين جيهان؟ هل هي الآن تترك شفتيها له؟ اسْتَعَرَ لساني. ذوَّبتها، تلك التي ذوبتني ولم تبالِ ولم أبالِ.. وما لنا بالمبالاة في زمن بنا لا يبالي؟

مسكين محروم مشتاق، عندي ألف ألف لوعة، سِرِّي لا يُذاع، قال فمي: «اقتليني، هاتِي آخر ما لديكِ من أنهار عسلٍ حارٍّ، منه لا شِبعٌ ولا رِيٌّ».

فعلتُ كل شيء إلَّا ما أخاف الوقوع فيه، يكفيني مرة بالإسكندرية، وأخرى أخاف أن أحكيها!

احْتَلْتُ حتى صار بإمكاني الدلق من قُلة ماء الحياة دون فعل الطعن. شفتاها حِضن دافئ ضيقٌ كبحر.

الصحو وَهْمٌ، وفمُها حقيقة واقعة. وكان ستارها مرخًى ففتحته، ما إن فتحته حتى كانت الواقعة التي لم أنتبه لها بفعل الحشيش.

***

الواقعة أني بكيتُ لمَّا استيقظت بغرفة نومها وهي نائمة جواري مطمئنة يغطيها فخذي وذراعي، ويغطينا معًا دثارٌ هوايته الفرار.. وهي نائمة عاودت تقبيل وجنتيها.. تنبَّهَتْ متأوهة. قلت لنفسي:

«بما أنه قد وقع المحظور، فمرة كمرتين، لا تبالِ وخذ من زمنك الذي لم يمنحك على طوال حسن عشرتك معه».

طعنت، وأنا المطعون. لدموعي ما انتبهتْ. حزين أنا، وهي سعيدة منتشية. مسحتُ دمعي.. ضحكتُ..انسلَلْتُ متَّشحًا بقميص نوم أسود ناعم نائم. هل سألني وأنا أستلمه من الأرض: «من أنت»؟.

في الحمام كتبت على مرآة يعلوها قناع بخار: لقد فقدت عذريتي مرة أخرى، تذكرت حَجَّتي القريبة، فارتديت ملابسي على عجل، ولم أغتسل.

قُدْتُ سيارتي بسرعة.. بعجلة.. تجاوز المؤشر حد صفارة إنذار الخطر.. شعرت أن عقابًا سوف يأتي. تمنيت حادثة، لعل الله يغفر لي ما اقترفت. خفضت السرعة وأنا خائف، يُبْعَثُ المرء على ما مات عليه.

حتى هذه اللحظة، أناقض نفسي في المرة عشرات المرات.

سالمًا وصلت السكن، وشقيًّا. اغتسلتُ. دلكت كل أعضائي دلكًا. وقفت أصلي.. قررت الإطالة في القيام والقراءة والبكاء.. خشيت لو قرأت من سورة كبيرة أن أنسى بسبب الذنب الذي يستحق مائة جلدة. «قل هو الله أحد» كررتها في الركعتين.. رفعت يدي واستغفرت.. هدأت بعد أن عزمت على ألَّا أعود.

كانت لذيذة.

***

لاظوغلي

كل يوم صباحًا ومساءً يصطحبه أحدهم، يدفعه داخل دورة مياه، يبين للأعمى مكان التبرز. الشيء الذي لم يبخلوا به، وكان فيه زاهدًا، وجبتان: في الصباح قطعتان من جبن المثلثات ورغيف خبز جاف، وقبل العصر وجبة كاملة ربع فرخة أو قطعة لحم مدسوس في طبيخ ورغيف، أو طبق صغير من الأرز، وزجاجة ماء صغيرة، حتى أول أذان للفجر. وعلى مدى ليلتين ونهار ما طاوعته نفسه على الأكل.

مع نهار ثانٍ، صار آلةً تطحن كلَّ ما يُقدَّم.

***

أحمد

صُدمت حنان لما أفاقت ولم تجدني بجوارها، فشل مسعاها في الوصول إليَّ، لم أردَّ على هاتف المنزل. وصلت إليَّ من هاتف الجريدة.

– أين أنت؟

– أهلا، عندي شغل كثير.

– والليل؟

– مشغول جدًّا.

– هل حدث مني ما ضايقك؟

– لا مطلقًا.

– هل تفكر فيّ؟

– أنا بالدوام، ولا يمكن التحدث، حولي زملاء.

– طيب، دعنا نلتقي.

– دعيها للظروف.

– أنت قاسٍ.

– لا، لكن..

– لكن ماذا؟

– أعتقد أننا تسرعنا.

– ثم؟

– يجب علينا أن نبتعد قليلًا، ونترك برهة للتفكير.

– كما تريد.

– اتفقنا.

– طيب، نسيت أن أقول لك.

– خيرًا.

– أنت "وحشتني".

– "بجد"؟

– قوي.

– بجد؟

– طيب وأنا؟

– أنت مجرمة.

– سأنتظرك الليلة. لا تتأخر.

– دعيني أفكر.

– "براحتك". أنت تعرف العنوان.

شيءٌ ما داخلي، غير الجنس، يشدني إليها، شعرها الأسود المتناثر بفخامة، فوق وسادة انزاحت خجلَى في غمرة الغياب، لم يفارق مخيلتي. أشياء كثيرة شدتني إليها.. لكن واحدًا من بين كل تلك الأشياء كان عاصفًا.. رائحة «إسكيب» جعلتني أنام مع جيهان، وكنت مع حنان.

مسكينة تريد رجلا.. ومسكينًا يمعن في الهروب من كل شيء كنت.

***

لاظوغلي

في اليوم الثالث، أخذوه من الممر. حَسِبَ أنه ذاهب للتحقيق. ليس لديه ما يخفيه – يُمَنِّي نفسَه– ولا يعلم سبب اعتقاله. يدور وتنبؤات الاستكشاف:

«أيًا كان، فسأجيب بصدق، الصدق منجاة، وقد يكون كذلك حتى عند هؤلاء. سأجيب بإقرار، واستقرار في نبرة صوتي، حتى لا يتوهموا كذبًا».

دماغه تنفجر من الضيق والتفكير. صداع عنيف يدق.. لأول مرة يسأل المخبر:

– هل يمكن أن أحصل على قرص أسبرين؟

– راسك توجعك.

– آه والله.

جاءت الإجابة سريعة، ومفاجئة، وعفوية لم يعهدها. انْهالَ العلاج صفعًا على الوجه. وأجلسه في محل آخر لا يختلف عن الأول.

قبل المغرب، ولا صوت، يبدو أن الضباط لم يحضروا بعد لنوبتهم المسائية. بعد ساعات سمع خلالها صرير أبواب تئنُّ وتزمجر لمن خارجها أذلاء.

سرى زعيق وهتك الظلام: "لن أنتظرك.. لن أنتظر تفكيرك.. سؤال والجواب بعده على الفور يا بن ميتين الكلب". من مكتب قريب تدافعت صرخات، وجع لها جنبُ عبد الرحمن. أحس أنه هو من يصرخ. كأنه المقصود، يصرخ أحدُهم، فيئنُّ جارُ البابِ الخائف.

أيام بغير نوم مستقر، غفوات لدقائق، أطولها فاصلٌ بين أذان وإقامة. صداع عرف بعد ذلك أنه من مقدمات جنون قلة النوم، مع الصرخات تبتدئ مقدمات الانهيار. ظل أسبوعًا كاملًا على هذي الحال. خائفًا من يوم يسمع فيه غيرُه صرخاتِه، متململا من طول الترقب، أحيانًا كان يتعجل البلاء.

وقوعه ولا انتظاره.

انتصف الليل، وبلغ الصُّراخ غايته بالقلوب المرهفة أنينًا واستماعًا.

***

أحمد

قبل أن ينتصف الليل، كانت بين ذراعي.

سبحت في حضرة نهديها. ما أدفئها! رشفت، وما أشهاها!

***

عبد الرحمن

بنهاية الأسبوع الثالث.. صارت الوجبتان قطعة ليست صغيرة من الحلاوة الطحينية. زاد الصداع مع تحول رَمَص العينين تحت العصابة لصديد. أَحَسَّ بوخز إِبَر، لو حاولَ تهويةَ عينيه بفتحهما قليلًا تحت القماش الغليظ. أفزعته رهبة من أن يكون أحدهم يراقب ويعاقب. أرعبه تشاؤم من فقد بصره للأبد.

***

لثلاث ليالٍ متتابعة يشعر بأنفاسه، ويُفقده الاستقرارَ عدمُ استقرار حارسه على كرسيه، كلما مالت رأسه وثقل، هَزَّه. بالكاد غفل دقائق متفرقات. الجنون استبد.. صرخ:

«حرام عليك، أنام، نفسي أنام».

رَدُّ فِعْلِه أعلن أن ما خفي كان أعظم. أسكته.

سَكَتَ.

***

أحمد

مع حنان شعرت أني أشارف بحرًا دافئًا شهيًّا للغرق، بَحَّةُ غَنَجِها وقت تَرَقِّي الجنون كانت تعزف:

«هيا.. هيا.. لماذا التلكؤ؟.. كل الحياة أمامك، لماذا تصر على العذاب؟!».

***

عبد الرحمن

ريح باردة تعصف بقفاه. تيبست عظامه من استقرار جلسة غير مستقرة. والصداع جنون. تبتعد خطوات وتقترب أخرى. رأسه بلا قناع، وجسده بغير درع.. من أين يتَّقي كل الضربات لو جاءت مفاجئة؟

صعد أذان عشاء، صعدوا به دورًا واحدًا، أوقفوه على باب الضابط المُحقق. بعنف دفعوه. رغم الأسابيع الثلاثة، والتجربة لم تبدأ بعد.. أوقفوه بهمجية مقصودة.. حشروه وسط أجساد متلاصقة في ممر آخر، طويل أيضًا. جاسوا به بين أجساد،

أجلسوه. ثانيةً أوقفوه نحو ساعة، صاح حارس:

«اقعد يا حمار، اقعد كأنك على حَمَّام بلدي».

أجاب بصمت:

«بلدي وإن جارَت عليَّ فلا أحبها، بلدي لو قدر الله لي الخروجَ فلن أحبها، بلدي.. ليست لي من بلد، هذه ليست بلدي.

لا تسألوا الذين يكرهون: لماذا يكرهون؟ سلوا الليالي الأليمة. واسألوا أشجار حديقتي: من يرعاها الآن؟ سلوا سريري: أين صاحبُك؟ سلوا كل أيامي السابقة: لماذا كانت أيامي السابقة؟».

طالت الجلسة، اعتادت الركبتان على الألم، لم يكن مسموحًا على الإطلاق بتبادل الحديث، لم يكن مسموحًا بالهمس، حتى همس النفس إلى النفس، تقطعه استغاثات مشبوح قريب، صوتٌ يأتي من داخل غرفة التحقيق:

«سأنطق، حرام حرام، سأموت.. سأموت».

إلى غرفة المحقق، ككلب دخل.

***

أحمد

ذهبتُ لأحد كبار الشيوخ السلفيين المصريين في الكويت. مارست الاعتراف الكنسي مع الشيخ السلفي.. أخافني من الله،

ملأ سمعي بكل محفوظاته عن عقوبات الزنا.

زاد ضيقي وهو يسرد أحاديث لا يعرف أني أعلمها. لا يعلم أني أفهم تلك الروايات جيدًا، ولكن كفَهْمِ المحب الضعيف وليس كفهم المحاذر من قيود خَلْقٍ ضيقوها فضاقت عليهم.. دنيا الله واسعة، أكبر من عقل ضيق.

«إذن هل أتزوجها». سألته لأنهي جحيم الضمير.

– يا أستاذ، القولُ فَصْلٌ واضحٌ في كتاب الله تعالى: (الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ).

اندهش من ظل مجادلة بدت من تعقيبي:

– يا مولانا، أنا أيضًا ارتكبت الزنا. لم تكن وحدها.. أنا ما دخلت بيت دعارة. تواعدنا وحدث ما حدث. أتزوجها؟

– لا يجوز. كيف تأمنها على غيبتك؟ اتَّقِ الله واهجرها، هاجِرْ لربك.

على الرغم من كل خوف بثه الشيخ، فقد وازنْتُ بين احتياجي الجسدي والعاطفي لها، وبين تحذيره من الارتباط بمثلها، حتى توصلت لقرار اعتبرته وسطًا. سأتزوجها دون إنجاب أطفال، وعند أول بادرة شكٍّ في سلوكها؛ أطلقها.

***

لاظوغلي

استلم أوراق عبد الرحمن، قرأها بتمهل. في وسط ورقة بيضاء، خَطَّ بالرصاص دائرةً، كتب داخلها: «محمود يوسف». فرَّع بَسَهْمٍ يصل لدائرة فوقها، وضع بها اسم قائد التنظيم. وربط بينهما بمربع كتب عليه «اللّفة». وأسفل دائرة محمود، مد أسهمًا باتجاه ست دوائر، بإحداها كتب اسم «عبد الرحمن بدير» وحوَّطه بلفات من قلم أحمر.

وضع عسكري فنجال قهوة زيادة، وكأسًا مقلوبة، وزجاجة ماء معدنية.

رن الهاتف:

– تحت أمرك يا باشا.

– هل الليلة ستبدأ مع الواد.

– تمام يا أفندم.

– خذ بالك جيدًا، ما حدث مع محمود لا نريده أن يتكرر. هذه اللفة أو الخبيئة، يجب الوصول إليها، أكبر الاحتمالات أنها ليست بحوزته. لكن تقدير الموقف يشير إلى أنه همزة وصل، وسيط أو حتى قريب من هدفنا. توكل على الله.

– ربنا يسهل. سأمر على سيادتك فور الانتهاء.

بالطبع، لم يَنْسَ معتز بك زهران ما حدث مع محمود يوسف، ندم لوفاته أيامًا، ثم استأنف حياته. فبالنسبة له وللجهاز كله، تمثل الخبيئة التي سلمها محمود لأحدهم خطرًا يجب نزعُ فتيلتِه قبل مسِّها اللهب.. راجع مع مساعديه الاثنين، أدوات التحقيق: «سنؤخر التعنيف بقدر الإمكان» نبههم.. استوثق من تلقينهم الدرس للمخبر الذي سيمثل دور «محمود يوسف».

قال: "أدخلوه".

***

أحمد

في يومين اتفقنا على كل شيء. زواج على سنة الله ورسوله، بعقد سيكتبه صديق محام. زواج هدفه المتعة أو الإحصان كما كذبنا. لا ارتباط بأولاد ولا صداع بشواغل الزوجات وتسلط الرجال. زواج للمتعة وليس زواج متعة.

«تذكري جيدًا يا حبيبتي حدود الاتفاق».

مُغَفَّلٌ من يُعَوِّلُ على عَقْدٍ مع امرأة خطرة، أو يراهن على ذاكرتها.

***

جيهان

فور نزول معتز، هاتفت خالتها. دماغُها وادٍ تعوي به ريح فراغ، يشغلها تحليل المعمل، يُذهلها عن حاجات وهمية، وصارت أساسية.

– أهلًا يا جيهان، لا داعي للقلق.

– كيف؟ كيف، والسنوات تمر؟

– ما فهمته من التحليل أنه لا مانع، لكن هكذا يجري الأمر، أنت سليمة وهو كذلك. لكن المسألة تحتاج لصبر.

– هل تدخين الحشيش يمكن أن يكون عائقًا؟

– لا، ثم معظم الرجال يفعلون.

تمنَّتْ لو أكملت خالتها الطبيبة الحديث عن الحشيش، ثم المخدرات، وأن تُعَرِّجَ بكلامها إلى المرأة ولا تكتفي بالرجل.

– طيب، لكن أحيانًا، أتنفس دخانه في الغرفة.

– مجرد تنفس، حتى لو شربت امرأة فهذا ليس مانعًا، له أضرار كثيرة لكن ليس بينها تأخر الإنجاب.

– طيب، بالمناسبة، عندي سعال شديد، سأرسل لك العسكري لتعطيه روشتة.

- ليس تخصصي كما تعلمين.

- صديقة قالت لي إن هناك دواء اسمه "دودافين أو كورافين".. لا أذكر.

- كودافين.

- نعم كودافين. قالت إنه موسع للشُّعَب ومفيد في حالتي، ولا يُصرف بغير وصفة من طبيب.

- ابعثيه، لكن احذري وإلا سطلت، فهو مخدر، ومؤخَّرًا دخل الجدول.

- لكن يا "خالتو" أخشى أن يكون عائقًا؟ هل له تأثير على الإنجاب؟

- لا داعي للوسوسة. عيشي حياتك، لا علاقة له بالحمل، احترسي فقط ولا تُكرريه، فقد تعتادينه.

***

لاظوغلي

- أهلًا يا عبد الرحمن، سنتكلم مع بعضنا، ولو حضرت الصراحة والوضوح، فستبيت بالبيت.

- أنا تحت أمرك.

– كنَّا أمس نتحدث مع الأخ محمود يوسف. طبعًا تعرفه؟

– أعرفه يا باشا.

– جميل، يبدو أننا سنتفاهم.

– إن شاء الله.

– طيب، محمود تعقل وتاب عن أفكاره، وأراد أن يُكَفِّر عن أخطائه في حقوق الناس، وقال إنه ترك لديك لفَّة، أمانة، صندوقًا، لكن الصدق أنه قال: إنك لا تعرف ما به، وليست لك به علاقة. كل ما نريده هو تلك اللفة. هل رأيت؟ مسألة بسيطة. بعدها تتركنا يا أخ عبد الرحمن.

للحظات طالت، بلغت نصف دقيقة، لم يتكلم عبد الرحمن، بدا له أنه لم يفهم شيئًا. كرر المحقق سؤاله:

– كل ما نريده هو اللفَّة. أين هي؟

– يا باشا، أنا أعرف محمود، ولم يترك معي شيئًا.

– يا عبد الرحمن، نريد أن نظل هادئين معك.

– والله يا باشا، أنا أقول الحق، لم يترك محمود عندي شيئًا.

– يبدو أنك لم تفهم، يا بني، أنا أقول لك إن محمود أَقَرَّ واعترف بأنه أعطاك أمانة. وأنك لا تعرف عنها شيئًا. يعني أنت بعيد تمامًا عن أي مشكلة. لو قلت أين هي، ستنتهي المسألة، ولن نربطك بها، أقسم لك.

– وأنا أقسم يا باشا، بالله العلي العظيم، أنه ما ترك شيئًا، وهو كذاب، وأنا على طول الخط كنت ضد كل أفكاره.

مضى التحقيق نصف ساعة هادئًا، تركه المحقق بعدها نصف ساعة أخرى، قال له: «نسيت أصلي العشاء. وسأدعو الله أن يلهمك رشدك».

***

أحمد

أول شخص كنت أريد الحديث معه عقب زواجي الشكلي بحنان، كان عبد الرحمن، كم تمنيت لو كان معي، أو هاتفته. أيضًا هناك احتمال أن أسافر للقاهرة، لو قررت الجريدة ذلك، ترتيبًا للحوار مع مبارك. بالفعل هاتفته، طلبت رقمه أكثر من مرة وفي أكثر من نهار، من الجريدة، ولم يرد أحد.

قلقت عليه.

***

لاظوغلي

عاد المحقق وتكررت الأسئلة. كانت أقرب لحوار متعجل، وانتهى للاشيء. لا المعتقل يعرف شيئًا، ولا المحقق مقتنع

بشيء.

في دقائق انقلبت الأرض وضاقت.

***

أحمد

شعوري بالذنب من اقترابي لحنان قبل الزواج منها، ثم الزواج منها بهذا الشكل الشكلي، بقي يؤنبني بين الحين والآخر. هل إحساسنا بالذنب هو ما يجعلنا أحيانًا نذهب للجهة الأخرى في زاوية أخرى بضميرنا، علّنا نثبت أننا جيدون وعلى ما يرام.

في حالتي، كانت الصورة أكثر تعقيدًا، لا أدري هل أستطيع فكها وتقريبها لو كتبتها على الورق؟ أم ستظل غامضة؟

سأدخل مباشرة:

لقد تكررت أمامي كلمات محمود عن أن الإخوة قد يقعون في الذنوب، لكن تظل الثوابت راسية. بدأت في التفكير بصورة متحفزة. خَفَّتْ تدريجيًّا مع استحضاري فتوى أو رأي الشيخ السلفي عن الزانية، ثم ردي عليه بأنني كذلك.

في البداية - لو فكرت بتجرد وتدرج- يجب أن أستغرب التعمد في صب اللعنة على المرأة، مع استثنائي على أساس أن ضميري يؤنبني وساقتني قدماي طلبًا للهداية. فقد تكون هي أيضًا شعرت بتأنيب ضمير، وإلّا ما وافقت ورحبت بهذه السرعة

على الزواج، وبشروط مجحفة لها. ثم يجب عليَّ أن أواجه نفسي بصراحة: هل تلاعبتُ بشرع الله؟

هل احْتَلْتُ على الزِّنا الصريح بزواج فاسد؟ هل بذلك قد بررتُ الذنوب؟ كان لزامًا الفزعُ إلى جلسة نفسية:

– لقد ورثت شهوة، وعذاب نفس.

– أنت تبرر ثانية وتحاول التخفيف من ذنبك.

– لا أحاول.

– الذنب الخفيف لديك، ثقيل في شمال ميزانك، والعكس صحيح.

– أستغفر الله العظيم.

– ماذا تريد إذن أن نقول؟

– أنا ورثت شهوة، أورثتني ذنبًا، والذنب ساقني لبعض تبرير.

– نعم.

– ربما مبارك أيضًا قد ورث دستورًا ونظامًا خُطِّطت ملامحه قبله سنوات. بل إن أول دستور مصري منسوخ بقبح عن آخر فرنسي، قد صِيغَ وأبو مبارك لم يتزوج بأمه، قبل مولده بخمس سنوات.

– لكنه وافق، أقرَّه ونَحَّى شرع الله.

– نعم، ولكن.

– لا "لكن" ولا يحزنون، هذه أصول، ثوابت، أعمدة في بناء العقيدة.

– طيب لا لهذه الـ"لكن"، لكن أيضًا هناك "لكن" أخرى.

– تفضل.

– لكن كون مبارك قد نحَّى الشرع، ومَنْ قَبْلَه فعلوا، لا يجعل - بالضرورة- طريقَ محمود، وحملي للخبيئة، جهادًا سليمًا في سبيل الله. وتذكر كيف بدأت بقتل خطأ.

– قد عُدت لتذكر جثة أمين الشرطة.

– أمين الشرطة، وطفل من صُلبه، كتبته أمه "صباح" باسم آخر، وخدعته.

– وما ذنب محمود؟

– كيف هذا؟ لقد قتل!

– قتلًا خطأً.

– بل قتلًا باستخفاف، لم يتأكدوا ولم يتحققوا، وهي نَفْسٌ، بُنيانُ الرب. ثم انظر للنتيجة.

– لن أعلق، تفضل.

– نفس أُزهقت، أب مكلوم، طفل باسم غير أبيه. أسألك:

لماذا حرم الله الزنا؟

– لعِلل كثيرة.

– أهمها؟

– اختلاط النسب.

– فهل رأيت كيف اختلط النسب؟

قبل انتهاء جلستي النفسية مع نفسي، كتبت بضع كلمات، وصلت إليها بقناعة، ودعوت الله ألَّا تكون رد فعل عاطفيًا جراء حالة طارئة أعيشها.

***

عبد الرحمن

قبل نذير لسعة الكهرباء، تنهال الأكُفُّ على الوجه والقفا. غابت عنه كل حكايا صبر الأنبياء والأولياء والصالحين المبتلين من يوم خلق آدم إلى يوم تعليقه كالذبيحة، مهملًا وذليلا، لا كرامة، ولا قلب به ذرة من مثقال شفقة.

«هؤلاء لا يعرفون الله» أول هاتف دق برأسه.

كأنما سمعه المحقق، سأله: «هل ترانا كفارًا؟».

لم يرد، في صمته زأر:

«نعم كفار ولاد ستين كلب، أنتم من تجبروننا على تكفيركم. اليوم عذرت التكفيريين».

في داخله صرخ:

«يا حيُّ، هل أنا حيّ؟ أم هُم أمواتٌ؟ يا حيُّ، هل هذا التيار الحارق المرجف حتى يوم القيامة؟ هل في القيامة راحتي؟ أين أنت؟».

بين الهلاوس والتعلق بنجدة كمعجزة تهبط من السماء، حاول نشل روحه، ترك لهم الجسد، مَسَّه وَجْدُ نَدَم لتكفيره «الحلاج» المتصوف. تذكر صرخة الحلاج وهم يقتلونه، تمنَّى لو زعق بها: «اقتلوني تُؤجَروا، وأصير شهيدًا».

– أين اللفة؟

– لا أعرف.

– طيب أين الخبيئة؟ هل رأيت كيف نعرف التسمية التي اتفقتم عليها؟

– والله، لا أعرف.

– انطق، ذاك أفضل.

سرح: «مع المسيح ذاك أفضل جدًّا، هل كان أصلها (الرفيق الأعلى ذاك أفضل، مع الموت ذاك أفضل)؟ ممكن».

انتبهوا وهو يستغفر.

– ستموت ولن ينقذك أحد. تكلم أفضل. أين الخبيئة؟

– سأقول لكم.

تحت الأكُفّ القاهرة، اعترفَ بما فعل وما لم يفعل. أَحْكَمَ رواياتٍ منطقيةً، علَّهم يُصدقونه فيُلقونه بغياهب سِجن. تخيل أن في السجن ذاك أفضل جدًّا.

ذكر لهم عشرة أسماء أو أكثر، يعتقد أن لدى أحدهم ما يبحثون عنه. اللهب لا يغفو، وهو يصرخ:

"والله، والله العظيم، عليَّ الطلاق بالثلاثة، لا أعرف شيئًا عن أمانة محمود".

يفكر:

"هل عند محمود أصلا أمانة؟".

تركوه دقائق. لا ليرتاح، بل ليرتاحوا هم، انفتح الباب، وعاد مغلقًا مرات.

بالجراح مُثخن، وفي كرب عظيم. فكيف تأتيه الزيارات في غرفة التحقيق. يتساءل: من أين؟ وكيف؟ ولماذا يزوره ابن عربي؟:

"أتيت يا ابن عربي. كيف أتيت؟ من أين أتيت؟ ولماذا؟ هل جئت من زِنزانة بالمبنى، أم من غرفة تحقيق مجاورة؟ هل أتيت لتُبعد، أو أبعد بك عن رأسي شبح وساوس التكفير؟ همِّي أن أخرج سليمًا".

تُنجده ذاكرة حفظ حديدية: في سجنه قال ابن عربي في كتابه "شجون المشجون وفتون المسجون":

"شرور أصحاب الشمال نِقَمٌ وتنغيص، وشرور أصحاب اليمين تكفير وتمحيص، وشرور السابقين نِعَمٌ وتخليص. وخيرات أصحاب الشمال حجاب وبَلْبال، وخيرات أصحاب اليمين إعانة على الكمال، وخيرات السابقين مواهب وأفضال".

تساءل: هل بقي أمل في نيل الماجستير؟

***

أحمد

كتبتُ:

«ليس بالإسلام رهبانية، وليس في ديننا رجال دين، هناك وعاظ وفقهاء وعلماء، وأصحاب كرامات. لكن عندما يُحدثنا اللهُ تعالى عن بني إسرائيل قائلًا: [إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ] وتوبيخه سبحانه لسيرة علماء بني إسرائيل، فإن ذلك الكلام المقدس ليس حديثًا تاريخيًّا، وقصةً وانتهت، بل هي قائمة كل وقت.

إننا نُسقط كل نص، ونُلبسه على من خالفنا، نعتبر المفتي وشيخ الأزهر ودعاة التلفزيون علماء بني إسرائيل، فيما نحن نتسرَّب كالنمل لجحور بني إسرائيل بأنفسنا، كيف ألمح عيوب

الآخرين وألعنهم وأكفرهم، وعلى نفسي أحنو. صدقت يا رسول الله: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ». القُذَّة بعيني، ولا هَمَّ لي غيرُ رَمَدٍ بعيون الآخرين".

***

لاظوغلي

عادوا، فلعلعت الكهرباء.. كل ما يعرفه قاله. أخبرهم بما لم يعرفه. وهم لا يصدقون. أتعب عقله ولم يصل لما يُرضيهم من اعتراف.

– ما عندي قلته وزيادة.

– يعني تتكرم علينا يا بن المرة الوسخة!

– يا ربّ (صرخ بها).

– لن ينفعك.

– حرام. يا رب حرام.

همس ابن عربي بأذنه:

"مصيبة أصحاب الشمال تخسير وتدمير، ومصيبة أصحاب اليمين تطهير وتكفير، ومصيبة السابقين توقير وتوفير".

"خذوه" زعق المحقق: "غدًا نجيب من الآخر، وسيجيب

وليس هناك مفر من الصدق.. خذوه".

في أذنه رتل عبد الباسط:]خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ[.

"من أين جاء عبد الباسط؟".

***

أحمد

مضت أيامي مع حنان بسعادة، وقليل مراجعة، كل يوم كانت متجددة، تركتُ لها نفسي.

أعترف أني كرجل تعلمت منَ تلك المرأة الكثير، كنت كريمًا معها، فأغرقتني بهداياها من الدول التي تزورها، مع كل رحلة هدية، وبعد كل رحلة لقاء عاصف، غُرفتها مخزن طِيبٍ، لا تذهب منها رائحة العود والبخور.

***

عبد الرحمن

ساقوه بينهم، لا تحمله قدماه، كأنه أسير، يسير نحو حكم إعدام، مسافر عريان باتجاه ريح ضوء فاضحة، تدفعه أكُفٌّ وأقدام، الدفع أوله عنيفٌ. وصلوا لسُلَّم، ضعُف الدفع.. كان الحارسانَ يتحدثان عن مباراة لمصر فاتتهم، غاضبين من

النوبات المفاجئة.. همس أحدهما: «يبدو أن الشغل في هذه الأيام ستطول نوباته، وشاق».

بإهمال أجلسوه في ممر أسفل السلم، يشم روائح آخرين مثله. يشعر أنه رغم الأوجاع وكل الظلام، لم يعد وحيدًا. أَنَّاتٌ مكتومةٌ من كل جانب، أصواتُ تسابيحَ، ثرثرةٌ هامسة، قبل تَبَيُّنِها تَخْفُت. باتوا وبات بينهم، يجتهدون جميعًا في إطلاق كلمات على وجل، أو اقتناص أنَّات على خجل.

كان حديثٌ بين ثلاثة يصله بصعوبة، أذنه صارت أقوى أعضائه بعد العصابة والقيد، وثخونة تختلج كل الجسد. ثم عصفت ريح الممر النتنة بأنفه. الجلسة مؤلمة، بصعوبة يراوح بين فخذيْه حتى تهدأ الجروح.. ضحك مرة وهو يفكر لو سأل أحدهم ممن جرب الكهرباء في الخصيتين، هل قامت له قائمة بعدها، هل لمس امرأة، أو أنزل استمناءً؟

همس أحد الثلاثة: «اثبتوا أيها الإخوة، فالله غالب على أمره، لا تصدقوهم لو قالوا إن فلانًا اعترف عليك، أو عِلَّانًا قال كل شيء، وأن اعترافك هو تحصيل حاصل لمصلحتك».

سكت الصوت والحوار الهامس لدى سماع خطوات مرهقة. عسكري بيده قطع حلاوة طحينية، فرقها بقرف على الخِراف الضالة:

«سِفّ يا شيخ منك له، إلهي ترتاحوا أو نرتاح منكم!».

لم يبلغ العاشرة حينما تكهرب بالخطأ وهو ينزع فيشة من

حائط الصالة، هُرعت أمه وألقمته مذعورة ثلاث ملاعق سكر.. لعق الحلاوة وتمنَّى لو عظام قبرها تشعر به وتدعو له بالسلامة في تقلبها.

قال أحدهم:

«في حضرة التحقيق قل كلامًا لا يدل، فخير الكلام أحيانًا ما قلَّ ولم يدل».

***

أحمد

هذه الليلة اغتسلنا معًا، وسحبتني بيدها مسحورًا، أغيب في كهوف الجن وأنا أشاهدها تمر، وتقف قليلًا، فيغزو أسفلَها دخانُ بَخورٍ من مجمرة الفحم الملتهب.. بعدها لم أتمالك نفسي وأنا ألعق مَحَلَّ البخور.

لذيذة كالنار. وناري داخلي، وأنا أُشعلها وأضطرب؛ لأن سفري بعد ساعات. أطيلُ داخلها السفر، وباللذات أغيب مخدرًا.

ليت تخديري يستمر حتى أعود من القاهرة.

***

لاظوغلي

جاءه الدور.

«نبدأ يا عبد الرحمن؟ أم ستتكلم؟».

تكلمَ بكل ما نطق به قبل ذلك. فبدأوا معه من الآخر. قلعوه لباسه، القطعة الوحيدة التي سمحوا بها بعد حفلة الأمس.. موثوقًا كمسيح يمشي بالخلف لصليب معدني، عاريًا كعاهرة على وشك استقبال حصى الراجمين. يتأمل قدره:

«لا شيء.. كأني لا شيء. شجرة ميتة لا جذور لها».

بإحكام شدوا ذراعيه لأعلى، ربطوهما لـ«العروسة، العنكوبة» سرير معدني قائم.. شدوهما لما وراء محتمل الألم.. رجلاه متباعدتان، ومربوطتان.

وتَكَلَّمَ. أقسم لهم بالله العظيم أن يتكلم، وتكلم. وتكلم، حتى كاد يقترب من أحمد الفخراني، فلم يَبْقَ غيره ممن يعرف أنه على علاقة بمحمود.

***

أحمد

رهبة على باب مطار الكويت. وطني كم أشتاق، وكم عندي من لوعات المخاوف.

شالت الحقائب فوق الوزن المسوح به، اشتريت هدايا لكل من أُحب، حتى (صباح) ما نسيتها، وطفلها اليتيم.

عبوة إسكيب أصلية لجيهان. ما زلت في الوهم أعيش.

***

لاظوغلي

قبل أن ينطق باسم صديقه فكر قليلًا. حتى مع الكهرباء، فالتفكير ممكن:

«أحمد بالكويت، ولو ذهبوا لبيته فسيصله الخبر، ولن يعود لمصر للأبد، ولن يذوق من تلك المحرقة، هل أقول لهم إنه عرف محمود عندي؟».

زعقت الكهرباء: تكلم!

زعقت في دماغه إغماءة. أحسَّ وروحه تتوه في شتات، أن ضيق الكون فسيح.

شتات، شتات!

سِفْرُ الآلام

فظيعٌ جَهْلُ ما يَجْرِي وأفظَعُ منه أنْ تدري

عبد الله البردّوني

ما الألم؟

لا شيء،

قيل لنا إنه في البدء قد قيل لموسى: «بالتَعَب تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَ أَيَام حَيَاتِكَ. وشَوْكًا وحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا، حَتَى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. تَكْثِيرًا أُكَثِرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا».

أنا أتألمُ، إذنْ أنا إنسان في دنيا البشر. أنا أنسى الألمَ، فأنا إذن بشرٌ في دنيا الله.

من الصميمِ يفورُ بركانُ الألمِ، ليس ألمًا ذلك الذي لا يخترقُ الصميمَ.

أنْ تُمسك قلبَك و«منير» يقولُ: «عصرت قلبي الجواني»، لا أن

تطربَ، ذلكمُ الألمُ، فأنَّى نُمْسِكه؟

الألمُ غمامةُ دُخانٍ كثيفةٌ، تغيبُ وراءها شمسٌ، لو انكشفت أحرقتنا، ونحن نتوق إلى لظاها.

الألمُ سِمةُ المُحبين، صفةُ الرائعين. إن لم تتألمْ، فعلى حالك تَأَلَّمْ.

مَنْ ذاق قُربَها عَرَفَ، من تَشَتَّتَ فيها غَرِقَ، من ابتعد عنها وهو داخلها تألمَ.. من ذاق تألم.

خُلقت السماواتُ والأرضُ في سِتة أيام، فهل يجوزُ لي التساؤلُ: في كَمْ من الأيام الدهرية تَكَوَّنَ الألمُ؟

ألمُ الجسدِ نتَّقيه بخبرةِ الجسدِ، بوصفةٍ رديئةِ الخَطِّ من طبيب، بأعشابِ أجدادِنا النافعةِ.

ألمُ الرُوحِ لا خِبرةَ لأحدٍ به، من عرفه وَلَّى ولم يُعَقِّب، لينقل لنا خبرتَه المؤلمة.. حينما تتألمُ القدمُ نعرج، وحينما نعرجُ فلا إثمَ علينا ولا شديدَ تكليفٍ. حينما تتألمُ النفسُ فهي بين حالين: إما أن تعرج لسماء مُشرعة الأبواب، أو تجزعَ فتخسرَ الحالَ، ولا حَظَّ لها في مآل.

حينما نزورُ الطبيبَ، نشكو الألم، ثم نعجز عن وصفه، فنستخدم كل مفردات قاموسنا الشخصي، نقول: هنا وجعٌ، هنا نارٌ، هنا سيخٌ يُمزِّقُ، هنا دَقٌّ، طَرْقٌ، ضغطٌ.. ثم نُلخصُ المشكلةَ بما به بدأنا: «هنا ألم».. فهل وصفنا الألم؟

الألم بديهةٌ، وما أعقدَ بديهياتِ الحياة. هل البديهةُ تحتاجُ شرحًا؟

الألمُ قَرْصةُ نحلةٍ، لو تَعَشَّمنا العسل.

قال «أفلاطون»: الألمُ مَحَلُّه القلبُ، فضحك «ديكارت» وهو يكتشف بالدماغ نبعًا للألم، وتوالت كشوفُ رَحَّالةِ الألم؛ فَعَلَّمَهُمْ قَائِلًا:

«طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ؛ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. وطُوبَى لِلْحَزَانَى؛ لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ. طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ؛ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ».

مَرّةً سألتُ حكيمًا: ما الحل مع حال الألم؟ فتبسم مهمومًا وقال لي: «إن قبولَك الألمَ، تعطيلٌ لعقلك، وذبحٌ لقلبك، فمنهما يأتي».

«فما الحلُّ؟» قلت متألمًا مُتململا.. قال: «ما لا يمكنُك نَزعُه، تعايشْ معه، اقْبَلْه؛ طالما لا تستطيع له دفعًا».

«ظلمنا الألم»، هكذا تكلم أحد كبار المُتألمين.

قال: «بالألم يمنحنا اللهُ المعرفةَ بذاته. بالألم نشربُ الحكمة».

إن أكبرَ نِعمةِ الألم، رِقَّةٌ تَجْتَاحُنا لآلام الآخرين، فَتَرِقُّ قلوبُنا والدموعُ. لو فهمنا معناه، لهانَ علينا ألمُ الألم.

يريدُ الخالقُ مِنَّا اليقينَ الواضح، بأننا بدون تألم التذلل بين يديه، لا نقدر على شيءٍ، ويقدر علينا كلُ شيء.

الألم: خروجٌ من ثقبِ إبرةٍ. فانشغِلْ بالتفكر: كيف دخلت؟

الألم: هو أن ننسى كلَّ شيء ونحن نتأملُ حالَ سيِّدِ المتألمين:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ! فَمَسَستُهُ بِيَدِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا!

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجَلْ! إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ»!

قَالَ: فَقُلْتُ: ذَلِكَ لِأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟

فَقَالَ: «أَجَلْ»!

ثُمَّ قَالَ:

«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ؛ إِلَّا حَطَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا».

***

أحمد

لا يمكنُ بحالٍ وصفُ شعورِ عائدٍ لوطنه، تتراءى له أضواءُ القاهرة العامرة الساحرة. «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا»، دعوت ونزول عجلات الطائرة من حظائرها له اضطرابٌ.

تخيلتُ أنَّ أمنَها له ارتباطٌ بشيءٍ ما، لَدَيَّ، لو سِرْتُ وراءَه قد يُعكِّرُ صفوَ أمنِها المشمس، بي رغبةٌ في نسيان أمر الخبيئة،

ولديَّ نيةٌ لطَيٍّ صفحتها.. نِيَّةٌ غيرُ نهائية.

الغريب أني منذ نزولي مطارَ القاهرة، شبَّ بحلقي نفسُ طعم الخوف، وبانت رائحةُ قلق. لن أقولَ إنه طعمُ مرارة، ليس بإمكاني وصفُ الرائحة. طعمٌ ورائحةٌ قد يختلفان من شخص لآخر، أو قد يتفقان، ولا أعرف إن كان هناك بحثٌ طبيٌّ تَنَبَّه للمسألةِ. أكيدٌ أن الغربَ لم يتركوا صغيرةً في دنيا الطِبِّ إلَّا أجْرَوْا فيها أبحاثًا.

قد يعودُ الطَّعْمُ الخاص للأدرينالين. لكن الأدرينالين، أفهم أن يتم إفرازه في حالاتِ الخوف والقلق والغضب والجراءة أيضًا.

لكن الليلة بالقاهرة يغزو حلقي نفس الطعم الذي فارقته عند الرحيل، طعمٌ طارد لما في داخل الجوف، تتقلصُ المعدةُ من فراغها، مع أني أكلت بالطائرة. ونحن خائفون، يصير طعمٌ نتذكره في مواسم الخوف.

لكني، ما كنت خائفًا لهذه الدرجة.

***

لاظوغلي

توقفت الكهرباء، تأكدوا أنها إغماءةٌ حقيقية، هبط ضغطُ دمه، وبصورة خطيرة. استدعوا طبيبًا، وتركوه يومين.

سَكَتَ، قبل أن ينطق باسم أحمد الفخراني. ذكر نحوًا من

أربعة أسماء كانوا يصلون في مساجد يغشاها محمود.. قال ما تخيل أنه يُرضيهم وزيادة. ما رضوا.

قرروا أن يهملوه بعمدٍ قليلًا. لا بد أن هناك شيئًا لم يَقُلْه، وأسماءً لم يذكرها. بات لديهم شبهُ قناعةٍ بأنه لا يعرف شيئًا عن الخبيئة، لكن قد يكون لديه ما هو مفيد.

استردَّ عبد الرحمن وعيَه بعد ساعة، محلولُ مِلحٍ ردَّ إليه بعضَ روح. حتى رَدُّ الروحِ مالحٌ.

أول ما فكر فيه، إن كان نطق باسم أحمد قبل إغماءته؟ بعد ساعة أخرى تذكَّرَ أنه لم يفعل.

***

أحمد

الروضة كما هي، لم يُغيرها شيء، على الرغم من كل الأحداث التي أغارت عليها، ولم ينتبه لها الناس، الخريف هنا مختلف.. لن أكذب أو أبالغ لو قلت إن كل شيء في الروضةِ مُختلفٌ عن كل الدنيا.. الروضة مختلفة، «غِير» كما التعبير الخليجي.

حطت الطائرة مع منتصف الليل.. في الثانية صباحًا كنت أبحث عنها.. عطر لم يفارقني.. مررت على سور المقياس.. المشهد غريب، شباب يدخنون البانجو، كنا نتابع العاشقين هنا يتبادلون القبلات، فصارت القبلة بين شابين غيرَ عجيبة،

فهمت بعد ذلك أنها طريقة جديدة للتدخين، نار مرتدة «باكفاير backfire“ حتى لا يغور الدخان.

لن أنام.. أريد أن أحملها داخلي.. أريد أن أشبع منها.. أن أسجل في رأسي كل التفاصيل قبل عودتي، أن أخزنها داخلي، وأعود بها.

***

عبد الرحمن

بعد ليلتين أعادوا التحقيق، نفس الأسئلة. من آليات الاستجواب تكرارُ السؤال، اختلافُ تفاصيل الإجابات المكررة، قد يكشف تعمُّدَ الكذب، كما يُنعش ذاكرةَ المتهم ويُعيدُ إليه تفاصيلَ جديدة قد يكون نسيها في المرات الأولى.

سألوه ثانية عن أية أوراق تركها محمود. حلف بالله العظيم، وسخونة دخان سيجارة تقترب، أطفأها المحقق في حلمته اليسرى. صرخ ولم تعد الصرخات تعكس مأساة الوجع.

سكت المحقق لحظات.. شعر عبد الرحمن بأنفاسه. نفس عطر أحمد فاح منه وهو يلمس بعصا معدنية أثرًا لجرح قديم أسفل ركبته اليمنى.. نغز الشج.

— ما هذا؟

«لم ينتظر جوابًا».

– شظية؟ أم رصاصة تم استخراجها؟

صرخ عبد الرحمن. أعاد المحقق:

– قل لي، من أين هذه الرصاصة؟

– لا رصاصة ولا شظية يا باشا.. هذا جرح قديم من حادث دراجة في العيد.

وصارت السهرة كلها عن الإصابة القديمة.

– عيب عليك، لا تكذب، في أي معسكر أُصبت؟

– سأعترف سأعترف.

مفردة «سأعترف» قد تعني توقف التعذيب بُرهة يلتقط فيها نَفَسَه.

– انْجِزْ.

– هذه يا باشا أثناء التدريب في باكستان.

– متى؟

– من خمسة أعوام.

– كيف سافرت؟

– خرجت للعمرة، ومن السعودية لباكستان.

– ما شكلُ المعسكر؟

– معسكر..معسكر تدريب يا باشا.

– لا، يا روح أمك، صِفْه لي.

– ميدان رماية وحواجز، وحولها بيوت من صاج، كهناجر الجيش.

– ميدان الرماية في الجيزة يا ابن الوسخة، لما أقول "صِفْه"؛ تصف كما رأيت بالضبط. طيب، من قابلت هناك؟

– قابلت الدكتور أيمن الظواهري والشيخ أسامة بن لادن والشيخ عبد الله عزام.

– طيب، وماذا كان يقول لكم عبد الله عزام؟

– كان يتكلم في الجهاد يا باشا.

– طيب، ما رأيك لو هذه الليلة جعلتك تقابل عبد الله عزام.

تذكر عبد الرحمن أن عبد الله عزام مات من سنين، حاول أن يستدرك الكذبة المكشوفة:

– لا يا باشا، آسف، قصدي الشيخ عبد الله الإمام.

– ومن عبد الله الإمام؟

– شيخ

– لا، معقولة؟ أنا ظننته شيخة، تكذب عليَّ؟

وتوقفت الأسئلة، واستمرت الكهرباء متقطعة متواصلة، عقابًا

على المعلومات المزيفة.

عاد المحقق:

– يا عبد الرحمن، معنا لا ينفع غير الصدق.

– أنا تحت أمرك.

– طيب، سأصبر عليك. قل لي أين الأوراق التي تركها محمود؟

– قَطَّعْتُها.

– طيب، وماذا كان فيها؟

– طريقة صنع القنابل والمتفجرات، وخط سير وزير الداخلية من بيته حتى الوزارة.

أجاب عبد الرحمن بكل ما لم يحدث، لعل إجابة تُرضيهم، في البداية استمعوا باهتمام، وتوقف العقاب. لم يتوقف سوى دقائق. تأكد لهم كذبه، مع أنه اجتهد في ربط الأمور وجعلها منطقية.

عاقبوه.. وزاد العقاب. مُصِرِّين على سؤال أثر جرح الركبة؟

"يا شرموط، نحن حاولنا أن نكون محترمين معك، لكن يبدو أنك جنس وسخ.. وبكذبك ستصعد لفوق، وما أدراك ما فوق يا ابن المومس؟".

ساقوه. نزلوا دورين.. مروا في فناء بارد.. جسده يرتعش،

ولا يكفون عن دفعه أمامهم، موثوق اليدين من قُدّامٍ. توقف أزيزُ الريح. انفتح بابٌ له رائحةُ قبر.

"يا فتحي" نادى صوت غليظ.. رجع الحارس:

"ليس مكتوبًا له أن يبيت الليلة في الزنزانة". همس لزميله: "سنعود به".

وَخَزَتْه مَذَلَّة.

***

أحمد

الوطن تفاصيل صغيرة لا ينتبه لها الطغاة، وتساوي لدينا الكثيرَ. قصدت مقهى كنا نتعاهده في مدخل الروضة. ذكريات شجية تحدوني، وأوهامٌ. تَمَسُّكُنا بالوهم قد يجعل للحياة معنى.

جيهان وَهْمٌ، أيامي الجميلةُ الخوالي أمْسَتْ وهمًا، على الرغم من أني هنا اليوم، وآمِنٌ، فوجودي وهمٌ بعد انقطاع الأمل في عودة ما ذهب.. إنها لم تَدُمْ لأحدٍ، فكيف يظن مبارك ونظامُه أنها باقيةٌ لهم؟ يا ويح قلبي، إنها ما دامت لأحد، فلا عجب أن وصلت تقلبات الدنيا إليَّ، وإلي كل حَيّ، وكيف أسير، أخبط الأرض بهموم فتكاد تئنُّ من وطأتي، ولا تخف الهموم؟

كيف لرحيق العمر أن ينقضي، والشبابُ، ولا أَصِلُ حبيبي؟

هالني زحف الشيب للمعارف، كبر الناس، أنا أيضًا كبرت، وغدًا يميل الجسد ويصبح شعارُه الركوعَ.. مع أنني اليوم لا زلت متباهيًا بقوتي وملابسي الخفيفة.. غيرَ مقتنعٍ أن بردَ الخريفِ كوخز الإبر. إنها دنيا لا تترك راكبًا راكبًا، ولا ماشيًا ماشيًا، إن هي أقبلت فالجو ربيع، والطقس بديع، لا تشعر بوخزة البرد، وترتدي الخفيف من ملابس الفتوة. وهي أيضًا دنيا، لو أدبرت فكل غطاء لا يمنع البرد، وكل دهان لا يسكن ألم المفاصل.

***

لاظوغلي

للممر البارد عاد، مُلْقًى بين كومة من أجساد ثكلى. عرقٌ بُخارُه خانقٌ، اعتقدَ أن الليلة التي مضت بآلامها آخرُ العهدِ بغرفة التحقيق تلك، كما فهم من ختام كلام المحقق، وأن غرفةً أخرى في دورٍ أعلى، يربض بها محقق آخر، وينتظره.

أعلن المذياع الآتي من مكبرات صوت مسجد قريب، أن الفجر يقترب، تسابيح لنصر الدين طوبار، طار في سماء عالية، أحس أن «طوبار» يُنشد عن حاله:

«يا أمان الخائفين، يا مجيب دعاء المضطرين، يا ذا العزة والجبروت، يا بارئ الملك والملكوت، يا من أَمَّنْتَ يُونسَ في بطن الحوت، سبحـــانك.أنت الحيُّ الذي لا يموت».

مَسَّتْه سِنة من نومٍ.

***

أحمد

المقهى بميدان الروضة، يشبه آلاف المقاهي، والروضة لا يشبهها حي ولا منطقة، لمحت والد جيهان جالسًا. كأني رأيتها. اقتربت منه ولم أجرؤ على التحية، هو لا يعرف عن علاقتي السابقة بابنته.

والدها الموظف المهم على المقهى بكامل حُلَّته دون رابطة عُنق، يستمتع قرب الفجر بقراءة الجرائد، ورشف الشاي. كنت أراقبه وأقول إنها نعمة أن تتعلم كيف تجلس وحيدًا وأن تستمتع بوحدتك، لا تدري يا عجوز أن الشاب الجالس قربك، وحيدٌ دون ابنتك.. هل خانك الزمان؟ كانت جيهان صغرى بناتك.. كلهن تزوج.

هل تُراه فقد معظم أصحابه، خدعوه بالاختباء تحت التراب؟ هل يشتاق إليهم؟ وهل يذكرونه في أجواف قبورهم؟ النعمة أن تتعلم كيف تعيش حياتك حسب كل مرحلة، ألَّا تنشغل بغدٍ فتفقدَ اليوم، وألَّا تنغمسَ في ذكريات الأمس فتُفسدَ اليومَ ولا يأتيك الغد.. تُرَى كيف تقضي حبيبتي ليلتها؟

هل يضاجعها الضابط الآن؟

***

لاظوغلي

مضت ساعتان، فانتبه النائم. تمنَّى لو حكى ما رأى. هل يصدقه أحد:

«رأيته، رأيته أجمل من القمر، أضوأ منه في ليالي المنتصف.. يقود عربة يجرُّها حصان داهم السواد، على العربة أجساد متلاصقة، باسمون عرايا، تضوأ جراحاتهم، يضحكون وللدم رائحة العُود. أجري خلفهم، أَهُمُّ بالركوب. أُمسك بالعربة المنطلقة.

قال أحدهم: «بقي لك بضعُ جراحات لتصل. لا تعبأ بطول طريق عادتُها الشوك، وديدنُها الصبر. الجزاء على ما فعله الآخرون موفور.لا تترك أحدًا يسرق روحك. استمسك بحبك. كلهم معذورون».

استبشر، وظلام الآلام يغتال الآمال، تمنى بشدة لو يحكي، حكى لنفسه:

«لن يصدقني أحدٌ لو قلت إني تنبهت وقد خف الألم.. طِرْتُ بأجنحة من المحبة فوق أسوار لاظوغلي.. سَرَتْ روحي، فصليت الفجر مع الجُموع، ختمتُ الصلاة وأنا أردد مُسَبِّحًا: لا يجب أن تحملي حقدًا. هؤلاء الجلادون عقاب على ذنوبكِ. فَلَمْلِمِي عُرْيَكِ».

ضمَّ رِجْلَيْن أضناهما ما بينهما من لسعات، مدَّ ذراعيه

المقيدتين، أراحهما فوق الركبتين، مالَ برأسِه، تَوَسَّدَ العَضُدَين، راح يتذكر كل ما مَرَّ به قبل دخوله، تمتم بثقةٍ مفزوعٍ:

«لم أتعلَّمْ يومًا من دروس الحياة. خِلْتُ أنني بتوهاني بين البشر سأصير في مأمن. ما ذنب جاري الذي دخلت بيته؟

لَأَنْ يزني أحدُكم بعشرِ نسوة، خيرٌ له من أن يزني بحليلة جاره. يا ربّ، اغفر لجاري، أرجعه لأهله سالمًا، واهْدِ امرأتَه».

الليل باب، مفتاحه استغفار، وبالتسبيح ينفتح نهار.

***

أحمد

مضت ليلتان، ولا زلت ممتنًّا لإرهاق السهر، أنام على وجه الصباح، وأنتبه فأقطع الشوارع والذكريات، إلى حيث أماكنُ الذكريات والعِشرة القديمة، والأحاديث البدائية والبديهية والفجائية، أغيب في الماضي بكل ما أوتيت من حبٍّ لفناجين القهوة السوداء، وأضحك كثيرًا صمتًا، كلَّما وصلني صوت أم كلثوم بكلام الخيام:

فَمَا أطالَ النَّوْمُ عُمْرًا ولا قَصَّرَ في الأعمارِ طولُ السَّهَرْ

مشغولٌ بالقديم من الأيام، بمقاومة النسيان، أعيش في جلابيب الراحلين، والحقيقة أننا الراحلون، وهم الباقون فينا،

حتى مبارك لا نريد أن نصدق أنه سيصبح غدًا أو بعد غد، خبرًا لفعل ماضٍ ناقص ناسخ ماسخ، أين الأكاسرة الجبابرة الأُولى؟ هل تجد منهم من أحدٍ أو تسمع لهم قولًا؟ كلهم اليوم رميم.

إنها دنيا، نتذكرها دائمًا عند الموت، فنتنهد ونبلع ريقنا ونهمس: «هيه دنيا.. وحدوه».

كلنا يخطفنا الوهم.

***

في صباح يومي الثالث، رجعت حيث غادرتها ساعة غدرت بي الحياة. عدت لذات المكان الذي فارقت فيه حبيبتي في يوم مطير.. استنشقت بوُسع رئتي هواءَها العليل. عربة قريبةٍ فوقها جوافة. ظهرت تباشيرها، فلعلع القلق.. ينتشر البلح الأمهات فأغرق في القلق، إجازة الصيف تركب طائرة الرحيل، والمذاكرة لا بد منها. وارتبط البلح والجوافة بترتيب المكتب والغرفة، وعمل الجداول، وما زلت أنتظر البرتقال. غادرت المدرسة والجامعة منذ سبعة أعوام، ولا زلت في السابعة عشرة، طالبًا قلقًا، أنام فأحلم بالامتحانات، بكابوس الثانوية، بصراع بين أسرة تصر على القسم العلمي، ومراهق مشغول بنزار وشوقي وناوٍ على القسم الأدبي، سنوات مرت ولا زِلْتُ مفتونًا بالأقلام والكراريس، ولا زلت أصحو مفزوعًا أني تأخرت على المدرسة.

نغادر الوطن ثم نعود إليه، كأننا كنا هنا بالأمس، ويغادر الصيف، ويحل الخريف، فتبدأ أحزان المساءات، وتملأ الأنفَ

رائحةُ الكتب، للكتب رائحة، لكل كتابٍ ذكرياتٌ مع صوت المذياع، فات زمن الراديو، وحطت أطباق الفضائيات كالغربان فوق الأسطح وعلى الشرفات، ولا يزال الراديو صديقي. فيا ليتني ما غادرت مصر، ويا ليتني ما زلت بالمدرسة.

يأتي الخريف بموعده، فنفاجأ؛ كأنه أول مرة يأتينا، نراقب الأشجار، كلما اقتربنا من شجرة واسيناها، خففنا من حزنها على أوراقها التي آذنت بالسقوط، تصفر شوارع روضة المقياس وتعصف الريح بالأوراق المتشبثة ببقايا الصيف، ويأتي الشجن.

يأتي الخريف فأتمنى ألَّا أغادر سور المقياس، أحنُّ إلى عبد الوهاب. كثيرون غنوا للنيل، لكن كعبد الوهاب، لا.

لا أنتبه أن النيل إنسان مسافر إلَّا حينما أسمع عبد الوهاب، فات زمن السَّماع، وأصبح بالصدفة، وبقي النيل مسافرًا زاده الخيالُ.

أبكي ضاحكًا وأنا أتخيل جيهان بجواري. كل حجر جيري مجلو بمقاعد الجالسين يشتاق إليك يا حبيبتي.

يعتذر الصيف، ويدق الخريف على الباب، وخلفه شتاء يتخفى، فأنتبه لقلبي وأحترس من المطر، فبعض القلوب عصافير يبللها المطر.

يغادرنا الصيف، ونعود لبلادنا وقد غادَرَنا الأصدقاء العابرون، ونلتقي أنفسنا من جديد. ينام الصغار، ويخفت صوت الجيران، وتغتسل الشوارع القديمة، فتزورنا الأمكنة التي غادرناها ولم

تغادرنا.

كل الأمكنة تسأل عن جيهان.

أنت والصمت والهدوء، أنهار الذكريات ومفاتيح كنوز بحور الحنين، كلها موعدها الشتاء. عجيب أمر الشتاء، وعجيب أمر المحبين. وغامضة كضباب الشتاء هي طريق الناظرين للسماء، فاستمسك بالحب، فبالمحبة نبقى شبابًا وبالكراهيةَ يشيب الشعر. حين نحب نرتفع، وحينما نبغض لا ننظر للسماء.. ها أنت صرت آمنًا، ولو إلى حين.. لو ذهبت جيهان، فقد بقي عبد الرحمن.

في المساء سأزوره دون اتصال مسبق.. الاتصالات قد تكون غير آمنة.

ما زلت حذرًا.

***

لاظوغلي

كذبيحة عيد، سيق مُقيَّدًا معصوبًا.

«يا عبد الرحمن، هذه آخر فرصة لك لتتكلم. قلت أعطيك فرصة ثانية، قبل أن أُضطر لتصعيد الموضوع للدور الرابع. يا بني أنت مصمم على أنك تروح في داهية؟ لم تخبرنا لأي مدى وصلت علاقتك بمحمود يوسف.. كل كلامك كذب. ولو قدمت لنا

الأوراق التي تركها لديك فلا مشكلة بعد ذلك.. معلوماتنا أنك لم تكن عضوًا، ومحمود قال إنه تركها لديك على سبيل الأمانة. بشرفي يا عبد الرحمن، لو قلت لنا أين الأوراق، فسوف تنام الليلة على سريرك، وسنرعاك.. ونكون أصدقاء».

وافترقا أعداء. فلم يصدقوا صدق صادق لا يعرف شيئًا، ولا يملك شيئًا، ولم تكن معلوماته شافية.

خرج يشغله الألم عن بردٍ زارَ فقرات عُنُقِه وقرر الإقامة.

ما توقفوا به عند حدود الممر البارد، فزع، أحسَّ بوخز مفاجآت تتراقص وراء عصابة عينيه. مالوا به يسارًا، نزلوا في باب عطن.

«انزل يا شيخ».

انجرف لوادي قبور.

ضغط حارس على رأسه فانخفض، أدخلوه بالجانب من باب ضيق واطئ، مضوا، انغلق باب ثقيل، وراءه باب آخر ثقيل. وحيدًا أهملوه، لا صوت يسمع إلَّا همهماتٍ من زنازين قريبة. همهمات مختلطة. حَسَدَ تَجَمُّعَ المعتقلين معًا. ندب وحدتَه والظلامَ. وانشغل:

«ظلام أبدي بغير انتهاء، كان أحمد يغضب وهو يتحدث عن أن كل شيء في عهد مبارك بلا انتهاء. صدق صديقي، الوزراء نفس الوزراء، المعتقلون من لحية واحدة.

العينان تكتشف بمرور الوقت أنهما كائنان منفصلان عنك، من لحم ودم، لهما رئتان تشتاقان إلى قليل من الهواء، حتى لو كان عطِنًا، مختزنًا في صناديق حجرية، نسميها زنازين. العينان تريان كل شيء يصل إليه البصرُ حال النظر، والعينان تريان أشياء أخرى رائعة حالة الغمض المتواصل بلا حركة واحدة، إنها عوالم أخرى تنفتح أمامك..

ها هو ذا كعود من الضوء، في أبهة طيب العود، ها هو سيد ولد آدم بانتظارك، يبتسم لك، يفرش لك عباءته، يرحب، على يمينه الحسين وباليسار الحسن..

– صلى عليك الله يا عَلَمَ الهُدَى، والله يا سيدي كل هذا لأني أعلنت محبتك، واتسع بها صدري.

لكن لماذا يبدو الرسول الكريم في قسمات وجه أبيك؟ هل يمكن أن تتكرر الوجوه؟ سمعت كثيرًا عن تناسخ الأرواح، فهل أيضًا تتناسخ الوجوه؟

العينان مبصرتان إذ هما مغلقتان. والعينان إذ هما لا تبصران، تبصران أكثر.. حينما يُكتب لهما ظلام، ولا انتهاء. هل لهذا السبب سمَّى العرب الأعمى بصيرًا؟ حينما أخرج – لو خرجت– فسأبحث عن معنى الأعمى والبصير في القواميس.

أهذي؟ أم أنا شبح من الهذيان؟ في زمن الهذيان نعيش. وقضيت ما تبقى من ليل. ثم مرت ليلة أخرى، فنهار. لا أخاف من الانهيار".

***

أهملوه يومًا. جرى التحقيق بعد ليلة ويوم، زادت الجرعات، وعاد لنفس الزنزانة الواطئة الباردة، بارد بجلد مُدَخن.

هذه المرة، أمره الحارس بالجُثوّ على ركبتيه ووجهه للباب، نزع عنه العصابة، من الخلف بعنف ومضى، مغلقًا الباب الثقيل.

تخيل عبد الرحمن أن من وراء الباب ألفَ باب ثقيل.

لم يفتح عينيه، خاف أن يفعل. تحسس حاجبيه برفق وتوجس، فتحهما بصعوبة. لدقائق لم يبصر شيئًا، ولدقائق ظل على وضعه جاثيًا. شَخَصَ في الظلام:

«ليتني ما أبصرت، زنزانة لا تحتاج إلى وصف، قبر قائم، عمود من زخومةِ مَنْ عاشوا فيه أيامًا بطعم الصبار، للرائحة لون، وللظلمة رائحة. قبر لم يُفتح منذ خلق الله الأرض وقدَّرَ فيها عدله، كما قدَّر ظُلْمَ البشر وإفسادَهم.

يوم خلق الله الأرض، قالت الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها؟

هل اطَّلعوا على هذا الزمان، ودخلوا تلك الزنزانة؟

ماذا في الأوراق التي قال لهم محمود إنه أعطانيها؟ ربما لم يتكلم، ولم يذكر شيئًا عن تلك الأوراق، ربما تحت الضغط والتعذيب، حاول الهرب، فذكر اسمي.. أي ساعة نحس مرت بذاكرته وذكَّرته بي؟ لن أسامحه، مجرد كلمة، اسم وعنوان تحركت بهما شفتاه، دُفِنْتُ بلسانه هنا، ويا عالم إلى متى؟».

متر ونصف في متر، قاسهما بطوله الفارع. تحسس المكان، حمد الله أنه غير مقيد، ولا معصوب.

بالكاد بدأ يرى، يتخيل:

«كيف كتب السجناء ما كتبوا، ابن تيمية كتب على جدران السجن، وسيد قطب تغير كثيرًا وغيّر بقلمه في ظلام السجن، وغيرهما، فكيف رأوا. هل لم يعصبوا في أزمانٍ مضتْ عيونَ السجناء؟».

في الصباح، مسُّ ضوءٍ سرى، فصار الخفوتُ ممكنًا للإبصار، على الجدران قرأ ما حفرته أناملُ مسجونٍ سَبَقَه:

«أنا سيد عبد العزيز مصطفى السيد.. أجا دقهلية. معتقل من تاريخ 90/7/13 بغير اتهام ولا قضية، أستحلف كل من يقرأ هذا الكلام بالله أن يكتب لي تظلمًا ويقدمه في مكتب النائب العام، ومكاتب حقوق الإنسان، فإن لم يخرج وتم ترحيله إلى أي سجن، أن يوصي بها أقرباءه في الزيارات. فكَّ الله كربة من فك كربة أخيه المسلم.

المقر بذنبه والصابر لقضاء ربه/أخوكم سيد عبد العزيز مصطفى السيد»

فتح ورقة الحلاوة، ولعقها كلها.

***

أحمد

مواصلًا قضيت النهار في مكتب الجريدة بالقاهرة، خلية نحل استعدادًا للحوار. الموعد بعد ثمان وأربعين ساعة. قضيت المساء مع جدتي وزوجة أخي.. جدتي ما زالت تعرفني رغم مباغتات الشيخوخة والزهايمر. حكينا عن الماضي الجميل.. جلست تحكي وهي تُطَبِّقُ ملابس كانت مطوية، في جلستها الساكنة المستكينة، تخافُ أن يُثِيرَ صخبُ ابن أخي حفيظةَ «الباشا»، تُراقبُ المرأةُ الطاهرةُ مما يعتري النساءَ، كلما دار هلال، والعجوز العابرة لمحن الأيام والليال، الحكيمة الصابرة على ما يجزع منه الرجال، تدقق النظرَ، تسألُنا وهي عليمةٌ: أين أخوها محمد؟

«زرته في سجن وادي النطرون، لقد قبض عليه رجال عبد الناصر، وطلب مني بعض الكتب والملابس الداخلية وكشاكيل وأقلامًا وفرشاة أسنان، زرته قبل أيام، ولا أعلم إن كان لا يزال في المعتقل، أم هو الآن عند خطيبته التي تتصور أنها بنت الباشاوات.

محمد طيب، يحبني كثيرًا، كلما زارني أهداني، كان أكبر من أبيك، كان مثلك يقرأ، لماذا لا يزورني؟».

ولا تعلم، أو هي تعلم وتريد ألا تعلم وألَّا نعلم أنها تعلم، بأن «محمدًا» مات منذ ثلاثين عامًا. مرةً نَكْذِبُ بأنه حَيٌّ يُرزق، مراتٍ نصدمها بالحقيقة، فتحزن لدقيقة. وتعود لما كانت تحكي عن

أخيها الذي ما عاد يزورها، تَقُصُّ علينا تفاصيل التفاصيل التي مرت بها ومرت عليها عشرات السنين بحلوها ومرها.

أليس كلُّ قديم جميلًا، وكلُّ مُغادرٍ لا يُغادر، وكلُّ ذاهبٍ ساكنٍ بيننا لا يُفارق، ولا نريده أبدًا أن يفارق. وتُدهِشُنا الحياةُ بمرض امتداد الحياةِ الغريب، أو بنعمة الإله اللبيب، ويرتكنُ صدى الحادثاتِ، وتنام الأحزانُ على جدران مجرى الدماء، فيقول الطبيبُ: ها هو التصلب يضرب الشرايين، يسرح فيها.

ويدقق الطبيب النظر، فلا يكاد يرى وجوه الراحلين تنام وادعةً مطمئنة، فوق مخدات أنسجة القلب والأوردة، وننتبه؛ فتنتبه الأفئدةُ، لزائرٍ جديد نُسميه الخَرَف، الهرمَ أو (ألزهايمر)، ونُجهد عقولَنا في البحث عن علاج، ولا نتصورُ الفؤادَ العليلَ سليمًا، وأن المرض هو أعظمُ العلاجات، غايةُ عطاءات الوهَّاب، وأكثرُها رحمةً، وليس له أعراض جانبية إلا ذكريات محبة. وبالمحبة تستمر الحياة، وبالشيخوخة نُشَيِّدُ التجاربَ ونصوغُ الخبرات، ونعرف الناس أكثر، ونعرك الدنيا وتعركنا، ونزعم أننا نكرهها وتكرهنا، بينما الكاذبون نحن، وحقيقة العلاقة المحبة، وكلما ازداد العمرُ من السنوات حبةً، زادت المحبة.

العجوز التي غادرها مَسكنُها، وغادره بنوها وبناتُها، وآلَ للسقوط، وأهمل الآلُ الزيارةَ مكتفين باتصالاتٍ، لا تُشبعُ عينًا من مشاهدة، ولا يدًا من سلامات دافئات كاستلام خبيز فرن البيت القديم، ولا بيتًا من حركات فكاهية كنذير اقتراب غليان الشاي الصعيدي الثقيل.

العجوز التي سبقت شيخوخةَ طاقمِها الصيني المذهَّبِ شيخوختُها، العجوز التي غدر بها من كانت تتخيل أنهم لا يغدرون بالرحيل، فرحلوا حاملين الدفء، وتاركين العظام للسعات البرد، والمفاصل لنهش التيبس، ومُخَلِّفين لها نزيف الذكريات، تقول إن الإله رحيم، وإنها لم ترتكبْ كبيرةً قَطُّ، وأنا أصدقها، فهي عندي سيدة سيدات هذه الدنيا التي أحياها. بيضاء هي على الرغم من سمارها الصعيدي، صافية كالحليب الذي لم تهمل كويه اليومي للأبناء والأحفاد، ولكل مَنْ لحمُ أكتافِهم مِن لبنِ صدرها، تقول إنها كانت تُغَسِّلُ وتُحمم حماتها وخالة زوجها، وإنهما كانتا تدعوان الله لها بالسِّتر، وإنها تُصدق إجابة الدعوات، وتَأْمَنُ إذ تسمعها، وترتقب نعمة الستر من حييٍّ سِتِّير، وعاشت حتى نعمت بجزيل ستره، وسابغ عطائه.

يضربها «ألزهايمر» فلا يمحو من ذاكرتها العرفان، ولا يُنسيها عاداتِ الصدقات، وأحوالَ جاراتها الأرامل والمطلقات، تُخبئ الجنيهات بعيدًا في صُرَّةٍ، من خارجها صُرة، ومن حولهما صُرَّتان، خوفًا من لصوص مُتَوَهَّمِين، أو طمّاعين مُشفقين، ثم تنفتحُ الصُّرَر بعبيرِ عطايا، ويُفكُّ الكيسُ، ويتدفق الخير كلما زارها منْ يستحقُّ العطاء، أو من اعتادت أنه يستحق.

كبارُ السِّنِ بركةُ نهر الذكريات، في النهر تظلُ فروعُه الأصيلةُ، وأسماكُه الثريةُ، وطِينَتُه المفعمة بالخير، ولا يعبأ النهرُ بزُواره الجدد، ولا يهتمُ لزَبَدِه العائمِ فوق صفحةِ الماء.

من بعض الداء دواء، وفي القسوة تكمن رحمة، وتختبئ فلا

نراها أو ندركُ حكمتَها، والله لطيف بعباده، أكرر: «الله لطيف بعباده»، والجملةُ لطيفةٌ ناشرةٌ اللطف، ومُطْلَقَةٌ في كل وقت وحين وزمان ومكان، وشخص وآخر. من جميل لطفه؛ مَنْحُنا الدعاء، بإبقاء من هو مستجاب الدعوة فينا، فيا سبحانك يا أيها الرب اللطيف.

الملابس تركتها زوجة أخي مبعثرةً بقصد وسبقِ تدبير، فهي تعلم أن العجوز تعشق (تطبيق) الهدوم ورصّها، تحب العجوز أن تكون ذات فائدة، مع أن فوائدها موفورة الفائدة. انتهت من كومة الملابس البيضاء، التقطت جوربًا يشتاق لوخزة إبرة الراتقة، هي لا تترك شيئًا بلا إصلاح، مع أن الزمان بخل على ذاكرتها بالإصلاح.

في أيامنا المبنية فوق مئات الأيام والليالي، هذا الصباح، تزورنا شموسُنا الأولى كعطر الأحبة، تتشابه كل البيوت، وتتداعى الطفولة في ثوبها العاطفي، تسامرُ حفيدَها العائد من سنوات النفط، وغربة الوجوه، بكيس نقود لا يساوي هموم السفر، لكنه قد ساوى للأسرة بيتًا، رَمَّمُوه من طابقين وحديقة، تتخيل أنها ذات الحديقة التي اعتادت اللعب فوق حشيشها الأخضر، واهتزت تحت شمسها ضفيرتاها، هي بعد كل هذي السنين تهتز ضفيرتاها عند كل تنهيدة وانحناءة، تغيب عن الحاضرين، تذهب ما بين روضة المنيل وحي الزمالك، تُمسك بيدِ أبيها، أول من فاجأها بغدر الرحيل، تركها وقيل لها إنه صعد إلى السماء، وهي بالكاد قد صعدت فصلها الثالث الابتدائي، تركها مع عروستها القطن في صحبة إخوتها، وكان محمدٌ الأقرب والأكثر عطفًا

على اليتيمة، تغيب الطفلة العجوز اليتيمة على صفحة ماء النيل وتفيق، فتسأل حفيدها الصغير أحمد عن جده المعلم الفخراني، وتقول إنه كان ينتظرها لتقص عليه نبأ زيارة الزمالك.

– ألسنا هنا في الزمالك؟

– يا جدة أنت هنا في الروضة.

– لا نحن في الزمالك، ولكن كيف تجرؤ على الجلوس والتحرك بكل هذه الحرية في سرايا الباشا؟

– أي باشا يا حاجة؟

هذا منزل محمود فهمي القيسي باشا، خال أبي، هنا كان يجلس، وفي هذي الحديقة كان يقرأ الجريدة ويشرب الشاي.. أين الشاي؟ أريد كوب شاي مضبوطًا، شاي هذه المرأة لا يعجبني، اعمل لي أنت كوب شاي، القيسي باشا كان يحبه مضبوطًا، وأبي كان يشربه ثقيلًا كالحبر، لكن أين القيسي باشا، وأين ابنته حسنية؟ وكيف تحصلت أنت على سرايا الباشا؟ ولماذا الأثاث يبدو غريبًا والسرايا أكثر ضيقًا؟ كنتُ كلما زرته مع أبي، رمى في حجري قرشًا كاملًا.

تأملتُها في خشوع، لملمت الشفقة من قلبي والدموع، تخيلت كيف يمكن للجبال أن تنهدَّ على وقع دوران الأرض، وكيف يمكن أن يستيقظ القلب ذات صباح ولا يرى من يحب. هي في الثمانين، وأنا دون الثلاثين، هي ما زالت في خاطري تلك المرأة العفية التي تصطاد شعر الصغار الطويل كلما دق صمتَ البيت صخبٌ،

وأنا لم أزل ذيَّاك الصبيَّ المغامرَ في ملكوت غرفة السطح، حيث الفضاءُ بلا رقيب، وحيث الخيالات تغتال كل وقائع اليقظة.

كيف كبرتُ فجأة، وكيف نسيتُ الخبيئة؟

***

لاظوغلي

«مضت ليلتان، مضت ثلاث، أربع، وحيدًا بصيرًا، ونسوني، فلا كربَ في غياب الكهرباء».

لم يكد عبد الرحمن يهنأ بغيابهم، حتى دقت الأقدام بين الزنازين، تَخَيَّلَها خطواتِ ملائكةٍ غِلاظٍ شِدادٍ يتقدمون لقبض نفس شريرة. تَكَوَّرَ على نفسه، زحف لزاوية الزنزانة. نادى صوتٌ أزرقُ مُلتهب:

«تعال يا حيوان».

لم يتحرك.

«تعال يا روح أمك، خَلّص وبسرعة».

زاحفًا أو منحنيًا، بكل تعابير الاستجداء مشي، والمذلة:

«الله يكرمكم، كفاية عذاب».

جبذوه بعنف، أمروه بمواجهة الباب، بغير اعتراض ائتمر.

وهل يملك حقًّا في اعتراض؟

لفوا العصابة على عينيْه ثانية. شعر براحةِ مَنْ تَعَوَّدَ شيئًا ووجده بعد افتقاد. نزلوا به دورًا آخر، بدأت طُمأنينةٌ على استحياء، فخبرة الأسابيع علمته أن الصعود يعني التعذيبَ، والنزولَ راحةٌ مستقطعةٌ بين أشواط الجحيم. قطعوا ممرًّا طويلًا، من رائحة العرق المنتشرة أدرك أن عشراتٍ بالمكان.

دار مفتاحٌ بصخب، وانسحبَ مِزلاجٌ حديديٌّ، صُدِّعت رأسُه من صفع قبضةِ المزلاجِ مصطدمةً بأسفل بابه. رموا به للداخل. فكر، لو ركز سَمْعَه ليقارن بين صَوتِ المزلاج حالَ انسحابِه لفتح الباب، وبين ما هو منتظر من صوت دفعه بالعكس، وإغْلاقِه.

باغتته - على غير المتوقع- سَكِينةٌ، قال: «على الأقل - هنا- أنا معتقل، أما فوق، فانتهاك الآدمية، وكهرباء الشيطان مُستعرة».

بين عشراتٍ جِثِيًّا، جاس بين روائح العطن، وزهومة اللحم النيئ، وبرودةِ الجدران، شعر أن المكان واحة للراحة، للتسبيح باسم القادر على إنقاذه، سَبَحَ في دهورٍ من ذكريات. الزنزانة ضيقة. لكنه لم يعد وحيدًا. منَّى نفسه:

«حينما تلتف الوحدة، وتُحْكِمُ أسوارَها، نقفز من فوقها بما نملك من ذكريات، نَجْتَرُّ كلَّ قدرةٍ للعقل على التذكر، وإن مسَّنا يأسٌ أو مَلَلٌ ذَبَحَنا، يميل المساكين إلى المساكين، نُحشر جميعًا في زُمرة مساكين الدنيا، نتبادل التجارب ونسمع بتمعن لروايات

المصائب».

***

الزنزانة صاخبةٌ في صمتها، خامدة تموج بحكايا، يتقاسمها مُرَتِّلٌ لما تيسر، ناصحٌ أمينٌ، أو متباهٍ بأهميته بين الجماعات غير مبالٍ بالهول. تعجب عبد الرحمن: «حتى في القبور لا يكف البشر عن التباهي!». آخر يشرح كيف يواجهون القادم من أيامهم، ينصحهم بحكم تجاربه السابقة، هنا للأقدمية احترام.

***

بعد ست ليالٍ، نادوا على سبعة معتقلين، بينهم عبد الرحمن، ساقوهم للدور الرابع. أجلسوهم من بعد آذان العشاء، ولمدة قاربت أربع ساعات.

لم يعودوا يهتمون بالبقاء منتظرين، فكلما مضى جزءٌ من الليل، لم يتبقَّ بساعات الاستجواب كثير. بدأ بعضهم في الهمس، لم ينتبه الحراس، أو قد انتبهوا ولم ينهروا أحدًا. مع الفجر عادوا به من حيث أتى.. لم يتم تحقيق.

***

أحمد

مضيت أطوف ببيت جيهان، ليس طللا، وأنا طللٌ يحنُّ إلى سكانه الغادرين.

غدرت بي جيهان.

قلتُ، وأنا أتناول جرائد لم تتغير كأنها طبعة ثلاث سنين مرت، من كشك أم عصام:

«اتَّقِ الله ولا تمثل دور الضحية».

من الضحية إذن؟

الشعب الذي يشتري نفس الجرائد كل يوم، أم من يكتبون فيها ويقبلهم شعب مغيَّب؟

رواد الكشك يسألونها عن جريدة النبأ، نفد العدد، يتحدثون عن صور لراهب مع نساء ممن يزرن كنيسته، لم أهتم.

مقال مُنْزَوٍ بالأهرام يتحدث كاتبه عن بطولة ضباط الأمن في كشف خلية إرهابية. فكرت في الراهب، تخيلت أنه مسكين، بحِسِّي الصحفي تصورت أن المسألة كلها قد تكون عقابًا جماعيًّا من الدولة لكل مسيحي، بعد استقبالٍ اعتبره مبارك غير لائق به في واشنطن. فكرت في كل ضابط يقرأ المقال الذي ينافقه ويرفعه فوق مراتب الفاتحين الأوائل.

توجعت وأنا أراجع كيف أن أحد الفاتحين الجدد والمماليك الجدد خطف جيهان، وأعتب عليها لأنها استجابت.

نحن الذين دائمًا نلوم الضحية، ونرميها بكل أسباب السقوط، مع أننا نحن بأيدينا من نسجنا لها خيوط السقوط، جيهان ضحية فَرارِي، وألومها، وسأظل. الشباب الذين ملئوا السجون ضحايا،

والدولة تلومهم، وبآلات التعذيب قد نسجت ذات الدولة لهم كل المفردات، التي مجموعها يساوي تكفيرًا. نحن من يلوم الضحية أبدًا وسنظل، تلك خليةٌ بنسيج جسد عربي، هي في الدماء، نسيج فرعوني يتكاثر كورم خبيث، ولا نسعى لاستئصاله، ولا نواجهه بكيمياء المحبة أو الصدق يومًا.

***

معتز زهران

انتهى يوم عمل آخر مجهد، إلى المقهى ينطلق بدماغه، بها فراغ قد يملؤه الدخان، تَأَخُّرُه بعد العمل في المقهى يُغْضِبُ زوجةً لا تكف عن شكايات وحدة، وعلى الرغم من أنه اشترى شيشة وعدَّةً كاملةً ليشرب بحضورها في الشرفة، إلا أنه في تلك الليلة لم يكن يرغب في المُضي للبيت. كان عليه أن يقضي ساعةً بين أصحابه تُنسيه همومَه، يُطيرها بين دخان مفعم بحشيش وعَشْرَتَيْ طاولة.

الوظيفة المهمة تمنح علاقاتٍ، معارفَ غير محدودة، وتُبقي على قِلَّةٍ من أصحاب، أغلبهم يطمع في منفعة، ويطمح في مصلحة، تبًّا لوظيفة تمنع عنَّا نصيحةَ صديقٍ مُخلص، من يُطلب منه استشارة قد يخاف، فلا يصارحه. لم يعد هناك من يملك أمانة الاستماع ويمكن الحديثُ معه بأريحيَّة وصدق.

زمان كان يتحدث مع جيهان، قعدة البيت أبعدتها، شغلتها،

شبه الإدمان الذي تغرق فيه أبعدها أكثر وأكثر. يتمنى لو حدّثها عن صراعات مرعبة داخل الجهاز، عن ضباط لا أخلاق لهم ولا همَّ سوى الوقيعة.

صار وحيدًا.

منذ دورة لندن، والهوة مع زوجته الجميلة التي يحبها تتسع، يشك أحيانًا أن لها علاقة بأحد ما، راقبها، تنصت على الهاتف، لم يصل لشيء، فتش كثيرًا وهو يخشى اكتشاف أي شيء. تحركاتها محدودة، ومعارفها معدودون.

مرارةُ سن الأفيون ذوَّبها شايٌ كليلٍ بلا قمر. مضى.. متمنيًا لو يُسعدها فتمسح عنه عناءَ يومٍ طويل.

قمةُ اللذةِ إحساسُنا بلذة الآخر، همومنا تذوب بين أحضانه. أنفسنا في حضرته تنشغل عن مُلِمَّاتها.

***

لاظوغلي

ثمان وعشرون درجة سلَّم، ارتقاها وبضعة نفر. طابقين صعدوا ومالوا باتجاه الطرقة، ارتعد عبد الرحمن. ظن أنه ذاهب لنفس الغرفة بنفس الدور الثاني، التي رأى فيها وهو مغمض العينين ما رأى.

أوقفوهم نحو ساعة، والرعب تسري ساعته بعقاربَ حقيقيةٍ.

نادَوْا عليه، وحدَه سحبوه، مشوا مترين ثم توقف المخبر، سلَّمه آخرُ شيئًا، قال: «ملف الحيوان».

وهمس بأذن عبد الرحمن، فتسللت لأنفه رائحة تخيلها جيفة ميت: «الدور الرابع.. مكتوبة لك يا ابن المحظوظة.. دور الأجنبي.. اتكلم يا بني، أحسن.. الناس هنا لا تعرف ربنا».

دقائق وقفها بالدور الرابع، دقائق لم تَطُل، والثواني دهور.

دخل برفق!

«أهلا يا عبد الرحمن.. ما الذي فعلتموه به.. فُك.. فُك العصابة. أستأذنك ربع ساعة يا عبد الرحمن، اجتماع صغير، ونحكي الحكاية». واختفى الصوت وهم يفكون العصابة، ومقلتاه يُلملمها من السقوط.

تحت عصابة العينين-شظايا متحجرة جارحة، آلمته محاولات النظر، الألم سيستمر بعدها ساعات. تحول عفصُها صديدًا، استحال أشواكًا جارحة، لم يستطع فتح عينيه. التصقت الجفون وأُغلقت. ضوء خافت يمس. دبابيس صمغ. كاد يطلب منهم أن يُعيدوا ربط العصابة.. بعد دقائق بدأ في محاولاتٍ من فتح العينين.

فتحهما، أزعجه الضوء المبهر.. أغمضهما وتخيل:

«ها هو المهاجر يرتاح تحت سور بستان كروم، يدعوني.. مَدّ لي عنقودًا.. أَهُمُّ بمسح قدميه من الدماء.. سال الدمع دمًا.. عيناي ثخينتان، لهيب يجتاحهما.. نظرةٌ لحبيبي ثلجٌ على جمر».

ساعة أو تزيد، ونظره ليس بحديد، دخل الباشا. طويل، في مثل طول عبد الرحمن، أبيض

«لولا أنه هنا» قال عبد الرحمن: «لقلت إنه وديع».

«يا عبد الرحمن، يبدو أن الجماعة أتعبوك وتعبوا معك، الموضوع يا بني خطير، يمكن أن يندرج اسمك ظلمًا أو خطأ في قضية كبيرة جدًا، أحكامها من المؤبد حتى الإعدام، حتى لو نلت حكمًا مخففًا، فبعده تقضي أعوامًا من الضياع والاعتقال، أنت ما زلت على البَرِّ، ربنا ستر وساقك القدر إليَّ، يبدو أن أمك دعت لك كثيرًا. بسهولة كاد يضيع مستقبلك، وتُدمَّر عائلتُك كلها، احمدْ ربنا، وتَعَقَّلْ، فكما قلت لك، الموضوع خطير، وكل الدلائل تؤكد أنك لست من تلك الجماعة الخطيرة. أليس كذلك يا عُبَد؟».

– والله ذلك كذلك يا باشا، والله العظيم لا علاقة لي من قريب أو بعيد بهم، بل أنا ضدهم تمامًا.

– تمام، تمام، لكن يجب عليك أيضًا أن تقدم من القرائن ما يساعدنا لإخراجك.. نريد معلومات بسيطة نُخرجك بها من هذا الغائط.. أنا رجل يخاف الله ولا يحب الظلم.. هذا الجهاز مليء بالناس، ناس محترمون، وناس لا تخاف الله، وناس ولاد ستين كلب".

لم يعلق، فكّر للحظات في طريقة كلامه، ساورته هواجس.

"يا عبد الرحمن، قل لي أين وصلت في العلم الشرعي؟ هذا ليس تحقيقًا، اعتبره نوعًا من السمر والتعارف قبل إطلاقك،

وتوصيلك حتى باب البيت، بالمناسبة، جميلة حديقة الفيلا، أنت الذي يهتم بها، أم هناك بُستاني؟

– بين الحين والآخر نأتي ببستاني، لكن أصبحت من صغري على دراية بمواسم التقليم والشّك وأحوال الحديقة.

– جميل، أنا أيضًا أحب الزراعة، لكن ليس عندي حديقة، فقط أعتني ببعض قصاري الفل والياسمين ومسك الليل بالشرفة. هيه ما أخبار قراءاتك؟

– الحمد لله، أقرأ، لكن معظم قراءاتي في تخصصي، وبعض الكتب الشرعية العادية.

– قل لي ماذا قرأت لمولانا ناصر السنة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني؟ أنا أحب هذا الرجل، إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لنا الدين.. لكن بعض أصحاب الفكر المتطرف كسيد قطب وأخيه محمد والذين لا علاقة لهم بعلم الحديث ولا العقيدة والرقاق، هم من أدخلوا الشباب في أنفاق لا تتقاطع، إلا حين تُفضي إلى جهنم. هيه ماذا قرأت للألباني؟

– لم أقرأ بمعنى القراءة الكاملة، لكن قرأت في السلسلة الصحيحة، وأيضًا صفة صلاة النبي.

– عليه الصلاة والسلام.

على الرغم من حميمية الحديث إلّا أن حذرًا رافق كلام عبد الرحمن، وأيقن أنه على باب تحقيق قد يحمل مفاجآت بعد

مقدمات دافئة. واندهش من إلمام الضابط الكبير بكتب وأصول وفروع لا يعلمها إلا من درس، معرفته تعدت العناوين العامة.

مضى في كلامه والاستماع إلى قليل رد عبد الرحمن. باغته بسؤال عن فقه الجهاد:

– يعني مثلًا، أكيد أنت غير موافق ولا متفق، على كثير مما جاء في كتاب «العمدة»؟

– "العمدة في الحديث" سيادتك؟

– يا عبد الرحمن، الأمور تسير بشكل طيب، لا داعي للفٍّ والدوران، أنا أتكلم معك كرجل يحترم العلم والعلماء.. أنت تعرف قصدي، كتاب "العمدة في إعداد العدة للجهاد في سبيل الله".

– سمعت به، لكن لم أقرأه ولا حتى رأيته.

– عيب يا عبد الرحمن، الكذب.

– والله لا أكذب.

– طيب، وقل لي أيضًا إنك لم تقرأ "الحصاد المر"، خذ بالك معلوماتنا التي لا تكذب تؤكد أنك استلمت نسخة منه.

– لا، والله، لم يحدث، ولا علم لي به.

– طيب، أنا سأفترض أنك صادق، وسأحكي لك عن "الحصاد المر" وأنت قل رأيك. المؤلف هو الدكتور أيمن الظواهري،

هداه الله، يوبخ فيه جماعة الإخوان، على فكرة أنا لا وافق على منهجهم، فمنهم خرجت كل الأفكار السيئة، يوبخهم فيه على دخولهم مجلس الشعب، بل يُكَفِّرهم على ذلك.. ما رأيك في الإخوان؟ ما رأيك في أيمن الظواهري؟

انهالت الأسئلة سريعة، آمرة من طرفٍ خفيٍّ برد سريع.. وعاد إلى كتاب العمدة.

أسئلة سريعة، وإجابات مكررة لم تتغير.

– يا عبد الرحمن، لدينا اعتراف من محمود يوسف.. صدقني اعتراف بدون تعذيب، أنه أعطاك نسخة من «العمدة» وأخرى من «الحصاد»، وقال إنك رفضت ما جاء في الحصاد، ولم تعلق على العمدة. تكلم.. أعطني سببًا وجيهًا لأكتب لك الآن على خروج.

– أقسم بالله العلي العظيم، يا باشا، شيء من هذا لم يحدث.

افترض عبد الرحمن، لو أن المحقق متدين كما يقول، فقد يؤثر فيه استحلافٌ بالله. نظر صوبَه بصعوبة:

"يا بك أستحلفك بالله، أقسم عليك بالله العظيم، ألَّا تكهربني، ألا تعذبني، بالله عليك، بالله عليك لا تتركني في هذا الجحيم".

وغرق في نحيب راجٍ:

"يا بك، استحلفك بالله، لا تضربني أو تكهربني.. يا بك، أنا تافه.. أنا أقل من تافه.. والله أنا مظلوم".

لَمْلَمَ بحَلْقِه مزيجَ مُخاطٍ ودمعٍ، ولم يتوقف في إنشاده اللهَ العظيمَ.

"طيب يا عبد الرحمن أنت استحلفتني بالله، وأنا من أجل القسم العظيم لن أسمح لأحد أن يضربك.. لكن الخروج من هنا ليس من سلطتي، إلا إذا قدمت لرئيس الجهاز شخصيًّا ما يثبت له أنك معنا ولست ضدنا.. يا عبد الرحمن، دَعْك من كل الكلام الذي جرى.. وفقط أجب عن أسئلة ثلاثة: من أين هذه الرصاصة في رجلك؟ في أي معسكر؟ أو أي معركة بأفغانستان أو اليمن؟ أو تذكر، فلعلها السودان، أو أسيوط؟ والأهم يا عبد الرحمن: أين الأوراق التي تركها عندك محمود؟ هو قال لنا ذلك، وأقسم على ذلك كما تقسم أنت الآن، وإلا واجهناك به. وثالثًا: من ارتبط بصداقة قوية مع محمود غير الأسماء التي ذكرتها؟

ظلَّ يجيب عن كل سؤال على حدة بنفس إجاباته في الليالي الثلاث الأولى من التحقيق في الدور الثاني. بدا علي الضابط الكبير ضيق:

"تفضل يا عبد الرحمن. تفضل فأنا لا أحب الغضب ولا أحب الكذب.. لديك أسبوع كامل، وقت كافٍ للتفكير، عقلك في راسك وتعرف خلاصك.. فَكِّر بتأنٍّ في عرض الخروج مُكَرَّمًا بعد أسبوع. بشرفي أتعهد بذلك، وإلا بقاءً ممتدًا ليس لي فيه يد، ولا أستطيع منعَه. اشرب ليمونًا، ثم تفضل".

صاح: "هاتوا له ليمونًا، ولو محتاج سيجارة أعطوه من علبتي.. وبعدها في أمان الله وهدايته، يا عبد الرحمن".

أبصر من جديد، دون عصابة على عينٍ بدأتْ تستعيدُ حركتَها شبهَ الطبيعية شيئًا فشيئًا، غسلتْ دموعُه همومَ شوكِ الصديد.. غادر الباشا الغرفة، دلف من باب داخل المكتب.

شرب الليمون، بحاجة لسيجارة. لم يجرؤ على طلبها.. مع آخر رشفة عادوا من جديد. نفس العنف في التعامل، ربطوا على عينيه ذات العصابة.. أوقفوه.

خرج يفكر في كلام الباشا:

"ليس عندي شيء، لماذا لا يصدقونني؟ لقد صرت أشك في نفسي، قد أكون سافرت بالفعل إلى أفغانستان وتدربت وأصبت في رجلي إصابةً تركت هذا الأثر، الذي أنا متأكد من سببه. ربما قرأتُ كتبَ تنظيم الجهاد التي ذكرها، ونسيتها في غمرة آثار الذنوب. ربما ترك عندي محمود أوراقًا ولا أتذكر.. ربما المخدرات قد أصابت ذاكرتي بعطب.. ربما أنا مجنون أو على باب جنون.. المجنون يحسب نفسه عاقلًا، وأكثر من حولي مجانين. المجانين في نعيم، وأنا في جحيم لا ينتهي".

***

جيهان

بغير الكودافين، يحل الاكتئاب، تنسحب من كل الأشياء، تجده فتتفتح كوردة ذابلة.

في المرة التي ذهبت بنفسها لشرائه، رحب بها عامل الصيدلية، يعرفها ويعرف زوجةَ مَنْ هي، في المرة التالية طلب منها توصيةً في قسم الشرطة، استجابت. مسألة بسيطة.

فتح لها العاملُ صندوقَ أعاجيب، كرتونة يُخفيها، بدائل للكودافين، مع ثلاث زجاجات منه، وشريط أقراص.

بدأت حياةَ التجارب، لم تَعُدْ تستغني عن كل ما يُقدمه ويُتيحُه.

هل صارت مدمنة؟

***

وصل معتز، تمنَّتْ لو يُناولها سيجارة، أو يُعدّ الشيشةَ ويرصّ حجرًا ويعزم عليها أن تشاركه، جاء بغير شيء. لكن الحقيقة أنه ألهبها، مرارةُ قُبْلَتِه «المؤفينة» لم تُعكر شلّالَها، كصخرة صدمَ معينَ مائها ففاض، وانتعشتْ. أغمضت عينيها، تخيلت ذراعي أحمد. رشفت ريقَه المتبقي من قبلة الليلة المطيرة.

من أحلام يقظتنا ما يُشعلُ لذةَ الوقائع. قالت بين نهديها:

«تفكيري طي الكتمان، لا يمكن البوح به، نزاهة الجسد تكفي».

في الصباح خاف أن يسألها عن نتيجة التحليل العاشر، وهي لم تذكر عنه شيئًا.. خاف السؤالَ، وتجنبت إجابةً.

أحشاؤها لم تدب فيها بعدُ حركةُ حياة.

***

أحمد

صعدت إلى غرفتي فوق السطح، تحسست بحذر مكان الخبيئة، ما جدوى الاحتفاظ بصندوق لا يُعْلَم ما فيه؟

أخرجتُ الجِوالَ وداخله الصندوق.. كيف تسربت إليه الرطوبة.. انكسر يَبَسُه. سنوات خمس مضت ولا يزال كما هو داخل كيس بلاستيك.. أيُّ خيرٍ تحملُه؟ بل أيُّ شرّ؟ نيتي التخلص منك.

نيةٌ لم تكتمل.

مرت سنوات ولا زلتَ غامضًا.. جرت حوادثُ وأنت كما أنت. تفجيراتٌ طالت شوارعَ القاهرة.. سائحون قُتلوا بلا ذنب.. شباب قضوا في السجون ولا يدري بهم أحدٌ.. وأنت لا يدري بك غيري وآخران لا أعرف عنهما شيئًا.. ربما يكون أحدهما أيمن الظواهري.. منذ شهور وأنا تثور لديَّ شكوك في نوايا ذلك الرجل.. من يوم محاولة اغتيال رئيس الوزراء عاطف صدقي ومقتل طفلة صغيرة اسمها شيماء وأنا غير مستقر في تفكيري.. أشعر أحيانًا بأن أصابعي بها آثار من دمها.. أيُّ جهادٍ ذلك الذي يقتل أطفالًا دون ذنب؟ منذ متى كان للصغار ذنوب؟

كمْ أبعدتُ تلك الأفكارَ عن رأسي، لأن هدفًا واحدًا لا يفارقني، هو محاربة نظام غبي غير رحيم، يجعل من سِتِّ الدنيا وتاجِ زينتها مَسخًا بين البلاد.

في آخر زيارة لمبارك للكويت.. سخر أحدُهم، غضبتُ لمَّا قال: «مبارك جاء في زيارة سريعة يشحذ بضع مئات الملايين ويعود، يُطعم بربعها الفقراءَ، ويَضَعُ الباقيَ برصيده».

تلك كانت حقيقة، صارت بلادي متسولة، تموت وهي تعرض ثدييها. سَبَقَنا الخليجُ بمائة سنة، في التعليم والتخطيط والاقتصاد.. سبقتنا الدنيا ونحن مخدرون.. نمنا والدنيا مستيقظة، بسبب حاكمٍ لا غايةَ له غير تثبيت مقعدته فوق كرسيٍّ لم يَدُمْ لمن قبله.

«تذكر: في سبيل محاربة الطاغوت أنت خُلقت، لا تنسَ.. أكيد أن في كل حركة خطايا وأخطاءً.. وربما حركتنا أو التي تخيلت أنها حركتي لا ترتبط بالظواهري ولا بتلك الحوادث، ولا بهؤلاء الشيوخ التاريخيين الذين يراجعون أنفسهم».

لا أدري إن كان تراجعي المؤقت، ومحاولتي تقليل نقمتي تجاه الخبيئة، كان بسبب قناعة من رثائي لحال بلادي، أمْ حقدًا على من خطف بلادي وخطف جيهان.

لففتُ الصندوقَ، فكرت لو فتحته في الصباح. في الدرج فاجأتني المطواةُ كما هي.. ذكرياتُ الخوف والتحدي كما هي.. مسَّنى النُّعاس.. باغتني النومُ ساعةً، رأيت عبد الرحمن شاحبًا يبكي.. قمت فزعًا.. قررت زيارة صديقي.

هرولت بي الخُطَى المشتاقة للقاء عبد الرحمن، وعرقلها على طول الطريق خوفي وما رأيت في ساعة منامي. قطعت شارع

الإخشيد، اقتربت من سور البيت. البيت كما هو، لا تغيير. الظلام الدامس. بالكاد أحدد في ضوء القمر شجرة المانجو.. اقتربت، انقبض قلبي دون سبب، أو لعله بسبب بكاء عبد الرحمن في المنام.

ضغطت الجرس، جاءني صوت أخته.

أنا أحمد الفخراني، آسف للإزعاج، جئت من السفر في زيارة قصيرة، أين عبد الرحمن؟

على غير العادة نزلت أخته المنتقبة تقابلني.. أضاءت مدخل المنزل:

— أهلًا بك، حمدًا لله على السلامة.

— أين عبد الرحمن؟

— عبد الرحمن جاءت أمن الدولة وأخذوه. لا نعلم عنه شيئًا.

— الله كريم.

يا قلق من أين يتجدد نهرُك؟ أيُّ نبعٍ خفيٍّ تُحركه الشرور؟

***

عدت بخُفَّيْ حُنين، وخُفَّيْ مخاوف. بأسى بالغ، وقلب ينفطر.. توزعت الأفكار بين الحزن والتفكير في مصير شقيق عمري، وبين القلق من أن يكون الدور يقترب من بابي المزيف.. لقد مرت خمس سنوات على اعتقال محمود يوسف ومحاكمته..

ومرت سنوات بعد الإعلان عن القضية، فلماذا الآن بعد كل تلك السنين؟ كنت أحسب الشر قد انزاح.

بدا الليل كئيبًا، من المحتمل أنهم اعتقلوه لسبب آخر. معلوماتي القديمة قبل السفر أنه غيَّر من طريقة حياته، وشكل التزامه.

ربِّ ارحم أخي، ولا تُعرِّضْ لحمي للتجربة.

***

لاظوغلي

مرت الليالي، ليالي الأسبوع كاملة مرت في الزنزانة دون استدعاء للتحقيق، أحيانًا يفكر في الحرية، وأغلب الوقت يتساءل:

«لا أعرف ماذا سيفعل معي الضابط الكبير الذي منحني مهلة الأسبوع؟ أرتعد، لو لم يقتنع، وأرتعد أكثر لو كان حديثه الودودُ مقدمةً لسيل آخر من المواجع، أدعو الله كل ليلة، كل ساعة بالخروج سالمًا، أحيانًا لا يكون التفكير في الخروج مُهمًّا بقدر فرح الحزين بأن ليلة تمر دون تعذيب.

غير الصلاة والدعاء الذي لا ينقطع، أستمع غير واعٍ لحكايا كثيرة، كلها أسى. كل الموقوفين على ذمة الدور الرابع لهم حكايا متشابهة، ومختلفة، وحزينة كحكايتي».

في الزنزانة عرف الشيخ الدكتور عبد المجيد، أستاذ حديث

في إحدى الجامعات السعودية، عرفت حكايته المحزنة، كل حزانى جب لاظوغلي متشابهون. حكى الدكتور عبد المجيد:

«هبطت الطائرة. بعد غياب ليس بالقصير بالنسبة لأستاذ مصري يعمل في جامعة سعودية.. ازدحم ممر الطائرة، جلست في سكون.. كلي شوق. لكن الصبرَ أَعَلِّمُه طلبتي، وبه أنا أَوْلَى. من خمس سنوات أُدرِّسُ الحديثَ. لم يكن معي غير حقيبة يد، كنت آخر من نزل من ركاب الدرجة العادية. على سلم الطائرة بان نهارُها صَحْوًا. كل شيءٍ هادئ وعاديٌّ.. يدٌ تربت على كتفي بود: «حمدًا لله على السلامة».. رددت التحية ونظرت بابتسام.. جزعت من وجهه.. لم يمنحني مساحة وقت لاكتشاف هويته.. طلب مني اتباعه إلى مكتب أمن الدولة.. رفضت بحسم.. أخبرتهما أن بالأمر سوءَ فهم، فأنا دكتور بالجامعة. قال: إن الأمر لن يتعدى دقائقَ للتعارف.. العميد محسن ينتظرك.

سمح الباشا لي بالجلوس.. أعاد لي جواز السفر.. معه ورقة للتوجه إلى مقر أمن الدولة في جابر بن حيان بالدقي.

— هناك مجرد سؤال من هيثم بك صباحي.. لا أكثر.

— عن أي شيء يسألني؟

— بعض المعلومات عن الطلبة الذين كنت تُدرس لهم بالمدينة.

— يا باشا، أغلبهم أولاد أمراء، وأعتقد أنه لا أهمية لهم بالنسبة لمصر، وأمن مصر.

– نحن أدرَى بالمهم. قل لي من أعطاك مبالغ للتبرع بها هنا في مصر؟

– لا أحد، ولا مبالغ.

– لكن بحقيبتك سبعة آلاف ريال، وأنا مشغول.. لو لم أكن مشغولا لحققت معك، وسوف نصادر هذا المبلغ. ولو اتضح خطأ فهي عندنا أمانة تستردها فور الانتهاء، لا تقلق.

– ليس قلقًا، لكن.. اسمح لي.. لا حقَّ لك في ذلك.

– هذا شغلي.

– أنت لا تعرف شغلك.

– ماذا تقول يا حيوان؟

– لا داعي للإهانة.

– أنت بعدُ، ما رأيتَ إهانة.

«الحقيقة - والله يا إخواني- أني لم أتعرض لإهانة في حياتي.. أبي ربَّاني ولم يوجه لي يومًا إهانة تتعدى حدود التأديب.. من تربَّى بغير إهانة لا يمكن أن يقبل ضيمًا من أي كائن كان. وجدت نفسي هنا قبل سبعة أشهر.. لا مشكلة غير ردي على العميد محسن بتلك الطريقة.. هناك في جابر بن حيان بالجيزة، حققوا معي ثلاث مرات.. نفس الأسئلة، معلومات مطلوبة عن أبناء بعض الشيوخ السعوديين، ثم نقلوني، لم أعرف أننا في لاظوغلي إلا بعد أن أخبرني الإخوة هنا معي بذلك،

فقد رُحِّلْتُ من الجيزة معصوب العينين. ولم يتم التحقيق معي هنا حتى الآن».

تأمل عبد الرحمن كيف أن أصوات الحزانى متشابهةُ النَّبْرِ، ولبَلْغَمِ حَلْقِها صدى خافتٌ.

***

أحمد

أيها القلق، كيف حممُ جحيمك تنهال؟

عن لقاء مبارك، سرقني نبأ غياب عبد الرحمن في غياهب مبارك.. لاهثًا حاولتُ التقاطَ أنفاسي وترتيب أوراقي.. فكرت لو تعللت بمرض مفاجئ.. تمنيت حدوثَ معجزةٍ، ولو محزنة، تمنعني عن استكمال الإعداد للقاء وأختفي. تمنيت لو ألغوا اللقاء وسافرت من فوري للكويت. لدرجة – أستغفر الله– أني تمنيت موت جدتي.

حينما نغرق في الخوف، تنتهك حرماتِ عقولنا المحارمُ.

مرَّ الوقتُ، لا بد من الاستعداد ليوم آخر.

بين لقاء من أكره، وفشل السعي للقاء من أحب، فكرت بعزيمة نادرة: لِمَ لا أقتله؟ لن أخسر سوى حياة مَلَّتني ومللتها قبل قطف اليانع من ثمارها، حينما فكر خالد الإسلامبولي في قتل السادات، أيقن وقتها أنه مقتول لا محالة من الحَرَسِ

المحيطين برئيس مصر.. فاتهم أن يقتلوه، أُسقط في أيديهم.. لكن مبارك وحرسَه نابهون مستيقظون مستعدون، في أديس أبابا قتلوا من حاولوا اغتياله على الفور، تعلموا الدرسَ. لن يخرج أحدٌ حيًّا من محاولة أخرى.. لن تكون محاولة فاشلة لو أعددت لها وباغتُّهم ببقية لياقة بدنية.. أقتله ويقتلونني، وأستريح، لعل الله أن يتقبلني عنده في الشهداء.. أقتله؟ لِمَ لا؟

فكرة مجنونة، أو رغبة قديمة.. جريمة بتصنيفهم، وقُرْبَى لرب السماوات، غايةُ ما يتمني المجاهدون. شهوة الانتقام والطعن.. فكرت لو أخطط بالفعل لاغتيال مبارك.. كل الطرق مغلقة.. احتمالات النجاح صفر. فالدخول بمطواة كلاسيكية حمق، وقتل مبارك عند السلام باليد المجردة لا يتم إلا في فيلم صيني من أفلام الكونغوفو.. طيب، ما المانع من كلمة حق؟ علوت بالأماني وعَلَتْ بي. رُحْتُ أصوغ كلماتٍ أقولها لمبارك بحزم:

«أيها الرئيس.. كفاك دمًا، مصر تحتاج إلى إصلاح عميق وتغييرات جذرية.. لقد حبست شبابًا في عمر الورد، أَخْرِجهم واعقد مصالحة عامةً، بغير مصالحة شاملة لن تقوم لمصر قائمة. افتح أبواب السجون، اعْفُ واعدل.. أيها الرئيس، اتَّقِ الله، اتَّقِ الله..».

ماذا لو قمت بذلك؟ فكرت لو أطلب من مبارك العفو عن عبد الرحمن، عبد الرحمن فقط، لا طلبَ لي آخر.. لن يضره لو استجاب. ومَنْ عبدُ الرحمن في قائمة طويلة.. قائمةٌ بالآلاف؟

هل أعتذر عن اللقاء؟ وكيف؟ هل أختفي؟

هل أعاود تجربة البيات خارج البيت. ضاقت الدنيا، وقلّت البيوت المفتوحة بعد سفر معظم الأهل.. لقد سعيت وتوسطت لكثيرين في السفر، وها أنا أعود فلا أجد بيتًا يؤويني من القلق.. وأية سخافات أعيشها.. لقد مرت شهور – قالت أخت عبد الرحمن- على اعتقاله. فهل جاءت على يومين بقيا لي في مصر؟! شهور مرت، وأكيد انتهوا من التحقيق معه، ولو ذكر عني شيئًا لأخذوني فور هبوط طائرتي. أصلًا، ما منحنوني تصريحًا من رئاسة الجمهورية.

ليت عبد الرحمن يموت.

«اخجل من نفسك، واحزن لصديقك، كُفَّ عن أنانيةٍ تُفقدك نعمةَ الإحساس بألم صديق».

قررت الانتقام لعبد الرحمن ومحمود يوسف وعشرات آلاف الأُسَر التي ذاقت الظلم لغياب عائلها، وقررت الغضب من أجل شرع الله تعالى.

مهمومًا نمت. والصباح رباح.

***

لاظوغلي

في الليلة الخامسة من أسبوع مهلة التفكير، فتحوا الزنزانة، رموا بأحدهم، مدمن مخدرات، هكذا عرّف نفسه، وأخوهم في

الله أيضًا.. وتاجر بنصيبه، كما شرح «تامر الضبع»، دون سؤال حكى الحكاية بأسى المفتخر على ما قد كان ثم زال:

إنه كان حشاشًا، وكان يتعامل مع موزع صغير في حي الجيارة خلف سور مجرى العيون، يشتري لنفسه ولأصحاب الأنس، ولما نفضت جيوبه، أصبح يشتري لخمسة من الأصحاب، ثم يقسم ما يشتريه إلى ست قطع متساوية.

«للأمانة كانت متساوية، صدقوني يا إخواني، لم أغش إخواني الحشاشين ولو مرة واحدة».

ضحكوا، كأنهم يُحششون، وأكمل تامر بأنه صادف طريقَه إخوةٌ من التبليغ، ونزل على إلحاحهم بعد هروب لمرات، ودخل المسجد، والتزم، التزم أسبوعين، وشرب في الأسبوعين ثلاث مرات. أقسم أنها ما تعدت مرات ثلاثة، ثم رافقهم إلى الزنزانة، ولكن مصيبته كبيرة - شرح- لأن غارة أمن الدولة على بيته، اكتشفت بجواز سفره تأشيرات لثلاث دول أوروبية، كما أنه سافر للسودان مع أبيه الذي عمل هناك مدرسًا قبل عشر سنوات. وضبطوا طبنجة غير مرخصة.

حتى لو كانت مرخصة ما الفرق؟

قال أحدهم:

«لا تشغلك تفاصيل الطريق، فإن غاية الصياد رأسك».

ظل تامر لثلاث ليالٍ يقص معلوماته المنمقة حول المخدرات وأنواعها وفعل كل صنف بالرأس، والفرق بين انتشاء الحشيش وتفتيره، وهباب البانجو وإغماءته المثبطة المقرفة. قال إنه بسبب دراسته للاجتماع، استقصى عالم المخدرات في مصر، ووَجْهَ الشبه بينه وبين الفساد الضارب في عرض البلاد وطولها. تجارة المخدرات تبلغ مليارات الجنيهات.. منها تعاطٍ وجلب وتوزيع وتخزين، وبمصر خمسة ملايين مدمن.. وأن مئات الآلاف منهم دُمرت حياتهم وأسرهم، وكل هذا يتم تحت أعين الشرطة وبصر القضاء.. ولا يدخل جرام مخدرات واحد إلا عليه بصمة ضابط شرطة، أي مختوم بختم النسر.. يعلمون المصدرَ والمستلمَ والموزعَ، ولهم نصيب من كل شحنة، توزع هدايا، وتصل بأناقة إلى مكاتب الكبار، ليشربوا ويُهدوا آخرين. كل تاجر له علاقات ممتدة ما بين ضباط في الداخلية وحتى مستشارين ومحامين كبار، وأعضاء مجلس شعب.. ويعاونهم تجار كبار وصغار، ومن هؤلاء الصغار صيدٌ يُقدم للسادة الضباط، حتى تُستَّفَ القضايا، ويأخذ القانون مجراه، ولو في مصرف مجاري.

نفس المنطق مع كل السلع الفاسدة.. فهذا يتم في دولة الفوضى، خذ مثلًا القمح الروسي والأوكراني المسرطن، ومئات ألألوف من أطنان المواد الغذائية الأخرى، كل ذلك بمعرفة الكبار.. أكابر مجرميها.

قال تامر: «الموضوع كبير، يا جماعة الخير». وهو يتمنى لو كان ظل في وداعته دون التزام.. صرخ: «يا جماعة الخير، أنا

حشاش».

صرخوا جميعًا: «إحنا بتوع الأتوبيس».

***

أحمد

وضعت المطواة في حقيبة أوراقي.. عند مدخل القصر ألقيتها بغير اهتمام على السّير الإلكتروني، طلب مني ضابط الحراسة أن أمررَ الحقيبة أيضًا. تعللت بأن بها أقراصًا إلكترونية، قد يُصيبها عطبٌ لو تعرضت للأشعة. ابتسمَ.. دخلتُ القصر ثابتًا غير مرتبك.

«سأقتل الطاغية».

مررت بالحديقة، غنَّاء كما نراها في تقارير نشرة الأخبار.. لم أكن أعلم أن بعد الحديقة وفي مدخل البناية التالية جهازًا آخر لكشف المعادن.. فعلت كما فعلت عند الأول وقلت نفس الكلام.. لم يبتسم الضابط هذه المرة، طلب مني فتح الحقيبة، لم أبْدِ اعتراضًا، فقد خبأت المطواة داخل دفتر نزعت منه كثيرًا من الأوراق وربطتها بلاصق.

فتش الضابط، أطال التفتيش، طلب من أمين شرطة بجواره أن يمررَ جهازًا لكشف المعادن محمولًا على الحقيبة.. أبديتُ غضبي، قلت: ليس هكذا يُعامل الصحافيون.. صفرت الأداة

الإلكترونية.

في لحظات كانوا ممسكين بالمطواة.. لم يمنحوني فرصةً للاستعداد، اندفع ثلاثة ضخام، طرحوني أرضًا.. انقلبت الدنيا.. ضاع كل شيء.

لمحت عبد الرحمن على مرمى البصر مذبوحًا غارقًا في بركة دم.. ما أدراه أني هممت باغتيال مبارك.. جيهان كانت تعصبُ رأسَها بطرحةٍ سوداء، تطوفُ، لا يلتفت إليها الضباط.. الشتائم أسمعها، واستدعاءات لآخرين عبر اللاسلكي، وضابط يُعَرِّي جيهان من ملابسها فلا تصرخ.

كلنا يستسلم.

***

لاظوغلي

في الليلة التاسعة، يعني الثانية بعد انتهاء مهلة الأسبوع، وزوعوا عليهم عقب صلاة العشاء حلاوة طحينية، هي عادة، لكنهم كانوا كرماء في تلك المرة. بمجرد انتهاء عبد الرحمن من الأكل، اضطرب بمغص شديد وتعنية.. لم يهتم، حتى لو ركب حصان الاهتمام، فماذا سيفعل؟

استمر المغص طوال الليلة، وفي بقية النهار التالي ثارت أمعاؤه، ثارت بطنه، مغص رهيب، ووجع في جنبه الأيمن،

إسهال بتعنية، من أعراضها عرفها، الدوسنتاريا، له معها طُول عشرةٍ، وتكرارُ لقاء.

بمجرد أن نودي للمغرب، نادوا عليه، صعدوا به للدور الثاني، سألهم:

– أليس من المفترض أني ذاهب للرابع؟

ردوا برفق:

– لا فرق، باشا الدور الرابع منتظرك هنا، خُش يا شيخ.

دخل على الباشا المثقف الودود، قام من مكتبه وأمرهم بفك قيوده، وسلم عليه باليد:

"إيه يا أخ عبد الرحمن، هل فكرت وعادت العافية لرأسك؟ يا أخي، ليس هناك أوسع من نعمة العافية.. أنا سأتركك لاجتماع مهم عليَّ حضوره، وأخي معتز بك سيُكمل معك الحكاية بعد انتهائه من المكالمة، جاءتك توصية يا شيخ، عمومًا مجرد كلمتين وتنتهي المشكلة".

انتبه، ومعتز بك يلتف وقد وضع سماعة الهاتف، هذه المرة رآه لثوانيٍ، وعرفه. نفس الصوت الأجش الخشن الأجوف، كدوي ريح، كَتَكَسُّرِ الصخور في هَشّامات الحجر. نفس الصوت الذي عذَّبه قبل أسبوع على مدى ثلاثة أيام متتالية.

الواضح أن خطأً حدثَ، فلم يكن من المفترض أن يرى وجه الباشا معتز، الذي وضع السماعة، ومرق من باب داخل المكتب،

بعدها تكالب المخبرون من كل اتجاه، قيدوه وعصبوا عينيه وأجلسوه على نفس الكرسي.

عاد معتز بك زهران.

- يا عبد الرحمن، لم يتغير شيء، انْسَ كل ما تم قبل ذلك، وسنتعامل معك بالحسنى كالمرة السابقة، القيد مجرد إجراء روتيني، المهم يا شيخ، معلوماتي أن هناك أسئلةً ثلاثةً ننتظر منك إجابتها، وسأذكرك بها، وبعدها نبقى أصحابًا وتنام ببيتك. بالله عليك يا شيخ، لا داعي للف والدوران:

شرح عبد الرحمن أن كل معلومة لديه قالها. أقسم أنه ما أخفَى شيئًا، وأن أي شيء لم يقله فمعناه أنه لا يعرفه.

كرر الباشا بنبرته الهادئة أسئلته الهادئة، وكرر المُقيَّدُ المعصوبُ نفس الإجابة:

"يا باشا، والله، لا علم لي بشيء من هذا كله".

حدث ما كان متوقعًا، وليس إزاءه استعدادات حُسبان. غضب الباشا. غضب جدًّا. انقلب صوته في لحظة. حاول مداراة غضبه وأفهمه أنه يتمالك نفسه وسيبدأ من جديد من أول السطر:

- أين سافرت؟

- لم أسافر.

- طيب، نقرب المسألة، وخذ بالك أني مهذب جدًّا معك، وعندي توصية بشأنك. بالمناسبة، قل لي ما علاقتك بنقيب

الصحفيين؟

– يا باشا قريب أمي.

– طيب، أمك على أمه.. قل لي، هل سافرت إلى أفغانستان؟ أم تلقيت تدريبًا في اليمن؟

لم يعد للشتم معنى، والعذاب قادم مُرتقب. تُخفف بعضَ ظلالِه الواضحة تقلصاتُ بطنٍ كبركانٍ يزمجر.

– لم أسافر. والله لم أسافر، مرة واحدة سافرت للعمرة.

– جميل جدًّا، اقتربنا، طيب، ومن السعودية، أين توجهت؟

– يا باشا رجعت على مطار القاهرة، لا شرق ولا غرب.

– يا عبد الرحمن.. لا تتعبنا.. لا داعي للتعنيف.. لا تضطرنا إلى ما لا نحب! الشهر الماضي مات حمار على يدي، مات من شدة التعنيف، حمار لم يوافق على التعاون، لم يُجب على أسئلتنا، أعطانا أسماء وهمية، ومعلومات مزيفة، ليس مهمًّا.. دع البلد تتخلص من الازدحام.. هيه؟ سافرت باكستان، هيه ثم؟

– يا باشا، خلاص سافرت، سافرت يا معالي الباشا، وقل ما تريده وأنا موافق عليه، ومستعد لأي قضية، يا باشا، والنبي، أنا تحت أمرك، لكن والله، لا أعرف شيئًا.. طيب ربما سافرت.. ربما.. (ربما) هي الإجابة الوحيدة التي لزمته منذ ليالٍ. قال: ربما.

– يعني إيه ربما، يا روح أمك!

– يعني ربما سافرت.

– سافرت ولا لأ؟!

– والله لم يحدث، والله العظيم لم يحدث.

– أمال بيتفلسف ليه؟

– يا بك ماذا تريدني أن أقول؟

– لما سافرت قابلت مين؟

– ما سافرتش.

– رجعنا تاني للكدب.

– طب حضرتك قل، وأنا موافق على كل حاجة.

– يعني إيه؟ هو أنا الكاتب الخصوصي الذي اشتراه العرص أبوك يا كلب يا ابن الكلب؟! الكهربا يا خليل!

تمسك عبد الرحمن بوهم الخيال وشطحات التفكير:

"الخليل كان إبراهيم(ع)، والخليل فوق الصاحب، وأرى أبي الآن واقفًا أمامي يبكي.. لم يكن أبي قوادًا، وجسدي ما عاد معي. بعقلي أحاول اختلاق الشواغل. للحوم رائحة مميزة مغرية شهية عند شوائها، أم أن جسدي لشوائه رائحة مميزة؟ هل هي مغرية للجلادين؟ وهي برأسي كريهة، تزلزل كل شيء، تسكن

الجيوب الأنفية، قريبة لرائحة اللبن المتخثر، هل لَبَنِي أو منيي بالخصيتين قد تخثر وفسد من فحيح سلك الكهرباء؟ هل يمكن أن تقوم لي قائمة؟ حتى لو لم تقم، هل أنا مجنون كي أتزوج، إن خرجت أصلًا من ذلك القاع، من هذه الجهنم الأرضية؟ هل أنجب عيالًا ينالهم ما ينالني؟ لا أستطيع أن أطعمهم من جوع، ولا أن أؤمنهم من خوف. لا دَرَّ دَرُّك! قل لي، هل خرج أحد قبلك حتى تخرجَ أنت، وتحلم بالزواج؟!

آهٍ، وكانت كأبهى ما رأت عيناي يوم كان لي عينان طليقتان تنظر حيث شاءت وشاء لها الهوى، أحببتها، وأحبت غيري، ثم خطفها غيرنا.. وديعة كماء النيل في عصاري الروضة، شهية الحسن كلحظة انطفاء شمس الأصيل على صفحة الماء الذهبية، صدَّتني ورفضتني، ولم أحاول أصلًا أن ألفت نظرها، أروع من عينيها لم تَرَ قَطُّ عيني، ولأجمل منها لم يتحرك قلبي".

لم تفلح شواغل المرتقب، ولا أَخَّرَتْ قدومَ الأسى. وجاء خليل، فأجاءه المخاض إلى قوائم سرير معدني قائم يتلظَّى، وجاءته دموع ومغص وانقباض، قبل صراخ لم يتخيل يومًا أن يزعق به، برقت خواطره، فاصطادتها شُهبٌ راصدة من تيار صاعق:

«يا باشا، أنا قلت لك الكلام قبل ذلك، في الدور الثاني..»، ثم غاب في غياب يستجديه:

«ها هي ذي تنفجر على وجهي كل صواعق ما قبل التاريخ،

تلك التي اندثرت منها البحار، وانقرضت لهولها الوحوش الجبارة الضخمة.. يقولون إن الديناصورات كانت بحجم الجبال، وفي الحديث أن المسيخ الدجال مقيد في جزيرة بالمحيط، وقد رآه بعض الصحابة من رواد البحر، ووصفه للرسول ﷺ فصدَّقه، والحلقات التي أذاعها التلفزيون عن مثلث برمودا وغرق أية سفينة تمر به، أكيد أن هناك سِجنَ المسيخ، وسوف ينزل المسيح(ع) فيكسر الصليب ويذبح الخنزير ويقتل المسيخ الدجال الكذاب.. يا باشا".

صرخ: يا معتز بك، سأقول لك الحقيقة:

– أنا المسيخ الدجال.

– وأنا الشيطان يا روح أمك، عامل لي مجنون.

– روح منك لله، ربنا ينتقم منك يا معتز بك.

– انت بتدعي عليَّ، وعامل مجنون يا ابن الوسخة. طيب، أنا سأجعلك ترى الجنون على أصله.. ما رأيك لو نمت على بطنك، وضع فرنساوي يعني، ونتركك لعسكري بلغ الحُلم أمس، وقضّاها عشرات.

عرج ببطنه ثعبان يفتك بأحشائه ويمزق بالأمعاء.

"يا رب.. يا ربّ، عليك بالكفرة الكلاب!" صرخ بها في الوجوه.

قال الباشا: "فكوه وأدخلوا العصا فيه".

***

أحمد

شعرت بالعطش يجرح حنجرتي، وقمت مسرعًا أشرب وتوضأت. عن يساري تَفَلْتُ ثلاثًا.

***

لاظوغلي

كيف دق الهاتف وهم يفكُّون قيوده من السرير المعدني؟ تفكَّكت كل عضلاته، حيلة ما له فيها حيلة، ولا معها. انفجرت بطنه.. برز، شعر بالفضلات السائلة ساخنة خلف فخذيه، ابتعدوا عنه بقرف. بقرف صرخ أحدهم:

«الله يقرفك!».

في وساخة خجله، حمد الله، متأملًا:

«حتى لو أنقذني ذلك من أيديهم لدقائق، فأنا منه خجل.. غارق في المذلة وقهر الرجال.. لن يدرك رجلٌ معنى قهر الرجال، إلّا لو – بغير حيلةٍ– فعل ما ليس له فيه حيلة».

صرخ الضابط: أخرجوه. وبنبرة أهدأ طلب من الجميع الخروج.

مضوا به..

لا تخجل، الأمر ليس إليك، وهو المتصرف.

رموه، وما زال في انفجار هول مذلة، فكوا العصابة ومضوا. تألَّمَ. بجفنيه لملم مقلتيه، وضم رجليه كامرأة أرهقها النفاس أو فتك بها نزيف حيض.

***

أحمد

استيقظت فزعًا.. حمدت الله على أنه كان منامًا.. شعرت بالقلق والتشاؤم.

بين التفكير المجنون باغتيال مبارك في اللقاء، أو التجاسر بكلمة حق بين يدي حاكم ظالم، قضيت ما تبقى من ليل التفكير، حتى علمت أن اللقاء لن يحضره سوى رئيس التحرير، ودون صحافيين آخرين أو حتى مصور الجريدة. الرئاسة ستقوم بالتصوير.

الحقيقة أني أزحت هَمًّا، فقد خفت أن أرتكب حماقة مجنونة، كما خِفْتُ ألَّا أرتكبها وأبقى نادمًا أني جاءتني فرصة ولم أقتنصها.. اختيار من الله، ورسبت فيه. الحمد لله، وكفى الله المؤمنين القتال.. ضحكت، أو لعلَّه: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ .

القرآن حمَّال أوجه.

مبارك يرى شيوخُه أنه وَلِيُّ أمرٍ مُطاع، وفقًا لكتاب الله. ونحن – أو أنا- أرى أنه وفقًا لنفس الآياتِ التي تتحدث عن طاعة وليٍّ الأمر، فإن مبارك قد خان شرع الله ولم يوقره كما ينبغي.. كل يرى في كتاب الله ما يريد، فهل يمكن أن أكون أنا المخطئَ، وهم الذين على صواب؟ الشيخ عمر عبد الرحمن، لما قالت عنه النيابة أثناء محاكمات واحد وثمانين إنه وجماعته خوارج، أجابهم: "إذا كنا نحن الخوارج، فمن تكونون أنتم؟ هل أنتم عَليٌّ وأصحابه؟ وهل تعاهد عليٌّ مع اليهود، وخان دينه معهم؟".

يقول الإخوان وبقية الحركات الإسلامية إنهم يريدون تحكيم شرع الله، فيردُّ الشعراوي بأنه ينبغي القول: نريد أن يحكمَ فينا شرعُ الله، لا أن نَحْكُمَ بشرع الله".

يتعرض مبارك لمحاولة اغتيال فاشلة في أديس أبابا، فنردد:]وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ..[، ويردد شيوخه بأنها عناية الله، وأن الملك لله، وهو قد آتاه الله الملك، ولو رأى سبحانه غير ذلك لقضى مبارك في تلك المحاولة.

حَمَّالُ أوجه..

كلٌّ إذن يرى الحقيقة معه، كلٌّ ينظر من نافذته فيرى نفسه في أمان الناجين، ويرى الباقين غاوين.. غير فاهمين.. جهلاء.. ترى القذاة في عين الجميع، بينما قد تكون القذاة بقلبك.

"تعبت فأرشدني لما عليه الفهم الصحيح يا مولاي".

***

لاظوغلي

في الطريق النازل، يتأمل: «كيف تربطني الدرجات الثماني والعشرون، بأعوامي الثماني والعشرين، أمرُّ على الدرجات العليا دون ندم، فهي سنوات عمري الأولى، حيث لا شيء يفوق نقاء القلب، أمَّا الدرجات الأخيرة فلها رائحة ذنوبي، وفوحان رعوناتي.. أصل إلى حيث الدرك الأسفل في هذا المبنى السافل، فتدخلني يد الحارس برفق، إلى حيث ذبائحُ حقل الشواء، شركاء تجربة الوجع، لم تكن يد الحارس بنفس الغلظة، حينما دفعني أول مرة إلى الزنزانة، هل مسَّه وجدٌ لحالي؟».

***

قالوا له: أنت أخ لا قيمة لك.. أنت لا شيء.

***

أحمد

للكويت أعود، أعود ببعض طُمأنينة، بوعد من نافذ داخل أكبر صحيفة مصرية، بأن يتم تعييني، مقابل ابتسامات مني، مجرد ابتسامات مُرضية.

توسَّعَتْ معارفي برحلة القاهرة، وتقمصتُ دورَ القريب من النافذين، وأخفيتُ كل حقد أحمله لهم.

وللكويت أعود بكثير قلق، بعد اعتقال عبد الرحمن، اعتقاله كما فهمت مضت عليه شهور، فلو كان له أن يذكر اسمي لكان فعل منذ أيامه الأولى، نفس التعليلات التي كنا نتحدث بها أنا وهو، بعد مرور شهور على اعتقال محمود يوسف.

بدأ الدور بمحمود، وانتقل لعبد الرحمن، يجب أن أطرد وساوسَ أن الدور القادم عليَّ، فهما الاثنان اللذان منهما يقترب الدور، وطالما مرَّت التحقيقاتُ في أيامها الأولى ولم يذكرني أحدُهما، فلا دور لي ولا محلَّ لي في النكد الذي يَلْقيان.

الله معك يا عبد الرحمن.

***

سِفرُ تكوين

في البدءِ كانت كلمةُ الربِّ. بناءً عظيمًا بين حرفين، كافٍ ونون.. «كُن»، فكان كلُّ شيء.

قرر الربُّ أن ساكنَها بُنْيَانُه، وقدَّر فيها مع أقواتها أنه: «ملعونٌ مَنْ هَدَمَ بنيانَ الرب».

واستوى الرب – سبحانه- على العرش، وكان عرشه على الماء.. وقبل البدء سلَّم محمدًا النبوة، ثم بعد آلاف السنين ختمَ به ﷺ، وبعد أربعة عشر قرنًا لا نزال مشتبكين:

هل الرب استوى كجلستنا فوق كرسي؟ أم استوى تعني: هيمن؟

ودخلنا في اشتباك البلاغة، فكَمَنَ ظاهرُ كلامٍ لمجازِه، وطعنتْ كنايةٌ شقيقتَها الاستعارة. وتجاوزنا فيما لم يكُن مطلوبًا منا الدخولُ إليه.

في بدء البدء، كان لسانُنا، وبعده اشتبكنا باليد. وكانت يدٌ مجردة، فاستلمت حجرًا، و قتلتْ ابنَ آدم.

وظلَّ ابنُ آدم يُبَدِّلُ الحجرَ بسكينٍ، فنارٍ حارقةٍ، فقنابلَ،

فدمارٍ شاملٍ. ولا زال في هلاكه بعلمه الشرير.

مع بدء الخلق كان الماء، وفي الختام يكون الماء.. فلا تكوينَ لك إلَّا بقلبٍ شّفَافٍ كنهرٍ جارٍ.

لا تترك نهرًا صَبَغَك بالبساطةِ، لا تترك شيخَ أنهارِ البسيطة.

في البدء كان دينُ العجائز، فكُن على دين العجائز.

يا مولاي، أنا على دينِ العجائز.

***

أحمد

للكويت عدتُ بأسْهُم مُرتفعةٍ، اقتربتُ أكثر من رئيس التحرير، صارت لي علاقات وثِيقة مع مجموعة من كبار الصحافيين المصريين، أغلبهم نافذون؛ ما جعلني أفكر جديًّا في اقتناص الفرصة، والسعي من أجل تعييني بجريدة الأهرام، حتى إن كان ذلك نظير هدايا ثمينة، أو مبلغ محترم، رشوة يعني، وأحبُّ تسميتَها «إتاوة»، تُسكنني في منصب محوطٍ ببعض مَنَعَة، وتُكسبني مساحةً تُؤسسُ لي مزيدَ أمانٍ، وتبعد عني أي شبهةٍ.

الغربة لا بد لها من نهاية، وإن كان لا مهرب من الاستمرار في الهروب، فلا أقل من عودة بنفوذ وحماية، كحيطة وحذر.

أفضلُ مهربٍ عنها، هروبٌ فيها.

***

الغريب أني طول رحلتي بالقاهرة لم تَرِدْ حنان على بالي، ولم تكن عندي إثارة ولا شهوة خلال أيام الرحلة القصيرة. أيامًا كانت للتذكر والحسرة على جيهان، ثم الغم بسبب اعتقال عبد الرحمن.

الغم قتَّال، والهمُّ لا يتفق مع الرغبة.

حنان إذن ليس لها مكان حقيقي، كل ما تُمثله لي أوقاتٌ لانفجارِ لذة، شهوةٌ والسلام. هي أيضًا شعرت بتغيري. لمحت فقدي بضعةَ كيلوجرامات كنت اكتسبتها منذ عرفتها، ثم ازداد ذلك في ليالي إعدادي لحوار مبارك.

عدت شاحبًا، ولم أكن معها على مدى ثلاث ليالٍ. والسرير أشعة كاشفة. هي من لفتت نظري لذلك.

***

حنان أيضًا طرأ عليها بعضُ تَغيُّر، صارت مهتمة في الأيام الأخيرة بالاعتناء بملابسي، تُرتب شقتي في غيابي، وتحولُ مطبخَ العازب لمطبخ حقيقي، لا يخلو من طعام ساخن دسم كل يوم. حيَّرتني بشراء مزيد من ملابس داخلية (تقليدية) لي. كثيرًا ما تهاديناها مثيرة.

هذه الأيام، تُمثلُ دور الزوجة الشرعية. صادف ذلك إجازتها السنوية، ففوجئت بها ترتب مكتبتي وأوراقي، وتنسخ قائمة التليفونات الصحفية على الكمبيوتر، صارت شبه مقيمة بشقتي، أعود فأجد بخار الطعام، وأخرج من الحمام فإذا كل شيء في

متناول يدي. حتى الجنس جَعَلَتْه ثانويًا في طبيعة العلاقة.

عرضت عليَّ مبلغًا كبيرًا من مدخراتها، اقترحت أن نتشارك في شراء شقة بحي راقٍ في القاهرة. وأنها رأت إعلانًا عن شقة بشارع عبد العزيزٌ آلٍ سعود في المنيل على النهر مباشرة، قالت: «نحن نستطيع».

الغريب التزامها المفاجئ بالصلاة، أنا يومًا ما، ما أمرتها بصلاة ولا تطرَّق حديثنا لأمور دينية. لم أفرح بذلك، بل شممت من كلامها أنها تريد أن تقول:

«لماذا لا نبني بيتًا ونعيش حياة طبيعية؟».

لم أنشغل؛ لأني لا أحبها.. فقط أحب جسدها. بعد أيام عُدت أفكر: ولِمَ لا؟

***

وادي النطرون

لم يصل التحقيق معه لشيء، اللهم إلا لثلاثة أشخاص آخرين اضطر لذكرهم.

قال أحدهم:

– انتهى التعذيب، وقد نرتاح إلى حين.

– وإلى أين تتوقع؟

– إلى المعتقل.

– أيُّهم، فهم كُثْرٌ؟

– سنعرف من الطريق.

***

أحمد

السفر يجذب السفر، والقرب من رئيس التحرير له مميزات، فحدث قبل انتهاء يوم عمل رتيب أن فاجأني أبو خالد، مدير تحرير الجريدة، بعرضٍ اعتبره مكافأة على عملي في لقاء الرئيس المصري.. تستحق الشكر والعرفان:

«رحلة إلى الخرطوم لتغطية مؤتمر (بناء القدرات التكنولوجية في الوطن العربي)، بعده بإمكانك الاطلاع على الأحوال السياسية هناك، وننتظر منك أكثر من تحقيق مصور. لديك وقتٌ كافٍ، الرحلة أسبوع كامل، والمؤتمر يستغرق منها ثلاثة أيام».

ثم استطرد: «ما رأيك لو عملت تحقيقًا موسعًا، يُنشر على حلقات، عن وجود الجماعات الإسلامية في السودان.. القيادات هربت إلى هناك، ثم غادرتها».

هل يفهم أبو خالد أن هذا الموضوع تحديدًا يقلقني أكثر من غيره، على الرغم من أنه صار من مفردات تخصصي الصحفي

الجديد. كنت قبل ذلك لا أجرؤ على الكلام فيه علانية، ما زلت خائفًا.

***

لم أتحمس، وأنا المسافر دائمًا، هارب من كل شيء يمكن أن يقلب على المواجع.

«ولِمَ لا تكون تلك بداية جديدة؟» حدثت نفسي:

فرصة لاستكمال مراجعة كل الأفكار بحرية، ودون خوف أمني، هي إشارة مهمة جاءت بعد أن تمت ترقيتي وأُسندت إليَّ إدارة التحقيقات، وكُلفت بإنشاء قسم خاص بالإسلام السياسي، خاصة بعد الهجمات الإرهابية التي تعرضت لها السعودية مؤخرًا، والحديث عن عودة عشرات الشباب الكويتيين من أفغانستان.

صار الملفُّ الإسلاميُّ مادة مثيرة للقراء.

سبحان الله، رحلة القاهرة التي خفت منها وعدت حزينًا، قدمت لي الكثير.

من قال: إن من أحزاننا ما يُنبتُ الوردَ، ويُلَطِّف الجروحَ.

عُدت أفكر في الاستقرار مع حنان.

***

وادي النظرون

منذ خروجه من بوابة لاظوغلي، تنبه عبد الرحمن أنه ما حسب وقتَ مكوثِه هناك بالضبط، شغله أن بعض التفاصيل غابت عن ذاكرته، فكر لو يبدأ في تدوين كل شيء منذ هذه اللحظة، لو قُدِّر له الخروج يومًا ما، فسينسخ ما دوَّن ويبعث به لمكتب من مراكز حقوق الإنسان، قال: سأدوِّن كل شيء في رأسي، وسأتذكر:

«وصلنا وادي النطرون، بُني على جدران ظلم سجن «المحاريق» التاريخي. قلت: سوف تمر الأيام لا محالة، إن كان لها نهاية.

شمس الله أشرقت، عيناي لا تحتملان شروقًا طالما عشقته، منذ متى لم أرَ ضوءَ شمس؟

مررنا سريعًا مهرولين حسب الأوامر، ضمُّونا لآخرين، تغريبة أخرى ضمن تغريبات تصل كل شهر للسجن البعيد المنفرد كقلاية راهب. قال مسجون:

«أغلبنا من مناطق ومحافظات بعيدة، إنهم يُمعنون في التنكيل، المقصود هذه المرة هم أهالينا؛ حتى لا تكون الزيارات سهلة، إنهم يُجْهِزون على ما تبقى من إرادة مقاومة».

ضحكت بأنين موجوع: هل ثمة مقاومةٌ من الأساس؟

في عنبر طويل كبطن ثعبان، وضيق كثقب، لا هواء، تساقط كثيرون من الإعياء. لا هواء.

أدركت أنني مقبل على مجهول بعد خروجي من مجهول، تساءلت: كيف لأختي أن تعرف بمكاني؟ وكيف لزوجها أن يرضى بأن تصل إلى هذه البقعة المقتطعة من الزمان والمكان.

أجلسونا صفًّا، والأسماء ما عادت تُحس بذل الشتيمة. مهرولين - هكذا الأوامر- توجهنا للعنابر، وهتافٌ غريبٌ يسكن أنفي مع غبار الأقدام: «عبد الناصر يا حبيب. إحنا دخلنا تل أبيب».

بدتْ الطريق طويلةً جدًّا».

***

أحمد

كيف صارت طريقي من الجريدة للبيت طويلة جدًّا، مع أن شيمتها قِصرٌ وسيولة؟ كيف يرهقني المطر ويُطيل المشوار؟ يذبحني المطر؛ لشعوري الدائم أن السماء تبكي وهي تنصت لأحزاننا، حياتي غمامة لا تجد ريحًا تُقلقلها، فتبكي أو يهطل من ثناياها بوح. يذبحني المطر، والشتاء باب وحيد مشرعٌ يُرحب بالغرباء.

أتذكر يوم تركتها عند الشاطئ الغربي لجزيرتنا المستباحة..

يومها كدت أغرق ثم أنقذني الشيخ.. الشيخ الذي جعل لرحلتي المرتقبة للسودان معنًى، وتَرَقُّبَ إشارات.

***

بمجرد وصولي البيت، قرأت في نوتة أوراد الشيخ القرافي، المكتوبة بخط شيخه محمد عثمان عبده. فتحت النوتة، قبَّلتها، لم تكن حنان بالبيت، توضأت وأغلقتُ عليَّ غرفةَ النوم، رحت أقرأ فيها بصوت أقرب لغناء وابتهال.

ليت صوتي حَسَنٌ كعبد الرحمن:

يَا مَنْ إِلَى رَحْمَتِهِ الْمَفَرُّ * وَمَنْ إِلَيْهِ يَلْجَأُ الْمُضْطَرُّ**

وَيَا قَرِيبَ الْعَفْوِ يَا مَوْلاَهُ * وَيَا مُجِيبَ كُلِّ مَن دَعَاهُ**

بِكَ اسْتَغَثْنَا يَامُغِيثَ الضُّعَفَا * فَحَسْبُنَا يَا رَبُّ أَنْتَ وَكَفَى**

فَلَا أَجَلَّ مِنْ عَظِيمِ قُدْرَتِكْ * وَلاَ أَعَزَّ مِنْ عَزِيزِ سَطْوَتِكْ**

لِقَهْرِ مُلْكِكَ الْمُلُوكُ تَخْضَعُ * تَخْفِضُ رَغْمًا مَنْ تَشَا وَتَرْفَعُ**

وَالأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيْكَ رَدُّهُ * وَبِيَدَيْكَ حَلُّهُ وَعَقْدُهُ**

يَا مُنْقِذَ الْغَرْقَى وَيَا حَنَّانُ * يَا مُنْجِيَ الْهَلْكَى وَيَا مَنَّانُ**

ضَاقَ النِّطَاقُ يَا سَمِيعُ يَا مُجِيبْ * عَزَّ الدَّوَاءُ يَا بَصِيرُ يَا قَرِيبْ**

وَصَلِّ يَا رَبُّ عَلَى الْمُخْتَارِ * صَلاَتَكَ الْكَامِلَةَ الْمِقْدَارِ**

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِحَمْدِهِ يَبْلُغُ ذُو القَصْدِ تَمَامَ قَصْدِهِ»

***

صليّتُ على النبي ﷺ، وتأمَّلتُ فلم أجدْ بها – على حَدِّ علمي- ما يخالفُ أو يناقضُ العقيدة كما يحذرنا معشرٌ "تَسَلَّفوا".

***

وادي النطرون

الصَّهْد هنا، حيث خلق اللهُ الأرضَ وأَهَّلها للحيَّاتِ والهوامِّ، في صحراء قاحلةٍ، وادٍ غيرِ ذي زرع ولا ضَرعٍ ولا أنيسٍ، توقفَ بهم سِجنُ صندوقٍ حديديٍّ على ظهرِ حافلة:

«وصلنا بابًا، تخيلناه العنبر.. أوقفونا.. حلقوا الشعر، ماكينةُ حلاقةٍ واحدةٌ قديمةٌ، والدماء تفورُ مع القيظ. تتبادل جروحَ رءوسِنا الدماءُ، مسحوا اللِّحَى والشوارب بشيفرة صدئة».

***

فكر لو وصف، كيف يصف:

«الزنزانة مظلمة. كل الزنازن مظلمة، قال رفيق:

«النور من داخلنا.. استعينوا بالصبر والذكر، والشُّرْبُ تَخَيُّلًا وأملًا من يد الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه».

***

كان يحسب لمجيء شهر الصيام، فحين يُطِلُّ الشهرُ الفضيلُ، يكتملُ قيدُ الاعتقالِ ثلاثةَ عشرَ شهرًا، لم يغب عنه يومًا إحساسٌ قويٌّ بأن الفرجَ اقترب، رمضان الحنين، رجاه مغفرةً لكل ما مضى من ذنوب.

***

أحمد

كل يومٍ قبل موعد سفري للسودان، أهيم في نوتة الشيخ عثمان، وأُعِدُّ برأسي قائمة من أسئلة وموضوعات يجب أن أناقشها معه. أتندى بكلماته:

«اللقا نصيب. يا أبو حميد، ستبحث عن نفسك، ولن تستطيع الهروب منها».

***

وادي النطرون

غرفة التأديب:

«زنزانة الفراغ.. الفراغ حتى من تخيل الفراغ.. ظلمات بعضها فوق بعض، ومن أسفل بعض، وحول بعض.. سواد على سواد،

والله، بلا مبالغة، لو أخرجت يدي ولَوَّحْتُ بها لم أكن لأراها، لا أحس بشيء في الزنزانة الفارغة إلا من عشرة أو عشرين وربما أكثر بكثير من محبوسين مثلي، كلٌ مشغول بمحاولات إدراك وجوده في ظلام الفراغ.. لا ماء ولا طعام ولا غطاء.

ألقوا إلينا بأرغفة متطايرة، في الظلام لا وجود للإيثار. كل شيء يدفعك لتصديق أنك مجرد حيوان.. فأرٌ في جُحر. ثم مَرَّ ما قد مر من ليالٍ مُرَّة، وفتح السَجّانُ البابَ، والصمتُ مُطْبِقٌ: «لسه نايمين، قومي يا اختي منك لها الظهر أدن». فعرفنا أن نهارًا بالخارج، وكانت الأرغفة توقفت قبل ليلتين، ثم رمى إلينا بعدد أرغفة خبز، كل واحد منا رغيف، هكذا أخبرنا، ومضى والباب موصد.. أرغفة تستحق القمامة، بل ستجعل للقمامة رائحة لا تطاق. قلبي لن يندمل».

***

أحمد

اللقا نصيب يا شيخ عثمان. ويبدو أن النصيب حانَ. سأستفتيه في أموري كلها، وأسأله عن رأيه فيما بين يدي من أمانة، لكن كيف أشرح ذلك دون خيانة الأمانة؟

***

وادي النطرون

يترقبُ الليالي، الدقائقُ دهورٌ، والذكرياتُ بُحُورٌ، بعد أسبوعين نقلوا بعضهم، وهو بينهم لزنزانة أخرى، غادروا الأولى ولم تغادرهم:

«الزنزانة الجديدة كالقديمة، غير أن لها بابًا به شُرّاعةٌ عرضُها شِبر كطُولِها. من خلالها تبادلنا الحديث، هدأنا قليلًا.. مجرد انتقالنا بعث فينا أملًا، بدأنا دروسًا في الفقه، تذاكرنا ما نحفظ.. تناشدنا الأشعار.. سنبقى بشرًا».

***

على عجل وخجل قال حارس: «الغدُ أول صيام». مسَّهم شوق إلى البكاء، والغناء، تبادلوا التهاني، ناداه رفقاؤه، فغنّاهم دمعات متهادية تنسرح على الوجنات.

***

أحمد

أبدلت الشريط بالكاسيت وتوقفت أشاهد المطر من نافذة السيارة عند الكويت القديمة.. قال لي منير:

«إحنا يا عروسة شبابك، تكتبي نقرا كتابك.. تتعبي بنشيل

عذابك.. تؤمري بنكون جوابك.. وانتِ دايما باقية إنتي».

قلتُ: والله ما أحببتُ مثلك يا جيهان، مثلك يا مصر.. مثلك يا جزيرتي الطيبة.. يا روضة الأولى.. أغار عليك حتى من البارودي باشا الذي ملأك طربًا وحزنًا.

لماذا يا مصر؟

لماذا يُعتقل عبد الرحمن؟ ولماذا هان عليك شبابُك؟ لماذا لا يفهمني مبارك ولا أريد أن أفهمه؟ لماذا خطف الضابط جيهان؟ والله، اليوم بدأت أعذره ولا ألومه.. هل كان يعرف؟

أتمنى ألَّا يكون قد عرف شيئًا، فلو عرف، فتَّش، ولو فتش، فبوسعه أن يصل، ولو وصل، ما وصلتْ بي الأيامُ هنا.

مشكلتي معك يا بلادي، أني أريد لك مستقبلًا أفضل، حتى دون مكان لي فيه، والله هو أمرٌ لا يهمني، المهم أنت.. أنا يا عروسة واحد من عشرات الآلاف من شباب حاول أن يقرأ، أن يفهم، فما إن أبصر حتى تمنى العمى وهو يلمحك في ذيل قائمة الدنيا، تستجدين من كنت عليهم تتصدقين. وحزن لمَّا رأى الفيروسات تهتك حرمةَ الأكباد، وبكى كالمطر يوم غاصت المركب بالعائدين ولم يُحرك مبارك ساكنًا لإنقاذهم.. غرق الغلابة وجرع الذئاب خمرهم، لم يعبأوا بالخراف النافقة.

هل تغضبين يا عروستي لو قلت إن شيخوختك بادية، وإن عظام فُقرائك بارزة.

لم أكن متدينًا بالمعنى البديهي لتديُّن أيامنا، لكن لما بدأت

التفكيرَ في مصيرك، لاح لي عبد الرحمن بدعوته للصلاة والتنسك، ثم انتظرني محمود على ناصية المسجد ليبلغني بأن الحل في العودة إلى شرع الله.. بكل الطرق الممكنة.. بأن الجهاد فريضة الدين الغائبة.. التقطت كعصفور جائع حباتٍ بين سطورِ كُتب أعطانيها.. قرأت وقرأت.. الحقيقة أقول إنني دخلت الدين من بوابة السياسة.. فعرفتُ الحق.. لكن كل يوم تظهر في الصورة الكبيرة خطوطٌ غابت عني قبل سنوات.

***

بالمطر ودموعي وغربتي ومنير، بهمومي وخيبئتي وحزني على عبد الرحمن.. بقلبي الذي لا زال يفتش، وبقمر قلبي الذي فارقته تحت المطر، وكان بودي لو فارقتني الحياة وأني لا أتركه يظن بي الظنون.. بنفسي التي تعالج نفسي عُدت لشقتي.. كنت بحاجة لحمام ساخن أزيح به بعض عناء التفكير، لم تكن حنان بالشقة.

***

وادي النطرون

بحجرٍ سقطَ إرهاقًا من جدار، كتب على الجدار:

«مضى رمضان.. في ليلة السابع والعشرين تعلقنا بحبل تخيلناه ممدودًا بطول المسافة بين السماء والأرض».

تأمل ما كتب:

«أتعلق بحبل، أنا رأيت الحبل، وأخبرت به زملائي، فما ضحكوا ولا استغربوا، قال أحدهم: لا تيأسنَّ، فإن الفارج الله».

***

أحمد

عادت حنان، كنت أعلم أنها توقفت عن الخمر منذ ارتباطنا بعقد، وطلبي ذلك بحزم.. نكتفي بالحشيش ونختلف عن الخليجيين، العجيب، كنت أخبرها بأن الخمر فيه نص واضح لا لبس فيه، وقد نجده هنا، بينما الحشيش ليس فيه نص ولا نصف نص، ولكن الخليجي بطبعه لو سمع كلمة حشيش فكأنه رأى شيطانًا.

دعينا – قلت لها- في مصريتنا، ولا يرضيني الخمر ولا أُطيق رائحته».

اقتربت لأقبِّلها، فكانت رائحة الويسكي فادحة، كتمتها ولم أنفجر غضبًا على غير عادتي.. ولم أعاتبها على رائحة الخمر؛ لأني أساسًا لم أخبرها بتفكيري في الاستقرار معها، التفكير الذي غزاني مؤخرًا.. شعرت أن أكثر عقاب يمكن أن أعير به عن ضيقي، هو نسياني ما فكرت فيه.. أنت الجانية على نفسك.. همست لها، وبالطبع لم تكن في كامل وعيها.. لكن الحقيقة

أقولها، كانت ليلة ممتعة.

بعد عودتي من السودان، قد يغير الله من حال إلى حال.

***

وادي النطرون

كتبوا رسالة تشرح المواجع ولا ترقى لواقع الآلام، وسرَّبوها في الزيارات، لعلها تصل إلى منظمة حقوقية أو صحفي حر.

***

أحمد

بمطار الكويت، راجعت هديتي للرجل الطيب، قارورة مسك، وربع كيلو عود فاخر، الطِيبُ للطيبين، لو يرضى؛ أُعطيه مالًا، أظنه ثريًّا، وأيضًا غني النفس. سنوات أربع جرت في أيامها الأيام، وطالت في لياليها الليالي، مِنْ فتًى صعلوكٍ ومبتلًى وموجوع، خطفوا منه حبيبته، لصحافيٍّ يُغطي مؤتمرًا له صفة الدولية.

سنوات أربع ولا زالت نوتة الشيخ بحقيبة أوراقي، كلماته الخافتة تضيء كثيرًا من مشاهد حياتي. لكن لا ينبغي الانجذاب، فهو بالنهاية صوفي، وأنا؟

أنا لست أعرف - كعادتي- من أنا.. لكن في هذ الرحلة سأفتش عن آثار من كنت يومًا ما، على شفا الانجراف معهم، أو على مرمى عتبة الترقي إليهم.

لست أدري.

***

في الطائرة فتحت حافظةً بها بعضُ قُصاصاتٍ عن الجماعات الإسلامية وهجرتِهم القصيرة للسودان، ثم مغادرتها المبهمة. لعل أمامي ساعاتٍ وأيامًا قصيرة لتحديد أين أقف، وماذا عليَّ أن أفعل بالخبيئة.. الأمانة أو اللعنة؟

تمنيتُ لو مرتِ الطائرةُ من فوق مصر، بلدي غير الصغيرة، ولا المنزوية المجهول فتنجح فيها الانقلابات، ولا تَقُضُّ عرشَ فرعونِه عملياتٌ عسكريةٌ لن ترقى أبدًا لتصبح حرب شوارع.

عبد الرحمن قال لي مرات: «كيف أن كل كيلو متر مربع في بلادنا، لا يكاد يخلو من جندي أو جابي ضرائب ومحصل كهرباء.. مصر ليست بهذه الدرجة من الهشاشة التي تكسرها عمليات صبيانية.. مصر دولة كبيرة بميزان التاريخ ومجسات الحضارة».

أخاف لو قلت: «الكبريتُ في أيديكم، يُحرقكم. وأجساد الأبرياء بنزين»، أن أكون تسرعت في تقدير موقفي النهائي.

سأنتظر. بصبر وإخلاص.

***

وادي النطرون

في الزيارة، قال أبو أحد السجناء إن صحافيًّا اسمه «مجدي مهنا» نشر رسالة معتقلين، ودسَّ في يدهم نسخة، فرحوا.. ترقبوا فرجًا، فلم يأتِ.

سبحانه، له في خلقه شُئون، ولتقديره تصاريف.

***

الظلام والصمت، صمت القبور:

«هانت أيتها الدنيا، الفرج في انتظار فرج هجر الدنيا، فرجُ الموت، في قبر الزنزانةِ صغرتْ الدنيا، اشتقتُ للآخرة، أكيدٌ أن الله تعالى رحيم، سيرأف بحالي، وهو سبحانه قادر على غفران الذنوب، لعل ما أنا فيه من ضيق ونكد هو تكفير لتلك الذنوب.. وأية ذنوب تلك التي ما غسلتها الكهرباء.. أكيد يا ربِّ أنك في السماء.. لا شك عندي».

***

أحمد

من بين قصاصات جمَّعتها وأخرى احتفظت بها منذ سنوات، بكتْ أمامي قصاصةٌ صفراء.

«في خريف عام ثلاثة وتسعين - يعني بعد شهور من إعلان قضية طلائع الفتح- انتهت الحصةُ الأخيرةُ من يوم مدرسي، يشبه اليومَ الذي قصفت فيه إسرائيلُ مدرسةَ بحرِ البقّر. يومها كان رئيس وزراء مصر، عاطف صدقي، في طريقه من مصر الجديدة إلى مجلس الوزراء، وكان أعضاء الجماعة التي حُمِّلْتُ أمانتها على موعد مع جهادٍ ونضالٍ، وأعدوا لانفجار بمجرد توازي موكب «صدقي» مع السيارة المهملة الملغومة في شارع المقريزي.

حدث خطأ قبيح، وانحرف اتجاه التفجير، ليستهدف باب المدرسة، وتستقر شظايا قبيحة ملتهبة في جسد نحيف جميل، يحمل اسم «شيماء». قالوا وقتها إن أيمن الظواهري تبنَّى المحاولة التي قطفت زهرة عمرها اثنا عشر عامًا».

عينُ البغضِ لمبارك منعتني من التصديق، لم أُصدِّقْ ذلك وقتَها. تَواتُرُ الأحداثِ والأخبار المتوالية فيما جاءت به الأيام، كلها أثبتت بما صار يقينيًا عندي أن المنفذين يتبعون أيمن الظواهري، يتبعون تنظيم الجهاد.

وعُدْتُ لأَكذبَ على نفسي: «لكن الجهاد جماعة غير طلائع الفتح»، موهومًا أدفع الحقيقة بالتبرير.

لو أخلصنا النوايا تنكشف البلايا.

***

الحقيقة أن طلائع الفتح، بكل الأدلة وحسبَ كلٍّ اعترافاتهم

وأدبياتهم، هي الاسمُ الجديدُ لتنظيم الجهاد في مصر، أو لعلها كانت بذرةً في خبيئةٍ حملها أحدُهم ليلةً ما، كما حملتُ خبيئتَهم في تلك الليلة البعيدة، فصارت البذرةُ شجرةً، وطَلْعُها شظايا وأشلاءً.

نُكتة مُبكيةٌ، بالحساب البسيط، فإن «شيماء» من مواليد عام واحد وثمانين، نفس عام اغتيال السادات، ونفس عام قضية الجهاد الكبرى. تخيلت أنه بمجرد انتهاء الموجة الأولى للجماعة بالمحاكمة المشهورة، فتح أحدُهم بالخارج - مثلي- خبيئةً لديه، استودعوها عنده فصارت بعمر شيماء، حتى تقاطر عُمْرُ الزهرة الصغيرة بعُمرِ نِتاجِ الخبيئة، كما تعامد انفجارُ القنبلة مع سعادة طفلة بجرس الرحيل المدرسي.

مع الوقت نبتتْ «شيماء» بضميري، صارت نقطةً فاصلةً لم تكتملْ بعدُ، أخاف لو اكتملت، أنْ أَكْفُرَ بكل خطوات طريق مشيتها. من العناد ما يورث الاستمرار في سكة لا نعرف منتهاها. وصعب على النفس أن تغتال سنوات ماضيها التي شَكَّلَتْها ولا تزال.

في الغرب صارت شيماء رمزًا لدراسة الإرهاب. نبت في الأكاديميات مصطلح أثر شيماء (Shayma effect).

المقصود به هو الإشارة إلى منعطف كبير في المواجهة مع الإرهاب بمصر منذ عام ثلاثة وتسعين، وكيف كانت هذه العملية هي القشة التي قصمت ظهر تنظيم الجهاد شعبيًا.

بنفس مشبك الورق الأسود، تَعَلَّقَ مِلفٌ يتضمن رسالةً وصلت مقر الجريدة بالكويت، عن طريق بريد مُجهل، وتحمل عنوان "شفاء صدور المؤمنين"، كتبها أيمن الظواهري، وشرح فيها ملابسات حادث شيماء وتفاصيله، أبدَى خلالها أسفَه الشديدَ، وتَرَحَّمَ عليها، وقال إنه عرض الدِّيةَ على والديها. لكن كيف؟ لم يفسر.

يقول الظواهري: «وقام إخواننا المنفذون باستطلاع مكان الهجوم، فوجدوا مدرسة تحت الإنشاء، ظنوها خالية من التلاميذ، فوضعوا أمامها السيارة الملغومة، قاصدين موكب رئيس الوزراء، ولكن تبين - فيما بعد- أن الجزء الخارجي من المدرسة فقط هو الذى كان تحت التجديد، أما بقية المدرسة فكانت تعمل، ونجا رئيس الوزراء من الهجوم بخروج سيارته من دائرة الانفجار، بأجزاء من الثانية بعد أن أصابتها شظايا الانفجار، ولكن أصيبت فيه طفلة تُدعى شيماء، كانت تلميذة في المدرسة المجاورة».

***

مِلْتُ على شباك الطائرة، أتأملُ خلقَ اللهِ في السحاب الأبيض، عدتُ وقرأت الفقرة السابقة مرتين، لم أستوعب جملة «أصيبت طفلة تدعى شيماء».

هي لم تُصَبْ، هي ماتت أو قُتلت يا شيخ، ثم الفعل المبني للمجهول «تُدعى» هل تخيل الشيخ حفيد العلماء واللغويين أن التنكير يقلل من قيمة الضحية، هي لم تعد «تُدعَى»، هي شيماء، هي طفلة، هي لم تعرف مبارك في غير نشرات الأخبار التي

لم تكن – بالتأكيد- تهتم لها، وهي لم تعرف أن شمسَ الإسلام غابت بغياب الخلافة، ولا هي تدرك كيف انتهت حياة رئيس مصر السابق، ولا تعرف أيمن الظواهري ولا كل جماعته، ولا القضية التي يقولون إنهم من أجلها يجاهدون.

هي نفس بريئة، هي بنيان الرب، وهدمتوه يا شيخ الجهاد، بغير حقه، وبخطأٍ أفظعَ من قصد.

ملعونٌ من هَدَمَ بُنيانَ الرب.

***

وفي مقطع آخر يقول الظواهري: «كان وكيلي، محفوظ عزام المحامي، رفع قضية أمام القضاء المصري، طالب فيها بتعويض عن التعذيب الذي وقع عليَّ في السجن، وحكمت له المحكمة بتعويض ثلاثة آلاف جنيه، وأخبرته وزارةُ الداخلية أن التعويضَ موجودٌ بمقر أمن الدولة، وإذا كان أيمن الظواهري يريده فليأتِ لاستلامه، وأنا أطلب من المحامي أن يطالب إدارة أمن الدولة بتحويل هذا المبلغ لوالد شيماء، كمُقدمٍ للدية، وبادرةِ حُسنِ نيةٍ مني تجاهه.

لقد لخص أخونا صلاح في تحقيات النيابة بقضية طلائع الفتح، مقدار الأسف لمقتل هذه الطفلة، ولكنه كما أكد، فالجهاد يجب ألا يتوقف، رحمها الله، لقد آلمنا جميعًا مقتلُ هذه الطفلة البريئة بدون قصد".

دون قصد؟.. ماذا تقصد يا دكتور؟ بكل هذه البساطة؟

بكل برود أعصاب جَرّاحٍ، تعليقًا على دماء ستظل ساخنة، شرح الظواهري وبرر:

و«كبادرة حسن نية مني تجاهه».. وهل بعد القتل نية؟ هل بعد ذبح فلذة كبد الرجل، قد يهتم بـ«دية » أو «نية». النياتُ في القلوب، ومنها حَيَّاتٌ وعقاربُ. هل حُسنُ النيةِ ثلجٌ قد يُبردُ كبدًا محترقًا على نطفته التي أحرقتها شظاياكُم.

دَارُوا أياديَكم واقْصِفُوا أقلامَكم. وابكوا على خطاياكم.

هذا أفضل.

بكل بساطة عندي، الظواهري قاتلٌ لا ينفعه كلُ استشهادٍ يسوقُه مُرَصَّعًا بحديث نبوي.

أيها القتلة، اقتلوا.. لكن لا تقولوا نحن نقتل باسم الرسول. ولا تسيئوا للرسول ﷺ.

***

لكن حتى هذه القصاصات، كنت أُمنِّي نفسي كثيرًا بأنه على الرغم من كل الارتباطات الواضحة بين أيمن الظواهري وتنظيمه وبين طلائع الفتح، فإن المسالة قد لا تعدو أكثر من محاولة استغلال إعلامي من الظواهري بوجود مجموعات كبيرة في مصر، وهو يحاول أن يوهمنا بأنها تتبعه.

كنت أبحث عن أي مخرج. فهذا الرجل لا يروقني مطلقًا، لكن أيضًا تاريخي الذي لا يتعدَّى سنوات مع قضية اعتنقتها، لا

أستسيغ التنازل عنه، في لحظة قد تكون عاطفية.

مِلْتُ ثانيةً على الشباك. عُدْتُ للقصاصات، وعلى غير عادتي قبضتُ جفوني، لعلّي إلى سِنَةٍ من نوم أهرب. ما استطعتُ، وأنا أتابع طفلة صغيرة بيد أمها في طريقهما للحمام. فكرت ألّا أفكر. فخرجت طفلة من حقيبتي ممسكة بورقة باهتة ونغزتني وقالت: اقرأ.

قلت: لا أستطيع.

قالت: دمائي برقبتك.

قلت: كفاني ما كفاني.

قالت: اقرأ، لعلَّ سرابًا تراه يَخْضَرُّ، أو تصدق فتعترف أنه السراب المسكون بالأشباح.

مفزوعًا فتحت عيني، ومهتمًّا اعتدلت وأنا أعيد التفتيش بين القصاصات، قالت إحداها: «إنه في إحدى جلسات المحاكمة لطلائع الفتح، هتف متهمٌ باسم أيمن الظواهري، جدد له العهد بالمضي على الطريق».

فإلَى متى الوهم وخداع النفس؟ اتَّقِ الله أيتها النفس، فهذا ليس جهادًا، هذا عَمى، هذا كلام فارغ.

أي شريعة تلك التي تمنحك عُذْرَ قَطْفِ زهرة، وأنت تُنقي الأرض من حشائش الشيطان؟ أي شريعة تلك التي تعطيك صكًا لا جدال فيه بأنك لا تُسأل عن نفس بريئة، ما دامت نيَّتُك قتل

أفعي طاغية؟ أي شريعة تلك التي تقولون لنا إنها الشريعة.. الشريعة أكيدٌ أنها غير هكذا شريعة، تصنفون لها الكتب والرسائل المشفرة المخبوءة.

طويتُ الأوراقَ، والطائرة تضطرب مخرجة عجلاتها. ليت طائرتي القلقة تَحُطُّ وترسو على أرض من حقيقة.

لقد طال بها المسير، وارتبك.

***

وادي النطرون

الذنوب زنازين داخل الزنازين، والزنازين قبور، ولبعض القبور نوافذ، ينفتح جدار الزنزانة الأسود عن نفق لكل سيرة حياته، يراها كلها سيئة:

«هأنذا أتلصص على جارتي الحسناء، كانت تبادلني النظرات نهارًا، فلم أسكت حتى سبحت في بياضها، مسكين زوجها، لو رأيته الآن لانحنيتُ أمامه وناولته سكينًا.. ربما لو علم ما ألاقيه، سامحني.. ذنوب الإنسان بينه وبين خالقه، يغفرها خالقه إن شاء، هيهات للذنوب في خق العباد».

***

مرت الليلة.. مرت الليالي بالتسبيح.. كل شيء يمر بالتسبيح.. التسبيح سباحة نقطع بها المسافات الغبية:

«قد يكون بيتي على بُعد عُقَلِ أصابعي المُسبِّحة. من يدري؟».

***

أحمد

من هجير الكويت، إلى لهيب جنوب الوادي. وجوهٌ طيبةٌ مبتسمةٌ. لست غريبًا عنهم، السودان امتدادُ الحبشة. أرض الهجرة الأولى، كان بها ملك عادل، لا يُظْلَم عنده أحد، تآمر عليه غلاة الرهبان، ولا يزالون. الملك العادل صار كحلم ليلة ممطرة في سنين جدباء عجاف، لا أثر لها على وجه الواقع.

«في مصر يقولون: مبارك رمز الأمن، حتى قضاة المحكمة الدستورية قالوا إن نظرته أرحب من نظرة القضاء، وأكثر شمولًا. سمير رجب يرى أن مبارك لا يخطئ قط، صفوت الشريف - لولا أنها ثقيلة- لقال إنه لا يأتيه الباطل.. أضحك أم أبكي يا أبناء الأفاعي؟».

السودان كانت مرشحة بقوة لأن تكون عدوتنا التي نحاربها بدلًا من إسرائيل، كادت الحرب تجرحنا بأظفارها بعد محاولة اغتيال مبارك بأديس أبابا، قالت مصر: إنها السودان وإنه الترابي وراء المؤامرة، نمت أخبار الاشتباكات بالأسلحة الخفيفة، الأشقاء في شمال الوادي، في مواجهة العدو الجديد أشقاء جنوب الوادي، مع أن شريانًا واحدًا يجري ويشق أجسادنا. استدعوا المئات، وتم استدعائي.. شحنوني والعشرات إلى راس بناس

على البحر الأحمر.

هناك نظرت فكان الانفساح والحال ضيق. أوسع ما تكون أضيق ما تكون. أردت الجهاد ضد حاكم قيل لي إنه كافر، فإذا بي على وشك القتال تحت رايته، ومن أقاتل؟

الحمد لله قد نجوت. ولا زلت بلطفه ناجيًا.. قلبي لديك، وقالبي هنا، فنجِّني وخذ بيدي إليك.

***

وادي النطرون

يتأمل في الظلام:

«صرنا هدرًا، لا إنسانية نندرج تحت نعتها، لَسْنَا في أعينهم بشرًا، لا اعتراف بقيمة ولا إقرار بكيان، ولا حقَّ لمعتقل، مقيدون ليل نهار، مغيَّبون خلف أسوار وجدران، أمام وجوه غليظة، حتى الحيوانات لا نرقى لرتبتها العالية.

صرنا هدرًا، عرضًا مستباحًا، في القاموس عرفوا «الهدر» بما يَبْطُلُ من دم أو غيره، يعني صار مستباحًا، لا يُسأل سافكُه عمَّا يفعل. ما الفرق بين صيرورتنا هدرًا مسجونين، وكينونتنا قبل ذلك هدرًا لا قيمة لنا؟

قبل دخولي ودخول الآلاف المعتقلات، كنَّا هدرًا، لا اعتراف

بطاقاتنا أو كفاءاتنا، لم يكن لنا حتى الحقُّ في حق تقرير المصير والإرادة، تخرجنا في الجامعات وملأنا المقاهي ضجيجًا والنواصي صخبًا، وكنَّا هدرًا».

قال لأصحاب المعتقل: مساؤكم هدر، يا معشر الهدر.

ضحكوا هادرين ومهدورين.

***

أحمد

على باب المطار، انتظرني مراسلنا في الخرطوم، وجهه يشبه الشيخ القرافي، كل الوجوه مبيضة بالخير.

حدثني طولَ الطريق للفندق عن المؤتمر، كغيره من فاعليَّات عربية، مياه مثلجة وعصائر، واستراحات شاي وحلوى، كلام وكلام، وبضع أوراق منشورة، ثم توصيات، ولا مستمع، ولا مهتم، ولا هم يحزنون.

أمامي ساعات ثلاث ويبدأ المؤتمر في الثالثة عصرًا، اليوم وغدًا، ثم ثلاثة أيام، وبإمكاني مد السفر يومين آخرين. قاطعت المراسل وهو يتحدث عن المؤتمر وعن السودان وأهم الشخصيات التي يمكن أن أجْري معها حوارات، على هامش المؤتمر، قاطعته بابتسام، أخرجت من جيبي الورقة التي خط بها الشيخ عثمان عنوانه، مددتها لرفيقي، قلت له: الأهم من المؤتمر هو الوصول

بعد المؤتمر لهذا العنوان، وسلمته نفس الورقة القديمة التي خط فيها الحكيم السوداني عنوانه بعناية.

انتهى المؤتمر، وأجريت ثلاثة حوارات عادية، وسجلت توصيات المؤتمر. رائعة هي التوصيات، لكنها تظل سطورًا ميتة ظاهرة على ورق سوف يُنسى، كما نظل نحن العرب ظاهرة على الورق والشاشات.

***

وادي النطرون

من أين جاءه شعور بأن الفرج اقترب، وعمًّا قريب سيغادر زنزانة. كانت مسرحًا لمراجعة التفكر، للتفكير بصوت مسموع، حقق فيها كيف ينشأ التكفير، كيف تستمر دوامة الثأر بين الحكومة والجماعات. كان أسَنُّهم – في الأربعين - يمارس هوايته في التنظير، راح آخر يؤصِّل كيف أن مبارك كافر.

قال (الشيخ حشمت)، مُسِنٌّ آخر في الثلاثين سوَّته التجربة وصهرته: «من عباءة الإخوان ومن صبغة التعذيب، خرج شكري مصطفي.. عزل جماعته عن الدنيا، فالدنيا بنظره كانت دار كفر. كل من لا يكفر الجلادين وأعوانهم فهو كافر».

سيد قطب نفسه، وهو الأديب المرهف والشاعر الحساس الحزين، لم يكتب ما كتبه في السجن إلَّا تحت ضغوط التعذيب».

مال ناحية عبد الرحمن: «هنا ينمو التكفير. بذرته في كل قعر مظلم، تنبت متناثرة منتشرة، مع أول ساعة من التعذيب. تساءل مسكين تحت وطأة الضرب: هل الضابط الذي يعذب بالنار، ويسبُّ الخالق وما خَلَقَ هو مسلم مثلنا؟ وتبدأ النبتة في الارتفاع والتمكن تحت باطن الأرض المظلمة، فمن أعطاه الأوامر هو الجدير بوصف الكفر. بل كل من عاون هؤلاء الظالمين هو مثلهم، حُكْمُه حكمهم.. لقد لعن ابن تيمية كل من عاون الظالمين، حتى من بَرَى لهم قَلَمًا يكتبون به أسماء الضحايا القادمين».

شارك آخر:

«لكن هنا القضية مختلفة، هؤلاء الذين عذَّبونا والذين يجلدوننا في السجون، ليسوا جميعهم كفارًا، ولا يمثلون السواد العظيم من الحكومة ولا الناس في الخارج، قيمة استفادتنا من هذه التجربة، هو أن نخرج منها - إن قُدِّرَ لنا خروجٌ- ونحن نحن، لا مسوخًا نُكَفِّر بجهل».

عقَّب الشيخ حشمت بهدوءٍ أراحت نبرته عبد الرحمن: «يا أصدقائي، لولا أن تتهموني بالتصوف، لذكَّرتكم بما قال الحلاج يوم مقتله: تمنى أن يكون موته مغفرة لمن يفعلون، نحن أَوْلَى بالسماح، نحن أولى بالتمسك بالعقل حتى في أشد ساعات الحُلكة والاضطراب».

وصله كلامُه عبد الرحمن:

«لماذا وصلني وكيف؟ لأن حقدي الذي لن يغيب، لو قُدر لي وخرجت، فلن أتركه يمحو المحبة، أحيانًا أشعر أن أفكار محمود وجماعات مثل جماعته، لا حل ينفع معها سوى البطش الشديد. لكن يسقط في الطريق ضحايا بالخطأ. أنا «بالخطأ». سأدعو على الظالمين، لكن رد فعلي لن يستحيل فعلا، أو ثأرًا، لو قدر لي وخرجت، فليس بوسعي الانتقام، ولو أردت الانتقام ما استطعته، وما استطعت الرضا ولا زارني النوم. يجب أن أعيش، فعليَّ إذن أن أُفِيق، أن أطرح عني تلك الأفكار، وأن أستجيب لموجات المراجعات التي تَطِنُّ في جنبات السجون.. لن أُكَفِّر أحدًا، والسلام».

***

أحمد

بإصرار مني تركني مراسلنا بالخرطوم، بعد أن أوصَى بي سائقًا طيبًا.

الجميع هنا طيبون.

الرحلات حقلٌ لمراجعة الماضي، تاريخ الأمكنة، وسجلات الأشخاص، الأيام الغابرة، بريحها الغابرة التي تركت بالقلوب آثارها والعقول.

ها أنت على عتبات الشيخ، ما زلت تحمل في جنبات روحك

فيضَ كلماتِه الأثيرة، تَحْذَرُ من الاقترابِ مخافةَ الغرقِ فيما تشك أنه خرافة، ها أنت ما زلت تحمل بين طيات أفكارك غبارَ سنابِك خيولٍ، قيل إن على صهواتِها مجاهدين، لا زلت تؤمن أن الطاغوتَ كافرٌ يستحق القتالَ، وأن بلادك التي لم تعد كبلادك تستأهل حُكمًا أفضل وشريعةً لا تعرف اعوجاجًا واقتباسات مُبْتَسَرة.

نعم قد مسَّك شك، لكن التنازل عن الماضي أشق.

***

عبد الرحمن

حدث شيء ما بالخارج، فأعادوا بعضِ التحقيقات، استدعوه وآخرين من القاهريين، واستمر تحقيقٌ ليومين، هذه المرة في السجن:

«سألوني مرة أخرى وثانية ورابعة بعد مائة، عن معارف محمود يوسف، وعلى الرغم من الكهرباء فقد بان من صوت المحقق بعضُ يأسٍ مني، بِتُّ شاكًا في مصيري، هل ينسونني إلى يوم القيامة؟ أعادوني لحجز قريب، عزلوني عن رفقاء زنزانتي.. بانتظار تحقيق آخر».

***

أحمد

الشمسُ قبل العصرِ، في قيلولتها تُقَبِّلُ النيلَ، في كل مكانٍ تُقَبِّل شمسٌ نيلَنا، تتأخرُ القُبْلة أو تتعجل قليلًا، بحسب انحناءات مجراه، لكنها نفس الدقائق الشجية، في قبلة ساخنة سخية، شمسُ أصيلٍ طيبة رغم سخونتها. إلى بيت الشيخ انطلقت، ناديت على غلام صغير، قلت: أبلغ الشيخ عثمان بأن أحمد الفخراني الغريق يريد لقاءه.

لا تنس «الغريق» يا صديقي.

***

باب مفتوح، أو ليس هناك باب، عثمان القرافي، قلب مفتوح، صندوق لحفظ السر، تبر الحوش كتراب الطريق، في السودان أنت دائمًا بالبيت، فناء متسع، ضوء منبعث من داخل البيت بنهاية الحوش، الشيخ على المدخل يهُمُّ بالخروج في استقبالي، سنوات، أربع سنوات، على الرغم من سني الصغير نسبيًّا، فقد انتبر شعر أبيض، وتناثر. وانتثر فيها مزيدٌ من بهاءٍ بوجهه الثمانيني الأسمر النحيل. شالٌ أبيضُ، وجبهةٌ تَعْرُجُ عليها خطوطُ الزمن مرتاحة، كشقوقِ الماء في الأرض السمراء، لحية خفيفة، ظاهرة لبياضها فوق بشرة داكنة عفية. رغم اصفرارٍ بدا خجولا بالعينين.

– شيخي وصديقي، كيف الحال؟

لم تبادر اليد بالسلام، فتح ذراعيه، تلقاني بالأحضان، ما

أطيب الرائحة.

— كبرت يا أستاذ أحمد.

— وأنت ازددت شبابًا يا مولانا.

***

طاولة خشبية على أربعة قوائم قصيرة، أشبه بالسرير، تداخُلُ الخشب مع الحبال القديمة، يبعث في النفس راحة، كل شيء في المكان يفوح بالسكينة، بضع بلاطات موزاييك متراصة بغير عناية، ربما مقصودة. كنبة مبنية، بدتْ أقدمَ من جِدارٍ استندت إليه، عليها وسائد قطنية منتظمة المقاس والتجاور، إلي يمينها زيران فخار نديَّان.

قعدة مفتوحة على السماء، والسماء بعيدة كالسنوات الأربع، وقريبة كعصاه التي امتدت لي في ساعة ضيق بنهر غاضب، السماء بنجومها تكاد تلامس الجالسين، شجرةُ سنطٍ وارفة، عفية.

***

حدثته عن السنوات الفائتة، وكيف نجحت في عملي الصحافي بالكويت، وصرت غنيًّا وقويًّا، وضحكت وضحك أيضًا وأنا أخبره متعجبًا عن إعدادي للقاء مبارك، وطابت الضيافة ورقَّ السَّمَر، مددت يدي بالهدية، الطِّيبُ للطيبين. أخذها ولمح الشيخ تأملي المتكرر للسرير الخشبي البديع، قال:

«هذا عنقريب».

عنقريب.. كررت وراءه الكلمة بعناية وببطء، كأول لقاء بيننا، لا أريد أن أنسى روعة المكان.

«عنقريب، سرير مصنوع من الخشب، عادةً من سنط، يُرْبَط بالحبال، نستخدمه في الأفراح والأتراح، شريك رحلة الحياة السودانية.. الآن هناك «عناقريب» مصنوعة من البلاستيك، ورخيصة، هذا يساوي ألوفًا من الجنيهات.

في ليلة الحناء، يتناوب العروسان الجلوس عليه، ويُخضَبان.. وإذا ما انتهت رحلة أحدنا سجَّيناه فوق عنقريب وحملناه عليه. عمره أكثر من سبعين عامًا، سأموت قبله. وليتني كنت فوقه».

سألته عن معنى أو سبب التسمية الغريبة؟

«بعضنا ينسبه للعقرب، فالنائم فوقه أو الجالس لا تطوله العقارب. خاصة في الصحراء والغرب والجنوب. السوداني يا أستاذ، لا يُسند ظهره لحائط أو سور خشبي، هو يستلقي ليتأمل النجوم في السماء، المتأملون يميلون للسكينة، وللأسف هم اليوم قد نسوا الذِّكْرَ، وانغمسوا في السياسة، الخير موجود، فلماذا النزاع الدائم عليه؟».

سألني عن نوتة الأوراد.

قلت: «معي أينما سرت.. هل تريد استعادتها؟».

– لا، معاذ الله! كيف حالك؟ لا أسألك عن حال العمل والغربة

والفلوس؟ كيف حالك يا ولدي؟

— ما زلت أفتش، لكن أنت لم تعرف كل قصتي، حكيت لك أقلَّ من نصفها في الليلة إياها، أحب أن أحكي. وأعلم خطورة كل ما أحكي.. وما حدث –بقلقه – لا يقلق، بقدر ما قد يحدث.

***

واديْ النطرون

بات ليلته يصلي، يناجي من لا ينام:

«يا ربّ، ليس لي سواك، وليس لي بهؤلاء طاقة، جالسًا أترقب وَقْعَ أقدامهم، لقد جهزوني لحفلة شواء جديدة، لم تعد الشتيمة، ولا الصفع، ولا العصا الغليظة، تمثل رعبًا، الرعب كله في الزلزال الساري بدماء مُعلق فوق عروسة معدنية.

يا رب ها أنا بين ظلم الجدران، وظلام الزنزانة، أنظر إليك، أسبح في بطن الحوت، أناديك كما ناداك يونس أنْ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».. ها أنا يا ربي، أعني ما أقول، وأقول ما أعني، فَأَعِنّي يا ذا الطَّوْل والجبروت، وخذني إلى خاصتك التي لا يستطيع التسللَ إليها شرٌّ، أنْ لا إله إلا أنت، يعني ليس هناك أحدٌ غيرك ينفعني، لو هناك أحدٌ غيرك، فدُلَّنِي عليه، ليس سواك يا رب، وأنا.. أنت تعلم من أنا. أنا ظالم، أنا واحدٌ

من عبيدك الظالمين لأنفسهم، غرَّتْني الأماني، وغمرتني أوحال الذنوب، وهذا إقرار مني، أنا من أنا، وأنت أنت لا سواك رب».

يتوقعُ الخطى، فينضبطُ إيقاعُ نبض قلبِه مع دقات ما يتخيله من وقعِ الأقدام، ويذوب في جُؤَار تسابيحه:

«سبحانك سبحانك، يا ذا الجبروت والعزة والملكوت، يا ذا الطول الشديد والحبل المديد، والحول الأكيد، يا فعالًا لما تريد، أَعْمِهِم عني، يس والقرآن الحكيم.. يا بركة دعائك يا أمي، هل من عطرك بعضُ شذا يرفعُ ثقل الجفنين، ويهديني نومًا لا قلقَ به، ولا فزعة مرعوب، يا بركة صعيديتك أيتها الجنوبية العنيدة، هل من ساقك المغمورة بالتراب عصا تهدد من يحاول الاقتراب من ولدك الضعيف؟ آه يا أمي، أحمدك يا ربي حمد الشاكرين الذاكرين، أشكرك لقبضك أمي قبل أن ترى ذلك اليوم، لم تكن لتحتمل، أكيد أنها ستموت مراتٍ لو قيل لها إن ابنك رَهْنُ ذُلِّ السحل، وقيدُ جَبْرِ الاعتراف.

مسكين أنا إلى رب السماوات، وأنا المحزون في مجموع حالاتي.. لو دعوة من عظامِكِ الطيبة لولدك الراجي عفو ربه وستره..».

أقسى من الجَلْد، ترقُّبُ رجع خطوات حذاء الجلَّاد.

كما ينساب ماء، انسابت رائحة طرحة أمه فغشيت جيوبه الأنفية مزمنة الالتهاب، كل الجيوب مُحتقنة، كل ما حوله عطن.

«لا تعرف الشمس أن بدنيا الله مترين مربعين داخل هذه

الزنزانة، من يوم أن وطئت أقدام العسكر، اختفت الشمس، ذهبت مغاضبة، تاركة رائحة».

للظِلِّ رائحةٌ محفورةٌ بأنفِ كل مظلوم، وطعمٌ يجعلُ كل الطعام مُرًّا وسواءً، وللظل لونٌ أرعب كل الألوان، طردها، وظل في الظِلِّ بسواده.

بين الظل والظلم ثلثان مشتركان، ظاء ولام، ثم استقل الظلم بـ«ميم» جاءت من عضة فم ضحية.

***

نام عبد الرحمن وما درى كم من ساعات غفا:

«ما حدث في تلك الليلة المرعبة، عجيبة من عجائب، لا تحسبوه كرامة، فنحن لا كرامة لنا بما قدمنا من ذنوب، انقضت الليلة، هكذا فجأة ودون مقدمات، كنتُ في الليل فكانَ نهارٌ، كنت سابحًا في الظلام والظل والظلم، فصحوت على باب الزنزانة ينفتح، وبأمر بالخروج من غرفة الانتظار، إلى زنزانة القرار، التي تعني أن موعدي مع الزبانية قد تأجل، طالعتُ السَجَّانَ وسألته: كم الساعة؟

– لماذا تسأل عن الساعة يا موكوس، هل لديك ميعاد؟

– بالله عليك، كم الساعة؟

– الساعة السابعة.

– مساءً أم صباحًا؟

– صباحًا يا ابن صباح.

ليس اسم أمي صباح، ولكنها كانت صباحًا مشرقًا، شكرًا يا أمي، كيف عرفتِ أنني أشتاق إليك؟ لقد جاءتني أمي، في حجرها نمتُ، مست أناملُها لحيتي، قالت: كبرت يا عبد الرحمن، لا تحزن، أنا دعوتُ لك، طلبتُ لقاء مولاي، وقفتُ على بابه، قلتُ إن ابني في خطر، فأرجو السماحَ بالزيارة، بعد ثلاثة سترتاحُ، كُلْ من عنقود العنب، والتقطتْ أصابعُها حبَّاتٍ، قَلَّبَتْها بين كفَّيْها. مدَّتْ يدها بحبة بعد حبة إلى فمها، نزعت بشفتيها وصلةَ الحبة بالعنقود، ثم قلبتها ثانية، فكانت حباتٍ خالصةً من كل شيء، لذيذة، لم آكل العنب بهذه الطريقة منذ ماتت أمي، وبيدها صَبَّتْ نبيذًا غير مخمور، أحالَ مرارةَ ريقي خمرًا شهيًا.

لم أكن يومًا صوفيًا، لكن هذا بالضبط ما حدث، قالت: بعد ثلاثة، ومرت ساعات ثلاث، ومرت أيام ثلاثة، ومر أسبوعان، وأنا أنتظر انقضاء الثالث، وسيأتيني الفرج".

***

أحمد

تكلمتُ، لم أتكلم بكل هذه الصراحة من قبل، بدأت بقصتي مع محمود يوسف، وحكاية الخبيئة، تساءلتُ أمامه: ما الذي يمكن أن تحتويه؟ شرحت له خواطري التي تدحرجت كجمر في الطائرة، وكيف ربطتُ بين مولد «شيماء» التي راحت ضحية

خطأ من مجاهد أعمى، وبين محاكمات الجهاد الكبرى، حدَّثْتُه بحبٍّ عن جيهان، لم يَبْقَ لي منها غير ذكريات محبة، لا ألومها، بل نفسي غرضٌ للوم دائم، حتى فضفضت بأني كدت أنجح في ألا أحمل ثأرًا شخصيًّا تجاه الضابط الذي تزوجها.

سكتُّ، وهو ذهب لبعض حاجته، فلما عاد اعتذرت له وقلت إني لا أزال أبغض هذا الضابط وأعتبره غريمًا، ولي معه ثأر. بالإضافة إلى مشكلتي العامة معه ومع كل رجال أمن الدولة، لدورهم الغليظ في تثبيت كرسي الطاغوت، قلت إني حتى هذه اللحظة أُكَفِّر مبارك، لكن مبارك وحده دون أحدٍ مُعَيَّنٍ غيره، وأن هذه النقطة تحديدًا لا أتصور أن بإمكاني التنازل فيها، تدرج كلامي تقريبًا لكل شيء يشغلني، حتى عبد الرحمن، وكيف اغتممت، ولم أزل، منذ اعتقاله.

فقط، لأن الحكايا لا تنتهي، فقد أرجأتُ ببعض خجل حكاية «حنان توفيق».

انتظرته ليتكلم، لكني وجدت نفسي أستطرد وأعود للحديث عن الروضة وذكرياتي بها ومحبتي لها، وكيف أن الروضة هي مصر، وأن بغيتي وطني مع حقيقة وأمان.

كررت مصر ثلاث مرات. وبكيت.. لم يحاول تهدئتي، تركني دقيقة.

انبعث دفء صوته بالصلاة على النبي، صلى بصلوات بديعة رائقة ختمها بصوته الممدود الفتي على الرغم من عقده الثامن:

واللهِ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ ولَا غَرَبَتْ   إلَّا وحُبُّكَ مَقْرُونٌ بأنْفَاسِي

ولَا ذَكَرْتُكَ مَحْزُونًا ولَا فَرِحًا   إلَّا وأَنْتَ بقَلْبِي بَيْنَ وِسْوَاسِي

«لا كلام الليلة، فأنت مُرهق، بين سفر ومؤتمر وكلام، وصاحبك شيخ مُسِنّ، في الصباح - بإذن الله تعالى- ينفرج همٌّ كنَّا نظنُّه صخرة فوق صدر قعيد».

أرشدني لغرفة ملحقة بحمام، توضأت وصليت المغرب والعشاء قصرًا وجمعًا.

نمت مسرورًا.

***

وادي النطرون

قال:

«سيأتي الفرج وها أنا أمشي في الظلمة الرازحة، أساير عيشي في وادٍ تزعق به روائح الموت، وتموج ظلمات في جوانبه، لكنني والموت والظلمة والزعيق المكرس في قاع رأسي، لكنني وكل ذلك ومع كل ذلك وفوق كل ذلك، أُحددُ أني في النور أسير، قررت يا رب أني إليك أسير.

أدركت كيف أن أيامي السابقة لم تكن كأيامي السابقة، ففي

أيامنا السابقة نعيش الوهم، وفي أيامنا الخالدات إليك نسير..
فيا وحشة ذاك المسير، ويا أنس هذا المسير.

فرجه قريب. لا شك عندي».

***

أحمد

«محاطًا بماء، ومغمورًا بندًى، أجلس على صخرة جرانيتية داكنة، محفوفة الجوانب بورد النيل، ملابس الإحرام غير محكمة على جسدي العاري، وبيدي مصحف أخضر، نفس مصحف أبي الأخضر، وقطرات الدم تتساقط بطيئة من الحبل المفتول الدقيق، المُحدد لمحل توقفنا في القراءة، أميل للماء وأغسل القطرات، فتعود أصابعي مُحمَرَّة، ويبقى المصحف نظيفًا، أقبض عليه بين فكّي ورقبتي، وأميل ثانية لأغسل أصابعي، كلما مسست الماء، يكاد المصحف أن ينزَلق، ألف إبهاميَّ الاثنين للداخل وألوي معصمي، وأسند بهما المصحفَ، كي لا يمسه دم.

أكرر ذلك، كررته نحوًا من أربع مرات أو خمس، في المرة الأخيرة نجحت. أمسكت بالمصحف، فتحته، فإذا الماء يقطر منه. فزعت خوفًا من مسح قد يصيب الكلام، ولم أتبين إلَّا وتماسيح من كل اتجاه، تتباطأ بنظرتها، تُغريها كتفي المكشوفة.

انتشلت قدمي من الماء، وتكوَّرت على نفسي مفزوعًا. أراقب من طرف خائف خفي ما حولي.

مرقَ صوتٌ، رجل شديد بياض الوجه، يشق طريقه فوق الماء وبين التماسيح.

قال: اقفز فوقها، إنها مأمورة، لا تستحق كراهية مفزوع. قمت، خطوت وأنا أشير له بالمصحف وأقول: الماء، الحروف، الكلام، الدماء.

ابتسم وهو يَهُزُّ رأسه فيتمايل شاله الأخضر، وقال لي:

«كلام الربِّ لا يغسله الماء. اغتسل وامْضِ في طريقك، وارْضَ بكل ما تلقَى، الذكيُّ هو من يرضَى بما لا يُرضِي، حتى يأتيه ما يُرضيه ويرضاه، وزيادة».

نزلتُ الشَطَّ، ومضى هو قافلًا يمشي على الماء.

ناديت: من أنت؟

قال: عبد الله الفقير «الجُنَيْد».

***

تنفس الصبح، فصحوت وصوت الشيخ عثمان يهمس بالذكر، وعصاه تتحضر لمرافقة السائر في العتمة. نحنحت، نحنحت أعلى، تنبه الرجل الجميل، اقترب من باب الغرفة.

قال: لم أُرِدْ إيقاظك، أنت على سفر ومرهق.

توضأتُ. وخرجنا لمسجد «أرباب العقائد» القريب.

***

وادي النطرون

سلّموه أغراضه كاملة مع حفنة مئات من جنيهات تركتها أخته بالأمانات. نقلوه مرة أخرى للاظوغلي. عيناه معصوبتان:

في الليلة الثالثة قيل له: «أنت أخٌ لا قيمة لك ولا وزن.. معنا أنت في أمان.. بغيرنا لا أمان».

تعجَّب كيف يتكرر الكلام، وكيف وصفوه بهذه الدقة؟:

«كيف عرفوني كما لم أعرف نفسي؟ أنا بالضبط لا قيمة لي، لا وزن، ريشة في هواء».

تلبَّس الصوتُ ثوبَ رحمة، لم يهتم إن كانت مصطنعة أم حقيقية؛ فلا فرق:

«يا عبد الرحمن، نحن لم نتعمد إيذاءك، ولم يكن التعنيف بقصد الإيذاء، لو راجعت نفسك لعرفتَ حجم الخطر الذي يمثله الفكر التكفيري. انظر كل الذين التقيت بهم في السجن، ضاعت حياتهم بسبب فكرة متطرفة.

أفضل لك أن تُقلع تمامًا عن هذا الطريق»

تمنَّى لو قال: «والله، أدركت ذلك جيدًا، وقَبْلَه ما وافقت على التكفير».

عاد الضابط لنبرته المنتبرة كجمر هادىء منذر:

«يا عبد الرحمن، لو عرفت أي شيء، تأتي به إلينا على الفور.. أنت تعرف ما نريد.. أي شيء.. خاصة أولئك الذين عرفوا محمود يوسف.. على فكرة يا عبد الرحمن، محمود مات، مات أثناء اعترافه عليك».

«الله يسامحه. لو مات في أيام اعتقاله الأولى، لما حدث ما حدث. الله يسامحه، أو يعامله بعدله».

ما حزن عليه.

***

أحمد

طول الطريق، القصيرة كعُمري، كان الشيخ عثمان يصلى على الرسول، سرحت فيما رأيت، تفاصيله كاملة لا تغيب عن ذهني، تذكرت أني قبل أيام قرأت كتابًا عن رجال القرن الثالث، وتوقفت طويلًا عند» الجنيد البغدادي».

***

عبد الرحمن

فتحوا بابًا من وراءه بابان.. خرج وكان الأسبوع الثالث من رؤيا أمه.

أول شيء أدركه أن الخارج ما زال كما كان، لم يتغير شيء، لم يدرك أحد أنه عانى ما عانى:

«أنا لا شيء، نحن لا شيء، الخراف لا تُحس بشواردها التي أكلها الذئب، مَنْ شذَّ تلقفوه، ومن ظُلِمَ لم يأبهوا له. ذئب يختار ما يشاء من الخراف، على الخراف أن تكُفَّ عن لعبة الشرود.

كل شيء حولي ثابت، وحدي تغيرت.

أجرُّ قدمي بشارع قصر العيني. الساعة تجرُّ عقربها لعلامة العاشرة، مسرح السلام يُغلق بابه، أضواء تلتف بخوف على عنوان مسرحية «الملك هو الملك». وهل قال أحدٌ غير ذلك؟ مصاطب عشاق أمام قصر العيني يسطو عليها شتاء، شوارع ينفر منها السائرون، مزدحمة ولا أحد.

أين ذهب الناس؟

وحدها المعتقلات مفتوحة، بطول خريطة مصر وعمق عرضها مفتوحة، تقول هل من مزيد؟ بجَرَّة قلم. يجتمع التضاد في قوائم معتقلين.. من عشّاق، ومشابيح، واهمين ومتوهمين، ظالمين ومظلومين، تكفيريين ومُكَفّرين، إسلاميين ويساريين، كلاب وكلاب آخرين، من قال ومن لم يقل، من فعل ومن اكتفى بتفكير، من حمل أوراقًا ومن لا ناقة له ولا جمل، من أتى صدفة ومن أتى بتقرير عصفورة، من ذنبه أنه عرف ومن جريمته الجهل، من تخيل الدنيا زهرة فراح يشمها في النور، ومن غرَّه الأمل فتسوَّرَ أشواكها في الظلام.

في الظلام اخْتَفِ، وفي الظلام تَأَمَّلْ، وفي الظلام ذاكر لتعرف

أكثر، ولا تخبر أحدًا بما تعرف، ولا يكفيك كل سجلات معرفة المعتقل. في الظلام كن كالظلام، ظلًا لا يُرى، شبحًا ككل من حولك».

***

أحمد

في طريقنا عائدين من المسجد، حكيت له تفاصيل ما رأيت. سُرَّ بكلامي.

قال: «لا تُحدِّث به أحدًا».

سكتُّ، مضينا خطوات، توقف وهو يخُطُّ بعصاه على الأرض الترابية الناصعة، التفت إليَّ:

— يا أستاذ أحمد، هل تعرف «الجنيد»؟

— قرأت عنه قبل أيام.

— إذن، استرجع ما قرأت، وستعرف ما رأيت.

ناولني مسبحته. أخذتها وقَبَّلْتُها، ضاحكًا: التسبيح باليد أفضل مع أني فيه مقصر.

قال لي:

"رأى بعضهم معه مسبحة، قالوا له: أنت مع شرفك تتخذ مسبحة؟

أجابهم: طريقٌ وصلت بها إلى الله، لا أفارقها".

***

عبد الرحمن

غير أخته لم يكترث به أحد، زوجها لامَهُ على دوَّامات صداع وقلق وخوف، أحْدَثَها لهم. كادت مشكلة بينهما أن تقع، وعد الجميع بألَّا يأتيهم من جانبه سوء مرة أخرى. دخل غرفته لم يبرحها، وكان يوم الأحد، لم يغادرها حتى صلاة الجمعة التالية.

***

أحمد

شربنا حليبًا، تركني. نمت ساعتين أو يزيد، وتواعدنا على رحلة في الصباح.

قبل أن أغلق عليَّ بابي، لفَّ بكامل قوامه الممشوق كفَرع سِنديانة مائل:

— يا أستاذ أحمد، حكاية المسبحة التي حدثتك عنها، هل تعرف من هذا الذي استغربوا عليه إمْساكَها؟

— لا.

— هو شيخُك.

- أنت؟

- بل شيخُ رؤيتك.

- تقصد..

- نعم هو، مولانا الجنيد.

ابتسمت، فقال:

- لو زارك، أبلغَه مني السلام.

***

عبد الرحمن

مرَّ بعد الصلاة على المقهى العاطفي، هكذا أسماه، فمنه كان يترصد خطوات حبيبة صديقه. بلا تعمد دخول مسبق دخل، ودَخَّنَ، قرَّر ألَّا يتوقف، بين دخان الشيشة وغبار الشارع، ببرودٍ تأملَ حالَه:

«التدخين في حالة المنحسر مع ذاته، والقليل في ذاته، والمُعجب رغم المساخر بذاته، باب غويٌّ لطلب النسيان. نسيان وتنكر وأشياء أخرى كنت بحاجة إليها، بدأتها بالحشيش الذي شربته بغزارة قبل دخولي المعتقل، واليوم أعود إليه، وإلى غيره مما عرفت وذقت وتهت به. لا بأس.

فمن أنا؟ أنا دخان يتطاير.. كم أتمنى أن يصل الخبر إلى أمن

الدولة، ليصدقوا ما قالوه لي في آخر دقيقة:

«أنت أخٌ لا قيمة لك.. أخٌ مزيف».

أريد أن أثبت للذئب أن ما أغراه بي لم يعد موجودًا. أنا شخص عادي تافه يشرب حشيشًا، وينظر للنسوان».

مساء السبت، عاد لامرأة كان يشتريها، أو يشتري منها دقائق ببضعة جنيهات، ويُلامسها دون زنا.

قال: «لا زنا، فقط سأزورها.. بحاجة لأطمئن على ذَكَري الذي أرهقته الكهرباء. في إحدى جلسات التعذيب انتهى الجلاد وهو يضحك:

«لقد قدمنا لك خدمة».

أريد أن أفهم».

***

أحمد

الشمس إذ تستيقظ، لا تترك غريبًا ونومه، وحدي قُمْتُ، اغتسلتُ وارتديتُ ملابسَ خفيفةً، سمعتُ ظلالَ مَرحٍ، فتحتُ مساحةً من الباب على استحياءٍ يليق بضيفٍ مُكرَّم، طمأنني كعادته صوت الشيخ مرحبًا:

– تعال يا أستاذ، تفضل أنت في بيتك.

خرجت وظِلّي أمامي قصيرٌ، وأطفالٌ حول الشيخ يلعبون صاخبين، وهو متهلل لا يُسكت أحدًا، عرَّفني بهم، أحفاد من بناته، ضحك:

"قالوا: العالم أبو البنات، طيب يا زول، أنا جاهل وكلُّ نَبْتِ ظهري بناتٌ".

– بل أنت عالم، وقد وجدتُها.

– ما هي يا أستاذ ابن النفيس؟

– بل قل: يا أرشيميدس.

– يا أستاذ، بل نحن أَوْلَى، هو ابن النفيس حينما صرخ وهو يلف وسطه بمهملات ملابسه الملقاة بالحمام ويصرخ: "وجدتها". وجد، أو اكتشف سر النبض. بالمناسبة كان بالفسطاط وقتها مقابل الروضة.. يا أستاذ ما التي وجدتها؟

– وجدت الجنيد، أقصد، وجدت لماذا الجنيد؟

– لماذا الجنيد؟

– الجنيد التاجر العابد العمل الزاهد الفقيه والصوفي أيضًا. الجنيد نموذج نفتقده، نموذج المصالحة مع النفس، نموذج قبل أن يبدأ الزمن في تقسيم هذه الأمة تحت سيل من المسميات والجماعات والطوائف. الحق هو الحق.

– اللهم صلِّ على سيدنا محمد، يا أستاذ، الطريق أمامك. بخَطْوِ المحبين دُسْ على الأرض.

سنفُطر وننطلق.

***

عبد الرحمن

عال العال! جرّب، ما توقف. ولج، حشّش. ولم يتوقف عند شيء. في عزبة «أبو قرن» خلف جامع عمرو بمصر القديمة، ناوله صبيٌّ فرعَ غابٍ غائبٍ بـ«جوزة». وصوت امرأة عذب بالكاد يتسلل وسط صخب آلات زاعقة، تحكي، فيتصور حاله:

«معلهش، هاصبر كمان يمكن يفيد صبري
وأعَلِّم القلب يتجلد على صبري
غيري فرح بالوصال وأنا فرحتي صبري
وإن جاد عليّا يعوض ربنا صبري»

سأل: من المغنية؟ أجابه رفيق مُنْتَشٍ: «خضرة محمد خضر».

فكر، كيف كان شكلُ الخضرِ (ع)؟ وكيف عَلَّم موسى الصبر؟ تذكَّر "عبد الحليم موسى" وزير الداخلية السابق.. وهتاف تضج به ساحة "دار العلوم":

"يا بوموسى سيبك سيبك، شيخنا صفوت مش هيسيبك".

قال لغلام الغرزة: "سيبك سيبك.. هذا الصنف لا يملأ راسي".. ابتسم، ذهب كآلةٍ عائدًا بيده شريط، فضَّ منه حبة، بلع حبتين.. واحدة لا تكفي، حبة بحبة زاد في الوهم محبة، دفع ما عليه ومضى مقررًا كتابة شيء ما.

في البيت اسْتَهَلَّ بمقدمة سلفيَّة من حمد الله والصلاة على نبيه وبعد، "فهذه وصية من رأى في أيامه عجبًا...".

***

أحمد

الشمس أمٌّ حنون، تُضيءُ حتى لتكتشف أن نظرك أقوى، وأنك قد تستغني عن نظارة صارت جزءًا من وجهك، أربعٌ -كما قيل- تُقوين العينَ: نظرةٌ للمحبوب وأفتقده، ونظرة للكعبة وأخشى أنْ ضَيَّعتْها ذنوبٌ توالت بعد الحج، ثم الخُضرة، وهي حولي في كل مكان، خَضَارٌ بفرشةٍ طبيعةٍ لا تُهمل تفاصيلَها والظلالَ، ثم النظر للماء الجاري.

تمشينا دقائق، لاح كورنيش الخرطوم، لو مِلْنَا، تَعَطَّرْنا بالماء، ودقائق انتظرنا مركبًا قديمةً.

– إلى أين يا مولانا؟

– إلى "توتي"،

– توتي؟

– توتي أمي وابنتي التي لا تكبر، أُمُّ الخرطوم وأصلُها. لم أحدثك عن الخرطوم، دعك من كل ما قرأته.

انفرجت أسارير الشيخ وهو يتحدث عن الخرطوم، كأنه يتحدث بلساني عن الروضة. كل ديار العاشقين روضات.

قال الشيخ:

"هذه أرض المحبين، بلدة أُسسَت كلُّها على الطيبة، هنا بنينا على المحبة مدينةً ومُدنًا عند التقاء النيلين.. قبل أن نكون كانت أحراشًا ووحوشًا.. يَحُفُّها فضاء رحب، صحارى مفضية إلى مجهول.

قبل خمسة قرون جاءها الشيخ "أرباب العقائد" من هذه الجزيرة، من توتي عند صداقة النيلين. استقر، وآوت إليه الضواري طيعة هادئة تستمع لترتيلاته البديعة، وهمسِ ليالي نجواه المُسبحة.

اتخذها خلوة عابد، فأثمرت كتاتيبَ وحلقاتِ ذِكر. جاء الناس، أغلبهم من قبيلة (المحس) النوبية، زرعوا الأرض وطهروها من الأحراش. وفد الناس من كل فج عميق، هدأوا كالنيل الأبيض لجوار وَلِيٍّ، وجعلوا خلوته ذلك المسجد العتيق".

قلت مقاطعًا بسخافة ندمت عليها للحظات: "يا شيخنا، يعني الناس اتخذوا من قبور أوليائهم مساجد".

لم يُبْدِ ضيقًا، مَضَى يُسهب في محبته، بعد تعليق عارض سريع:

"يا بني، حتى لو كان هذا خطأ، مع أن الأمر ليس بهذه الضخامة، ولم يكن أبدًا بنية العبادة من دون الله. أقول لك: لو كان هذا خطأ، فلا يعني أن كل ما تبعه خطأ.

يا بني، من أخطاء البسطاء قد تأتي حقائقُ بسيطة مذهلة. أخطاء الكبار تأتي بالدواهي. الناس تحب من يُقرِّبها لمولاها، تستأنس بذكره، وتظل تُسبح مولاها في ذات المكان الذي أسس على التقوى".

مضى بذكر أرباب العقائد أبي الخرطوم:

"شيد الفقراء المحبون بيوتهم حول المسجد، أخرج العمران شطئه، عرف الزوار المكان بـ"خرطوم توتي"؛ لأنها امتداد طبيعي وجغرافي ثم تاريخي للجزيرة. ومضت قرون، واتخذها الأتراك في القرن التاسع عشر معسكرًا للجنود، ثم صار المسجد وضواحيه الحاضنة، عاصمة إدارية في عهد حكمدار السودان "عثمان جركس باشا البرنجي"، بأمر من حاكم مصر وقتذاك "محمد علي باشا" الذي ضم السودان كله بجيش ولده إسماعيل باشا.

على طريق الجيش المصري الزاحف باتجاه الجنوب نحو "سنار" عاصمة السلطنة الزرقاء الحاكمة والمهيمنة وقتها، قرر إسماعيل باشا الاستراحة والتخييم، فأقام هنا، الجميع هنا يستريح. ثم اختار مدينة "ود مدني" بين الخرطوم وسنار، فلم يصلح جوها الجاف للجند المصريين.

عسكروا بالخرطوم وبنوا ثكناتهم وبعض قلاع لا تزال أطلالها شاهدة، وقسموها ثلاث مناطق أو محليات: الخرطوم، وبحري، وأم درمان، وسميت الخرطوم المدينة المثلثة".

كنت أستمع لحديث الشيخ عن تاريخ الخرطوم وأنا أسبح في تاريخ مصر، كيف حرص محمد علي باشا على تقوية الدولة، وجمع أعضائها الأساسية، والسير دائمًا باتجاه منابع النيل، تذكرت رحلة قديمة إلى أبو سمبل، هناك التقيت بالملك العظيم رمسيس الثاني وتمثاله الضخم المهيب، وتحيَّرت وأنا أحاول اكتشاف الجهات مع غروب الشمس، كيف ينظر الملك المحارب باتجاه الجنوب، لا باتجاه الدولة في الشمال. فهمت من مرشد سياحي:

"رمسيس الثاني كان يتوعَّد من يحاول بَعْثَرَةَ اجتماع شيخ الأنهار، عيونه محدقة بمنابعه".

بعد آلاف السنين من رحيل رمسيس الثاني، وبعد عشرات السنين من التآمر على محمد علي باشا، لا نزال نتبعد كل يوم عن خصيتي جسدنا، سبب الحياة.

كان الشيخ يتكلم عن المدينة المثلثة، وأنا أسترجع ما كُتب في تقارير غربية كثيرة منشورة، عن تقسيم السودان لثلاث دويلات، شمال وغرب وجنوب. العجيب أن الكلام منشور، ونحن نعمل على تحقيقه. مصر أيضًا مرشحة للتقسيم، دولة إسلامية مشغولة بالحرب الدائمة في الشمال، ودولة قبطية من أسيوط، وحتى دولة نوبية على الحدود التي ستصبح حدودًا تاريخية

قديمة، وقبل ذلك، فلا سيناء ولا جبل الطور.

الكلام منشور، ونحن بمُدْيَة الجهل نقطع شرايين أيادينا والأوردة.

الخطأ، لو وجد من يعتقده، صار حقيقة واقعة. حتى اليهود يسيرون وراء ما قالوا لنا إنه قيل لهم: "لذريتك أُعطي مملكة من الفرات إلى النيل".

لمح شيخي سهومي، قال:

"أعرف مكانة الروضة لديك، لكن يا صديقي هنا مختلف قليلًا. هنا نيلان أزرق وأبيض".

تأملت المشهدَ الجليل: نهر أبيض قادم ببطء تمساح من الجنوب، أقرب إلى بحيرة راكدة، يمسُّ ضفتيه في حُنُوٍّ فلا يكاد ينخر فيهما أو ينحت الحروف، في هدوء النيل الأبيض ينمو الخير، فيزداد ترسيب الطمي.. يهبط الطمي ويسكن القاع، فيصفو الماء، ربما لذلك سموه النيل الأبيض.. لا سور لشاطئ، ولا حائط يخنق مجراه.

هكذا كنتُ، لا كَدَرَ يَطِنُّ برأسي، ولا كراهية تُهرم قلبي، كنتُ نيلا أبيض، حتى عَرّتْني دواهي ليلة سرقوا فيها وردتي النيلية، وعكّرتني شائبات أمانة محمود، وجريمة القتل.

هذا أنا اليوم وكل يوم بعد ليلة مطيرة ودَّعْتُ فيها جيهان.. ها أنا والنيل الأزرق القادم من غضب شمس جبال الحبشة.. من الهضبة الإثيوبية، متقلب المزاج شديد الانحدار، جارف التيار،

عميق المجرى الحزين.. ترتفع الضفتان قرب منطقة «المقرن» على شارع النيل.

يقول الشيخ: «هنا بَنَى السودانيون سور الحائط ليتقوا فيضان غضب النيل الأزرق».

يطاردني تاريخ، تاريخي قصير كمِسَلَّةٍ، وطويلٌ كمسيرة دمعة، ألمح النيل الأزرق وهو يطارد في رحلة التاريخ مياه الأبيض الساكنة، المسكونة بالهدوء.. يدفعه دائمًا إلى الوراء.. يختلط النيلان، يظل اختلاف لون المياه واضحًا.. الدُّكْنة والغضب مع الطمي الراكد المائل للزرقة، في تماسٍّ مع أمواه الأبيض شبه الصافية، التي علمتها الفطرة كيف لا تعلوها الأحزان.

«سأطردها - يومًا- كل الأحزان».

***

عبد الرحمن

وكتب تفاصيل ما مر، ودفن الورقة تحت بلاطة مزحزحة:

«كتمتُ ما عاينتُ: أمجنونٌ أنا كي أجُرَّ المواجع؟ مجرد الذكرى مفزعة».

مرت ليالي الغوص في أشباح أمان، وبالنسيان دخل عملاقًا دنيا الإدمان.. دخل بكل قوته كما هي عادته في كل شيء:

«عادتي أن أختبئ.. عشت أخبئ إنسانيتي وما استطعت. عند كل تجربة كنت أغرق، ثم أطفو على سطح من الاغتسال والاستغفار والعزيمة على ألّا أعود، وأعود، مختفيًا ومتخفيًا أعود».

قال: لماذا أهمل أني إنسان؟ لا رهبانية في الإسلام، نحن بشر نصيب ونخطئ، نصدق ونكذب، نتعفف أحيانًا ثم نفك إزارنا حينًا.. ونعود نتخفّى ونتنكر ونهرب من كوننا بشرًا عاديين، لا رهبانًا، ولا شيوخا يحولون الدنيا لشريط كاسيت ونوبات بكاء عصبية، لا تَنَمْ عن تديُّن حقيقي، بقدر ما تكشف ضعف نفس لا تطيق إلا أن تكون نفسًا عادية.. عادية بكل المقاييس.

حياتي سأعيشها، سأظل دومًا أتقرَّب إليك يا ربي، لكن أنت، أدرى بما لاقيت، وأنت رأيتَ ما تعرضتُ له، وأنت سمعتَ صرخاتي وسِبابَهم دينَك.. فاعذرني.. أنت كبير ولطيف وقدير أن تعذرني، لو لعبتُ دورًا جديدًا».

قرر أن يقرأ، أن يُتابع الدراسة.. وألا يكُفَّ عن طبيعةٍ عاش عُمْرَهُ يُنكرها.

***

أحمد

رست المركب، والتواتة الطيبون يرحبون بالشيخ وضيفه.

همس الشيخ: «تُوتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا».

بلدة طيبة عفية التربة، ذرات طميها لم تطأها قبل أهليها قَدَمٌ، ولا حملت في طيَّاتها بذورًا، ماء يحوطها من كل مكان، نيلان: الأبيض بطميه وهدوئه، والأزرق بصفائه وعمقه وعنفوانه، وغضبه أحيانًا أخرى، والناس الطيبون لا يشغل رؤوسهم غير أن الله في السماء، وآثارَ رسوله حكايا في صدور رجال على الأرض. وبركاتٌ في كفوف الأولياء، الميتين منهم والأحياء.

قال الشيخ: «ولِمَ لا تُؤتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا»؟ يا أستاذ أحمد، أغلب الآراء أن تلك الجزيرة المقابلة للخرطوم كانت مقصدًا لأهل العلم وطالبي الخلوة والباحثين عن مناجاة في بديع الوجود مع مبدع الوجود. من يرجو الله يلقاه».

قال الشيخ ونحن نسير محاطين بنحو خمسة رجال طيبين:

«هنا دبَّت الحركة في توتي قبل ستمائة عام، ومع الحركة تخفَّفَ الناس من أحمال المدنية التي أصبحت في كل مكان غير جزيرتهم «تؤتي»، فخَفَّتْ الهمزةُ مع جريان النيلين، ومن يومها كانت «توتي» جزيرة الخلق الأول».

رأيتني في ترابها المُسْوَدِّ وأنا أقول لروحي:

«ليتني جزيرة لم تطأها الأحداث فتُرجف أيامَها التالية! في البدء كان قلبي طيبًا، في سكة تجارب لم يكن لي فيها يدٌ، تمنيت لو ظل قلبي طيبًا، في النهاية أتمنى أن يعود قلبي.. قلبي الطيب».

تأملتُ جمالَ خلق الله، كل وصفٍ يَدِقُّ عن الوصف، يَبْقَى وصفُنا الجمالَ دونَ روعةِ الجمال، ويظلُّ تصويرُنا مشهدَ الحُسن، دون حُسن المشهد. ما أجمل ما أرى، كأن الله تعالى - الذي كان ولم يكن شيء- قد فرغ من خلق السموات والأرض، ثم جرت «كافٌ» منه سبحانه و»نون»، فتم الإعلان هنا عن زواج نهر بأرض خصيبة، وانتشرت خضرة في كل مكان، ومن كل مكان، أينما وليتَ وجهَك سرَّكَ الأخضرُ.. الخُضرة والماءُ والوجوهُ الطيبة، والهواء المُشَبَّعُ برائحة الطمي المخزون. توتي عروسٌ تنام على صفحة حبيبها الأول النيل، في صك من الحيوية والأمن.

ليت جيهان معي. وعبد الرحمن لو كان هنا، لكتب كلامًا رائعًا.

الْتَفَتُّ للشيخ والظهر يُخفي الظلال، والشمس على مرمى قفزة محب.

– أشكرك على كل هذا الصفاء والمحبة، لم أتخيل أن بأرض الله مكانًا بهذه الروعة.

– يا صديقي، إنها فاتنتي، لكل منا لَيْلَاهُ، وليلاي بهية الصباح، وديعة الليل، تعشق الماء إلى حد خطر القتل بالماء. انظر، لا زلنا خارج نطاق زمنهم الفاسد، نعمةٌ ألَّا تطالَنا خيوطُ الشبكة العنكبوتية، وزمانُ الغرب، لا تحسب الحضارةَ خيرًا محضًا، الخيرُ كله في الفطرة. أيتها الفطرة، سنقاتل من أجلك. لا شيء غير الماء والطين، لا تَدَخُّلَ لكيمياء مسمومة، ولا حتى مُعدَّة حديثة، ما أطيب الطعامَ لو

كان من كسب يدك، ومن أرض لم تعرف المقويات.

غاب الشيخ عثمان، سرح بعيدًا، عَلَتْه غُباراتُ هَمٍّ.

– يا مولانا، صلِّ على رسول الله.

– اللهم صلِّ وسلِّم وبارِكْ عليه. هل تعرف أين أنا الآن؟ أنا هنا قبل عشرات السنين.

***

حصد من الماضي وقال:

"كنتُ ابنَ أربع عشرة سنة، وكانت عروستي المشتهاة، ودُرَّتي الشهية المكنونة. كانت على حالها منذ هجرة أجدادنا الفاتحين، كانت نبضةَ حياة فوق صفحة نيلين، بينهما ألفُ حديث وحديث للحياة.

السودان كلها تحت الاحتلال الإنجليزي، الغازي لا يشبع، جزيرتي توتي يريدون أن ينتهكوا عذريتها، يجرحوا فطرتها ولا يتركوها على ما خلقها الله عليه. أكثر ما يثير حسد البرابرة آثارُ فطرة باقية. لو انتبهوا، تحركت غرائزهم القبيحة. أمام الغُزّى ملايين الأفدنة وبين أيديهم. لم يعمروا منها إلا القليل، فهل ضاقت الدنيا حتى يُولُّوا الوجوه الطامعة صوب أمنا السمراء؟

قرر الإنجليز نزع الجزيرة من سكانها وأصحابها. عجيبةٌ الكعكة بأيدي الفقراء. وكأننا نواجه فيضانًا غبيًّا، لا أحد ينام في توتي، الخبر يلسع كشمس حارقة. اجتمع الناس، صاح الكبار:

"الحكومة في الخرطوم، يريد قائدها البريطاني اقتطاع نصف مساحة الجزيرة، بحجة توسيع الرقعة الزراعية".

هُرع الناس إلى المسجد، امتلأ عن آخره، حتى النسوة التصقن بحدوده، والصبية على الأبواب، كنت غلامًا، بل رجلًا كما اعتبرني الشيوخ. خطاب حماسيٌّ تقطعه تكبيراتٌ عالية:

"ألم تكفهم السودان كلها حتى ينظروا لأرض آبائنا وأحفادنا المحدودة؟ هل توتي الحل السحري لإطعام الملايين في السودان ومصر وبريطانيا العظمى؟ هل جزيرة الشمس ترياقٌ لبعث الحياة في إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس؟

إمبراطورية الشمس ينقصها شمس؟

لا، لن نتركهم.. لن ندع الوجوه الصفراء المتأهبة للانتشار في الجزيرة، إن لم نصرخ فلا هدوء بعد اليوم أو راحة.. من أين تهب نسائم الراحة، والخبر يحمل -بلا تضخيم- ترحيلَ عائلات كاملة من توتي إلى خارجها، حتى يرتاح الخواجة ويستظل في شمسها الفحيلة".

الرد الذي اتحد فيه الجميع بشكل نهائي وقاطع هو: "بالروح بالدم".

اتفق الجميع على ذهاب وفد يتقدمه الشيخ "مصطفى خالد" يرحمه الله، للقاء الحاكم بالخرطوم. امتلأ قاربان، ورتبنا أن يحوط الرجال والشباب بمقر الحكم حتى انتهاء الاجتماع. ربما يشكل ذلك ضغطًا ويثير قلقًا يمنح المفاوضَ بعضَ قوة.

من لا يملك قوة، يخسر التفاوض. لو فرَّطتَ مرة، فقَدَرُك المحتوم التفريط. ومن مات دون أرضه فهو سعيد.

قيل الكثير عمَّا دار في الاجتماع، وتناقلت الكافة عبر الأجيال كل ما دار بعد الاجتماع.. في يوم مشهود عرض الحاكم البريطاني خطته، بغرور غاصب، شرح أن الخير كله فيما يقول ويقرر:

"اسمع كلكم، أنتم لا تستغلون الجزيرة كما ينبغي.. سنجعل منها تحفة سياحية، ونزرع فيها بآلات حديثة، سنقيم على مساحة ثلاثمائة وخمسين فدانًا فقط، مركزًا لتطوير البحوث الزراعية، فينتج الفدان الواحد في عموم السودان أضعاف ما تنتجون".

ليس الذئب مسخَ ثعلب. همس في الحاضرين:

"نحن لسنا محتلين.. نحن نريد أن نُدخلكم الدنيا، ونخرجكم من عزلة الفقر والجهل والمرض".

رفض الوفد، لا خيار غير الرفض.

زأر الغازي وهو يتحسس حزام سلاحه المدبوغ من جلد تمساح يعرف الجزيرة ولا يؤذي أهلها. قال:

"هذا ليس مجال نقاش ولا تفاوض، الموضوع انتهى".

مدير الخرطوم الجاهل "السير ماكنتوش" تعامل بعجرفة، لم يعرف أن تلك الجزيرة الصغيرة الوادعة، لأبنائها من العناد

ما يحوِّل النيل الأبيض - وقت الجد- لأحمر قانٍ. وعلى الرغم من حواره المُغْلِق لكل أخذ ورَدٍّ، فقد حاول معه الشيوخ طويلًا، وشرحوا له كيف أن العائلة الواحدة في توتي.لن تقبل بغريب، وأنهم راضون بما قسم الله لهم منذ خمسة قرون، وأنَّ في أراضي الخرطوم أضعافَ مساحة أرض توتي، التي على أقصى تقدير لا تتعدى ألف فدان، ورثوها مروية بعرق الآجداد.

الرفض لا رجعة عنه، الرفض والرفض فقط. ولا شبرًا واحدًا.

الاجتماع القصير دار في ذهبية ترتفع ببضعة سلالم من خشب السنط، الشباب المتحلقون بالسلم لهم رءوس قاسية، كنت بينهم أقبض من أسفل السلم على درجة بُنية، السنط مثلنا، بذارعه الملفوفة نعصر القصب، لا لن يعصرونا، السنط حطبنا الذي لا يباريه حطب، فحم السنط نارٌ لا تهمد ورماد قليل.

لن نصير رمادًا.

العيون معلقة، والقلوب بلغت حناجر فاقت السلالم ارتفاعًا. نزل المجتمعون، ضرب أحدهم الهواء بقبضةٍ غلبها يأسٌ، صاح فينا:

"ما في فايدة.. منزوعة منزوعة".

نشطنا، قمنا، وقفنا، دافعنا عن الجزيرة، انهالَ الرصاص في الربيع، سكن الرصاص الآذان، قال حالنا: "الموت على توتي قبل نزعها". دامت معركة يُحَفِّظها التواتة أبناءهم، عاد السير ماكنتوش بخيبته، وخَلَّدنا سيرة البطل مصطفى خالد".

تنبه الشيخ أنه استغرق في الحكاية، فَرَدَ بين إبهامه وسبّابته، وهو يضغط موسعًا صفحة وجهه اتقاءً لظلال دمع لَمَحْتُه، ابتسم. قال:

"لو أمامنا وقت، سنزور ذلك المسجد، ونمر على مدرسة مصطفى خالد للبنات. إن أذنت".

رأيتني ابتسم، ورصاصة تسكن جانبي على شاطئ الروضة الغربي فلا أتألم.

رصاصة تُعيد روحي لبدء التكوين.

***

عبد الرحمن

جلس يبكي، لَمْ يَبْكِ، هل نفد معين الدمع؟:

«أنا مرفوض، مرفوض من الأمن الذي لم يجد فيَّ ما يثير شهيته بطول اعتقال، أو بتعذيب حتى الموت، لو كان لدي شيء ما تركوني.. مرفوض من أهلي.. قالت أختي إنه لولا زوج خالتي نقيب الصحافيين لم أكن لأخرج.. كنت سأُنْسَى ليوم الدين.

مرفوض من زوج خالتي الذي حاولت شكره فلم يَسَعْني بيته ولم يقابلني.. مرفوض من رواد المسجد العتيق الذي بصرت فيه روائح السلفية الأولى، صاروا يخشون الاختلاط بي، يزعمون أن كل من دخل ثم خرج بعد شهور، هو عين على باقي الإخوة..

مرفوض أنا من جيهان التي عشقتُها فعشقتْ أعزَّ أصدقائي. مرفوض أنا حتى من المرأة الغويَّة التي رافقتها، فملَّتني.. مرفوض أنا حتى من نفسي التي ما عادت.

هم لا يفهمون.. الجميع بما فيهم نفسي لا يفهمون، هذا يجعلني أكثر عنادًا في تقبل الرفض، وأكثر رضًا أيضًا.

لا غاية ولا هدف، حتى القراءة ومشوار عالم، كاذبٌ فيه أنا، ومهمل، كلما بدأتُ توقفتُ وعدتُ، لا أدري لماذا أستمر؟ ولأي غاية أستمر؟

من حماسات البدايات ما يذوب قبل البدايات.. حتى البدايات لا معنى لها.. لا معنى عميقًا لديَّ أعيش من أجله، فيكفي الإسلامَ أني تعذبت ولم يكن لتعذيبي فائدة، ليس لديَّ ما أعيش فيه وله، لم تعد لحياتي قيمة، ولولا أن الانتحار حرام لانتحرت، ربما انتحار على بُطءٍ حلالٌ، والله أعلمُ بما بي. لا هدف، لا حب، لا معنى، لا أحد.. لا شيء غير فراغ وخوف دائمين. لم يَبْقَ غير كل مخدر، ولم تَبْقَ دهشة إلا باكتشاف المزيد من الغياب».

***

أحمد

يوم رائع، كنت بحاجة إليه، أفادني كثيرًا في جلساتي النفسية التي أهملتها، ولم تتعدَّ ساعات خلال سنوات أربع، أنا

ابن جزيرة على نفس خط التقاء النيلين، ابن النيلين، الروضة بين نيلين، نهر شرقي صغير، وبحر غربي كبير.

أنا ابن الماء.

ما الذى جعلني أرى الجنيد يمشى على الماء؟ وما الذي تمثله التماسيح المحدقة بي؟ والتي قيل لي عنها: إنها مأمورة لا تستحق كراهية مفزوع.

أنا مفزوع دائمًا، غايتي الهدوء، الخبيئة سر الفزع، فزعٌ من اكتشافها، وفزع قبيح من انفجارها مع أشلاء طفلة أخرى كـ«شيماء».

سأعيدُ ترتيب الغد، لا مكان للخبيئة، سأتخلص منها، ليست أمانة تلك التي قد تُودِي ببُنيانٍ آخرَ للرب، سأعبد ربي، أذنب وأستغفره وأتوب إليه، سأعيد تفكيري السياسي، لا خير مطلق ولا شر محض، هنا الخير والشر، وهناك في كل مكان وزمانٍ خيرٌ وشرٌّ.

الغد بحاجة للترتيب، لا مكان لمراهقات الماضي وإرهاقاته.

أمس - الحقيقة- أني لم أكن بالأمس ملتزمًا وأخًا سلفيًّا أو حتى جهاديًّا، كنت واحدًا من الملايين التي كرهت مبارك وسنينه، وما إن ألقى إليَّ «محمود» حبله، حتى اصطادني أو كاد، ودخلت الدين بعنف من باب السياسة. في الباب المفتوح ندخل بنصوصنا كما هي، ونُسقطها كما هي على كل شيء. أتذكَّر كيف كنتُ أتعجبُ من فتاوى ابن تيمية في التتار، وأنسى

التتار، وأعتبر نصوص الفتاوى مفصلة بالمقاس المنضبط على مبارك ورجاله.

الذين بدأوا بإسقاط النصوص، يراجعون اليوم أنفسهم، وأنا كنت مجرد مستمع أو قارئ كسول لا ينتبه لفروق التوقيت.

سأرتب الغد، حتى لا يرتبني الأمس على رفوفه.

تبقى جيهان.

جيهان حب عمري، صارت - كما قال الشيخ عثمان- في عصمة آخر، لو لم تكن راضية لَمَا فعلتْ واستمرتْ بها الحياة، سأحب غيرها، أو سأحب الغد بما به يأتي.

***

تعشينا وصلينا العشاء بالجزيرة، عدنا لبيت الشيخ عثمان، اعتزلت بغرفتي وأنا أقلب أوراقي استعدادًا لتحقيق أنشره، وحقيقة أريد الانتهاء تمامًا من اكتشافها.

***

من مجموع استقصائي للأخبار، وبحثي الدءوب في الكتب، رسمت صورة مبدئية، وضعتُ فيها الجماعاتِ الإسلاميةَ متناثرة، يجمعها هدف واحد وهو العودة لخلافة الإسلام. حتى التبليغيون «أعضاء التبليغ والدعوة» هم يدعون الناس للصلاة ويقرأون من كتابين اثنين على المصلين «حياة الصحابة» و«رياض الصالحين».

جمعت كل هذا وفكرت في كتابة سلسلة تحقيقات عن الجماعات الإسلامية، لم يكن العمل الصحافي هو الدافع، بقدر ما كان التمني بأن الدخول في دراسة متجردة لتلك الجماعات قد يساعدني شخصيًّا في مراجعتي الشخصية التي بدأتها مبكرًا.

كراسة أضع في نهايتها حدًّا لصراعي مع الخبيئة التي تركها محمود ودخل في غياهب سجن، مع أن أمرها صار بالنسبة لي قرارًا منتهيًا.

***

وضعت عنوانًا، تحته ملاحظة: أنه حلقة منفصلة في التحقيقات: «كيف بدأ العنف ومن أين يأتي التكفير؟».

العنف بدأ مبكرًا جدًّا، فهناك حديث وجوب تغيير المنكر باليد، وهناك تفسيرات قديمة وجديدة، بعضها تعدَّى اليد لاستخدام السلاح، كما في حالة قتل فرج فودة، ومحاولة اغتيال نجيب محفوظ.

التكفير أيضًا بدأ مع الفتن الأولى عقب عصر النبوة، بدأ دمويًّا باغتيال اثنين من الخلفاء الراشدين، عثمان وعلي، ثم محاولة اغتيال عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، على يد الخوارج. ناموا طويلًا، ثم تنبهت بذرتهم في معتقلات عبد الناصر، فأمام التعذيب ينصبُّ التفكير في التكفير.

أغلب المعتقلين كانوا من جماعة الإخوان والمتعاطفين معها، أو المتدينين على العموم، فكتب سيد قطب معالمه، وفرَّق بين

المجتمع المسلم والمجتمع الجاهلي، ثم بـ«شكري مصطفى» وعشرات الجماعات المتناثرة بعده.

التكفير نار تحت خشب مكدوس، تنفجر فجأة، وفي الظلام تسرح، انتقل التكفير من السجانين إلى الناس الساكتين عن هؤلاء السجانين، وصلوا إلى أن الجميع كفار، إلا من يثبت منه عكس ذلك.

لم يختلف في ذلك أيمن الظواهري أو غيره ممن سبقوه بسنوات في العمل التنظيمي، في طريقهم لا بد من بعض الدماء، والدماء في الإسلام لا تُراق إلا بحقها، فبحثوا لها عن حقها، وانتزعوا حقها في الحياة بنصوص سليمة في حالتها، لكن ليست بالضرورة معبرة ومنطبقة على حالتهم.

قتلوا السادات، وقتلوا معه آخرين، ثم ارتكبوا مذبحة تعدَّتْ مائة من رجال الشرطة في صبيحة عيد أضحى بأسيوط، واستمرت الفكرة المسلحة، وكان لا بد من تمويل، فظهرت فتاوى أموال النصارى. حتى وصلنا إلى...».

توقفت عن الكتابة. استلقيت على ظهري مواصلاً الكتابة برأسي، فالكلام من الآن لي وحدي، وليس للنشر.

وصلنا، أو حتى وصل إليَّ «محمود يوسف»، ولم أكن يومًا فقيهًا، أو مهتمًّا بالفقه.

سحرني ربطه بين الواقع والنصوص، شغلني بالبحث عن وجود الجهاد، الجهادُ ماضٍ في الإسلام حتى تقوم الساعة،

فريضة غائبة. عين الرضا تقبل كل شيء، فأقنعت نفسي بأن من يحاربون نظام مبارك هم الغرباء، الفئة المنصورة، القابضون على الجمر.

وترك لي الخبيئة، وهي دون أن أفتحها، تحوي - ضمن ما تحوي- نفس الأفكار التي تؤصِّل بالنصوص لمبدأ القتل، حتى من يُقتل في الزحام دون جريرة، يُبعث على نيته. طيب، كلنا نُبعث على نياتنا، لكن هل ذلك ينفي مسئولية القاتلين، فضلًا عن أن يمنحهم صكًّا بتصريح القتل المنتخب والعشوائي أيضًا، لو دعت الضرورة؟

هل في طريق محاربة النظام يكون عاديًّا تفجير مقهى كوادي النيل أو مقتل عشرات، قد يكون من عائلاتهم من يعارض مبارك، كل ذنبهم أنهم مروا مصادفة مكان الحادث قبل حصوله، أو كبيرتهم التي لا تُغتفر أنهم انزووا في ركن بمقهى يشربون الشاي أو يدخنون؟

بِتُّ حازمًا في أمر الخبيئة، سأتخلص منها.

أغمضت عيني، أفكر في فتحها، و مستجديًا النوم.

لم أجاهد النوم، ضحكت وأنا أقول في سري: الأَرَقُ ليس كافرًا، تلزمني نصوصٌ لأُكَفِّره، حتى لو كفرته، فهل بوسعي قتله؟

لو زارك الأرق، فاترك له السرير يشبع به وفيه، ولا تشغل بالك بالنوم.

لم أتَمَشَّ على كورنيش الخرطوم، فلأفعلْ.

أفكار الغد تأتينا بالسير، وأفكار الأمس يغتالها النوم.

***

في الصباح، تحدثت مع الشيخ عثمان عن مسودة تحقيق الجماعات الإسلامية، وأخبرته أن معلومات تنقصني عن الفترة القصيرة التي قضاها القياديون الجهاديون بالسودان في التسعينيات، فهذه محطة - قلت- إنها فارقة في التأريخ للجماعات، والحقيقة أنني رغبت في الوصول من بحثي الشخصي إلى منتهاه.

لم نتكلم كثيرًا، وقضينا أغلب النهار في استقبال ضيوف لا يكفُّون عن زيارة الشيخ والتبرُّك به، كانوا يُكْبِرُونه ويحترمونه.

***

كل ليلة من ليلاتي سمر مع الشيخ، شيخي الصوفي.. وأنا؟ ما أنا بصوفي على الإطلاق، لكنني أحببت هذا الرجل واعتبرته من محطاتي حياتي الفارقة.. أَعَدْتُ الحديث عن تحقيقي الصحفي، سألته أيضًا عن أسامة بن لادن واستثماراته في السودان.

رحب الشيخ وحكى، لكن كلامه لم يكن ليقيم أَوَدَ تحقيقٍ صحفيٍّ يُرضيني.

في صباح يومي الثالث اصطحبني لبيتِ قريبٍ له، قال إنه شغل لفترة كبيرة منصبًا أمنيًا مهمًّا لم يُفصح عنه بالتحديد. بدأ

مضيفنا بالحديث عن مكانة بن لادن عند السودانيين، وكيف أن المال يؤلف القلوب، وأنه رجل خلوق وكريم ينفق كأنه يسحب من مخزون لا يخاف نفاده.

«حينما يتصدق تشعر أن الأمطار تهطل على هضبة الحبشة».

سألته عن أيمن الظواهري؟

— لا يمكن القول إن الدكتور أيمن وطِئَ أرض السودان، مثل تلك المعلومات تمثل مشكلة كبيرة للعلاقات المصرية السودانية المتأزمة أصلًا، بعد اتهامات القاهرة للخرطوم بأنها ضالعة في عملية أديس أبابا.

— دعك من الظواهري. لكن، من الشخصيات المعروفة الأخرى التي حضرت هنا؟

— كثيرون، لا أدري حجم اهتمام الصحافة بأسمائهم، مثل أبو الفرج اليمني.

— دعنا في المصريين، فالتنظيم الذي هو موضوع تحقيقي الصحفي مصري النشأة والتطور.

— أبو الفرج مصري، وإن كان تلقب باليمني، وأعتقد أنه شخصية كبيرة، وهو بالمناسبة أبو الغلام الذي أعدموه.

— أُعْدِمَ في أية قضية، فالقضايا التي حُكم فيها بالإعدام كثيرة كانت في التسعينيات وبعدها بمصر؟

— لم تعدمه حكومة مصر، بل أعدمته جماعة أبيه مع صبي

آخر.

لم يعد للحديث شهية، بل خِلْتُ الرجل يُخَرِّف ويتباهَى بمكانته الأمنية السابقة، فقد تحدث عن معلومات مرعبة ومقرفة في آنٍ، ولا تُصدَّق أيضًا.

أبْدَيْتُ للرجل التصديق، مع أن كلامه بحاجة لتحقيق وكثير توثيق. شرحت له أن الصحافة بحاجة لعرض المعلومات من أكثر من مصدر.. فاتفقنا على اللقاء بعد صلاة المغرب حتى نقابل مصريًا قال عنه إنه ترك جماعة الجهاد وتزوج سودانية، واجتهد لتغيير حياته، واهتدى للتصوف.

***

سَمَرٌ على شط النيل، في بيتٍ سوداني، رَبُّه مصريٌ مهاجر من كل شيء. كل شيء فيه يشبه كل شيء حوله، غير بياض وجهه الأقرب للحمرة. ثلاثة غيري: المصري صاحب البيت، والشيخ، ورجل الأمن السوداني.

السياسة محور الحديث.

يدمن السودانيُّ السياسة، تجري فيه مجرى الدم، ربما بسبب الانقلابات المتتالية، والصراعات المنادية بانفصال الجنوب، أو ربما إدمان الكلام في السياسة هو سبب الصراع، لا نتيجة له..

حديث السياسة صداع، يفضي لصداع.

تطرقنا لقضية جنوب السودان، وأَبْدَيْتُ قلقي لهم من تلك القضية، كمصري يعتمد في كل حياته على النيل، وأن انفصالًا - لا قدر الله- لجنوب السودان يعني تهديدًا مباشرًا لمصر. صمت رفيقانَا، وصاحب البيت المصري يتأسَّى على أيام الملكية:

«زمان كان الموظف أو الضابط المغضوب عليه مُهدَّدٌ بالنقل التعسفي إلى طوكر».

توجه إليَّ بالسؤال: هل تعرف يا أستاذ، أين طوكر؟

– أعتقد أنها بلدة نائية في النوبة أو بمنطقة حلايب.

– طوكر يا سيدي الفاضل، في أقصى الشرق السوداني.

– معنى هذا أن البلدين بالفعل كانتَا بلدًا واحدة.

– بل أكثر من هذا، كان هناك غضب يتعدَّى النقل لطوكر، النقل لحد آخر بلدة على الحدود مع إثيوبيا.. جيش البلد الواحدة التي صارت اثنتين، كان يقف على مشارف إثيوبيا، يُؤَمِّن منابع النيل.

زاد أساه وتنهد:

"يا صديق، نحن مَنْ فَرَّطَ وتساهَل".

***

مضينا في حديث السياسة بعد التاريخ، شرحوا لي أبعادًا لم

أكن أنتبه لها في الأزمة الناشئة بإقليم دارفور الغربي.

مللت، وتربصت فرصة توقف للكلام، قبل الانتقال لموضع سياسي آخر.

حدثت الرجل المصري عن تحقيقي الصحفي، حدثته بعد تعريف الشيخ عثمان بي، وثنائه الذي تمنيت أن ينفتح به بابُ أسرار الرجل، دون قلق أو تجميل.

– من أين تريد البدء؟

– أنا بالفعل قد بدأت، ثم وصلت لملخص معلومات حصلت عليها، وحققت في صحتها من مصادر كثيرة - أعدت جملة حققت في صحتها مرتين- وصلت لمنتصف التسعينيات، وقتها شهدت جماعة الجهاد تصدعًا كبيرًا بعد الكشف في مصر عن قضية طلائع الفتح.. وتم انتقال الإمارة من الدكتور سيد إمام الى الدكتور الظواهري. وقد حصل الانتقال في ظل خلافات شديدة عصفت بالجماعة، أدت إلى انشقاقات في صفوفها.

– بذور المشاكل والانشقاق بدأت في باكستان، وانتقلت لليمن، الذي كان محطة انتقال لأعضاء جماعة الجهاد في اتجاه السودان، حيث كانوا يستعدون للاستقرار هناك. كان معظم الحركات الإسلامية قد ذهب إلى السودان في تلك الفترة.

– هل دخلوا بشكل سري أو غير مشروع؟

– لا، الباب كان مفتوحًا ومرحبًا بهم.

– طيب، جاءوا كأفراد ضمن النازحين من اليمن وأفغانستان وباكستان، أمْ كان لهم وجود مستقل؟

– ليس مستقلًا تمامًا، لكنه كان كيانًا واضحًا. وأقام التنظيم مشروعًا زراعيًا، وآخر تجاريًا، وبعض الأنشطة الأخرى الصغيرة.

– الجهاد؟ تقصد الجهاد والجماعة الإسلامية، أم تنظيم الجهاد فقط؟

– التنظيمان، والوجود عمومًا لم يكن وجودًا تنظيميًا بالمعنى الحرفي، فقد جاءت الجماعة الإسلامية وجماعات من مختلف الدول.

سكت. كأنه تنبه لبعض ما فاته، قال:

"نزول الجماعة للسودان، حدثت قبله مشاكل بباكستان واليمن، لا بد من ذكرها حتى تكتمل الصورة، المشكلة الأساسية أحدثها بعض الإخوة على رأسهم (عبد الحميد) وهو الصيدلي المعروف أمنيًا بـ"أحمد حسين عجيزة"، وهو تم توقيفه بالسويد ورُحِّل الى مصر.

عجيزة كان قد كوَّن مجموعة ليست بالصغيرة، وظهر تأثيره في عدد من الشباب وقال لهم: إن الناس قُبِضَ عليهم بدون

إطلاق رصاصة واحدة. وانتقلت مقولته الغاضبة: إن ألفًا من شباب الجماعة اعتُقلوا بسبب عدم تقدير الأمور، ويجب التحرك والانتقام لأجلهم، وأن الانتظار حتى تكوين كوادر مدرَّبة، قد يصل بنا للترقب سنوات وسنوات، وهو أمر غير معقول.

وتساءل شباب معه ممن نجحوا في الخروج من مصر قبل القضية، وبعدها، وانضموا للجماعة الأم في باكستان: لماذا جئتم بنا الى هنا؟ لكي تُخزِّنونا؟ لننزلْ إلى بلادنا، فهذا أفضل.

وتنامَى لَغَط، وسط إشاعات عن طريقة القبض على الناس داخل مصر. بعض الإشاعات بأنه قُبض عليهم نتيجة الإهمال، ونتيجة أن قرص كومبيوتر يضم أسماءهم، ضاع من يد أحد الإخوة المهملين، وسهَّل سقوطهم لقمة سائغة في فك الأمن، الذي لم يكن يعرف عنهم شيئًا قبلها.

— و هلْ هذا بالفعل الذي حدث؟

— هذا الكلام غير صحيح. فجلسات القضية، لم يُذْكَر بها أقراص كومبيوتر. قُبض على الناس عشوائيًّا.

— فلماذا إذن تصور هؤلاء بالخارج أن ثمة قرصًا وقع بيد الأمن؟

— مَنْ بالخارج احتاروا في الأمر، فسقوط تنظيم كبير جرى الإعداد له وتدريب كثير من أفراده خارج مصر، وتم ضخٍّ الأموال له، ثم يسقط هوامّ على قصعة نار، السقوط بهذه الطريقة أمر مريب ومثير للشكوك، حتى جرى حديث كإشاعة

عن وجود ملف كامل بأسماء كل الشباب على كمبيوتر أحد القادة في بيشاور، فتم الربط، فطالما أن الملف إليكترونيا محفوظ هنا، فأكيد أنه موجود أو كان موجودًا بمكان آخر، ولدى شخص آخر.

تُهْتُ منه وأنا أحاول ألَّا أُسْقِط كلمة يقولها، لكن مجبرًا سرحت:

"إن كانت تلك الأسماء موجودة على جهاز كمبيوتر في بيشاور، فمن المحتمل أن تكون محتويات الخبيئة مسجلة أيضًا على كمبيوتر آخر، هذا يعني أنني في خطر واقعي لا مبالغة فيه، ولو أني تخلصت من الخبيئة فقد يأتي يوم ويتذكرونها ويأتون إليَّ، وحين يعلمون أنها صارت خبرًا لـ"كان"، فقد ينتقمون مني، القتل لا يؤرِّقني بقدر ما يقلقني حركة انتقامية صبيانية ينتبه لها أمن الدولة".

أفقتُ والمصري يتحدث عن الخلافات بين القيادات أو بين الإخوة في الخارج. حاولت استعادة مبادرة السؤال حتى لو كان سؤالًا غبيًّا:

— طيب، هل كان هذا سببًا للانشقاق أو الخلاف؟

— الخلافات دبت بغضب، فالخسارة وصلت لنحو ألف شاب مدرب، بعضهم نال تدريبات مخابراتية راقية في التفجير والتلغيم والرماية.

— مخابراتية؟ استغربت الكلمة، كيف؟ أو ماذا تقصد

بـ"مخابراتية"؟ هل هناك أجهزةِ لدول معينة كانت ترعى الجماعة؟

— يا أستاذ، لعلك تعني ما يردده الصحافيون المصريون من أن المجاهدين في أفغانستان صاروا لعبة بيد المخابرات الأمريكية، وهي مَنْ صَنَعَتْهم، هذا كلام غير دقيق.

— إذن من أين كلمة "مخابراتية"؟

— باكستان في وقت من الأوقات رعت الإخوة، رعتهم بأجهزتها الأمنية والمخابرات أيضًا، ولا تَنَسْ أن هناك ضباطًا من بقايا المخابرات الأفغانية انضمُّوا للإخوة، كذلك ضباط من دول الاتحاد السوفيتي التي انفكت عن روسيا، هناك متدينون في الشيشان وغيرها، كذلك المنطقة الحدودية بين باكستان وأفغانستان حيث قضى الإخوة أغلب فترتهم، كان ينشط بها ولا يزال أفراد ومجموعات مرتزقة من ضباط سابقين في أجهزة أمن غربية، هؤلاء تم شراؤهم بالمال، ودورهم لم يكن يتعدَّى تدريب مجموعات لا يعرفون أسماءهم، ويُنبِّه على المتدربين بعدم الكلام إلا في أقل الحدود حتى لا تُعرف جنسياتهم.

— إذن دَعْنا نتحدث عن الانشقاق؟

— دبَّ الانشقاق بين عموم الإخوة من ناحية، وبين عجيزة ومعه عدد كبير من شباب المجاهدين وأغلبهم من صغار السن، الذين اعتبروا أنهم كانوا عرضة الخطر لو تم دفعهم

لمصر قبل ذلك التوقيت بشهور.

– وكيف انتهى الانشقاق؟

– الخلاف كما قلت لك بين مجموعتين، مجموعة كبيرة مع الدكتور..

– أي دكتور تقصد، فكلهم دكاترة؟

– الدكتور فضل.

– الدكتور فضل، تقصد سيد إمام؟

– نعم، ومعه شقيقه. كان وقتها في السعودية أو قطر لا أذكر، ومعه أيضًا أساسيون ومؤسسون، عدد كبير من القدامى وأعضاء اللجنة الشرعية. مقابل عجيزة والشباب والأحداث. وهنا بدأ الإخوة في الانتقالات من أفغانستان وباكستان نحو اليمن ثم السودان. بعضهم جاء مباشرة للسودان.

– وأين كان الدكتور فضل؟ هل وصل السودان أم اليمن؟

– لم يغادر باكستان حتى وقت اشتداد الأزمة.

– إذن كيف بدأت محاولات التقريب؟

– الشيخ أبو عبيدة البنشيري - رحمه الله- بدأ جهود الإصلاح، قام مع بعض الإخوة بعقد مجلس صلح بين الطرفين في السودان لتهدئة الأمور. أغلبهم كان وصل

بالفعل إلى هنا، فاتفقوا على أهمية حضور الدكتور عبد القادر بن عبد العزيز من داخل باكستان؛ لأنه حتى هذه اللحظة كان الأمير.

– أنت قلت إن الدكتور فضل هو الأمير.

– يا زول.. بل يا رجل، يا مصري، الدكتور فضل هو نفسه الدكتور سيد إمام وهو عبد القادر بن عبد العزيز صاحب أغلب مؤلفات الجماعة ومفتيها.

– معذرة، هل كلها أسماء حركية أم أحدها اسمه الحقيقي؟

– اسمه الحقيقي هو سيد إمام، وهو جراح خريج طب قصر العيني. المهم كان عليه الحضور وحسم الأمور، وله على الجميع سمع وطاعة، وسعى إليه كثيرون لكي يأتي إلى السودان. لكنه رفض، رفض أن يأتي متعللًا أن الأمر لا يستأهل وبعث خطابًا للجميع يُذَكِّرهم بالسمع والطاعة.

– وماذا كان رد فعل عجيزة ومجموعته؟

– الخلافات زادت واشتعل الموقف وتأزم، فاتصل به الشيخ أبو عبيدة، فرفض. فطالب عجيزة ومجموعته – كانت حجتهم قوية– طالبوا بأن يقدم الدكتور فضل استقالته، فهو يرفض القدوم والجماعة التاريخية على وشك الانقسام، فكيف يظل أميرًا عليها؟ أن تبقى جماعة واحدة بأمير جديد، خير من أن يكون أميران وجماعتان. لكنهم منحوه فرصة أخيرة، خيَّروه بين الاستقالة أو الحضور. فجاءهم الرد، قال: "أنا مستقيل،

واختاروا أميرًا فيما بينكم"، أبلغهم ذلك تليفونيًا.. ثم..

سرحتُ عن محدثي، تساءلت ونفسي، إن كان الدكتور فضل يعرف بأمر الخبيئة، أم هوَ الأمير الجديد؟ سألته مقاطعًا:

– وبالطبع كان أيمن الظواهري هو الأمير الجديد؟

– انتظر يا رجل، فقد تنفس المنشقُّون وارتاحوا لاستقالة الدكتور فضل، فهو أكبر عقبة أمامهم. لو نزل إلى السودان لانتهى الانشقاق ورضخوا.

– وبعده أيمن الظواهري؟

– ليس مباشرة، فقد سببت استقالته أزمة أُضيفت للأزمة الموجودة من الأصل، فليس طبيعيًا لمن يفهم الداخل بجماعة الجهاد، وكثير من قياداتها متفرقون بين الدول. بلا أمير، صارت الجماعة المؤسسة على عمودي السياسة الشرعية: الإمارة والبيعة، فهما أمران أصليان، والأمير الجديد يجب مبايعته بشكل شخصي ما أمكن ذلك.

– و كيف تم تجاوز الأمر؟

– الذي حصل أن اجتماعًا عاجلًا تم، وضم الأساسيين.

– من تقصد بالأساسيين؟

– الأساسيون هم أعضاء المجلس التأسيسي، مجلس الشورى. وهم خمسة وعشرون عضوًا، فحضر بعضهم وأرسلوا في طلب الباقين من مختلف أنحاء العالم. وشددوا

– بالشيفرة– على أهمية الحضور. فالأمر بالفعل عاجل وطارئ، خوفًا من تعجل المنشقين وإعلانهم جماعة مستقلة من تلقاء أنفسهم.

– لكن اسمح لي، فالمفترض أن هؤلاء المنشقين أيضًا على ما هم فيه من وغضب، لكن تربطهم أواصر أُخُوَّة، وإنكار الذات من أجل الجماعة.. فلماذا كان الخوف منهم بهذه الدرجة؟ ألا ترى في ذلك مبالغة؟

– يا أستاذ، رحم الله أيام الجهاد الأفغاني وقتال الروس، كنا رجلًا واحدًا وقلبًا واحدًا.. سَرَتْ إلينا عدوى الانشقاق الأفغاني، بعد أن تحول رفيقًا جهاد الأمس القريب لعدوين لدودين، وخصمين لا يرقب أحدهما في الآخر إلا ولا ذمة ولا ذكرى كسرة خبز اقتسموها في ساعة حصار. وظهرت نيات البعض في الزعامة، الزعامة كانت تعني – للأسف– مخصصات مالية ومميزات وهيبة وأهمية.. قاتل الله الزعامة!

سَكَتَ، لعله تنبه إلى أنه أساء أمامي في ذكر من كانوا أشقاء جهاد معه، فاستدرك قائلًا:

– ليس الجميع يسعى نحو المنفعة الدنيوية، فالخير كان موجودًا. المهم.

– نعم، المهم؟

– المنشقون راسلوا بعض الأعضاء المؤسسين، راسلوا كذلك جماعات عالمية أخرى، وأخبروهم باستقالة الدكتور

فضل، وأنهم قد اختاروا أحدهم أميرًا على الجهاد.

– من اختاروا؟

– اعذرني.

– لا عليك.

– الأساسيون بالسودان، ومن حضر من خارجه، التفُّوا حول الدكتور أيمن، عقدوا مجلس الشورى وانقسموا بين الدكتور أيمن وأبي عبيدة البنشيري، الذي رفض بشدة، وتم الأمر وبويع الدكتور أيمن. فالشيخ أبو عبيدة كان أكثر انشغالًا بمعاونة أسامة بن لادن في تأسيس جبهة جديدة ينضوي تحتها كل المجاهدين من الجماعات شتى.

– وما هي أهم الخطوات التي قررها الظواهري بعد مبايعته؟

– تحدث الدكتور أيمن عن أن سبب غضب الإخوة هو القبض على عدد ضخم من الشباب بمصر، وبالتالي يجب فورًا القيام بعمليات داخل الدولة المصرية، عمليات عنيفة، ليُشعروا المسجونين بأنهم لم يروحوا هباء. وأن الحكومة المصرية عليها أن تدفع الثمن بالانتقام منها، وبسرعة تم التجهيز لعدد من العمليات.

– مثل؟

– مثل محاولات اغتيال حسن الألفي وزير الداخلية، وأيضًا عاطف صدقي رئيس الوزراء.

ضحكت وهو يذكر عملية عاطف صدقي.

– لكن يا شيخ، عاطف صدقي لم يُقتل ولم يُصَبْ بأذى، بل قُتلت طفلة صغيرة كالزهرة.

– للأسف.. هل تعلم يا أستاذ أن هذه العملية تحديدًا هي سبب افتراقي عن الإخوة واعتزالي الجميع. لكن الحق يقال فقد عرض الدكتور أيمن دفع الدية.

تجنبت تعليقا مُرًّا، بحلقي توقف، حتى لا يشعر مضيفي برائحة سخرية.

***

مضى الحديث ونسيت الشيخ عثمان ونسيبه السوداني، لم أتنبه أن أحدًا حاضرٌ حوارنا، إلا والشيخ عثمان يهلل ويسترجع متدخلًا أو مقاطعًا الحديث:

"يا زول أيَّة دِيَةٍ لزهرة؟ هل أموال الدنيا تعيد زهرة لفرعها الطري؟ قتل الناس ليس بالسهل ولا الهين، اعذراني يا أيها المصريان، هذا الرجل قاسٍ وجاهل، حمله الحقد على التبرير، وساقه التبرير للقتل بلا مراجعة".

سكت كلانا ولم نعلق، وشعر الشيخ عثمان أنه أساء لنا، فتعلَّل بالذهاب للوضوء، وتبعه السوداني الآخر، الذي بدا لي أنه يسمع معلومات معروفة لديه، بل بعضها ذكرها لي قبل ساعات.

التفتُّ للمصري:

— تفضل، وصلنا للعمليات الانتقامية.

— هي لم تطل، فقد تنبه الأمن وواجه الأمر بمنتهى العنف واليقظة، ثم أصدرت جماعة الجهاد عام خمسة وتسعين قرارًا بوقف أي عمل مسلح.

— هل بسبب اليقظة الأمنية؟

— الواقع أن محصلة العمليات كانت تقارب الصفر، وطعنت الجماعة في شعبيتها لَمَّا سقط أفراد عاديون من الشعب بينهم أطفال ونساء. كذلك خسرت الجماعة عددًا آخر من أفرادها بين القبض عليهم أو قتلهم، وقالت في بيان وزعته على الأعضاء:

«إن الله لا يكلِّف نفسًا إلا وسعها، والجهاد منوط بالقدرة، ونحن غير قادرين، فلن نستطيع. فانتظروا واجلسوا وتعلَّموا. العملية صعبة ونحن نخسر كثيرًا بتنفيذنا اليوم هذه العمليات».

— يعني التوقف كان بسبب القدرة، وليس بسبب سقوط أبرياء.

— بسبب القدرة يا أستاذ، الأبرياء ليس مصطلحًا شرعيًّا عند الدكتور أيمن.

— وتوقف العنف؟

— ليس مطلقًا، فقد قررت الجماعة الانتقام من الدولة وجهاز مخابراتها الذي انتشر أفراده بباكستان وقتها

لجمع المعلومات ورصد القيادات. أيضًا الصراع بين الأمن المصري والجماعة هنا في السودان ظهر للقيادات، فكانت الضربة قاسية وموجهة للسفارة المصرية في إسلام أباد.

– لكن معلوماتي أن الدكتور أيمن الظواهري كان في هذا التوقيت بسويسرا طالبًا اللجوء السياسي.

– الدكتور لم يغادر السودان.

تنبه لانفراد جلستنا: «أرجوك لا تنشر شيئًا عن وجود الظواهري هنا». وعدته، واستأنف:

– الدكتور قرر أن يخدع الأمن المصري في السودان، فسرَّبوا خبرًا عن مؤتمر صحفي سيعقده بأحد فنادق العاصمة السويسرية، فاتَّجهت كل الأنظار وكثف الأمن المصري من وجوده هناك، بينما الدكتور يدير عملية تفجير السفارة المصرية في إسلام أباد من هنا في السودان.

– لكن، أليس غريبًا أن يقع الأمن المصري بكل خبرته في فخ كهذا؟

– الصراع كان بين ذئاب لا تهمد، الأمن المصري رضي بالمشي في قصة وجود الدكتور بسويسرا، وأثار ضجة، وقدمت الخارجية احتجاجًا لنظيرتها السويسرية، مع أنها تعلم علم اليقين أن الظواهري لم يغادر السودان، لكنها جعلته يصدق أنها تصدق ذلك.

– لا أفهم؟

– الأمن المصري كان يدبر لعملية أكثر خطورة، ففي هذه الأثناء جنَّد ضابط مصري غلامين من أبناء الجماعة، وعرف منهما كل ما يدور في الداخل، وأحبط بذلك كثيرًا من العمليات، بل تمكَّن من خطف ثلاثة من الجماعة وترحيلهم لمصر.

كنت استمعت قبل ساعات قليلة لحكاية الغلامين المؤسفة، لكن كنت بحاجة للتأكُّد، فقد شعرت أن بالأمر بعض مبالغة، فسألته: عادة الأمن أن يجند أشخاصًا، لكن أليس غريبًا أن يُجند غلامًا أو اثنين؟ أليس أَوْلَى أن يجند شبابًا لديهم معلومات، أو حتى يدس بينهم عنصرًا متنكرًا.

– هذا يحدث بأفلامنا القديمة، لكن الذي جرى غير ما يمكن أن تتصور.

– كيف؟

– سأحكي لك القصة من واقع اعتراف أحد الغلامين، وسمعتها منه أمام الموجودين من مجلس الشورى:

قال إنه التقى مصادفة بإحدى المكتبات مهندسًا مصريًّا، وبدا ذلك الرجل لطيفًا ومرحًا مع الغلام، وتكرر اللقاء بمصادفة مخطط لها، ودعاه للسير والحديث، وعامله على أنه رجل راشد، وتكلَّمَا في النساء والجنس، ثم دعاه لمنزله، ولم يكن أحد هناك سوى عامل مصري صعيدي، عرَّفه بأنه يعمل مساء في خدمته بالمنزل، وغادرهما الصعيدي، ثم شاهدا معًا أفلاما جنسية،

ودسَّ له مخدرًا يفقد الشخص قواه لكنه لا يصل به إلى حد النوم، ثم دخل الصعيدي ونزع عن الغلام بهدوء كل ملابسه، وحمله وألقاه بالسرير على وجهه، وضبط المهندس المصري، الكاميرا وصور الصعيدي وهو يلوط بالغلام. وانتظروا ساعة حتى أفاق الفتى وفوجئ بما جرى، وأعادوا عليه الشريط الذي صوروه، وهددوه بأن يتم الأمر ثانية بهدوء، وجاءوا بشخص ثالث مارس مع الغلام، وكل هذا يتم تصويره.

أظهرت قرفي، أو ظهر رغمًا عني، قلت:

– هذا لا يصدق؟

– أنا أيضًا أشكك في الرواية التي حكاها الغلام، فبعض رفقاء سنِّه تحدثوا عن تصرفات غريبة وشاذة صدرت عنه قبل تلك الواقعة، فربما يكون الغلام من الأصل شاذًّا لوطيًّا، ومن المرجح أن يكون الأمن عرف بذلك واستغل المسألة وصوره مع أحدهم. يعني ربما الأمن لم يبدأ المسألة وإنما استغلها استغلالًا ناجحًا، المهم أن ما حدث حدث وتم تجنيد الغلام.

– وأين كان أبوه؟

– أبوه لم يكن عضوًا بالجهاد، كان أخًا فاضلًا وناشطًا ضمن مجموعة تعمل مباشرة – في ذلك الوقت- مع الشيخ أسامة بن لادن.

– وأمه؟

— أمه كانت مرافقة لأبيه في بيشاور، وأرسلَا الولد لحفظ القرآن، وعهدوا به لأحد الشباب في الجماعة.

— وتم تجنيد الغلام؟

— بالضبط، وأمدَّهم بكل ما وصل إليه من معلومات وأحاديث وأخبار. لكن هذا الغلام لم يكن مسموحًا له، أو لم يكن من أبناء المقربين الذين تجري ببيوتهم الاجتماعات المهمة. وعن طريق نفس الغلام تم إغراء ولد آخر، وهو مصعب ابن أحد أهم القيادات، وبنفس الطريقة خدروه وصوروه، ثم تم تصويرهما معًا، وهذا الغلام الثاني دسَّ لهم أجهزة تنصت دقيقة داخل أكثر من بيت، بل وضع أجهزة قريبة من الأماكن التي يغشاها الدكتور أيمن الظواهري نفسه.

— وكيف تم اكتشاف الأمر؟

— من العادي والمعروف أيضًا أن تحركات الدبلوماسيين مرصودة داخل أي دولة، وبالمصادفة التقط الأمن السوداني صورًا لأحد الغلامين وهو يترجل من سيارة تحمل لوحات "هيئة دبلوماسية"، و كان الولد معروفًا، نظرًا لشهرة أبيه ومكانته.

— ابن من؟

— ابن "أبو الفرج اليمني".

— نعم، أبو الفرج اليمني المصري هذا هو من كبار القادة.

– بل أيضًا من مجلس الشورى.

– نعم، تفضل أرجوك.

– تابعت المخابرات السودانية عملها، وصورت الولد وراقبته، ثم راقبت الولد الآخر، والتقطوا لهما صورًا وهما يخرجان من بوابة فيلا تابعة للبعثة المصرية، فنقلوا الخبر للدكتور أيمن.

– ثم استدعى الدكتور أيمن الولدين واستجوبهما؟

– لم يحدث، بل جنَّد شخصين لمراقبة الاثنين؛ لأنه كان يشك في أمر المخابرات السودانية، ظنًّا منه أنهم يبحثون عن أية حادثة تجعل لهم مبررًا لإجباره على المغادرة. لكن المخابرات السودانية لم تنتظر، واعتقلت الغلامين، وعرفت منهما ما يجري ووقائع اللواط، ثم سلمتهما للجماعة، التي اعتذرت بأن والدي الغلامين دائمًا الانشغال والسفر، وتعهدت الجماعة بالاعتناء بهما، والعمل على توبتهما. الحدث كان خطيرًا وشائنًا، غلامان وابنا رجلين فاضلين أحدهما مقرب من بن لادن والثاني مساعد مؤثر بجوار أيمن الظواهري.. اجتمعت القيادات الموجودة، وعملت على علاج المسألة دون صدمة الأبوين الغائبين.

– وماذا تم؟ كيف جرى العلاج؟

لم تمهلنا الإقامة المتأخرة لصلاة العشاء، قال: الصلاة يا أستاذ، علينا اللحاق بالجماعة.

قلت:

– أي جماعة؟ أنا لست منهم، قلتها بعفوية..

– جماعة المسجد، صلاة الجماعة.

***

طول الصلاة لم يغادرني وسواس التفكير في قصة الغلامين، أعرف منتهاها، لكني أريد الاستماع لبقية الحكاية من الرجل الذي قرر أن يعتزل الجماعة والناس ويعيش في أرض السودان، ويتزوج فيها.

استعذت بالله مرات عديدة، كل مرة ثلاث استعاذات وثلاث تفلات عن يساري، فكرت بعد إتمام الصلاة أن أعيدها، تقدمت للصف الأول واجتزت حيث الشيخ عثمان مستقبلا الصفوف وهمست:

كنت مشغولًا طول الصلاة بقصة مقرفة، هل أعيدها؟ قال لي: "لا عليك، الإمام مسئول".

تمنيت لو سلمته الخبيئة، وعشت جواره.

***

بقية الحكاية، كما سمعتها من المصري:

"أن الظواهري حبس الطفلين، كلًّا بغرفة مستقلة، وعقب كل صلاة يدخل شيخ يعظهما، وبعد أسبوعين أفرجوا عنهما،

منذرين ومهددين بأن الخطوة الأخيرة هي عقاب بمقتضى الشرع، أما الخطوة التالية فهي النفي إلى الخلاوي الشرعية، وهي الكتاتيب البعيدة النائية لحفظ القرآن كاملًا. وهناك رجَعَا لِمَا اعتاداه، وحاولَا إغواء بقية الغلمان ومراودتهم.

وتكررت التصرفات الشاذة، وأُعيدَا إلى الجماعة. لكن أحدهما نجح في الهروب، وفاحت رائحته، وتحدث مع كثيرين، وراود كثيرين، وصارت حكايا الجماعة على الألسنة، حتى ضبطه الأمن السوداني وسلمه للدكتور أيمن.

الأمن السوداني أوقفه، وبحوزته حقيبة بها متفجرات يتم التحكُّم فيها عن بعد، وهو في طريقه للجماعة. قال إنه لا يعرف شيئًا عن الحقيبة، وإنه نادم ورجع للتوبة".

تمت المحاكمة السريعة مع غيابْ وليَّيْ أمرهما، واجهوا الصبيين فاعترفا، اعترف كل منهما ثلاث مرات.

قال الذي حاول الهرب، ببجاحة، إن ذلك يجري بمحض إرادته، وإن أحدًا لم يجبره، وإنه يتلذذ بذلك، وإن آخرين كذلك.

قال أحد الشيوخ: يعني أنت معترف أنك كنت تذهب للفيلا.

قال الغلام: نعم كنت أذهب لفلان وفلان ليناما معي.

سألوهما عن المعلومات التي قدَّماها للأمن، كانت المفاجآت مدوية مع اعترافات الغلامين.

ابن الشيخ أبي الفرج صور جوزات سفر من دولاب أبيه

وسلمها. الولد الاخر أبلغهم بسفر ثلاثة من القيادات، فتم اصطيادهم من الأمن المصري. "مصعب" أخبرهم بسفر أحد الإخوة إلى المملكة السعودية بجواز سفر مصري مزور، اعتقل السعوديون الأخ، وبعده أكثر من خمسين شخصًا في المملكة.

مصعب ابن الشيخ اعترف بأنه وضع قبل شهور عددًا من أدوات التنصت في سماعات هواتف بيوت القيادات، إحداها بهاتف الدكتور أيمن نفسه. وأقرَّ أنه هرب بمعاونة صديقه المهندس المصري، الذي سلمه الحقيبة وكلَّفه بوضعها بجوار جدار المنزل الذي يجتمع به الدكتور أيمن مع بقية القيادات.

اتضح أن أمر الغلامين أكبر مما تخيلته الجماعة، التي أسقط في يدها. على الفور، ناقشت الجماعة المسألة من الوجهة الشرعية. طرح بعض الحضور الشبهات. تساءل آخر إن كانَا بلغَا حدَّ العقوبة الشرعي، قام آخر ورفع جلباب كل فتى، نظر الحاضرون لشعر واضح متناثر على العانة في كليهما، صرخ أحد الذين أثاروا الشبهة: "إنا لله وإنا إليه راجعون. لقد أنبتا".

صار الأمر واضحًا. صدر الحكم، ثلاثة أحكام: حكم اللوطي وحكم الخائن وحكم المتآمر.. كل حكم حده القتل.

سألوهما، كلًّا على حدة:

– هل تعرف حكم المتعامل مع الأمن؟

قال مصعب: مرتد.

سكت الآخر

قال القاضي: يعني خيانة شرعية.

تكلم الغلام الأول "أحمد"، قال: أريد ورقة وقلمًا، كتب:

" إلى أبي.. إلى أمي.. لا أحبكما، أنتما سبب ما جرى، كل ما جرى.. غيري الآن يلعب في مصر ويذهب كل صباح لمدرسة مصرية.. حلمي كان بسيطًا، أن أعود لمصر.. لا سامحكما الله! والله، لا أحبكما".

نفذ المجاهدون حكمهم في الطفلين. قالوا إنه حكم السماء".

لما قال لي محدثي عبارة "حكم السماء" ضحكت ولم أتمالك، وقلت: لا عليك، دعنا من السماء، نحن هنا في جنوب الأرض، أيضًا كان محدثي حريصًا على مصطلح "غلامين"، وكنت أسأله بمفردة "الطفلين". والحقيقة التي يجب ذكرها أن محدثي كان يتحدث بمرارة وعدم رضًا عمًّا جرى.

والمهم.. المؤسف، أُعدم الطفلان، ولم تبلع الجماعة مرارة ما جرى، خططوا أكثر من مرة لخطف أحد الذين جندوا الغلامين، وكان الاتفاق أن يتم اللواط به وتصويره، عينًا بعين وسنًّا بسن.

قلت لمحدثي وما زلت في نوبة ضحك مكتوم ومر:

"عينًا بعين وسنًّا بسن ولواطًا بلواط.. هذا جهاد اللواط!".

لم تنجح الجماعة في مخططها. لكنها قالت إنها فجَّرت السفارة المصرية بباكستان ثأرًا للولدين.

فكرت لو كتبت عنوانًا: "القاتل حينما يثأر للقتيل".

***

سألته: وانتهت الحكاية؟

"لا، لم تنتهِ الحكاية، فبعد أيام من إعدامهما، رجع الشيخ أبو الفرج وأخبروه بالحكاية كأنهم يتلون عليه بابًا من أبواب الفقه. غضب الوالد وذُهل، عاتبهم، قال إنه ولي أمر الطفل، وكان يجب انتظاره، هاجم الجماعة.. سَبَّ أيمن الظواهري، شتم الجميع وثار في وجوههم.. صرخ:

"قتلتم ولدي، ولم تعطوه حقه الشرعي. أنتم قتلة، أنتم جماعة الجهاد الضالة".

استفحلت الأمور حتى وصلت للأمن السوداني، طُلب من الجماعة المغادرة الفورية. رحلوا دون والد مصعب، الشيخ أبو الفرج فارق الجماعة.

قال المصري: لو شئت نلتقيه؟

قلت: "بل كُفيت بحكايتك، واستكفيت، ما لي حاجة، فقد قُضيت ببيتك حاجتي".

***

شكرت الرجل، وطول طريقي لبيت الشيخ عثمان كنت أردد: فارقهم الشيخ أبو الفرج.. أنا أيضًا فارقتهم. اللهم لك الحمد.

طول الطريق، سكنني الطفل الذي بعث رسالة لأبيه وأمه يصرخ في وجهي بكلماته: "كان حلمي بسيطًا. أن أعود لمصر، لا سامحكما الله!".

من فرط القرف دبَّ بمعدتي الغثيان، تحركت، ساعدها اضطراب الطريق المجعد.. طلبت من السائق التوقف، ترجلت، انتحيت جانبًا، مسرعًا تقيأتُ.. أفرغت كل ما جوفي.

انزعج الشيخ عثمان، سألني: سلامات؟

قلت: "أكل قديم، طعام ببطني منذ سنين، حان أوان لفظه".

***

بمجرد دخولنا بيت الشيخ عثمان الطيب صاحب الفضل، جلست على العنقريب، ودخل الشيخ منزله، ارحت ظَهْرًا مُتعَبًا، نظرت للسماء، استغفرت ربي، لم أَرَ في حياتي كل هذه النجوم مجتمعة ومتناثرة في ليلة، السماء منيرة مضيئة، ترحَّمْتُ على شيماء وأحمد ومصعب، دعوت لعبد الرحمن. خطر ببالي محمود يوسف، لم أَدْعُ له.

قمت، واعتدلت وخطوات الشيخ الوئيدة تفوح دقاتها بعصاه:

- سلامات يا أستاذ، تفضل.

- ما هذا؟

- قرنفل، امضغه فورًا.

مضغت وبعده ناولني كوبًا ساخنًا من النعناع الثقيل، قال: اشرب.

قلت: شربت كثيرًا جدًّا اليوم يا مولانا.

قال: اخلع حذاءك، وأشار لإناء به ماء بارد، يُريحه حفيده على الأرض. قال: ضع قدميك بالماء.

– لَمْ نَمْشِ كثيرًا يا مولانا.

– الماء للمعدة، الماء للاغتسال من الهموم. الماء لو تركته صعد، غسل كل الشواغل.

– شيخي: ماذا أفعل بتلك الخبيئة، الأمانة، المزعجة؟ قراري نهائي بحمد الله، أن أتخلص منها، لكن هل أفتحها؟

– ليست قضيتك.

– كيف؟

– دين العجائز.

– لا أفهم.

– دين العجائز هو هدفك، فطرة العجائز، فقهاء كثيرون يا بني فتَّشوا أثناء طريقهم إلى الله، فلاسفة أيضًا فعلوا، شرَّقوا وغرَّبوا، اقتربوا وابتعدوا، رواد كل الجماعات والفرق والمذاهب. السعيد فقط من أدرك وسجل قبيل وفاته، وما أكثرهم، أنه على فطرة العجائز. فطرة الله التي فَطَرَ النَّاسَ عليها، دون تعقيد، انظر مثلًا كم أنفق شيوخ نفطيون ليثبتوا لنا أن يد الله هي يد الله، وأن الرحمن على العرش استوى يعني استوى، دون تمثيل ولا تشبيه ولا تجسيم، وبالمقابل كيف انشغل مصريون وسودانيون ومنتسبون

من غيرهم للأزهر، لإثبات أن يد الله هي قدرته، وأن استواءه هو سيطرته المطلقة وهيمنته التي لا حدَّ يَحُدُّها، أو بَعْدَ يُطوِّقها.

اعبد الله فقط، اعمل ما تعمل دون تعقيد، وستصل إلى الله.. لو أراد الله أن ينصر دينه الآن وأن يهدم أمريكا، ويزلزل عروش الزعماء العرب لفعل، هناك حكمة، هناك دائما حكمة.

حكمة من سقوط خلافة لم تُرَاعِ الله تعالى في الهدف من ورائها، وأن يصعد الغرب الذين يقدسون العمل، وأن نفشل نحن، ونحن نهمل العمل.

لو سقط عارف بالله وكافر به في ذلك النهر الغاضب، من سينجو؟ سينجو فقط من يعرف العوم. في آخر خطبة للنبي ﷺ بحجة الوداع، أعلن دستورًا للدنيا، أعلن قواعد لا سبيل لنا أن نتخطاها، ولا يجوز لنا ذلك، أعلن أن الدماء والأموال والأعراض علينا حرام، كحرمة ذلك اليوم في ذلك الشهر من ذلك العام العظيم.

اعبد الله فقط ولا تلتفت لمن يُعقدون لك الأمور.. هؤلاء يا بني، وأقصد الجهاديين، أفسدوا من غير وعي ولا قصد، أكثر مما أصلحوا ونفعوا.. في أفغانستان جاهدوا الروس الشيوعيين، وألحقوا بهم هزيمة كزلزال، فكان من توابعه سقوط الاتحاد السوفيتي بعد ذلك بسنوات.. لكن تلك هي النتيجة المباشرة التي أدركها المتمسكون بعقل جامد، أما النتائج الموجعة الحقيقية، فهي أنه بعد الانتصار العظيم، تابعنا تطاحن الجماعات التي

كانت تتشارك خندق الجهاد في سبيل الله، ورأينا قتالها مع بعضها البعض، بنفس المنطق ونفس الآيات وذات الأحاديث التي تحضُّ على الجهاد. صار بأسهم بينهم شديدًا.. كانوا يبكون من قتل الروس للأطفال أثناء القصف وحشي، فإذا هم وبأيديهم يقتلون أبناءهم وأطفالهم ونساءهم، بشعار الحرب المقدسة، الجهاد في سبيل الله.

جعلوا من دولة قوية كباكستان ساحة لنفوذ الأمريكان.. - سقوط الاتحاد السوفيتي هو سقوط لشرير، لكنه ترك الدنيا كلها خالصة للولايات المتحدة، لشرير أقسى قلبًا. هدموا أو حاولوا هدم تمثال بوذا فصدوا عن سبيل الله.. في مصر كما روى "المصري" أرادوا أن يقتلوا ويخططوا لاغتيال أعضاء الحكومة، فسقطت طفلة صغيرة، وصارت عشرات البنات الصغار يتيمات لفقد آباء قضوا تحت شعار العشوائية، وبعناوين لم يدركوها، ولا هم فهموها كـ: "أن يُبعثوا على نيَّاتهم".

انظر – وكما رويت أنت– كم ألف شاب بسبب هذه الدعوات، راحوا في أقبية مظلمة لسنوات. كل تحرك هؤلاء يقود للفشل، ولو نجحوا فستكون النتيجة أخطر من مجرد الفشل، النتيجة ستكون فوضَى لا تُبقي ولا تَذَر، مبارك وغير مبارك، ولن أدخل معك في جدالات، ولكن كلامي هنا ستشم رائحة خبرته بعد أن تُغرقك الخبرة.

مبارك وغير مبارك يا ولدي، قولًا واحدًا، ليس بكافر. الكفر والإيمان من الغيبيات، لا يقررها غير الله ﷻ، لا يعرفها أحد

غيره سبحانه.. إنهم يتغنون بقتل المرتد، فهل قتل النبي ﷺ مرتدًا؟

إن السبب الأجمل وراء بعث النبي ﷺ هو الرحمة.. قلبٌ لا رحمة فيه بصغير ولا فقير، لا خير فيه.]وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ[.

قلبٌ يا أستاذ أحمد، لا رحمةَ فيه بالآخر، هو قلب شرير، ولو سكن جسدًا يُرْخِي لحيةً ويقصِّر ثوبًا.

قلبٌ لا يلتمس للناس الأعذار، يتربَّص بالآخر، وبأخطاء الآخر، ولا يضع نفسه مكان كل أحد، هو قلب أُشْرِبَ بالشر.

حتى الظالم، هو ظالم بالنسبة لك، وما أدراك أنك مظلوم وأنه ظالم؟ كلنا يلوي عنق الحقيقة.

انظر للضابط الذي أحب حبيبتك وتزوجها، ما ذنبه؟ من أدراك أنه عرف بقصة حبكما؟ هل هي رفضته؟ إنه لم يَذُقْ حلاوتها إلَّا بالرضا. فما ذنبه؟ وما ذنب حبيبتك التي قدَّمت الاستقرار على حب لم تعد تثق فيه؟

كل ما فَعَلَتْهُ – من كانت فتاتك- حلال، حتى لو قست على قلبك.

أنت القاسي على قلبك، ما ذنب المرأة التي تزوجتها لهدف الاستمتاع فقط؟ هل ذنبها أنها استجابت؟ وهل إدراك المرأة أنها للمتعة فقط، يجعلنا نراها ساقطة؟ الساقطون هم الذين يتخذون دين الله مطيَّة لحماسهم الأعمى.. أنت لا تعرف ما في

الخبيئة التي تركوها عندك، ولا يجب عليك أن تعرف، ولا يهمك أن تعرف، ولن يفيدك؛ إنها كما قالوا لك "بذرة" لو غرستها في أرض نَمَتْ وانتشرت.

الزرع الوحيد الذي ينتشر دون رعاية هو زرع نسميه "شيطانيًا"، حشائش ضارة تمتص رحيق التربة وعافيتها، وتجور على طعامنا الذي خُلقت له الأرض الطيبة، أرض الفطرة.

انظر يا أستاذ، استرجع مشهد النيلين عند جزيرة توتي، هل أدركت أروع ما في توتي؟ أروع ما فيها أنها على الفطرة، لا تعقيدات، ولا شرور. قَدَرُنا، لو أردنا الخير، أن نكون مثل أرضنا طيبين، سهلين كانبساطها، مفعمين بالخير كتربتها. لن أقول لك ماذا عليك أن تفعل بما لديك، بعض الأمانات خيانتها أداؤها. أنت أدرى بما عليك فعله".

استمعت لكل كلامه، دون تعليق أو سؤال. فقط تذكرت جدتي، التي وافتها المنية وقد حلَّقت أصبعيها الوسطى والإبهام ورفعت سبَّابتها اليمني، وتشهدت. ما أروع الختام!

قلت للشيخ: أنا على دين جدتي.

***

سَرَى الارتياح بروحي، وزحفت السَّكِينةُ إلى معدتي، أَعَدْتُ حكايتي مع حنان، مع أنه أشار إليها، سألته وأنا معترف يخشى مداهمة البكاء، دون أن أشير إلى حادث سكرها الأخير قبيل سفري.

سكت هنيهة:

"ولدي.. ما ذنبها؟ الخير يأتي من باطن الشر، وبعض ما نتخيله خيرًا يحمل لنا شرًّا. هي مسكينة، رماها حظها العاثر لزواج فاشل، ثم ككثير من بنات ظروفها، أرادت ألَّا يغزوها الاكتئاب وزحف صعاب السنين، السنوات تحمل للرجال الحكمة، والسنوات ترعب النساء.. الآن تقول إنها تغيرت أو هي تحاول.

كثيرات بَدَوْنَ لنا لا يصلحن، فكانت منهن الصالحات، المرأة التي تحمل ماضيًا هي على عكس ما نظن، هِي تحاول دومًا أن تثبت لنفسها وشريكها أنها لم تكن إلَّا ضحية الظروف، تستبسل لدفع ماضيها بضِدٍّ ماضيها، فتبهرك ببيت ملؤه الخير، وتحفظ غيابك.

لكن يبدو أنك غير مرتاح لها، أعْطِ لها ولنفسك فترة أنت من يُقَدِّرها، بعدها صلِّ ركعتي استخارة، وستجذبك الطريق الصحيحة.

لكن انْسَ فتاتك الأولى يا بني، هي لم تكن لك، هي في بيتها.. الله أعلم بها.. محرمة هي عليك بالإحصان.

***

نِمْتُ وتقلب الذكريات، وأَرِقْتُ وكلمات الشيخ عثمان، شغلتني رؤيته للأشياء، شغلني أكثر غسل قدمي بالماء لراحة المعدة، كما سكنني ما رأيته قبل يوم في المنام من أمر الماء والعارف بالله الجنيد. مشيت حتى الروضة، تخيلت آثار الجغرافية وخريطة

التاريخ، وأنا أمرُّ عليها جميعًا ماشيًا حتى جزيرتي. تخيلتني أمشي حتى غرفة جدتي الجميلة، الجدة العجوز موحدة بالله، ماتت على الفطرة.

التزم دين العجائز. الله في السماء ونحن في الأرض، بعث نبيًا ﷺ ختم به سلسالًا طويلًا من الرسل، دعا إلى عبادة الله والتوكل عليه، أوصانا بالرحمة، لم يكلفنا الدين الحنيف بالتفتيش في الضمائر.

ماذا لو كنا نحن على باطل؟ وهؤلاء الذين يدافعون عن نظام، أراه عفنًا هم مقتنعون أنهم على حق. الشيء الوحيد الذي لم أقتنع به من كلام الشيخ عثمان، فكرة أن مبارك ليس بكافر، لقد شربنا تكفير الحاكم الذي لا يُحكِّم شرع الله تعالى، نقشناها بطيب خاطر وشقاوة أطفال فى ساحة العلم بأحجار قلوبنا، والرءوس.

التعليم في الصغر كالنقش على الحجر. أمره إلى الله، لن أكفر أحدًا، فمن أنا؟ وماذا قرأت؟ وماذا عرفت؟ أنا، أنا بسيط جدًّا ويجب أن أظل بسيطًا كماء النيل الأبيض، كغمامة تمر كَسْلَى خجولة فوق الروضة في مساء شتوي.

مبارك أفسد مصر وكفَى، والجهاديون أفسدوا مصطلحًا تسمَّوْا به وكفَى. كلنا أخطأنا، وغدًا موعدنا جميعًا على الصراط.

***

القرف ما زالت رائحته بعينى تلوح ولا تغيب: ما ذنب

الصغيرين؟ بالكاد قد بلغا الحلم، قدرهما أن "هذا جَنَاهُ أبي عليَّ وما جَنَيْتُ على أحَد". هؤلاء بشر قرروا الدم منذ البداية، هانت عليهم أرواح أعدائهم بدعوى كفرهم، أزهقوا أرواح آخرين بذريعة أنهم قد يُبعثون على نياتهم، قتلوا الطفلة شيماء أثناء محاولتهم البائسة لاغتيال موظف حكومي بائس لا يساوي في جدار النظام غير مسحة طلاء.

ظلوا في الانحدار والاستهانة، لدرجة إزهاق أرواحهم بأيديهم، لقد قتلوا أبناءهم بَغْيًا وبغضب، ودون روية ولا التماس عذر. ما الفرق بينهم وبين اليهود الذين قتلوا أنفسهم في الحروب، وأسروا بعضهم بعضًا، ثم جلسوا يتباكون على الأسرى بفتوى أن الإسرائيلي لا يجوز له أن يأسر أخاه؟ فعلًا، نمشي على خُطَى بني إسرائيل.. ها هم من كانوا ينتقدون علماء السلطان، قد صاروا أقسى قلوبًا من حجارة بني إسرائيل التي انفجرت منها المياه.

***

لم تؤثر فيَّ كلمات الشيخ عثمان بقدر ما فعلت تلك الحادثة المقرفة. حادث كان من الممكن جدًّا أن يحدث لي شخصيًّا، أو لأي أحد في طفولته، أن يغتصب رجلٌ مجرمٌ طفلا، ثم يعتاد على ذلك ويصير شاذًّا لوطيًّا. ها أنا، وأنا من أكثر خلق الله مقتًا للُّوطيين، أراني ألتمس العذر.

من دين العجائز التماس العذر..

لن ألوم أحدًا على فعل أي شيء، فليس لي علم، لماذا فعل؟

نترصد الآخر بـ"كيف فعل؟"، ولا نرحمه بـ"لماذا فعل؟".

قد يكون فلان مضطرًّا للسرقة، وقد يكون علان مجبرًا بسبب مرض على فعل غريب، حتى مدمنو المخدرات ربما أرادوا الهروب من واقع مخيف.

***

قمت من فراشي، بسطت أوراقي، كتبت بخط كوفي كبير، ورسمت ظلالًا للحروف:

"ورقة بيضاء: حياتي مثل تلك الورقة.. هذا من تغافيل يقظان الغرقان.. فلا أقلَّ إذن من التماس العذر.. لا أقلَّ من أن تَدَعَ الخلق للخالق.

يا ربّ، في طريقي أعياني عقلي، أو ربما هو انحدر بي في ضلالات التفكير ومتاهات التكفير. وقد أكون مقصرًا في الفهم، لكن يا ربّ، حينما لا نفهم مرادك، فليس أقل من أن نَلْزَمَ بيوتنا وقت الفتن.

ليس أقلَّ من ألا نتورط في قطرة دم، ولا تُرهق ضمائرنا لضرر جررناه لأحد.. يا رب، أنا على دين العجائز".

***

في الطائرة التصقت بين أصابعي الثلاثة حباتُ سبحة الشيخ عثمان، وارتاحت بكفي. سكرتُ طولَ الرحلة في الصلاة على

النبي، والسلام عليه.

سكرت بغير خمر، وغدًا مولد الهادي نبينا. نويت الصوم.

سِفْرُ البنين

ولدي نصحتك لمَّا صوتي اتنبح
ما تخافشي من جنّي ولا من شبح

صلاح جاهين

وما البنون؟

ماء بارد في صحراء قاحلة، ضوء أمل في تيه دروب قاتلة.

لو صار لي ولد، سأحبه جدًّا، وأقول له:

ولدي، هي الحياة دوائر دوائر.. فاخْطُ على الأرض ولا تَخْشَ أحدًا، فكلهم هواء، واضرب برِجْلِك لا تَخَفْ أحدًا، فعليك السعي، ولأبيك الخوف عليك والخشية، دَعْ لي الهَمَّ وامضِ يا جميلُ بلا هَمٍّ.

ولدي هي الحياة دوائر دوائر.. خطوة منك بقوة، تضطرب الأرض، فتزدهر دائرة، وتُولد دوائر، فتصير حركة لا تُبقي هيبة لظالم، ولا هي تكف عن مسح دمعة مشتاق، وأبوك مشتاق.

ولدي الحبيب..

قلبك أبيض، فلا تتركه لعاديات الهموم. قلبك أصغر من الهموم، وأكبر من كل ما لا تتوقعه من هموم، فارفق بنفسك، وامشِ قلبًا بين الناس.

ولدي: لا تخجل لو أحببت، ولا تسمح لمتضادات أبيك أن تهزمك. وعش حياتك.

ولدي الحبيب، محبةً مني، وبَعْدُ، فليس عندي ما أقول بَعْدُ غير أن الله في السماء، فلا تنظر لغيرها، ولا تَقِفَنَّ بباب شيوخ أغلقت الدنيا عنًّا أبوابهم، ولا تسمعنَّ من شيوخ قست رءوسهم واصفرَّتْ أوراقهم، ونضبت من الرحمة قلوبهم. ولا تجلسنَّ عند شيوخٍ رأوا من الدنيا ما فات، وعَمِيَتْ بصيرتُهم عمَّا هو حاضرٌ وآت.

أبوك، يا حبيبي، مضى أكثر عمره وهو يحترم الشيوخ، ولما دنا أكثرَ من أجله، ضجَّ من الوجع، استيقظ وهو يصيح: ويلٌ للناس من ذئاب الناس، وحَوْقَلَ وهو يردد: «عوضنا على الله».

ولدي الحبيب، كن نفسك، فليس هناك حيٌّ على وجه البسيطة يستحق منك سمعًا ولا طاعة، اللهم إلَّا مودة في قُرْبَى.

ولدي، كن «الآخَر»، يصبح «الآخَر» أنت، فكلنا عيالُ الله. والله رحيم جدًّا، بل «جدًّا» لا تتسع لفيوض رحمته. سبحانه.. من أجل هذا لعن من هدم بنيانه. وأنت بنيانه.

ولدي، غَنِّ، واملأ الدنياء غناء، فما الدنيا إلا قصيدة، أحداثُها مكررةٌ كتفعيلة، وصادمةٌ كقافية، ونحن مقاطعها العطشى لـ:

مَوْلَايَ صَلِّ وسَلِّمْ دَائِمًا أَبَدًا عَلَى حَبِيبِكَ خَيْرِ الخَلْقِ كُلِّهِمِ

***

بيشاور

آثارُ تيمورلنك باديةٌ، حوافرُ خيلِه طاحنةٌ بالعمائم، طموحُه يصبغُ وجوه كل ما يحيط مسجدًا جديد البناء وبديعًا، ساحةٌ مسكوب بها رُخام أبيض ثلجيٌّ. خمسةُ أبواب حديدية خضراء، تضفي راحة على جدران زهرية، لا زخارف بعكس كل مساجد باكستان المنمقة، المصقولة بمنمنمات عمارة السلاجقة.

رءوسٌ تُعشش بها الزركشات، وهي على السقوف بدعة.

***

بضعة تلاميذ حول شيخ مصري يشرح «سبل السلام»، متحلقين بأعمدة المسجد، يستذكر طلابٌ دروسَهم الشرعية. في زاوية بعيدة، على يسار قبلة ملساء سماوية، غرفةٌ صغيرة، مكتبةٌ مترهلة، مكتبٌ خشبي يسطو على نصفها. فوقه تنام غير مرتاحة قصاصاتُ جرائد عربية، تتحدث عن مراجعات الشيوخ في السجون، بضيق يئنُّ جالسٌ مقابلَ المكتب:

«إنهم يُضيعون كل تاريخ».

بهدوء يجيب صاحب الغرفة، وعيناه متسعتان على عكس

حقيقتهما من وراء نظارة بيضاء سميكة العدستين:

– لا تصدق، مسلسل أمني محبوك، وضغوط واضحة، وحقيرة.

– والدكتور فضل؟

– تأكد لنا توقيفه باليمن.

– وهل سلموه لمصر؟

– نحاول استقصاء الأمر، لم نتأكد بعد.

– وهل سنجلس صامتين؟ لو خرجت المراجعات بهذا الشكل المسرحي، فسنخسر كثيرًا، وتتضرر الدعوة.

– ادْعُ الشيوخ، لا بد من تحرك مزلزل، يقلب إناء ما أسموه بالمراجعات في وجوه طابخيه.

– متى؟

– في أقرب فرصة يتجمع بها عدد كافٍ.

– ربما لن يستقيم أَوَدُ المجلس قبل شهرين، حتى ذلك الحين، هل تفكر بشيء؟

– نعم، ما أخبار الإخوة الساكنين؟

– هناك مجموعتان جاهزتان للحركة، ولكن لا بد من تحويل أموال.

– يجب المحاولة ثانية للوصول إلى الخبيئة، ستحل مشاكل كثيرة بإذن الله.

– وهل من أخبار عن الدكتور؟

– بحمد الله وصل كعادته سالمًا، الذئب لا يوقفه نباح كلاب. لكنه مشغول بالتحضير للإعلان الهادم لأركان الطغيان بإذن الله.

– الله أكبر.

***

أحمد

على يقين من طريقي الجديدة. شعارها: التماس العذر، لست ربًّا لأحكم على ما أعتقده بصدور البشر. نفسي أَوْلَى بالانشغال. طالت الغربة، وتصالحت قليلًا، وخطوتي القادمة، قررت:

«البدء من جديد».

***

شيء واحد لا أستطيع نسيانه، ولن أكذب، حبي لجيهان وحقدي على من تزوجها، نعم أنا أحقد عليه، لا داعي لتجميل الكلام، وكلام الشيخ عثمان مسَّني، إلَّا كلامه عن زوجها.

بقي أيضًا أن أضع حدًّا للعلاقة مع حنان، حنان طيبة

وتحبني، ربما لم نبدأ بالحب، لكني على ثقة اليوم من حبها لي، على العموم أمامي فترة كافية لاتخاذ قرار الارتباط بشكل واضح، أو الفراق بشكل قاطع.

أمر جماعة الجهاد انتهى، وسأتخلص من خبيئتهم القبيحة.

***

مصر التي في خاطري، لا بد أن تملأ عيني وأنفي وسمعي، والأمور في طريقها المرسومة للحصول على الوظيفة بالأهرام، موقع يحلم به آلاف الصحافيين، حياة مهنية طالما طمحتُ إليها، وبمرتب معقول، وجيد بالنسبة للحياة في مصر، بمعنى أنني لن أحتاج أن أنفق على المعيشة اليومية من مدخرات سنوات الغربة.

حصن وحماية ونفوذ. أعمدة الحياة الكريمة الآمنة بمصر.

***

القاهرة

اتصالات مستمرة وتنسيق بحذر بين ثلاث مؤسسات، الخارجية وأخريين تغلفهما هيبة. نجح الأمن في تسلم «سيد إمام» الأب الروحي لتنظيم الجهاد من اليمن، ولم يتمكن من الوصول لقائد التنظيم الفعلي. قُدِّمت معلوماتٌ موثقة وواضحة للمخابرات الأمريكية، لكن الظواهري نجح في اللحظات الأخيرة في مغادرة مستشفى صنعاء، متنقلًا بين بلدان أوروبية ثلاثة،

قبل أن يصل أفغانستان، التي صارت شبه طيِّعة تحت حكم طالبان.

بعد أيام من وصوله انضمَّ لاجتماع تاريخي، يتجهز لأن يكون فارقًا بين مرحلتين.

كان الغضب مسيطرًا على شيوخ الجهاد بعد سجن القيادي رمزي يوسف ومجموعته بالولايات المتحدة، ورأوا وجوب الضغط بكل صورة ممكنة.

***

أحمد

رغم يقيني، الذي أؤكد لنفسي أنه شبه تام وقاطع، إلا أن وساوس شكوك تزورني بين حين وآخر. هل هي قناعة بإخلاص نية، وتَبَصُّرِ حقائقَ دامغةٍ، أم يشوبها طلبُ جُنوحٍ لراحةٍ؟ وحتى أكون صادقًا مع نفسي المتناقضة، فقد اعتزلت فور عودتي من السودان لليلة وحدي، ووحدي أحاورني، لعلِّي أنال جلسة من العلاج والهدوء.

– الجهاد الذي قدمه هؤلاء هو قيحٌ نتن لأفكارٍ رافقها هوى، واخترقها زيغ.

– أيضًا، مبارك ونظامه ليسوا ملائكة!

– لم أقل إني سأنسى هموم بلادي.

- لكن أنت ستكون رجلًا ضمن نظام قبيح، نظام ما سَكَتَّ عن لعنه يومًا.

- أنت لا تفهم، أن تكون صحفيًا بجريدة قومية كبيرة، ولك سيرة ذاتية مهنية، فأنت غير محسوب على أي اتجاه، وحينما تحاول الهدم في هذا النظام وكشف عوراته، فستكون بمأمن عن التصنيف.

- أنت واهم، التصنيف في مصر كالماء والهواء، كلون البشرة، في مصر لونان: أبيض وأسود، يمين ويسار، لو قلت كلمة مدح عن بناء الحكومة جسرًا، حَسَبَك كل المعارضين ابنًا مدللًا لها، لو عبَّرت بحرف عن فوائد السد العالي، صنَّفك النظام ناصريًّا، لو كتبت تحقيقًا أو مقالًا، به آية قرآنية واحدة، حسبك الجميع إسلاميًّا. التصنيف في مصر صنعة أقوام انشغلوا بكل أحد، إلا ذواتهم.

- ليست الصورة بهذه الصورة، ليست لونين فقط.

- لونان، وفقط، أي صحفي، أي كاتب، أي مثقف، لا بد له من تصنيف، خانة خفية في بطاقته الشخصية، حتى داخل المعسكر الواحد، ستجد اليساريون يصنفون بعضهم البعض، والإسلاميون كذلك. كل فصيل لا يرضى إلا بك كلك، لو أعطيته بعضك اعتبرك في المعسكر الآخر، ثم لا يقبل بك المعسكر الآخر. نحن أمة مريضة بورم التصنيف، لأنه بالتصنيف يسهل رميك.

– حتى لو كان ذلك كذلك، فسأحرص أن أُصَنَّفَ ضمن معسكر النظام، وأقدم خدمات خفية لمن يعارضه، وغير مباشرة.

– ما زلتَ واهمًا.

– لست واهمًا، وجودك قرب النظام أو داخله، يجعلك ضرباتك أنفذ وأوجع.

– يعني أنت لا زلت تسير على نفس طريق، رسمها لك محمود يوسف، ألا تذكر أنه قال لك نفس هذا الكلام؟

– المسألة اليوم مختلفة، وكما اتفقنا، فالخير لا يشوهه فساد قائله.

– وكيف ستصلي؟

– أصلي ببيتي.

– كيف ستصلي بجبهة حسَّاسة يؤثر فيها السجود.

– سأشتري كريمات مرطبة، سأزور طبيب تجميل لو لزم الأمر، سأصلي على سجادة ناعمة، سأجاهد حتى لا يعود أثر سجود، وسأستغفر الله. ليس معنى أنني طلقت فكر تلك الجماعات، ألَّا أحرص على نفع ديني وبلدي.

– اللهم استخدمنا ولا تستبدلنا.

***

فكرتُ في عبد الرحمن، قلت إنه بحسبة بسيطة يمكنني إنقاذه وغيره لو أتيحت فرصة، وقتها سيقول قائل:

"انظروا، حتى أحمد الفخراني غير المتدين يقول كذا، ويرى كذا".

النقطة الأكثر أهمية في حساباتي، كانت الحصول على قدر من شهرة ومعارف وعلاقات، قد تنفع يوم يقترب خطر مني. عندها سيفكرون أكثر من مرة قبل أن يزجُّوا باسمي في قائمة الجهاديين لو اكتشفوا أمري يومًا ما. حينما أصير صحافيًّا ذا مكانة ومعارف؛ فقد يفكرون ألف مرة قبل المساس بي، ولو حاولوا فلن يكون أكثر من منع أو مضايقة، لن تبلغ أبدًا حد اعتقال.

قرار ركوب طائر الجرأة يحتاج تذكرة توكل، توكلت على الله.

***

ساعة ثمينة وعشرون ألف جنيه، لن يتأثر كيس الغربة كثيرًا، رشوة مستترة باسْم هدية؛ رشوة دون تزييف، ودون محاولاتي المستميتة لتسميتها إتاوة، وما زلت أستغفر لليوم وأنا أستعيد حديث لعن الراشي والمرتشي، مع أني عُدْتُ وعلَّلْتُها بالاضطرار، لأجل مزيد من الستر والحماية.

الواقع أنها صارت عُرْفًا في كثير من الوظائف بمصر، وصارت حرفة لكثير من الصحافيين النافذين والمغمورين، وكذلك أعضاء مجلسي الشعب والشورى.

يبيع الفقراء بالصعيد ما تبقى لهم من قراريط، ويدفعون مبالغ طائلة لنافذين، مقابل تأشيرة على طلب توظيف. يدفعون ألوفًا في وظيفة مجموع رواتبها في عشر سنين لا يساوي قيمة ما دفعوه. حتى بعد أن أصبح "الميري" شحاذة، ما زلنا نحلم بالتمرغ في ترابه!

عمومًا، كان لا بد من دفعها، من أجل مكانة لائقة في مصر، قد تقيني شر الأيام التي لا تفارق وسواس شطحاتي الفكرية. ثم إنه لم يَعُدْ لي روابط تبقيني بالكويت غير بضع صداقات سعدت بها، وصور ملأت درجي، و"حنان".

أيضًا، تبقى مشروع تحقيق مطول عن الجماعات الإسلامية، صرت ملتزمًا بتقديمه للجريدة.

لا بأس من شهور قليلة.

***

المنطقة الحدودية

اكتمل الاجتماع، وأُعلن عن تأسيس الجبهة العالمية لمحاربة اليهود والنصارى، قاد الجمعَ ثلاثةُ بارزون، الشيخ السعودي الثري أسامة بن لادن، والمصريان: قائد تنظيم الجهاد أيمن الظواهري، والقيادي بالجماعة الإسلامية رفاعي طه، الأخير صاحب موقف منزعج ومعارض لمبادرة وقف العنف التى

أطلقتها جماعته قبل عام.

حدد المجتمعون أهدافهم: محاربة اليهود الأمريكان حتى تحرير بيت المقدس، وخروج قوات التحالف من المملكة العربية السعودية، وإقامة شرع الله، ورفع فريضة الجهاد في سبيله. استقروا في أفغانستان.

وما استقرت بهم.

***

أحمد

حنان، تلك هي المشكلة.. منذ عودتي من السودان وأنا أحاول أن أمشي على كلام الشيخ عثمان.. نصبتُ لها أكثر من فخ اختبار. بدأت بالمباشرة، فطلبت منها التوقف مطلقًا عن الخمر، وأنها إن عادت فلن تعود علاقتنا لعهدها، ولا لأي تطور يمكن أن تحلم به. أوضحت ذلك بكلام حازم لا لبس فيه.

والحقيقة كما كان يقول عبد الرحمن: «شيمة النِّسوة النَّسوة، النساء والنسيان شقيقان بمعجم الوعود».

***

أفْهَمْتُها أيضًا أن عليها أن تبدأ في الاستعداد النفسي للتخلي عن وظيفتها، فنحن لم نعد بحاجة لمرتبها الضخم نسبيًا، فلديها ولديَّ مدخرات تجعلنا بمأمن من غوائل الزمن، ثم إن مرتبي

كبير وقد لا نضطر لسحب أي من مدخراتنا، حتى الشقة التي تحلم بها يمكن أن ندفعها على أقساط يغطيها راتبي ويفيض. ترك العمل كمضيفة أمر صعب، من اعتاد الطيران، موته قص جناحيه. بعد طول مجادلات وعدتني بالتفكير في الأمر.

تمنيت هجرها؛ لذلك لم أكن سعيدًا بحقيقة أنها لم تشرب مرة أخرى، فيما وصلتُ إليه من أنباء ومراقبة وتقصٍّ.

الذي حدث أني لم أنجح في إقناع نفسي قناعة كاملة لأقبلها زوجة طبيعية وأمًّا لأولادي، يمكن القول إني لا أريد أن أظلمها؛ لأنني بطبيعتي لن أكفّ عن التفكير بين الحين والآخر في ماضيها الذي أعرفُ بعضَه وأتجاهل عن بعَض. ثم، ما أدراني بما تفعله خلال غيابها كمضيفة لليلة وأحيانًا لثلاث ليالٍ؟ لا بد إذن أن أضع حدًّا لعلاقة جسدٍ ورِباطِ شَكٍّ، لا أرتاح لعلاقة النصف، نصف زواج ونصف عشق ونصف حلال.

كفاني أمواجًا في حياتي، سأرسو على شاطئ هادئ، سأهجر حب الجسد القلق، والمتعة المشكوك في شرعيتها، وأنساها، وأنسى جيهان.. وكذاب أنا لو قلت: أنسى الأخيرة، فأنفسنا ليست ملكنا. صِدْقُ المختصر المفيد، ودون صداع تفكير، أني لا أرغب في الاستمرار معها.

في القاهرة، أبدأ من جديد.

***

وصلتُ السكنَ. حنان تنتظرني، وفيها، أنا لي رغبة، على

الرغم من نيتي التي لا ينقصها سوى مرورِ الوقتِ والعودة. قالت إنه تم استدعاؤها في العمل لمرض زميلةٍ أخرى، ولديها رحلةٌ لبانكوك، ولن تعودَ قبل يومين.

كنت في حاجة للدفء. بدا عليَّ سَرَحانٌ. نبهتني، فعرفت أن ليلتَها طويلةٌ. عقلي مشغولٌ، ومرهقًا كنتُ.

لا بأس، تكفيك القوة، وعقل شارد يؤجل انفجارَ ماءٍ تدفعُه شهوةٌ مُبيتة كجريمة، ارتمينا جريحي معركة مثيرة. أزَحْتُ برفق رأسها من على صدري.. دَلَفْتُ للحمام، تحت الماء الساخن قررت أن أكتب حكايتي مع جيهان. ليس بهدف التذكر، فقط لتساعدني الكتابة على قرار مؤجل بالانفصال عن مضيفة الطيران.

***

هطلتْ المياهُ الساخنةُ.. لو كما تنزاح حباتُ الإرهاقِ بالماء الدافئ على البدن، تنزاحُ الهمومُ، لَمَا غادرتُ الحمّامَ. أشتاق الحديثَ يا جيهان. مستثار لخيال اغتسالنا معًا.. أنت لي. وقلتِ لي: «أنا لك». كيف تزوجتِ غيري ومجرد جملة «أنا لك» عقد زواج؟! كيف من بين كل بنات مصر، طِبْتِ له؟

لو يُدْرِكُ الظالمُ كم يؤذي، لحفر قبرَه بيديْهِ وانتحرَ.. لو يعرف أنَّ الظلمَ ظُلماتٌ؛ لألقَى نفسه من علٍ في بحر الظلمات.. لو.. لو لم يقل الشاعر غير:

نَفَذَتْ مَقَادِيرُ الإلَهِ وحُكْمُهُ   فَأَرِحْ فُؤَادَكَ مِنْ «لَعَلَّ» ومِنْ «لَوِ»

لو لم يقل غير ذلك، لقلت أنا: لو أعلمُ الغيبَ لاخْتَرْتُ الواقع.

صليت العشاء. وفتحت ورقة بيضاء، حياتي ورقة بيضاء، لو لي فرصة في صفحة بيضاء حقيقية لكتبت فيها: المحبة والصفح وعلم لا يتجاوز فطرة مولود.

***

انتهيت من حمامي، وصلاتي، كانت حنان مستلقية على ظهرها، بين النعاس مطمئنة والترقب، رافعة كلتا رجليها فوق مخدتين. استغربت، سألتها. تعللت بأن ألمًا بركبتيها، وضحكت وهي تذكرني بأن راحة الجسد تبدأ من القدمين، ومن الأَوْلَى توسيدهما مخدةً بدلًا من الرأس.. رأسي مُثْقَلةٌ ككل ليلة شذية.

نمت، ولم أعقب بتفكير.

***

عادت من بانكوك أكثر جمالًا. شهية، قطرة حليب ترتقي الطريق من ثدي أم لطفل لا يكف عن الاشتهاء. عفيَّةً في خيالات محفوظة، وفي كل مرة جديدة. التقيتها كما يليق بقميص طويل مفتوح بمكر على ثلج مشتعل.

«سأخسر كثيرًا لو هجرتها».

نامت، وعدت أفكر فيما صرفت عنه النظر.. لا أنام على جنابة، ولم أصلِّ الوتر، انتهيت من الاغتسال سريعًا، مرة أخرى حنان على نفس طريقة النوم الغريبة. قدماها أعلى من رأسها.

مرة أخرى نمت مُخدرًا، ولم أنشغل.

في الصباح استضافت الجريدة طبيب أمراض نسائية مصريًّا معروفًا، لإجراء سلسلة من الحوارات تُنشرُ بمُلحقِ الجمعة، لم أكن بالطبع منوطًا بإجراء الحوار، تعرفتَ إليه وطلبت له فنجال قهوة، حتى وصل الزميل المكلف بالموضوع، وبدأ الحوار. خرجتُ وتركتهما، ثم عدت لجلب بعض الأوراق، وكان الحوار وصل إلى سؤال عن نصائح للإنجاب.. لا أدري لماذا أنصتُّ؟

المفاجأة التي كنت أريدها، ولا أتخيلها، قالها الطبيب: «إن النصيحة الرابعة هي الاستلقاء على الظهر، ورفع القدمين بعد الجماع مباشرة». قفز لذهني حديثها المتكرر عن عدم استمتاعها بالإنزال خارجها، وأنها من أجل ذلك ركبت قبل شهرين «لولبًا» لمنع الإنجاب، من يومها وجماعنا تام مكتمل.

أيتها الشيطانة، تتلاعبين بي، تريدين توريطي وربطي للأبد!

توجهت للطبيب بسؤال كان مفاجئًا له ولزميلي الذي يعلم بأني غير متزوج، سألته: هل يمكن أن يقع الحمل مع وجود «لولب»؟ ردَّ بالإيجاب، وأن ذلك له احتمال في بعض حالات.

***

في الليلة التالية لم أُظْهِرْ أيَّ درايةٍ بالموضوع، استغرقتُ في

دور السائج، نمتُ معها، قالت:

— حبيبي كم أتمنى ولدًا يشبهك.

ضحكت:

— أو لعلها بنت جميلة مثلك.

نمتُ قريرًا، ومقررًا فراقًا. فالعقد شريعة المتعاقدين.

***

بعد أسبوع، أسافر نهائيًّا، ولم تقرر حنان بعدُ موعدًا نهائيًّا كما اتفقنا قبل شهور، لتقديم استقالتها، كما لم أُذَكِّرها أو أُلحّ عليها ثانية. كانت على علم بوظيفتي التي حصلت عليها في الأهرام، قالت إنها سوف تصاحبني في هذه الرحلة لثلاثة أيام، بعدها تعود وتنتظر مني اتصالًا يفيد بنجاحي في التوصل عن طريق واسطة لتعمل مضيفة بشركة مصر للطيران بدلًا من الكويتية. واصطحبتْ معها الأوراق المطلوبة.

***

رافق إعلان تنظيم القاعدة عن جبهته التحالفية صدور الحلقات الأولى من تحقيقي المطول عن الجماعات الإسلامية، وبدأتُ سطوره منذ سقوط الدولة العثمانية وإعلان إلغاء الخلافة، وحالة الغضب العامة في العالم العربي، خاصة مصر وصحافتها وألسنة شعرائها، ثم قصة الجماعة الأولى أو البعث الأول على يد شيخ يُدْعَى "حامد الفقي"، وتأثره بمدرستين:

المدرسة النجدية ومحاربتها للبدع، والمصرية التي تزعمها الشيخ رشيد رضا ودعوته للنهوض، وتأثره بجمال الدين الأفغاني. ونوهت إلى أن الحلقات ستتوالى تباعًا عن الإخوان ثم التبليغ، والجهاد والجماعة الإسلامية، ثم التكفير. وهناك حلقات مخصصة للعالم العربي بعيدًا عن مصر، مع توضيح العلاقة المنطقية بين القاهرة وبقية العواصم.

***

الحلقة الرابعة من التحقيق احتوت صورة للجهادي المصري المعتزل في السودان، بعد استئذانه وموافقته.

***

لكل رحلة نهاية، وآنَ أوانُ العودة. سلَّمتُ حلقاتِ التحقيق الثماني. وحَوّلْتُ كل مدخراتي، بكيتُ في حفلة توديع أقامها الرفاق، أحببت بصدق أرض الكويت، كانت جسرًا آمنًا عبرته هروبًا من اللهيب وأنا فاقد الوعي، هنا استعدت بعض وعيي.

آيبون عائدون. نافضون غبار ما قبل السفر.

***

بيشاور

انتهى وجود تنظيم الجهاد بالسودان إلَّا قليلا من محبين، رحل وخلَّف وراءه عيونًا. وصل خبر الحديث الصحافي المصري

لبيشاور. نفس الأوصاف التي حفظها التنظيم مشفرة، أرقام مقابل حروف، تساوي «أحمد الفخراني، الروضة».

شكَّ التنظيم أن أخاهم القديم يراجع نفسه، وقد يَهُمُّ بشرٍّ. كارثةٌ لو سلَّم ما بحوزته للأمن، فادحة تتعدى ضياع ثلاثة ملايينْ دولار، وتسليم شيفرة بأسماء عشرات من قيادات خاملة مختفية، يعملون في سرية على تجميع أعضاء جدد. ولم يتم الإذن بعدُ ببدء تحرك تنظيمي ما.

كذلك أسماء لضباط داخل الجيش المصري، بعضهم كانوا طلابًا بالكليات العسكرية وقت إعداد الخبيئة، قبل الكشف عن التنظيم الأخير، وأسماء لصحافيين داخل الإذاعة والتليفزيون، بل عناصر في محيط الحرس الجمهوري.

ليست المشكلة في صور الأدبيات، وخطط التحرك، ورسومات المباني، ولا حتى ملخصات تصنيع متفجرات، وأحزمة ناسفة، وغير ذلك من أوراق تنظيمية، بقدر خوفه على الأسماء الموجودة، وطريقة الاتصال بها، والأخطر أدلَّةٌ تُفْضِي لخمسة مخازن سلاح وذخيرة في دلتا مصر.

فكر التنظيم أن سقوط الخبيئة بيد الأمن، يعني ضربة قاصمة، أكبر ضربة في تاريخ الجماعات الإسلامية كلها.

***

أحمد

مَا مِنْ غَرِيبٍ وَإِنْ أَبْدَى تَجَلُّدَهُ إِلَّا سَيَذْكُرُ بَعْدَ الغُرْبَةِ الوَطَنَا

«نَفَسِي يتقطع، نَفَسِي يضيع، أضيع. عُمقُ الماء أختبره، أتحسس الأرض، جُسْتُ فيها، دُسْتُ على القاع القريب، لم أَرْسُ، ثقُلت، أنغرز في الطين وينغرز داخلي، أضرب برجلي، أستغيث، إني أغرق».

لم أنعس مرةً في طائرة ولا وسيلة انتقال. أيقظتني حنان برفق، لكني بالفزع أقوم. كغصن شجرة على صفحة ماء، مسَّتْني، فأنقذتني من غرق إلى غرق. قمت إلى حمَّام الطائرة، غسلت وجهي، نضحته وكل رقبتي مرارًا بالماء.

الماء أيها الآيب دُونَكَ فَقِفْ، وخَلْفَكَ أيُّها الهارب نارٌ، وربما هي أمامك، فانتبه، ما بخَّرَتْ ماءَك نارٌ، ولا أطفأتْ جمرَك قطراتٌ كم دلقتها ساخنةً باضطراب وحيرة.. غارق ومحترق.. مغمور بالماء أنت وظمآن.

أنا الغريق فما رعبي من النار؟ وأنا المحترق فما جزعي من الماء؟!

«أنت بين الماء والنار.. أنت بين الماضي الذي أردته غامضًا، وبين القادم الذي هو باتأكيد غامض.

أنت بين نفسك ونفسك، سيرة من التضاد. فتذكَّرْ أنك أنت نفسك التي ما زلت تبحث عنها.. منذ أيامك الخضراء في الروضة».

***

لاح الأبيض المتوسط عفيًا، لأول مرة أُحسُّ أنه أكبر من همومي، وأني اليوم قد صرت شيئًا، وحيًا.

يا حيّ، أتوق إلى الروضة.. تلك التي ليس كمثلها حي. يا حي، أتوق إلى نفسي دون قناع، وإلى عقلي كما خلقته فتيًا، وإلى قلبي الذي انخلع ولَمّا يزل ينبض ويتذكر ويتأسّى. كُلِّي محبة، ومِلْئي انتقام. كيف إذن أكره وكيف؟.. كيف أنام دون كابوس الغرق؟

يا حيُّ، أتوق إلى الروضة التي ملؤها محبة، وهواؤها غرام، تلك التي طول عمري سوى شاطئها ما عشقت، وتلك التي طول عمري لغير قلبها ما اضطرب قلبي، والقلق اعتراه ودقه الأرق.

محبة وقلق.. غرام وانتقام، نار في البعد، ولهيب في المقام. يا ربّ، فكيف بعيدًا عنها أَقِرّ؟

وكيف داخلها أستقر؟

***

عُدت لمقعدي جوار حنان، ابتسمتُ ابتسامة ذئب غادر، هذه المرة تذكرة سفر للإسكندرية بلا إياب. خمس سنوات في

الكويت، غربة ميسورة الحال والرزق والصحب. لكنها ظلت غربة، أكبر منافعها ليس كيس دنانير، ولا أمان الأيام، بل ربح تفكر ومراجعة.

***

نادى الطيار بالوصول، أذّن بنهاية طريق ما كانت لي، وبداية أُخرى صارت لي، ولا أتخيل منتهاها.. بمطار النزهة. حنان تتأبط ذراعًا طالما طوقتها بعنف، لا تدري أنها اليوم تتأبط شر وداع. زوجتي، ونيتي فراق بائن.

تمسك بيدي الآن، تُذَكِّرُني بيوم غَنَّتْ لي في السيارة، ونحن نطوف بشوراع السالمية الهادئة، لعلها تعلم نيتي بما أخبئه من قرار طلاق.. هي من خالف العقد بيننا.. اتفقنا على عدم الإنجاب، وهمَّتْ بمخالفة الاتفاق.

طول الرحلة بالطائرة لم أتكلم.. لم يشغلني اهتمام طاقم الضيافة بنا. كانت تمارس هوايتها المفضلة.. تحكي لي أسرار بعضهن.. هي تريد تذكيري بآلة المتعة التي مثلتها لي على مدى شهور.. تجذبني للإثارة، علَّ جليد شكوكها في الفراق يذوب. مسكينة؟

أنا المسكين.

***

تقول: «الإسكندرية رائعة في وداع الصيف، تمهل وأجِّل سفرك إلى القاهرة يومين، دعنا نجرب الحب خارج حدود

التكييف. تخيل شرفة تغطس في البحر، وأنا وأنت والنرجيلة أعدها بكل دلع الموج».

***

بيشاور

أغلق الشيخ باب غرفته الملحقة بالمسجد، طَوَى ورقة أعاد قراءتها أكثر من ثلاث مرات. أوْدَعَها مظروفًا معه تحقيق منشور، فيه صورة الصحافي المصري مع رفيق جهاد سابق بالسودان.

كل الشواهد تُلمِّح إلى أن صاحب الأمانة هو نفسه الذي زار السودان، هو بشحمه بلحمه الأخ الذي فشلوا في الاتصال به قبل عامين بالروضة.

«يجب استعادتها بأية طريقة، ما كتبه الله يكون، لم تعد بأَيْدٍ أمينة».

***

أحمد

الإسكندرية غواية الشتاء، خزانة ذكريات الصيف. رذاذها عافية.. شمس وبحر، وشقة اشتريتها قبل شهور ستشهد أول إقامة وآخر لقاء، سأمتص ما أمكنني من رحيق، قبل اختلاف

الطريق.

أكثر اللقاءات سخونة. منتقم يطعن، ويائسة تعصرها لذة حياة مفارقة.

***

في صباحٍ مشمس من صباحات عروس البحر العفية، نويت تنفيذ قراري المستور، نهاية رحلة الهروب من الآلام، وبداية البحث في الآلام الأولى التي لم تهدأ ساعة من نهار.

حقائبي كما هي مقفلة غير واحدة صغيرة.. حياتي مثل هذه الصغيرة.. قَدَرُها التبعثر ولا موعد للملمة الجروح.

سبقتني حنان إلى الشرفة، الفحم يُضمر لهيبًا، ومتوهجة هي، في أجمل حالاتها، شعرها مبتلٌ، بلا قصد يشير إلى خطيئة ثلاث سنوات. كم غرقت في هذا الشعر، كم أثارني وبين خصيلاته المبعثرة فوق الفراش جحظت عيناي وغمغمنا.

في فمها تعزف النرجيلة، لا تهدأ حتى تعود بارتفاع، كعازف يجرب طبلته قبل حفل صاخب، مضطربة كالماء في قلة الشيشة، متوترة على الرغم من كل ما تُبْدِيه من هدوء واتكاء فوق دكة خيزران. التهمنا الحجر المُعَمّر.. التهمتها، انتبهتُ وانتبهتْ. خدَّرني الحشيش، مسَّنِي قَبَسٌ من جنون السكينة.

شَخَصَتْ إلى عيني الساهمتين فضحكتُ، وضحكتْ، التفتُّ للبحر، في حزم الضاحك همستُ وسمِعَتْ:

«هذا فراق بيني وبينك».

***

لم يفارق المبسم فمي.. زغردات النرجيلة استحالت أنينًا مكتومًا، متشاغلًا عمًّا ألقيته من كلام مؤلم، استبدلت بلمقط الفحم بعض الجمر المنتبر، بجمرات ملتهبة.

زعقت بقرف:

«كنت أتوقع.. كنت متأكدة.. لم تعاملني يومًا باحترام.. جارية منذ أول ليلة وكأنها ليلة الأمس.. وحتى هذا الصباح.. أنت نذل. ستندم».

انتفضت كلبؤة أغضبها ضبع. دفعتني في صدري. على وجهي بصقت.

قد أستحق.

***

«مؤخر صداق ما بيننا تركته على مائدة السفرة، هذا حقك.. أتمنى أن نلتقي كأصدقاء، ربما قد نلتقي».

تركت الباب مواربًا، وانتشلت مفتاح الشقة، نزلت أفتش عن أقرب مقهى على أمل أن أعود للشقة ولا أحد. وحيدًا جلست ألملم أوراقا بعثرتها ريح حياة.

وعادتُها كذلك.

***

بيشاور

بما تيسر من شيوخ، انتهى مجلس مصغر. قرروا الاكتفاء بمتابعة الصحافي، وتجنب الاتصال به أو إثارة ريبته، مع تبديل المراقبات حول بيته في الروضة، حيث يفترض، أو أغلب الظن أن الخبيئة بمكان ما هناك، ويكون القرار النهائي بمجرد وصوله القاهرة.

إمَّا استلامها والتعهُّد بالسكوت، ويا دار ما دخلك شر، وإمَّا يقضي الله أمرًا كان مكتوبًا.

***

أحمد

مسكينة، حتى في آخر مرة، لم أكن لها مخلصًا.. خائنًا بدرجة نذل كنت.. لم أبادلها شيئًا.. لم أَرَها.. فقط رأيتُ جيهان.. جيهان لم تَغِبْ عني.. جيهان ما عادت لي. سأقتلها حبًّا وأقتله بيدي لو امتلكت شجاعة كافية.

الحقيقة الأكيدة أني جبان، سأكون جبانًا حتى وأنا أتجسَّس أخبارها.. وأحبها.

لا حل سوى طلب القدرة على الصفح.

الصفح؟ وهل بوسع الجبناء العجزة شيء غيره؟

***

مسكينة حنان. حتى في تلك المرة الفارقة لم أكن معها، كنت أتكلم وأنا أطير بقلبي للروضة.. إلى حياتي الحقيقية، في كل روضة تتفتح كل حياة، في روضاتنا يشعلنا اشتياق اللذة، وتوجعنا لذة الاشتياق. ابتداءات التجارب واندهاشات النتائج، روضتي.. روضة جيهان وعبد الرحمن، أو هي في الواقع روضة ضابط أمن دولة قطفها لحظة تفتحها، ونحن ناظرون عاجزون صامتون.. لهم كل شيء، ولنا أن نتجرع الألم دون انفجار بـ«آه».

***

في كل مرة أنا نذل.. لَمَّا فارقت جيهان اعتبرتني نذلًا ولم تفهمني.. وحنان قالت: أنت نذل، حنان فهمتني جيدًا.

يمضي القطار للقاهرة.. مشتاق أنا. كلما اقتربت، اقتربت المخاوف وتمثلت هواجس مقلقة كاضطراب القطار على القضبان.. هل يمكن أن ينكشف سري أو أسراري؟ أعوام وأنا أخادع الجميع.. أؤدي عند كل شلة من الأصدقاء شخصية مختلفة.. جزءًا من شخصيتي.

مقربون رأوا ذلك تميزًا ومهارة، وجربته عذابًا.. طالما أردت أن أكون الرجل الذي أردت أن أكونه، وبشخصيتي الحقيقية.. كنت شمسًا صافية، فصرت مع تقلبات الطقس مسخًا بتقلبات

أحداث وليال، ومحطات يوصل بعضها ببعض.

بي نَدًى من مَسِّ أملٍ في شفاء، وَضَحَ بعد رحلة السودان. لكني ما زلت خائفًا.

على الأقل لا مكان لنذالة ثانية.

***

وقدرك القناع. لكل مرحلة قناع، ولكل قناع ألم. بعد كل تجربة قناع، قناع هروب أو قناع درس تعلمته، قناع تجربة فاشلة، وأخرى لم تنتهِ كما أردت. الأقنعة هي الأصل، ونحن معشر المزيفين، لا تدري هل ستظل رفيق كل قناع، أم يومًا ما تخلع الأقنعة بملء إرادتك؟ أم ربما تنكشف أقنعتك بفعلٍ ما لن تستطيع معه صبرًا؟

هل تصمد أقنعتك أمام قناعاتك، أم قد ذابت قناعات وبقيت أقنعة؟.

أيها المُقنَّع، بات اقتناعِك أن قناعك سوف يُدَسُّ معك في كفن.

***

حياتي بدأت قبل عشر سنوات.. بدأت مع جيهان، ومعها قد تستحيل النهاية، ولَكَمْ أتمنَّى أن تنتهي معها.

ليست مجرد حب عمري، هي تحدي عمرٍ، يُشعرني بمدى عجزي وهواني وقلة حيلتي..

جيهان هي الفتاة التي تعلقت بها، بلادي التي سُرِقَتْ مني لَمَّا اضطررت للغربة، حلم عشت به ثم تغيَّرت فيه رؤيتي.

***

ركبت قطار الليل، الليل والقطار بوابتا شجن. الليل ذو السدف داكن، الراكبون مُصِرُّون على النوم، والمكان موحش ساكن، لا حركة غير طقطقة قلب غير منتظمة.

شبابك كبدايات نهار لم يبدأ، وبدأت تعاني من عدم انتظام ضرباتك.. كنت تتخيل أن ضربة منك لا تخطئ ولا تُبقي صمودًا لخصم، فما لقلبك إن قلت استقر، يتأرجح وسط ليل طويل؟!

***

إلى حيث وجهتي قبل سنين، سألني محمود يوسف:

«هل تبيع نفسك لله؟ هل طريق الجهاد طريقك؟».

وماذا يملك المتحمسون من إجابات أمام أسئلة مغلقة؟ الأسئلة المغلقة جبر، وبغير الحرية صار الصخر أَلْيَنَ من عقولكم، لا شك عندي في حبي لله ورسوله ودينه. لكن أية طريق تلك التي يمكن أن نشير إليها، ونقول في حزم وبحسم إنها طريق الله وسبيل الجهاد في سبيله؟.. وعن أي جهاد يتحدث؟

تِهْنا بكم أيامًا من الفخر، فتهنا في دروب الوهم.

***

يمضي القطار للقاهرة، يسرع أو هو يتأنَّى، لا فرق فهو يجري فوق قضيبين من قلق وخوف. فوق سكة الذكريات يمضي القطار، يقترب بي أكثر لمنيل الروضة.

أي روضة؟

روضتي هي الحقيقة الغائبة، منذ مئات السنين، كانت وقفًا كاملًا بمزارعها على المدرسة التقوية، متنزهًا يحيط بقلعة الفسطاط. انتشر المماليك وزاد عددهم، ضاقت بهم الفسطاط، شكا أهلها إلى الملك الصالح، فأسكن مماليكَه روضتي، فصار اسمها «المماليك البحرية».

جزيرة مكتملة الصفات، مقابلة لعاصمة الملك وغير منفصلة عنها، مركزٌ دفاعيٌّ متميز، ساعد موقعُها المماليكَ في نقض أواصر الدولة الأيوبية.

كيف لم أدافع عنها كما ينبغي للرجال؟

هدم الملك الصالح ثلاثة وثلاثين مسجدًا بالروضة، واقتلع مئات أشجار الجميز، وقطع ألف نخلة مثمرة.. ليبني قلعته، فتحول البستان الأخضر لأحجار وجص ونورة وجدران شاهقة، وزخارف محيرة للناظرين وسقوف مدهشة للطامحين.. لكنها صارت سجنًا كبيرًا، ولا زالت.

كانت روضتي في سالف الزمن متنزهًا للجميع، لأهل بلدي.. منظرًا خلابًا يطمع فيه العدو، وتطمح إليه نفس الظالم. أحالها الملك «الصالح بن الكامل» من جنة للجميع، إلى سرير سلطنة،

وبنَى قلعة مسوَّرة بجدار ساطع اللون، مظلم السُّمْك.

قبل مئات السنين، هي خمس سنوات بحسابنا، لكن بحسابات الغربة أضعاف، في يوم كطقس ذات اليوم، لم يَجْرِ خيالٌ ببالي أنها آذنت بالخريف، كيف في صباح ذلك اليوم البعيد لم يعبأ النهر الصغير بعاشقيْن أشْهَدَاهُ على عقد من المحبة الجارية؟!

في ذلك الصباح، لم أظن يومًا أن كلمة «غدر» هي من قاموس أيامي، أن نهرًا شق مجراه وسط الصخور منذ آلاف السنين، وقسَّمَ الأراضي ووزع البشر على ضفتيه، سوف يمارس هواية شق الطرق والمسارات، شقوقًا أبدًا لم تخطر على قلب بشر طيب يفتح ذراعيه للدنيا.

***

القلوب الصغيرة قلوب طيبة تَسْتَهِلُّ رحلتها بمحاولات التمسك بالحقيقة، والقفز نحو السماء، في رحلة مُفْتَتَحُها قُبلة خطوة واثقة، لأرض لا تعبأ بعابريها، فكلهم في النهاية عابرون، وتظل الأرض وحدها الباقية.

رحلتي يصل قطارها إلى وهم التمسك بالوهم، هل مرة أخرى ستفاجئنا الحقائق بألوانها الزاعقة، وتدق قلوبنا والرءوس؟

***

لا بلد إلا مصر.

***

ما أغرب الدنيا! ما أوسعها حين نظنها ضاقت، وما أضيقها حينما نظن أنه من الاستحالة التقاء وجوه تنكر بعضها، وهي لا تعرف بعضها وقد لا تعرف نفسها.

من لوازم إتمام الوظيفة في أي مؤسسة حكومية، موافقة سرية من جهاز أمن الدولة، فما بالك بصرح كبير كالأهرام، هو لسان مبارك على طول الخط؟ بالعقل لم يكن هناك أدنى شك في أن صفحتي لدى الأمن بيضاء، والدليل القريب هو موافقة أمن رئاسة الجمهورية على اسمي المدرج ضمن وفد الحوار الصحفي الذي تم مع مبارك قبل فترة.

وما أغْبَى الوساوس، فخبر اعتقال عبد الرحمن في ذلك التاريخ، بات يقلقني، مع أنه لو تكلم وذكر اسمي لَمَا تركوني منذ دخولي أرض المطار، ولا هم رحموني.

كنت متأكدًا من موافقة الأمن، لكن تأخرها القصير نسبيًّا أقلقني.

قال خالي إنه يعرف ضابطًا (محترمًا) في أمن الدولة، وإنه خلوق وخدوم، نسيب أحد أصدقائه، ولم يخبرني ما اسم صديقه، فضلًا عن اسم الضابط، ولا أنا اهتممت ولا لفت نظري شيء.

تطوع الخال، وتحدد موعد للقاء بفرع أمن الدولة في القاهرة، في العاشرة من صباح اليوم التالي.

***

كعادة النوم، علاقتنا اللوم، لم يذق جفني الغمض، هممت

بالاعتذار لخالي، خفت من تنبه الضابط لخوفي. فكرت في الهروب بأي صورة من اللقاء، حتى لو عدت على الفور للكويت، وما زال بجواز سفري خاتم الإقامة. غسلت وجهي أكثر من عشر مرات في ساعتين باللوف والصابون، كل مرة أضع كريمًا للتبييض، علامة الصلاة خفت لكن ما يزال لها أثر.

توجهت لله بركعتي قضاء حاجة، لهثت بدعاء طويل مكرر، أن يُغْمِي عني أبصارهم. في السجود ارتكزت على كفي وأنفي وبالكاد مسَّتْ جبهتي الأرض، ممنيًا نفسي بأن الله رحيم، وأن الضرورات تبيح المحظورات، وعلى العموم فركن السجود سليم؛ لأن الشرط هو ملامسة جزء من الجبهة والأنف للأرض.

هكذا علّلْتُ حاجتي.

***

بوابة معدنية مضادة للرصاص، بدا من سماكتها. إليها يُفْضِي باب ضيق، بالكاد يمر منه شخص، سلموني بطاقة زائر أعلقها على صدري، وانتظرت في صالة خافتة الإضاءة، مقاعد مكسوة بجلد بني، ساعة ضخمة ليس بها عقرب للثواني. أمامي جلست فتاة محجبة ورجل في الخمسينيات، خمّنتُ من تشابه عينيهما ولون البشرة أنه أبوها، ربما لها استدعاء، أو قد تكون عينًا من عيونهم. لو هي عين، فلماذا أبوها معها؟ ولو هي مستدعاة، فكيف سمحوا بحضور أبيها؟

عقرب الساعة لا يكاد ينتقل، شككت أنها متوقفة، بينما

عقرب الدقائق مال ثلاثة أرباع دورة، وجاء مخبر في قميص أزرق وطلب مني بأدب أن أتبعه:

«تفضل يا أستاذ».

طلع بجواري دورًا ثم أشار: «ثالث مكتب على الشمال».

أريكة وثلاثة كراسي بينها تليفزيون، سقف مرتفع ومكتب يتوسط الغرفة الكبيرة، خلفه مباشرة فاصل خشبي أرابيسك تسد فراغاته ستارة سوداء، خلفها – قدَّرْتُ- استراحة الباشا، أو مُلحق للتحقيق.

***

«أهلًا وسهلًا يا أستاذ أحمد، حمدًا لله على سلامتك يا رجل، الغربة كربة».

تحدثنا عن الكويت، وعن الصحافة المصرية، معتز بك زهران، ليس كما يشاع عن ضباط أمن الدولة أنهم قساة ومرعبون. على الأقل فيما بدا لي.

«موضوعك اعتبره منتهيًا، مسألة بسيطة وأنت فُلّة، سجلك أبيض مشرف، صحفي محترم ولك اسم بالخارج.. أنا قلت: نتعرف، لا أكثر، والمسألة كما قلت بسيطة».

ناولني ورقة بها رقم مكتبه، وهاتفه المحمول.

«لا تتردد أبدًا لو عرضت لك مشكلة في الاتصال فورًا في أي وقت».

***

مضيت وأذان الظهر، ممر طويل أمام مكاتب بأبواب قديمة مهيبة، بنهايته وقف أمين شرطة عجوز بزي رسمي يؤذن للصلاة، وآخرون يفرشون بضع حصر بلاستيكية.. سبحان الله، هنا يصلون ويؤذنون!

كلٌّ يبكي على ليلى، وليلى لا تعرف أي أبنائها المخلص. كلٌّ يدعي التدين، والله يفصل بيننا يوم القيامة فوق صراط كالنصل فوق زفير رهيب. كلنا ينظر للسماء ويستجديها.

وحدها السماء، عيونها تدرك من يستأهل النظر.

***

صدرت الموافقة بأسرع مما تخيلت، اتصلت لأشكره، وطلبت لقاءه وفي نيتي تقديم هدية، مازحته بأن لاظوغلي مكان جامد يموج برهبة العمل ورائحته:

«ماذا لو التقينا يا باشا، حقًّا أريد أن أعبر عن امتناني».

***

عبد الرحمن

مشغولًا بدفع الذكريات، يمضي بين شرب وقراءة، لا تفارقه الوجوه:

«وجهان لن تنساهما: وجه محبوبك، ووجه جلادك، صوت محبوبك، وصوت جلادك».

أدْرَكَ أن هروبه من ظنون الأمن إلى حياة الليل والغُرَز، قد يُفضي به إلى تهلكة لا تقل عن جنون. يذبحه الإدمان، ولا يجد رغبة حقيقية في الخروج. نصحه أحدهم أن يزور طبيبًا نفسيًّا، استغرب الفكرة. بعد أيام فكر جديًّا في الأخذ بالنصيحة، علَّهُ يخرج من دائرة التيه. قال:

«لعلني أعود، لكن لماذا أعود؟ أنا بهذه الحالة في مأمن، ثم إني لا شيء، والأكثر وجعًا أنني لا أستطيع الحكي لطبيب أو صديق، يوجعني أن أروي، استعادة الحكاية أَمَرُّ من تجربتها، ولا أريد أن أتألم، صرت حرًّا، وفي أي لحظة قد أعود معتقلًا.

مواطن من درجة ثالثة، مغتصب جواز السفر، أظلمت الأرض، وضاقت الأنفس، لعمرك لقد ضاقت البلاد، وضاقت أخلاق العباد».

مال إلى مسطول يجاوره على دكة خشب:

– انظر يا عم الحاج كيف ضاقت مصر بالبانجو، كنا نهيم بالحشيش، فصرنا في زمن البانجو.

– بانجو.. بانجو لا بأس، عمومًا هو متوفر وأرخص وبسيط، وسخ في بدايته، والنعيم يأتي متأخرًا.

هل، متأخرًا سوف ينعم؟ تساءل وهو يعقد مقارنة سريعة، بينه وبين رفقائه:

"إنهم لَهُمُ المساطيل، وأنا، أنا دماغ، في المرات الثلاثة الأولى لتدخيني البانجو وصلت للقمة في دقائق، واستمرت لساعات، أحيانًا تصل لنصف يوم، لكني ارتعدت أول مرة وهبوط الضغط يجعلني أترنح، وعيناي احمرتَا وشعرت أني ميت أو أكاد، يا ياللمصيبة! أموت متعاطيًا وأُبعث يوم القيامي متعاطيًا! شربت أكوابًا من الماء المحلًى بالسكر وداهمني نوم. لم أصدق نفسي أني نمت عشرين ساعة متواصلة، وأعجبتني التأثيرات".

لم ينتبه أنه استمر في ثرثرته لنفسه بصوته الواضح، أجاب جاره:

"يا جامد، أنت باشا يا عم الحاج، أنا بقى لي ثلاثة أيام نائم، استيقظت خلالها ثلاث مرات، شربت وبلعت وعدت للنوم، المشكلة أنه أثناء النوم قضيت بعض المشاوير، وطلًقت مرتين".

***

أحمد

في مقهى أثير يطل على النيل بشارع عبد العزيز آل سعود التقيت الباشا، سلم عليَّ بحرارة كأننا أصدقاء.

فرح جدًّا لَمَّا رأى الشيشة بجواري، طلب شيشة، مدخنوها يحنون للصحبة. منذ أول لقاء بدَا دون سبب أنه يبحث عن صديق، صحفي طريقه مرموقة، وسجله الأمني ناصح، وليست

لديه مشاكل مادية. قد يكون السبب أنني منذ انتهاء لقائنا الأول بيَّنْتُ بوضوح أني زاهد فيما بيديه، من له نفوذ تسعده طلبات الناس الشخصية؛ لأنها تثري إحساسه بالقوة، وهي تضايقه في نفس الوقت لو زادت عن حدها، ولأنها تثبت له بألَّا صديق حقيقيًّا لديه.

دنيا مصالح. وهو سيد كل المصالح.

***

على الرغم من منطلق بداياتنا المختلفة تمامًا، إلا أننا وبسرعة صرنا صديقين مع توالي اللقاءات.

كلانا ينقصه صديق، السنوات القليلة أفقدتني الاهتمام بكثير من أصدقائي الذين كنت أعرفهم. والحقيقية أن أغلب وقتي قبل سفري وقبل اعتقال محمود، كنت أقضيه بين عبد الرحمن وجيهان.

اليوم لم يعد لي أحد. حتى عبد الرحمن لم أرغب في لقائه رغم الاشتياق لكلامنا واهتماماتنا المشتركة. حمدت الله لَمَّا علمت أنه خرج من المعتقل، لكن لم أَسْعَ للقائه، ولِمَ أسعى للقلق؟

***

عبد الرحمن

الدنيا سُلَّمٌ نلتقي على درجاته عابرين، بعضنا يرتقي،

وأغلبنا ينحدر. بعض من قرر المخدرات واختارته طريقها، لا يهتم بالسلم، لا تستهويه درجات منطقية، وبسطات للاستراحة. هؤلاء يركبون المصعد، ثم يهبطون دلقًا من فوهة بئر السلم.

من الحشيش للبانجو في زمن ندرة المشروب الشعبي، وحتى الكيمياء، قرر ألَّا يخلو جيبه من «أبو صليبة»، أقراص الريفوتريل، صرفها بروشتة مضروبة، واستعاذ بالله من دق الصليب عليه:

«أستغفر الله، رسموا عليه صليبًا ليسهل تقطيع القرص الواحد أربعة أجزاء، فما قطعته ولا أَهَنْتُ الصليب ولا نظرت إليه، بل بلعت القرص، حتى وصلت بالتجربة السيئة لقرصين في الجرعة الواحدة».

مرة واحدة زرد ثلاثة أقراص، فما احتمل جسده القوي، وانهار لولا إسعاف سريع بمحاليل ملح في مستشفى عام.

لو لم يجده، وجدته الكآبة، ووجدها. مدمنًا صار، ويعترف، ويذبحه الاعتراف. من المدمنين من لا تقلقهم الحال الجديدة، فمن القلق يهربون:

«هل انتهوا من أمري، أم ما زال لهم بي حاجة؟ هل نسوني كما نسيت نفسي، أم ربما ذات فجر أراهم داخل بيتي دون استئذان؟ لو يعطونني جواز سفري أغادر».

عمومًا، يهدأ نفسه:

«معروفة ديتها، صفع ولكم وشتيمة، لم أعد ذا فائدة لهم –

يعرفون- حتى لو كهربوني».

بلع حبتين وهو يُمَنِّي نفسه أنه لا كهرباء ثانية:

«لكن لا بد ألَّا أُضيّع كل شيء، سأظل في بحثي برسالة الماجستير. وقتًا ما سأنجزه في وقت قصير».

***

أحمد

بعد اللقاء الرابع، أو ربما الخامس مع معتز، اتفقنا على أن يكون نفس المقهى لقاء دوريًّا، إما بعد انتهاء يومه عند منتصف الليل تقريبًا، أو في أوقات الراحة بين الخامسة والتاسعة. أحيانًا كنا نلتقي مرتين في يوم واحد. نلتقي منفردين أو ينضم إلينا في الليل بعض أصدقائه.

صاروا أصدقائي أيضًا.

***

لو يعلم أني هارب منه، أني أتخفَّى تحت قناع أو قناعات منذ سنوات! قَدَرٌ غريب، لو أراد لكنت في يوم من الأيام معصوب العينين أمامه بمكتبه، كيف يصبح أكثر من تخاف منه قريبًا منك وصديقًا؟!

أحببت معتز، وأخلصت له في الصداقة. نعم أحببته، ولِمَ لا؟

فلَمْ تَبْدُ عليه قساوة، وفي حدود علمي أن عمله غير مرتبط بملف الإرهاب والتطرف، قلت:

«ربما لم يعذب أحدهم ذات ليلة».

زرته مرات بمكتبه، بنفسه بسط لي سجادة الصلاة، عرف عني أني من مرتادي مقامات أولياء الله الصالحين، تكلمنا كثيرًا عن الجماعات الإسلامية، ومستفهمًا اندهش من إلمامي ببعض تفصيلاتهم، قلت له إن عملي كصحفي يتطلب أن أكون مطلعًا على الملفات التي تمثل محورًا مهمًا - شئنا أم أبينا- في تاريخ مصر ومستقبلها، وربما تاريخ العالم ومستقبله. كما عرَّفْتُه بأني ترأست إدارة الإسلام السياسي بالجريدة الكويتية.

ربما هو كان يعرف ذلك من ملفي.

وكل مواطن مصري ملفٌ بالأقبية، مؤرشف.

***

زاد ارتياحي له بمرور الوقت، ومع عدم محاولته أن يستخدمني مرة في عمله.

هذه نقطة كنت أتوجس منها كثيرًا، فمعلوماتي أن ضباط أمن الدولة يعقدون صفقات صداقة مع الصحفيين، لكسب الأخبار والإتيان بخفايا المكاتب الحكومية.

***

صداقة على حذر - في البداية- من جانبي، واهتمام كبير من

جانبه، سبحان مقلب القلوب، كنت زاهدًا أو هكذا حاولت أن أبيِّن له في سلطته ونفوذه.

أنا أيضًا صار لي نفوذ.

قوتك في مصر تُقاس بقصر المسافة بينك وبين مبارك، ضابط أمن الدولة له رئيس ومن فوق الرئيس رئيسان أو ثلاثة أو أكثر، وفوق هؤلاء رئيس الجهاز، وهذا بدروه على اتصال مباشر بمبارك. أنا على علاقة برئيس تحرير الأهرام وعدد لا بأس به من الوزراء، وهؤلاء على علاقة مباشرة بمبارك، هكذا تُقاس درجة النفوذ في مصر.

كلما اقتربْتَ زاد نفوذك، بَيْدَ أن في اقترابك احتراقك عند أول منعطف خطأ.

***

صارت اللقاءات يومية، لقاءات لا علاقة لها بالسياسة ولا الصحافة ولا أمن الدولة، علاقة صداقة، نتكلم عن النساء، وأكذب وأنا أضخِّم له حكايا عن تجاربي في النساء، وخبراتي التي أغلبها لا تتعدَّى كتبًا وبضعة أفلام، وتجربة قاسية عنيفة مع حنان تعلمت فيها الكثير.

حدثني كثيرًا عن زوجته، يحبها كثيرًا، ويُحزنه كثيرًا حزنها الذي لا يفهم سببه.

صديقين صرنا.

***

قليلًا، بل نادرًا كان كلامنا في السياسة أو الدين، النساء هي الحاضرة على الدوام مجالس الرجال، لكن البلد هذه الأيام مشغولة بهمس خفي عن قارئ معروف يَؤُمُّ المصلين في التراويح، اتضح أنَّ له أكثر من زوجة بعقد عُرفي، فُتح الموضوع، وتساءلت:

— لا يوجد في الشرع ما يمنعه من الزواج الكامل بأكثر من امرأة، فلماذا يلجأ للعرفي.

— شكله يخاف من زوجته.

— من يحمل قرآنًا وعلمًا يمشي على زجاج في شوارع من حجارة، فالناس تتخيل أن حاجات جسدها ليست من خصائص أجساد الشيوخ.

— هل تعلم يا أبو حميد، لقد سقطوا من نظري، زمان كنت أتهيَّب رؤية رجال الدين، يجبرني سَمْتُهُم على الاحترام. أيام المراهقة، حدث مرة أني اقتربت من فتاة كنت أحبها وأريدها زوجة.. الحقيقة أني لم أفعل شيئًا، لكن مجرد لمسها، أثار البركان، وشعرت بذنب، وهربت إلى غرفتي، وظللت أبكي.

— "ضاحكًا" ظللت تبكي، أنت أخ إذن ولا أعلم.

— لا تعجب، أنا من أسرة متدينة كأغلب الأسر المتوسطة، أخي الأكبر مدرس لغة عربية متدين، ولولا أبي لأطلق أخي لحيته. وأمي منذ وعيت ونَعْتُها الحاجة.. المهم ندمت، وشعرت أن الدنيا حجرة ضيقة، وأن ذنبي سوف يخنقني،

اغتسلت ونزلت لأقرب مسجد، وارتحت وأنا أعترف أمام الشيخ.

– على فكرة الاعتراف ولو أنه تقليد كنسي، إلا أنه فعلًا مُريح.

– هدأ الشيخ من روعي، وحدثني عن التوبة وطرائقها. واستأذنته في أن يلتقي الفتاة وأن يكلمها بمثل حديثه معي، وينصحنا معًا. لكن تخيل بعدها ماذا حدث؟

– ماذا؟

– بعد أيام، قالت لي الفتاة إن الشيخ يعاكسها، بل يلاحقها.. ولم أصدق ونهرتها، فقررت أن تكشفه أمامي، ووافقت على دعوته المُلِحَّة لمقابلتها، ورتبت حضوري من بعيد.. واقتحمت الكازينو، وشتمت أمه وأباه وضربته، وسقط من نظري.

– لكن هذا لا يمكن تعميمه، هذا شيخ لا مؤاخذة، لكن ليس كلهم يا معتز.

– طيب سأقول لك سرًّا من أسرار العمل، هل تعرف الشيخ المشهور الذي يزدحم مسجده بالدقي، ويبكي الشباب ويتباركون بالقرب منه، ويحدثنا عن الجنة والنار، والعذاب والحور العين. لن تصدق!

– ماذا؟ أعرفه. لا تقل لي إنه أيضًا من أصحاب العقود العرفية.

– لا، لا.. المصيبة أكبر. بل لن تصدق لو أقسمت لك. إنني لا أنسى دهشته وأضواء كاميراتنا تصوره في سيارة مع الممثلة المشهورة التائبة، وهي بالمناسبة متزوجة، بل الفاجعة التي لم تمنيت ألَّا أصدقها وأنا أكتشفها، هي صوره لدينا في أوضاع ساخنة مع...

– مع من؟

– لا إله إلا الله، والله يا بوحميد لا أجرؤ احترامًا لدين الله.

– أنت جعلتني أهيم بخيالات قبيحة، لا إله إلا الله!

– وغيره كثيرون.. لقد سقطوا يا صديقي من نظري.. وبمواجهتهم يصغرون أكثر، ثم يتحدثون عن الفتنة وغواية الشيطان وطرقه، ويكاد الواحد منهم يبوس الأيدي حتى لا نفضحه.. وللعلم فإن كتم هذه الأسرار هو قرار أمني محض.

– كيف؟ لماذا لا تفضحونهم؟

– حتى لا نُحْدِث بلبلة ولا نؤثر في مبدأ توازن القوى داخل المجتمع.

– ما علاقة توازن البلد بشيخ "لا مؤاخذة"؟

– مصر يا صديقي، يجب أن تسير موزونة، تقدر تقول "عاملة دماغ"، لدينا تسجيلات لعشرات من القساوسة، ولدينا تسجيلات لعشرات الشيوخ.. أفلام القساوسة نُلَوِّح بها فقط حينما تتعرض الدولة لابتزاز من الكنيسة.

في ليلة زار رئيس الجهاز مقر البابوية، كان ذلك قبل ثلاثة أيام من زيارة مهمة لرئيس الجمهورية إلى الولايات المتحدة، وكانت التقارير تؤكد اعتزام مجموعة منظمة من أقباط المهجر، مهاجمة السيد الرئيس والتظاهر ضده، بل العمل بضغط لدى أعضاء في الكونجرس لإحراج مبارك. مشكلة كبيرة، وحلها بسيط مُعتَّق بالأرشيف وجاهز.. كل شيء يا صديقي في بلادنا مؤرشف.

الحل كان ببساطة، أنْ قدَّمَ السيد رئيس الجهاز شخصيًّا هدية.. حقيبة مليئة بأشرطة الفيديو.. قدَّمها بنفسه للبابا شخصيًّا.

وتمت الزيارة وكانت نتائجها عال العال.

– والشيوخ، ما فائدتهم للتوازن؟

– أفلام سادتنا الشيوخ رهيبة، نحن أيضًا في دولة مسلمة تحترم رجال الدين، لكن لو فكر أحدهم في أن يخرج عن الطريق المرسومة، نقوم باستدعائه وتذكيره بما لدينا.. بعض الشيوخ سجلنا لعيالهم، بل منهم من سجلنا له في غرفة نومه الشرعية.. هناك بعض الشيوخ المتعِبين، ربما يكونون أكثر حذرًا، أو هم محترمون.. وهؤلاء نتبع معهم أساليب أخرى لا أريد أن أعكر بها صفو جلستنا.. هيا نلعب عشرة طاولة.

طلبنا من النادل طاولة، وأن يغير حجرين، ابتسمت ومعتز

يُخرج قطعة لا بأس بها من حشيش غامق طري.

مصر ليست أكثر من عشرة طاولة، وقرش حشيش، وحفنة هموم.

وثرثرة.

***

قلت لمعتز:

– أفكر أن أكتب مقالًا أو تحقيقًا عن الحشيش.

– جميل، هذا هو الكلام، جرِّب هذه القطعة وستصدح وكأنك شيكسبير، أليس اسمه "شيكسبير"؟

ضحكنا، وكان الصنف ممتازًا.

– صنف ضباطي، لا يخرج إلا للغالي.

فتحت حقيبتي وأخرجت ورقة، وقلت له: طيب، اسمع ماذا كتبت:

"علاج الوهم بالوهم

الوهم هو ما أعيشه، ويعيشه كثيرون حولي، خاصة مصريون مكتوون بنار حبها، والوهم الذي يعالجنا من الوهم، فنعود بين مطرقة وهم وقعر إناء نحاسي من الوهم يُدق في شارع المعز.

في المغرب يسمونه "الكيف" وفي الهند "بانج" أو "كاراس"

وفي الولايات المتحدة "هاش"، وفي البرازيل "روزماريا" وفي روسيا "أناشكا"، وفي فرنسا "سانفر" وفي إسرائيل "شيشا".

وفي بلادي هو الحشيش، كِيف الملايين، في بلاد أدمنت تضاد الوهم، تخيلوا أن المصريين لعنوا الفرعون عبر الزمن، وقدسوه. المصريون خافوا من الموت ككل الشعوب عبر الزمن، فبنوا له أعظم بناء في التاريخ، وهندسوه مثلثات مثلثة الأبعاد، عشق المصريون صحو الشمس وجريان النيل، فعاشوا بينهما مثرثرين فوق عوامة تخيلها نجيب محفوظ، ولا يزالون يعيشون في الوهم.

الوهم، أو الحشيش، هو الجزء الذي جففه أول حشاش من عصر الفراعنة، من قمة زهرة لأنثى نبات القُنّب.

إذن في البدء كانت الغواية أنثى.

من القمم الزهرية تنسال، لا زيت هي، ولا ذات قوام، فنغليها مع قليل كحول ومواد أخرى، ثم نتركها تجف، ونلفها بقماش أبيض ونحوطها بالعناية، فتكون كل لفة "ضربة" ونقسم الضربة خمس فُرش، ثم نقطع الفرش الواحد إلى ستة عشر قرشًا، القرش نحو نصف علبة كبريت، وتلفه بالسوليفان.

الوهم حاول أن يَلُفّنا، فلففناه في سيجارة، بحفر نفق رفيع داخلها على طولها بأنبوب قلم جاف، ثم ملء نفق الفراغ بدودة دقيقة أو ثخينة - حسب الثراء- ومن هنا عرفنا الخابور، وهو مثل الخازوق الذي شُنِق فوقه سليمان الحلبي، أرادوا أن

يخوزقونا فخوزقنا أنفسنا بالوهم. والطريقة الحديثة الفقيرة للسيجارة هو خلط تبغها بفتات مُليَّن بالتسخين، ثم إعادة لف الخليط في ورق البفرة.

الوهم أيضًا طريقة شربها الأصيلة منذ عصر الأتراك، هو وضع بصمة منه، على حجر فوق "جوزة"، ثم شيشة بعد ذلك. الجوزة لا زالت هي سيدة الليالي المفعمة بضوء خافت للوهم.

هناك مرتفعون، يذوبونه مع فنجال قهوة، أو يسحبون دخانه من فوق فنجال به جمرات، وآخرون مزجوه بالحلوى، خاصة البسبوسة.. حتى أيام المذاق الحلو، جعلناها للوهم.

الوهم هو ما يجمع في جلسته الجميع ويتسع للجميع، الطبيب مع المكيانيكي والباشا مع ابن الجنايني.

كيف يعمل الوهم؟

يقول طبيب لم يتعاطَ ولم يجرب، وطبعًا نحن نقول: سل من جرب، ودعك من الحكماء، يقول الطبيب إنه يستثير الجهاز العصبي المركزي ويُهبطه ويثبطه ويخدره، مع أن الحشيش مخدر، فكأنه إذن قد عرَّفَ الماء بالماء والوهم بالوهم.

ويقول المجربون إنه طوفان هادئ منخفض، يغشانا فنرتفع، يخف وزننا، وتتكاثف الأفكار، فتضيق عنها الملابس الضيقة، فنفك شيئًا فشيئًا، وننظر للدنيا من شرفة حكيم مريض بداء الضحك.. فنضحك ونضحك ونضحك دون توقف، فنهتبل السعادة، ونطير فوق أسوارها حتى دون حد الهبل وإشارات

الغباوة.

حينما نشرب الحشيش، لا نظلم؛ لأننا لسنا موجودين أساسًا، لا لأننا صرنا به ملائكة.

حينما نشرب الحشيش، لا نغضب؛ لأننا تائهون في الفضاء الرحب، لا لأننا صرنا به أنبياء.

إذ نشرب، تنساب بين شفاهنا الحكمة، وتطير مع الدخان. نصير حكماء، ليس لأننا حكماء، بل لأن تعليقاتنا تلمس سقف البساطة، فلا نكاد نعلق.

لا تصدق أن الحشيش مهلوس، فلا الهلوسة نعرفها ونحن مغيبون، وحينما نفيق دائمًا نحن في زمن الهلوسة.

ليس للحشيش أعراض مقلقة جسدية، كالتي يسمونها في عالم الإدمان صفات انسحاب، الحشيش يطيل إحساسنا بالأشياء، نتذوق أكثر ونُضاجع أطول، وأعمق وأحلَى. هذا هو السبب الثاني لتعاطي الحشيش، الجنس.

أما السبب الأول فيبقى دائمًا هو الهروب من واقع الوهم إلى وهم الواقع.

حينما نشرب تصير الموسيقى الصاخبة هادئة، وتصير الأجساد الراقصة جنياتٍ وعرائس بحر لا توصف، يصبح لخيالنا خيال، ويغادرنا ظلنا، ليجلس في غير عادات اصطفافه بالضوء.

حينما نشرب، نتذكر أننا بحاجة لمزيد من إحساس مضغ

الطعام، واكتشاف لذته الفائتة، فالفول كباب، والفلافل أصابع كفتة ضاني مُتبلة ومشوية على نار الهدوء.

حينما نشرب، فلا وقت يضايقنا حضوره، ولا زمن يحاصرنا غيابه، الدقائق ساعات والقريب بعيد والبعيد المشتهى دائمًا تراه جوارك.

يقول فقهاء زماننا إن الحشيش حرام، ويقول عرب زماننا في الخليج إنه مصيبة، ولو ذكرت أمامهم الحشيش استعاذوا بالله فورًا، وأمَّا الخمور التي بها نص واضح في التحريم فيغضون نظرهم عنها.

وكي أَصْدُقَك في تأملاتي مع الوهم، فإنه لا تحريم إلا بنص، ولا نص في الحشيش، وكذب الفقهاء الذين حرموا علينا كل شيء، بل التدخين كله ليس له نص يمنعه.

كتب شاعر فرنسا العظيم الحشاش بودلير تجربته مع الوهم وسمَّاها "النعيم الزائف": قال: "ثم لا تلبث أن تنتابهم (الحشاشين) حالة خاصة من بِشْرٍ وفرح، وبهجة لا تقاوم.. الكلمات البسيطة وأكثر الأفكار تفاهة تغدو لها أشكال جديدة عجيبة، وتبدأ نوعيات من السخافات المضحكة تتزاحم بالذهن.. وبين آنٍ وآخر نضحك على أنفسنا وحماقاتنا، وعلى أصدقائنا. هذه البهجة التي تخبو بين لحظة وتتوقد في لحظة أخرى".

إجابتنا البسيطة على سؤال حشاش يجاورنا، تستغرق زمن كتابة مقال طويل، ثم ننسى أول جملة قلناها في تلك الإجابة التي

عادة لا تنتهي ولا تكتمل، الحشيش يصنع جملًا غير مكتملة.

أما الطبيب الفرنسي "جاك جوزيف مورو" فقد كان والده ضابطًا في جيش نابليون، وشارك وهو في مصر في جلسات الحشيش، وعندما عاد إلى وطنه قصَّ على ابنه ذكرياته في مصر، وعندما شبَّ الابن وصار طبيبًا وجاء إلى مصر مع بعض مرضاه، حمل معه في عودته كمية وافرة من الحشيش ليجري عليها دراسته.

حتى البوصيري الشاعر العظيم، ربما يكون لاحظ جماعة حشاشة في الإسكندرية، ناموا وغاصوا في أحلام يقظة لذيذة، فشكا حال مسلمي زمانه وكل زمان مع الصلاة على النبي ﷺ:

وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ   قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بِالحُلُمِ؟!

انتهيت من القراءة ومعتز غارق في الضحك، يقاطعنا بآهاته، وتعليقاته الميري بين فقرة وأخرى:

– الله ينور عليك.

– ينفع أن أنشره؟

– ستفتح على نفسك باب جهنم، احذف الجزء الخاص بأنه لا "تحريم إلَّا بنص".

– الوهم جميل.

– جميل الصنف؟

- جميل يا باشا!

***

معتز

مضى مخدرًا، كانت تنتظره، بين الاحتقار والأسى والحب، ناولها سيجارة ملفوفة، ونام معها. بعد المواجهة، قال:

- ألا تعتقدين أنه آنَ الأوان لتخفيف الشرب قليلًا؟ كنت لا تُطيقين رائحة الدخان، والآن تشربين الحشيش والكودافين، حبيبتي أخشى أن يمتد الأمر لأكثر من ذلك.

- أنتَ من قدَّمته، فلماذا الآن تريد مني الإقلاع عنه؟ وعمومًا أنا لا أشرب كما تتخيل بهذا القدر.

- أحبك.

- أنا فقط أشرب معك، والكودافين مرة أو اثنتين كل أسبوع لا أكثر.

لم يكن من الداعي - قالت- أن يعكر عليها صفوها بعد جماع غير عادي، ولا يتم بهذه المسافة الزمنية كثيرًا، كأنه يريد أن يذكِّرها بأن ما هي فيه صار كابوسًا، عارًا.

العار يُدْخِلُنا في دائرة، وندور فارغين في فضائها الملتف الفارغ. من الفراغ وإلى الفراغ نعود لو حاولنا الهروب، كلما

ابتعدنا إليه عدنا وفيه غرقنا به، لأنه وهم، فهو الوحيد الذي باستطاعته أن يجعلنا هاربين من تعاساتنا اليومية والعادية، تلك التي صارت قدرًا مقدورًا.

الهروب منه وفيه يجعل المشكلة وحشًا ضخمًا متسلطًا، فتستمر الدائرة، ندوخ فيها، ويزيد العار.

نام وهو يؤنِّب نفسه.

نامت غير مهتمة بأن تلومه.

***

جيهان

في المساء، زارها الصداع، اتصلت بالبائع في الصيدلية القريبة:

– مساء الخير، أنا مدام جيهان.

– أهلًا يا هانم.

– زجاجة كودافين أو توسيلار، وشريط أسبرين كالذي جربته في المرة السابقة.

–.للأسف يا هانم لا يوجد.

– كيف؟ أنت كل مرة تبعث لي، يبدو أنك غير منتبه، أنا

مدام جيهان حرم معتز بك.

– يا هانم، معاذ الله! والله لا يوجد، لكن لأنك غالية عندنا، لديَّ شيء آخر، لكن بالله عليك لا تكثري منه.

– ما هو؟

– حبوب للصداع لكن مفعولها فوق جدًا.

– سأجربها، لكن أريد زجاجة واحدة من الكودافين.

– صدقيني لن تحتاجيه.

– سأُجرب، لكن ابعث معه كودافين.

– تحت أمرك.

بعد ربع ساعة، جاءتها أول حبة من «أبو صليبة».

بعد شهرين أصبح كيفها الجديد.

***

أحمد

هممت بالسؤال عن عبد الرحمن، قال لي أحد الأصدقاء القدامى إنه لم يعد الذي تعرفه، تغير كثيرًا، ويغشى كل ليلة غُرزة بقرافة النخال، وحلق لحيته منذ خروجه من المعتقل.

«تغير كثيرًا».

مَنْ منَّا لم يتغير، الذي لا يغيره الزمان إله، ونحن بشر تذرونا ريح الطقس المتقلب دائمًا، تألمت لما سمعته، هممت بزيارته، وعدت من عند باب البيت. غيرت وجهتي وانتظرت معتز بالمقهى، غمت لدقائق على صفحة النهر وأنا أتأمل كل ما مر بي، من فقد لجيهان، من بعده فقد لعبد الرحمن.

***

للنيل رائحة لا تتغير، رائحة لي وحدي، وتجربة لي معه متفردة، عليه أحببتها، وعنده تركتها، وفيه تحديت فشلي في الحصول عليها.

قلت لنهري الجاري بالعاديات: بأي مفاجآت تتدفق يا أيها النهر الخرافي؟

لاح وجه عبد الرحمن على صفحة النهر، نفس الصفحة التي خبأت فيها دموعي، وحدقت فيها لجثة أمين الشرطة، لاح صديقي شاحبًا. تخيلته يعاتبني.

«سألتقي عبد الرحمن»، قلت وقررت وانتفضت. لم أنتظر معتز، طلبت الحساب، وعند باب المقهى التقيت معتز فعدت معه وعدلت عن زيارة صديقي القديم.

قَدَرٌ يقرر برأيه، طالما أن قرارنا غير حقيقي.

***

من وجهه أطل مزاجه متعكرًا، شرب نحو ستة أحجار معمرة، بدأ أصدقاء المقهى في الوفود، وانفجرت نكاتنا مع الحشيش. وحده معتز لم يضحك.. لم نَلْتَقِ منذ يومين. انتهى المجلس، قاربت الساعة الثانية صباحًا، استقلينا سيارتي بعد أن أمر عسكريه الخاص بالانصراف. عرض عليَّ السهر في مكان آخر. لم تكن لديه رغبة في النوم، وعادتي لا أنام قبل الصباح.

قُدْتُ السيارة حتى وصلنا لشاطئ واطئ عند كورنيش المعادي أسفل جسر مستشفى السلام. ترجَّلْنا وكدنا في جلستنا نلمس الماء.

— خيرًا؟ لَسْتَ على ما يرام.. هل هناك مشكلة في البيت؟

— ليس البيت.. الشغل.. صارت المسألة قاسية.

— سأقول لك حكاية حدثت قبل يومين، ولا داعيَ لتذكيرك بأن ما بيننا سر.. لك الحق أن ترويه بعد سنوات.. ربما بعد رحيلي من الجهاز أو رحيلي من هذه الدنيا الكئيبة.

— خيرًا؟ أقلقتني يا رجل، شغل كثير؟

— لا، هو دائمًا فوق الطاقة.

— ما المشكلة إذن؟

— جاءني قبل يومين مدير جديد كتلة من الشر والقسوة.

— اسمح لي، سمعة أي ضابط في أمن الدولة عند الناس تقارب ذلك.

— هو قاس وشرير في تعامله معنا، خاصة معي أنا، ولا ينسى لي موقفًا حدث بيننا منذ سنة وأكثر.

— لكن معرفتي بك الجيدة، أنك تحب العمل ومجتهد فيه، والمثل يقول: "امش عِدِل يحتار عدوك فيك".

— هو يضعني برأسه.

— ربنا قادر أن يكفيك شره.

— الليلة حدثت بيننا مشادَّة وصلت لحد توبيخي بالشتيمة، لم أقبل وقمت بالرد، ولا أدري ماذا سيصنع غدًا؟

— لِمَ لا تحاول أن تبدأ من أصل المشكلة؟

— كيف؟

— أعني تصفية شبح الموقف القديم الذي ذكرته.

— صعب، فالمشكلة أني شاهد عليه، ومجرد رؤيته لي تذكره بأنني قرفان منه.

— وما المشكلة القديمة؟

— لن أذكِّرك مرة أخرى بأن كلامنا سر، هناك قيادي من الجماعة الإسلامية، كانت رأسه - على حد وصف كبار القادة- تساوي ألفاً.. هو المهندس الفعلي لكل العمليات الإرهابية. مجرم.. إرهابي.. حيوان.. يستحق الموت.. لكن ليس من الشهامة قتل رجل أعزل بعد تمكُّنك منه.

– صديقي.. لا تقل إنك قتلت أحدًا.

– لا، لم أقتل.

– إذن ما المشكلة؟

– منذ أكثر من سنة كنا نحن نحاول رصد مكان طلعت ياسين همام قائد الجناح العسكري للجماعة الإسلامية، عاد من أفغانستان وخطط لعمليات بمصر، تستطيع القول بأنه أهم شخص في الجماعة. طلعت ياسين هو الرقم الصعب بالنسبة لنا، وهو المسئول الأول عن أغلب أحداث العنف، من اعتداء على السائحين، والبنوك، وحوادث الاعتداء التي تعرض لها رموز الدولة المصرية كمحاولة اغتيال صفوت الشريف.. قلبنا الأرض بحثًا عنه، شاب صغير على الرغم من خطورته، فيسهل اختفاؤه، انتقل من أسيوط للقاهرة، وليس لدينا صورة له غير واحدة وهو صغير، ينتقل بسرعة من مكانه في حالة شعوره بالخطر أو الريبة، مُدرب تدريبًا مخابراتيًا. واسمه المسجل ببطاقته مختلف. وحدث مصادفة أننا رصدنا اتصالاً بالفاكس لرقم غير مدرج عندنا، في شقة خلف مبنى المخابرات بحدائق القبة، حتى تأكدنا من أن الرسائل عليه مشفرة بطريقة ما. كان لا بد من التأكد أن المسألة ليست في دائرة المخابرات، ومن خلال الرسائل التي كانت تصل إليه، تأكد لنا أن في هذا المكان شخصًا مهمًا، لكن من هو؟ لا نعلم، اتصلنا اتصالات عادية بالرقم أكثر من مرة، كنا نريد التأكد أن هناك أحدًا بالمكان، قبل

قرار اقتحامه، ولم يرد أحد، حتى ردت امرأة، وسألناها عن اهتمامات الأسرة على أساس أننا مندوبو تسويق. في نفس الليلة اقتحمنا المكان بقوة صغيرة.

أسرة من طفلين وزوج وزوجة، كانت المفاجأة من شهادات ميلاد الأطفال، تأكدنا أنه من نبحث عنه منذ سنوات.

قيادات مهمة وصلت للمكان في أقل من ربع ساعة. شقة متواضعة جدًّا، بل يكاد ألَّا يكون بها أثاث. فتشنا الشقة وفتشناه، لم نعثر على أي سلاح. وسألناه: "من أنت؟"، وكررنا السؤال، فلم يرد.. ضربناه وقيدناه وعصبنا عينيه، بكى الأطفال، نزلتُ بهم إلى الدور الأرضي. بمجرد نزولي، وصل رئيس إحدى المجموعات، وهو اليوم رئيسي الجديد صاحب المشكلة.

بعد دقائق سمعت صوت الرصاص، صعدت مسرعًا، كان الجميع يتبادلون التهاني.. قتلناه.. قتلنا طلعت ياسين همام.. فرحت لضبطه، وفرحت لموته.. وسألت: لماذا لم نأخذه ونعنفه ونستجوبه؟ من يومها وهذا الرجل الذي صار رئيسي الجديد لا أستهويه، بعد أن حذرني من الكلام في الموضوع.

— أستغفر الله العظيم.

— يا بوحميد المشكلة أننا.. أنا وعددًا من زملائي فى الإدارة، أخذنا عهدًا على أنفسنا بألَّا نضرب أعزل.. ولا نبادر بالضرب إلَّا في حالة الخطر والتأكد من احتمال حيازة الهدف سلاحًا.

— هوِّن على نفسك، واحمد ربك أنك لم تقتل وقتها، ولا أعتقد

أن هذا المدير الجديد قادر على إيذائك، سمعتك المهنية بالجهاز ستشفع لك بالتأكيد.

– أفكر في طلب النقل لإدارة أخرى، لكنها مسألة صعبة.

– ربك سيفرجها.

– ربنا يستر.

***

معتز

بين هموم بالبيت، ومُلِمَّات العمل، ارتفع ضغطه، ولم يهتم. سوَّدَ مديره الجديد أيامه، زادت المشاكل، أكثر من مرة يكلم أحدهم للتوسط والنقل من الإدارة، ثم يفشل الأمر.

بات مشغولًا أكثر على جيهان، وحزينًا لتبدد أكثر من محاولة للإنجاب، الحل المتبقي هو طفل أنابيب، لكن لا بد أن تكفَّ جيهان أولًا عن التدخين والحشيش وأي شيء آخر. لم يكن على علم بدخولها دنيا «أبو صليبة».

حينما اكتشف أقراصه بين طيَّات ملابسها، لم يتكلم. راقب المسألة، وبقليل تحرٍّ، عرف مصدر الشريط.

بعد ليلتين فوجئت جيهان أن الصيدلية التي يُمدها بائعها بما تحتاج، قد أُغلقت نهائيًّا.

كلمها أكثر من مرة في وجوب العودة لسيرتها الأولى، اصطحبها وسافر أسبوعًا لشرم الشيخ. فكر لو اصطحبها لمركز علاجي، لكنه خاف من رائحة الموضوع، وما قد يمثله من خطر على وظيفته.

عاش والحيرة.

***

أحمد

للمرة الثالثة أو الرابعة، أتفقَّدُ مكان الخبيئة، الشر الذي بِتُّ متأكدًا أنه مطلق.

كل مرة أُقْدِمُ على فتحها، بي شغف لمعرفة ما فيها، ثم أعود خائفًا، ولماذا أفتحها؟

قد علمت أن فيها شرًّا، بذرة لموجة أخرى من ترويع بلا فائدة، أقدمت أكثر من مرة على التخلص منها، فكرت لو أحطتها بمجموعة من الألعاب النارية البسيطة، وأدلق عليها كحولًا وأنسفها ثم أجمع رمادها وأنثره في اليمِّ القريب.

فكرت أيضًا أن أعطيها لمعتز، وأحبك قصة صحافية بأن أحدهم وضعها على باب بيتي برسالة تائب، خفت من حسه الأمني المتوثب.

فكرت لو وضعتها على طريقه ليجدها مصادفة. وعزفت

عن كل ذلك، وأرجأت أمرها، لعلِّي أفتحها يومًا ما، وعلى العموم فسوف أنقلها للأرض التي اشتريتها بوادي النطرون بغرض الاستصلاح، وهناك أدفنها تحت الاستراحة التي قررت أن أشيدها.

وقتك يا «الخبيئة» لم يَحِنْ بعد.

لكن ماذا لو وجدت زائرًا يطالبني بها؟ ماذا علي وقتها أن أفعل؟ هل أتنكَّر لذلك الزائر؟ هل أهدده بالتبيلغ عنه؟

هل أعطيه لفافات أخرى ليس بها غير بعض كتب من كتب الجهاد، وأقراص كمبيوتر تالفة؟

وقت الله، يعين الله.

***

بيشاور

اكتمل اجتماع مصغر، قيادات أصغر، بعد انشغال الكبار التاريخيين في تدابير جبهة القاعدة، قرار واضح باستعادة الأمانة التي حملها الأخ محمود إلى عضو خامل، صار صحافيًّا نافذًا، وأن يتم الاتصال به بكلمة السر المتفق عليها، مع محاولة استقصاء عقيدته، فقد يكون ما زال على العهد.

***

أحمد

في الصباح قررت أن أمر على بيت عبد الرحمن لدى عودتي عصرًا من الجريدة، لكن الذي حدث، مصادفتي «صباح» ابنة صاحبة الكشك، طلبت الحديث، وتواعدنا على انتظارها بعد العصر بغرفتي القديمة فوق السطح، لم أكن قاصدًا شيئًا محددًا، عرفت أنها كتبت الطفل باسم زوجها الجديد، رجل طيب مُسِنّ. وطلبت مني التوسط لتوظيف أخيها الصغير: «ولك الحلاوة».

ضحكت وأنا أتذكر الرشوة التي دفعتها من أجل وظيفتي الجديدة، وبحزم صارم بيَّنت أنه لا حلاوة ولا يحزنون، ووعدتها بتلبية طلبها في القريب العاجل، ونويت ذلك فعلًا.

أخذت الحلاوة مقدمًا.

من قال: إن لكل منا مدخله السهل.

***

نسيت تفكيري في زيارة عبد الرحمن، نمت ساعتين بالندم بعد معاشرة صباح، راجعت مسودة تحقيق جديد، في الليل كنت على موعدي شبه اليومي مع معتز. حدثته عن «صباح»، طبعًا لم أخبره بأنها حبلت من أمين شرطة غريق، ولا طلب توظيف أخيها، فقط كنت بحاجة للحكي وتفريغ القذارة.

– لماذا لم تتزوج؟ما ينقصك؟

– لا شيء كما تحدثنا قبل ذلك.

عبرنا القصة، وانشغلنا في لعب الطاولة، وثرثرة وكلام يجر كلامًا، حتى عدنا لمسألة الزواج، قال:

– الزواج مسألة توافق، مثلًا أختي خريجة إعلام.

– أي دفعة؟

– لا أظنك تعرفها، فهي أصغر منك بنحو خمس سنوات، أختي تقدَّم إليها ضابط مباحث طيب ومحترم وثري، ورفضته.

شعرت أنه يلمح بأخته، مسألة أسعدتني، فمجرد تلميحه يعني قيمتي لديه كصديق.

– المسألة كما ذكرت أنت: توافق.

– لكن والدتي قلقة عليها، وأنا أيضًا، فحظها لم يكن جيدًا.

– كيف؟

– عُقد قرانها على قريب لنا، وتوفي قبل الزفاف.

– هل كانت تحبه؟

– مطلقًا كان ارتباطًا عائليًّا، تعارف صالونات. وبعده تقدم إليها كثيرون، ولم تُعجب بواحد منهم.

– شيء عادي.

– يا صديقي تريد مثقفًا، أول مرة أجد فتاة تبحث عن مثقف.

توقف الحديث، بمجرد حضور أحد الاصدقاء. تمنيت لو سألته: كيف يمكنني أن أراها.

***

في كل مرة، أقرر فيها لقاء عبد الرحمن، يحدث شيء ما، "صباح" مرتين، وعمل عارض مرة، وهذه المرة اتصال غريب من معتز.

بدون مقدمات، كان يريد البوح، أَطْلَعَني على بعض مشاكله الشخصية، حدثني عن زوجته ومشكلتها، ومقدار حبه لها. كانت أحاديثه عن بيته تطوف حول النوافذ، دون رف السُّتُر، حتى كانت تلك الليلة. كان يريد أن يقول شيئًا محددًا، لولا حضور آخرين.

انتهت جلستنا مع بقية الصحب، ثم أكملنا سهرتنا بمقهى في السيدة نفيسة، سهرنا لما بعد صلاة الفجر، وأديناها بالمسجد المزحم دائمًا، بعدها وجدت الضابط المهم والقوي، يتحسس الكلمات، تخنقه عَبرة، ولا تسعفه عبارة. همَّ بالكلام ثم تراجع، لملم نفسه وسألني:

– لماذا لم تتزوج بعد تجربة حنان؟

لم أحتمل السؤال ولا الكتمان. كنا تحدثنا في هذا الموضوع قبل يومين. قلت وقد مسَّتْني طمأنينة الصباح:

– أحببت فتاة وتواعدنا على كل شيء.. ثم خطفها رجل مهم صاحب نفوذ وغني.

– من هو؟ هل هو معروف؟

– لا، كان وقتها مجرد موظف في الخارجية.. لكن دَعْنا نتحدث عنك، ولا أريد لفت نظرك إلى ملاحظتي بأنك على غير ما يرام.. تكلم لو أردت.. ودَعْها على الله.

كاد أن ينهار وهو يكشف لي عن مشكلة تهدد بيته، وقد تؤثر في مستقبله الوظيفي:

– زوجتي مدمنة للحشيش.

– أعتقد أن الحشيش ليس به إدمان، فكلانا يشرب.

– امرأتي مدمنة للحشيش ولكثير من الحبوب المخدرة والمهلوسة، وأنا السبب.. كم يعذبني ضميري، لا أكرهها، بل أكره نفسي لأني أنا السبب.. بدأتها معها لعبة، ومتعة من أجل المتعة، لففت لها بيدي أول سيجارة.. وتوالت ليالي الحشيش.. وزادت مشكلاتنا، أشعر أن في حياتها سرًّا تخفيه، علمت أنها كانت تحب شابًّا في الجامعة. انشغلتُ فترة بالبحث عنه ثم عَدَلْتُ عن ذلك. لا شك عندي في إخلاصها.. لم يعد الحشيش يكفي.. أدمنت الحبوب.. صارت حياتها معي صداعًا متواصلًا، لا يسكن بغير المهدئات.

– اهدأ، لكل مشكلة حل.

– أنا المذنب، أنا من دفعتها لهذا الجحيم، لا ألومها على عدم الإنجاب، يبدو أن الهباب الذي اعتادته وأدمنته بأنواع مختلفة هو السبب، أنا من وضعت قدميها على أول الطريق.. في ساعة بهجة، تصورت أن الحياة تبتسم بهذا الشكل، بغياب كامل يؤخر القذف ويجعل الدقائق ساعات، أحيانًا أحتقرها، وسريعًا ما أعود أحبها وأحتقر ذاتي، يجب عليَّ أن أضع حدًّا لهذا النزيف.

تألمت لألمه، بَرَقَتْ لخاطري مسودة تحقيق أعدها زميل لي عن مراكز علاج للإدمان، تنتهج طريقة جديدة، «مركز زمالة»، فكرة ابتكرها مدمن كحول أمريكي قبل عشرات السنين، ثم تطورت. يأخذ المدمنون بأيدي بعضهم، يقسمون على السرية المطلقة، يبثون مشاكلهم في غرف مغلقة، ما يجري داخلها لا يغادرها، تعتمد بالأساس على أن مصلحة «الأعضاء المدمنين المجهولين» مصلحة مشتركة، يجب أن تأتي في المقدمة، وأن التعافي الشخصي يعتمد على وحدة زمالة المدمنين المجهولين، ومن منطلق أن المدمن ليس شخصًا سيئًا ولا شيطانًا، ليس مصابًا بالجذام يجب الفرار منه أو عزله وتجنبه، بل هو مجرد مريض، لو أراد فهو على سكة التعافي وإعادة بناء شخصية مميزة وجذابة.

عرضت عليه في البداية أن نزور سرًّا أحد تلك المراكز كأننا مدمنان ونختلق بعض القصص لنحكيها، فإذا وجدنا أن ثمة فائدة تُرتجى، يقوم هو بإقناع زوجته، شرط أن يكون لديها الرغبة في الإقلاع والتعافي، وإن لم يكن فعليه العمل على خلق

تلك الرغبة داخلها.

***

ليس الإدمان قدرًا مقفلًا كالغُلِّ حول أعناقنا، لو ملكتَ الإرادة تستطيع لحلحة الضيِّق، وبالعزيمة تنفك العُقَد، أخطاؤنا في حق الآخرين هي نهايتهم لو جعلناها نهايتنا نحن، لو مددنا أيادينا لمن نُحب بنية الاعتذار، خرجنا من طوق الانهيار وخرجوا، وشتتنا شبحًا ظنناه يسد كل طريق.

***

"إن ثمرة عمل دافعُه الحب، لا تظهر إلا في أوانها، ولا تكتمل نضجًا إلا في موسمها الصحيح".

***

غرفة واسعة في شقة بشارع السودان، عرَّفْنا أنفسنَا بأسماء مزيفة، بدا علينا الصدق، وأبدينا ندمًا على ما زعمنا من إدمان، طلبنا المساعدة، فانفتح الباب، وجرى الترحاب، اكتشفتُ، أو اكتشف كلانا أننا بالفعل مدمنان، ليس إدمان الحشيش، فهو لم يصل مع أيٍّ منا لهذه الدرجة.

في الغرفة خافتة الإضاءة، انفتحت عوالم جديدة داخلنا، وضعنا أيادينا على مواطن العطب، غضب، عجلة وقلة صبر.. ثأر قديم ينتشر كالورم داخلي أنا على الأقل.. حب مستحيل ضاع وما زلت ضائعًا معه.. سُعار جنسي لا يكاد يهدأ.. تشبث بمحفوظات قديمة صارت نقشًا على صخرة الشباب، ومع الزمن

ازدادت عمقًا.

فكرت لو امتلكت إزميلًا وأعدت حفر أفكار جديدة، جديدة تمامًا.. لا تنسلخ من ماضيٍّ ولا تظل مقيدة بأغلاله.

في المقهى بعد جلسة الزمالة التي استمرت ساعتين، قال معتز:

"لو دققنا النظر لاكتشفنا أننا جميعًا وبدون استثناء مدمنون".

***

تجدد الأمل، صفا مزاجه، نشط.. قرر أن يفاتح زوجته، أن يحكي لها ما رآه.. لم يتأنَّ.. تعلق بما تمنى وتخيل من حياة دون إدمان. حياته كادت أن تعتمد على إقناعها بالحسنى وحثها على الرغبة في التعافي.

افترقنا، ولا زلت مشغولًا بما عاينت في غرفة الزمالة.. بترديد ما كدت أحفظه من كلمات:

"اللهم امنحني السكينة لأتقبل ما لا أستطيع تغييره، والشجاعة لأغير ما لا أستطيع تقبله، والحكمة لأعرف الفرق بينهما".

***

هل هناك ما لا أستطيع تغييره؟ هل تعلقي بجيهان التي لم أَرَها منذ سنوات لا يمكن تغييره؟ هل أملك الشجاعة لتغييره؟

هل بوسعي نسيانها؟ طيب لو نسيتها، هل يمكنني نسيان ثأري ممن خطفها وأقعدني الخوف عن مجرد الدفاع عن حلمي البسيط؟ هل بذرة الثأر التي أنبتت شعورًا غريبًا، لا أملك حتى تسميته بالحقد يمكن تقبله، والعيش معه، هو حقد؟

نعم "حقد" لا اسم له غيره، ولا وصف.

أحيانًا يتعكر صفو صداقتي لمعتز، على الرغم من كل صفاته الرائعة أمامي، إلا أنني في ساعات الغضب البعيدة عنه، لو فكرت فيه تذكرت على الفور انتماءه لجهاز سوَّدَ أحد منتسبيه صفاء نيلي الشخصي، وعطن حيز هواء كنت أعيش من أجله، فامتلأت بالحقد، قدِ يكون زوج جيهان أحد أصدقائه المقربين، ربما يكون هو نفسه زوجها، لم يذكر مرة اسم زوجته.. هل أسأله؟

أعتقد أن تلك مصادفة لا تتم إلا في فيلم هندي، فجيهان على الأقل ليست تلك الشخصية التي يمكن أن تدخن، فضلًا عن أن تشرب حشيشًا أو تُدمن مخدرات وهلاوس. حبيبتي التي كانت رقيقة كماء، وصافية كنار.

لا لن أساله. فأكيد أنها ليست هي. ثم كيف صرت شخصًا حقودًا لهذه الدرجة، يحركني انتظار الثأر وترقب الانتقام؟ هل يمكن تقبل العيش بهذه الحالة المظلمة؟ طيب هل يمكن التجرؤ على تغيير ذلك؟ هل علّتي داخلي؟ لو أيقنت بذلك، هل بوسعي نسيان محمود ومصيره الغامض، وعبد الرحمن شقيق روحي الذي راح ولا أدري أين هو ولا كيف يعيش؟

***

شعرت برغبة في الكتابة، لم أحدد إن كنت سأكتب عن تجربة الليلة كعمل صحافي، أو إن كنت أكتبها كعمل شخصي. ربما شخصي جدًّا. فمنذ سنة لم أجلس ونفسي في واحدة من فيوض البوح والعلاج.

أوقفت سيارتي على ناصيتي شارع المقياس، طلبت من القهوجي كرسيًّا وطاولة في ركن منعزل، وشيشة قص وفنجال قهوة سوداء.. فتحت دفتري، كتبت:

"علَّتي داخلي":

كنت متأثرًا جدًّا بأدبيات الزمالة التي سمعتها، شربت القهوة، في قاع الفنجال بقيت روحي كبن مطحون يصبغ الماء ولا يذوب فيه.. أردت الخروج من القاع، قلبت الفنجال، لو تعلمت السريالية لقرأته، ولعلمت إن كنت سأقابل جيهان مرة أخرى، وإن كان بالإمكان لقاء عبد الرحمن دون منغصات الخوف من الأمن والارتباط بشخص سبق اعتقاله.

"علَّتي داخلي.. دائي منِّي ودوائي بيدي".

***

مضيت في كتابة ما لا أقصده، أحيانًا نشعر برغبة الكتابة وليس لدينا ما نقوله، مجرد كلمة ستجر أخواتها.

أظلمت الورقة وخف الضوء أمامي، ظلٌّ حال بيني وبين

الماضي والحاضر، رفعت رأسي، تحجرت عيناي، لم أتحرك لثوانٍ، بكيت.. بكيت دون مقدمات للبكاء، قفزت من على الكرسي، احتضنت عبد الرحمن، قبَّلْتُ رأسه ووجنتيه مرات.. فكرت لو رفعت يده وقبلتها.

فكرت أن أبوس يده لأن لم يذكرني عند الشيطان.

***

عبد الرحمن بدير، لولا أني لا أخطئه ما عرفته، شبحًا رأيت، هالتني هالتان سوداوان تحت عينيه، مريضًا خِلت، وغائبًا اشتقت. صديقًا أفتقد، وأحبه.

"أهلًا يا صاحب الروح".

الماضي يطل دائمًا في اللحظة التي نقرر فيها تغييره.

***

كأننا ما افترقنا إلَّا الأمس، مع أنها سنوات. دون سؤال منِّي، قصَّ عليَّ لمحاتٍ مما مرَّ به، قرأت ما بين الجُمل ما كان من فصلات ألم، وما تبقى من وصلات عذاب نفسي، أراد طيَّ صفحات بدت موجعة لكلينا، ولم أُرِدْ فتح سجل ما لا يحتمل كلانا قراءته من جديد.

لم يكن جديدًا طلب عبد الرحمن للشيشة، وكنت أعرف أنه يشرب مخدرات، ويبدو أنها في زمن الملل صارت مَهْرَبًا للكثيرين، الكل يتغير، ولا ثابت غير ما نحن فيه من حال مصر،

والدايم وجه الله. وامتد حديث لقرب الفجر، في الركن المنعزل بالمقهى والإضاءة الخافتة، في الحقيقة انتابتني بين دقائق السمر، لحظات من هاجس التفكير في علاقتي به، وإن كان كشف معرفتي به يمكن أن ينبه الأمن لشيء صار ماضيًا وخبرًا مقلقًا، لكني مشيت خلف إشارة اللقاء.

***

اللقاء بحد ذاته غريب بعد هذه السنوات، لقاء يأتي في لحظة تفكيري في التغيير، في مواجهة الماضي بأشواقه وآهاته وثاراته وما خلَّف من أحقاد.. في تلك اللحظة يأتيني عبد الرحمن شبحًا من الماضي ونسمة من روائح المحبة.. هناك شيء ما، لا بد من المضي خلفه.

مشيت خلف الإشارة، عزمت على وصل صديقي، كان إحساسي بأنني جزء من مصيبة مرت به، وأنه أيضًا كان سببًا غير مباشر فيما خسرته.

امتدَّ الحديث وتشعب، جاوز الذكريات، حدثته عن تفكيري قبل لقائه بدقيقة في التغيير، لم أحدثه عن صداقتي لمعتز كي لا أسبب له قلقًا أو شجونًا موجعات، لكن قصصت عليه حكاية زيارة "مركز زمالة المدمنين" لمساعدة صديق ابتُلي بزوجة مدمنة، وكان هو السبب.. وفوجئت بأن عبد الرحمن يعرف المركز جيدًا.. خِفْتُ أن أسأله عن سبب معرفته.. افترقنا باتفاق على لقاء بعد يومين في نفس المكان بعد العشاء.

ما أعجب لقاءات داست على ذكراها السنون، ولم تزل كلمات موضوعات أحاديثها كأنها جرت في الصباح.

***

بعد العشاء وقت مناسب، حتى يتبقى من الليل ما يكفي السهر مع معتز.. ها أنا ثانية أعود بوجهين في ليلة واحدة.. وجه قديم به بقايا التزام وكاره للسلطة لصديق قديم، ووجه الصحافي القريب من السلطة لصديق جديد.

***

مع عبد الرحمن للمرة الثانية، بعد عشر سنوات، لم يكن كما المرة الأولى، وأكيد هو مختلف كثيرًا عما كان عليه قبل سنوات، كان يَهْذِي، يتكلم بنفس المنطق الذي اعتدت عليه، لكن عينيه شاردتان، كلامه يخرج ببطء، في البداية تعلَّل بأنه قد بلع حبتين من دواء حساسية يحدث دوارًا، لم يَطُلْ بي الوقت معه حتى اكتشفت بعض ما كنت أعرفه عنه، وما لم أكن أريد كشفه، هو في مرحلة متأخرة من الإدمان والتعاطي، كيف هذا يا أخي؟

تكلم عبد الرحمن.. تكلم بألم.

سألته عن موضوع زمالة المدمنين، وإن كان جربهم، فقد عرفت منه المرة السابقة أنه على دراية كبيرة بما يجري هناك.

– ذهبت مرتين، لكن لم أملك الإرادة.

– نحن من يصنع الإرادة، بل منك كثيرًا ما تعلمت الإرادة.

- أنت صديقي، ساعدني.

- فورًا تذهب غدًا لمركز من تلك المراكز، لا تتأخر، وسأعطيك عنوان أحدها، لكن قبل ذلك توضأ الليلة وصلِّ ركعتي قضاء حاجة، واسأل الله أن يمنحك القدرة على امتلاك الإرادة، والإرادة على الإمساك بالقدرة.

طال بنا الكلام، أردت محاصرته، ذكَّرْتُه بمهاراته الكثيرة التي أعرفها، ومَلَكاته في القراءة والمطالعة، بطريق غير مباشرة، بعثت له رسائل طمأنينة:

"ما حدث مضى وانتهى، أنت اليوم حر، وهم بالتأكيد اكتشفوا أنه لا خطر منك، ولا معلومات لديك تفيدهم، وبالتالي فلا أتوقع تكرارًا لزيارتهم".

***

صيف مآسي الأصدقاء، ولا أحد يدرك حجم ما بي من مأساة. كان عبد الرحمن بحاجة لمن يذكِّره بقيمته، وهو في الحقيقة قيمة كبيرة، افترقنا على وعد بأن يحكي لي ما سيجري معه في مركز الزمالة. ونحن وقوف نستعد لمغادرة المكان، همس:

"على فكرة، محمود مات".

الحمد لله.

***

مات ذلك الذي أدخلني في سنوات القلق، وأدخل عبد الرحمن

المعتقل. قابلت نبأ موته بجمود، ببرود، لا مبالاة، شخص عابر ومات، ما أكثر العابرين الراحلين، ولا نذكرهم، ولا نريد، ولم نحزن عليهم؛ لسبب بسيط أننا لا نريد أن نذكرهم، فقط هم عابرون.

الحقيقة، استقبلت الخبر بشيء من الراحة، صفحة سوداء من المخاوف قد أُحرقت ولم يعد لها وجود. ولم أعلق على جملة عبد الرحمن الأخيرة، ولم أسأل: هل قضى محمود تحت التعذيب، أم مات بالسل مسجونًا؟ هل الوفاة طبيعية، أم هي كحياتنا غير المنطقية؟

السؤال لا يشغل ميتًا، فقط يشغل بشرًا يظنون أنهم أحياء. ارتاح، وارتحنا، هكذا أتمنى.

هل على الخبيئة حان الدور؟

سأنسفها في اليم نسفًا.

***

معتز

لم يفلح معتز في إقناعها. إحساسها بأنها صارت عبئًا ورَحِمًا مسممًا، يقربها كل يوم من تمني الأجل غير المعلوم. مقتنعة تمامًا بأنها مدمنة، ومصرَّة أيضًا على عدم تصديق ذلك، ولِمَ عليها أن تصدق؟

مجرد تخيلها الامتناع عن التعاطي مؤلم، النشوة الوحيدة الباقية في حياتها، إما أن تستمر، أو تغادر حياة لم تجد فيها ما تخيلته وتمنته. وصارت أكثر توترًا بعد إغلاق الصيدلية، مخزن السعادة والوهم.

تعاسة البعض الشخصية، تظلل كل شيء طالما ربطها بأسباب خارجية، ويصير التعيس بمرور الوقت قليل الحيلة، غير قادر على مواجهة ذاته بأن له الدور الأكبر واليد الطُّولَى في استمرار التعاسة وتضخمها.

كلمة خرجت من معتز لم تكن تتوقعها، قال في معرض الكلام، ولم يُلْقِ اهتمامًا:

«أنا بنفسي ومعي صديقي الصحافي أحمد الفخراني زرنا مركز الزمالة، والمكان ممتاز، والفكرة عبقرية، نذهب مرة، ثم قرري ما تشائين».

لملمت داخلها، بعد زلزال مفاجأة اسمه:

– وأيضا أَطْلَعْتَ صاحبك على سر زوجتك؟

– المسألة غير ما فهمتِ.

– ماذا فهمت؟ ومن هو صاحبك "محمد" هذا حتى تكلمه عن أسرارنا؟

– لم أكلم أحدًا ولم أنطق بسر يا حبيبتي.

– أنت منذ دقيقة قلت إنك ذهبت مع صديقك محمد

الصحفي.

– تعمدت نطق "محمد" بدلًا من أحمد مرتين، علّه يصحح، وبالفعل:

– صديقي أحمد الفخراني رجل محترم، وبالصدفة كان يُعِدُّ لتحقيق عن الموضوع وذهبنا معًا.

– لا أصدقك.

– هذا كل ما في الموضوع، أرجوك اهدئي وفكري.

***

غابت، نسيت كل شيء، همست بعد خروج معتز:

"أحمد الفخراني. أكيد هو أحمد، كيف لم أفهم أنه هو؟ منذ شهور وهو يحدثني عن صديقه الجديد الصحفي أحمد، هذه أول مرة ينطق اسمه كاملًا. متى جاء؟ وكيف عرفه معتز؟ وكيف التقى أحمد بمعتز؟ ولماذا عرفه؟ هل أراد التقرب مني؟ أم أنه لا يعرف أن معتز زوجي؟ ماذا يريد بعد كل هذه السنين؟ هل تزوج؟ كم أحبه وأكرهه".

***

أحمد

منذ زمن لم أُصَلِّ غير الفروض، ومتأخرة. الليلة الفائتة وقفت

بين يدي الله وصليت ركعتين قرب الفجر، وجلست لأدعو، لم يَرِدْ على بالي غير عبد الرحمن ومعتز، وشتان ما بينهما، دعوت لكليهما، ونمت.

بعد يومين حدث ما توقعت، قال معتز إن زوجته لم توافق، لكنه قرر ألّا ييأس وسيظل وراءها حتى توافق.

وحدث أيضًا ما كرهت توقعه، فقد عاد عبد الرحمن وشرب واختفى عني أيامًا، لم يذهب للزمالة، لكنه وعلى الرغم من ذلك، قد عاد أفضل من المرة الأخيرة.

قال: «كان يلزمني وقت حتى أُقنع نفسي أني أمتلك الإرادة، وأمس فقط ذهبت، مع أني أشعر أنني قد أعود».

وتأتي البشارات تِبَاعًا، فبعد يوم واحد عاد معتز فرحًا، أخبرني أن زوجته وافقت، وذهبت هي الأخرى للمركز.

بقدر حرصنا على سعادة أصدقائنا، تنفجر منابع السعادة داخلنا.

هل آن أوان الزواج؟

***

جيهان

في كل ليلة بعدها، كان أحمد معها على الفراش يتقلب فوقها.

ينام معها وهي ليست معه، تُغمض عينيها فلا ترى واقعها ولا تشم طعنات معتز.

لكنها لم تسأل زوجها، خافت من شدة ذكائه، فقد يعرف.

حاولت التفتيش في دفتر تليفونه، فسَّرت لنفسها أنها فقط تريد أن تعرف من الرقم، إن كان حبيبها الأول ما زال يسكن الروضة، أم انتقل لمكان آخر.

اتصلت برقمٍ تحفظه، رقمه القديم، بكت وهي تسمع:

«الرقم غير صحيح».

«لو وجدتُ الرقم لن أتصل به، فقط يمكن أن أسمع صوته، أريد أن أعرف أخباره، هل أحب غيري؟ لا لن أفعل، معتز لا يستأهل مني خيانة، وأنا لست خائنة. حتى المخدرات التي غرقت فيها لا يمكن أن تصل بي لهذه الدرجة من السفالة. زوجي طيب، وأنا أيضًا».

لم يكن رقم أحمد في أجندة التليفون، معتز يحفظ أرقامًا كثيرة برأسه.

بعد أسبوع وافقت، وقررت الذهاب لمقر الزمالة، علَّها تلقاه، لم تصارح نفسها بذلك.

لكن ذلك كان كذلك.

***

عبد الرحمن

لمحها عبد الرحمن وهي تدلف إلى غرفة مجاورة بمركز الزمالة، هي، نعم هي، كيف يُخطئها، جميلة كما هي لم تُعكرها رتوش شحوب، تراجع بحزم عن مواجهتها، فأبجديات الزمالة واضحة «هي محرَّمة عليه حديثها أو كشفها».

كما لا يملك - بحسب أدبيات الزمالة- أن يخبر أحمد بأنه رآها. حتى لو تخلى عن أدبيات الزمالة.

«ليست قرآنًا» قال لنفسه:

«فلا يمكن أن أغرز سكينًا في صدر صديقي، مجرد خبر أنها مدمنة سكين صدئة».

الحقيقة أنه لا أدبيات الزمالة، ولا الرفق بصديقه، هما ما منعا عبد الرحمن من الحديث إليها أو البوح بما رأى لأحمد. منعه فكرة أنها زوجة لضابط.

الحقيقة أن استيطان الخوف أكثر فداحة من إدمان مخدر يسكن الدم.

***

أحمد

غاب معتز أيامًا لم يحضر للمقهى، انتبهت أنني مرة لم أتصل به في البيت. اتصلت، لم يرد أحد. اتصلت بصديق مشترك يعمل معه بالجهاز، فوجئت أنه بمستشفى الشرطة في العجوزة، أصيب بارتفاع مفاجئ في ضغط الدم، ذهبت من فوري، تأثرت لمشهده وتأثر، كانت ترافقه أخته.. بيضاء جميلة، بالكاد تعدت منتصف العشرينيات.

عرَّفني بها، نظرتْ على استحياء، قالت: لقد سمعت عنك كثيرًا.. بَدَتْ على صديقي علامات ارتياح، تذكرت لماذا حدثني أكثر من مرة عن أخته التي تتابع تحقيقاتي الصحفية، وعن حظها السيئ، سألته في همس عن زوجته، عرفت أنها ترافقه لكنها الليلة لديها جلسة مع الطبيب.

***

ارتفع ضغطه بعد مشادة مع رئيسه المباشر، انتهت بسب الدين من الطرفين، وانهياره بعد تصعيد الموضوع لرئيس الجهاز، وهو اليوم لا يدري مصيره، وقد بعث بطلب مباشر لرئيس أمن الدولة لنقله من الجهاز الذي يحلم به كل ضابط شرطة.

قلت إنه فعل الأفضل، والمهم هو راحة باله وصحته، ثم هي فرصة للقائي به دون حساسيات وحسابات «يا صديقي حان

الوقت لتعيش مثل الناس».

بينا نتحدث جاء أحدهم، أخبره أن السيد رئيس الجهاز سيأتي لزيارته بعد عشر دقائق.

تعللت بأمر مهم عليَّ إنَجازه، وأنه ينبغي لي الانصراف.

***

نزلت وأنا أفكر في صديقي، وأنها فرصة مواتية لإثبات وفائي، وأنه سيظل صديقي سواء داخل هذا المكان المهم السيادي، أو خارجه، أو حتى على المعاش.

وقفت دقيقة لانتظار المصعد، ركبت.. قبل إغلاق الباب لحقت بنا فريال أخت معتز، عفوية جميلة، إلى أين؟ سألتها. هل وجودها كان سيعكر لقاء زيارة رئيس الجهاز؟ أجابت بالنفي، لكنها بأية حال كانت ستذهب، فهي لا ترغب في لقاء زوجة أخيها التي اقترب قدومها.

ترددت هل أعرض عليها التوصيل، وتوصلتُ لحل يرضي شهامتي ولا يُظهرني في موقف الخائن، وقلت: دعيني أوقف لك سيارة أجرة.

– وأنت؟

– لا أنا معي سيارتي.

– وأين طريقك؟

– أنا تحت أمرك، لكن أنا - و الله- محرج منك.

– لا داعي للإحراج؛ معتز يعتبرك أخاه، في حياتي لم أجد صديقًا لمعتز يتحدث عنه مثلك.

***

هل القدر هو الذي جعل الطريق مزدحمة؟ أم هو ما تمنيته وجذبته الحال، ونفيته لنفسي طول الطريق؟!

لم أكن أعرف إن كانت هي التي حدثني عنها معتز، أم أختًا له أخرى؟ بلف وبقليل من دوران، تعجبت من الازدحام، شعرت ببعض الحرج بأنها هي من ألجأتني لهذه الطريق، قلت على الفور:

– «أنا تحت أمرك يا آنسة» وبدوت قرويًا يتذاكى، ضحكت:

– بجد أنا آسفة، أنا عطلتك.

– لا يا آنسة، أنا تحت أمرك.

– آنسة، آنسة وتحت أمرك، يا سيدي دعنا ننسى الحرج والازدحام.

– اتفقنا؟ أنت خريجة إعلام؟

– وكيف عرفت؟

– من معتز.

– وماذا قال أيضًا.

– حدثني عن رفضك المستمر للخاطبين.. آنا آسف.

– ولِمَ الأسف؟

– يبدو أني تدخلت في أمور شخصية، لكني صدقيني، فكل ما يهم معتز يهمني.

– منذ حادث وفاة خطيبي، أو زوجي بحسب عقد القران، وهم قلقون علي جدًا.

– معهم حق.

– ولماذا يجب أن يكون معهم حق.

– لا تفهميني خطأ، نحن في مجتمع غبي، وأنت صغيرة وجميلة.

– هذا غزل.

– لساني لا ينطق بغير ما يعتقد، وعمومًا لو "جميلة" ضايقتك، فلن أتكلم بالحقيقة مرة أخرى، آسف.

– لا عليك، ماذا بالكاسيت؟ ماذا تحب أن تسمع؟

– أنا لا أسمع غير منير.

أَدَرْتُ الكاسيت فتمايلت خصلة منها سوداء طبيعية وهي تغلق نافذة السيارة، وحركني شيطان منير وهو يتراقص «وسط

الدايرة يا أجمل نايرة».

طربتْ لما عرفت حبي لمنير، كل بنت تشعر أنها أجمل نايرة وسط كل الدوائر، في الإشارة التفتًّ إليها، كانت غارقة في السماع. قالت:

– منير حالتي الخاصة.

– بل قولي منير حالتك وحالتي.. منير حالة جيل أو حالة أكثر من جيل، منير لم يُغَنِّ مرة أغنية حب مباشرة يعالج فيها الأشواق ويتمنى لقاء محبوبة، منير يغني لي ولك ولكل الناس.. منير هو مصر.. كل أغنية له تستطيعين بسهولة أن تسقطيها على مصر.. حتى وسط الدايرة.. من هي تلك النايرة؟ من تلك التي سترحل بنا وسط الزينة والعبير؟

– هل تعلم أن معتز وماما كانا يغضبان جدًّا لو سألتهما عن كل خاطب جديد، إن كان يحب منير؟

***

نويت.

***

حدث ما لم يكن بالحسبان، فلم يتم نقل معتز من أمن الدولة، بل شفع له سجل مهني محترف، وسيرة مشرفة كضابط صاحب سنين خبرة بالمكان، وبقايا شفاعات متوقعة لأبيه اللواء حتى وهو على المعاش. تقرر نقله للإسكندرية.. وكان المد السلفي

على أشده بها، أو السلفية الجهادية.

أصبحت لقاءاتي به أسبوعية، متعجلة.. بطبعه يحب العمل، ينغمس فيه كهارب من هموم لا تطاق.

***

فاجأتني فريال بزيارة للجريدة، كانت رائعة.. شهية.. فكرت لو تزوجتها في هذه اللحظة، وحالا، وأفض غشاء بكارتها الذي لم يُفَضَّ إلا على الورق، باسْمِ رجل لا أحب معرفته ولا يمكنني رؤيته.

كل السابقين واللاحقين في حياة من أحب، لا أحب معرفتهم، حتى زوج جيهان، لم أبادِرْ مرة بمحاولة معرفة من يكون.

***

تغدينا بمطعم ينام بحضن النيل. قمت لتوصيلها. اعتذرتُ بأنه يجب التوقف دقائق أصعد فيها لشقتي بالروضة وتغيير القميص بعد اتِّساخه بقطرات صلصة طماطم.

قررت الزواج بها. بعد جيهان لا تحركني للنساء غير الرغبة، فانه، سأتزوجها فلا مانع من الاقتراب أكثر، ليس بالأمر خيانة، ولا صبر لي.

عرضت عليها الصعود، لم يستغرق الإقناع طويل كلام، ولم تستغرق رغبتها سوى لمسات رقيقة، قبلتها.. مسست شفتيها برفق.. تمنعتَا.. نزلت على رقبتها.. طلبت مني التوقف.. عدت

لشفتيها.. داعبت بلساني، انفتح ما لا طاقة لي بالتوقف عنه، غرقنا.

"فريال تعلمين أني أحبُّك، وتصدقين أني جاد في الارتباط بك.. أنت راشدة وأنا لست صغيرًا، لماذا نؤخر ما نريد؟".

التهبت القبلات، ونزعت قميصها، هبطت ذبيحًا محرومًا على مشتاقين نافرين، سقطت على ركبتي وأنا أقبل بطنها، قمت وأنا أحملها، وفي خطوات ألقيتها بغير رفق على السرير.. غبنا، تهنا.. ولم أُنزل. أسرعت للحمام، غسلت ذلك الذي خرج عن سيطرتي بالماء البارد، قطرت نقطتين من زجاجة جلبتها من الكويت للتخدير الموضعي.. خرجت.. كانت مرهقة.. قبلتها وهي جالسة على طرف السرير، جلست خلفها.. أدرتها.. رفعت فخذيها فوق فخذي المعقودتين.. انصهرنا في القبلات.. غزوتها بكل ما أوتيت من شوق.. مالت للخلف.. طعنتها بعنف.. بعنف.. لربع ساعة وما زالت جيهان معي.. كل النساء عندي جيهان.. ارتعشت.. اندفع الماء الساخن.. جرحتني أصابعها.

عضت كتفي.

***

تكرر ذلك في اليومين التاليين.. تكرر على مدى ثلاثة شهور، وصل تام، لكن مع الحذر في المرات التالية من الإنزال داخلها. ربما مرة نسيت.

اتفقنا على أن أتقدم لمعتز رسميًا بعد عودته من دورة سافر

فيها للندن لشهرين.

عاد معتز.. فاتحته على الفور.. لم أُبَيِّن أني على اتصال بأخته.. سُرَّ وأَبْدَى ترحابًا.. واتفقنا على إرجاء المسألة للإجازة التالية بعد خمسة أيام، فور عودته من الإسكندرية.

سافر، وجاءت فريال بخبر صاعقة.. قالت إنها حامل وهي متأكدة من ذلك.. داريت ذعري وهدَّأتُ من روعها، وقلت: لا مشكلة بإذن الله، فرسميًّا سيتم الأمر خلال أسبوع، وسأطلب من أخيك أن تكون خطبة وزفاف في ظرف أيام، وسأتعلل بأي سبب.

رغم قلقي من حملها غير المتوقع، إلا أن فرحًا نبت داخلي. سأتزوجها ولا مشاكل.

انتهينا وقمت بتوصيلها، وعدت للجريدة، فور وصولي تلقيت اتصالاً من معتز، انتابني قلق، هل عرف شيئًا عن حمل فريال؟

***

بقي على فجر جديد أربع ساعات، مخدرًا أغلقت باب السيارة، فزعت بمجرد دخولي البيت، شبح شاحب الوجه:

– السلام عليكم.

– أعوذ بالله! هممت بدفعه، فكرت بالجري، لا أدري إن كان لصًّا أو عفريتًا، الذي حدث أن هرولت خارجًا، فتحت باب السيارة، انتشلت عصا غليظة أحتفظ بها تحت المقعد، لم

يتحرك من مكانه، ولم يباغتني بضربة ولا طعنة مفاجئة.

– يا أخ أحمد، السلام عليكم.

– من أنت؟

تمالكت نفسي، لوحت بالعصا، دفعتها لصدره ببطء، ضغطت حتى ألصقته بالجدار.

– يا أخ أحمد، تمالك نفسك، لست لصًا والعياذ بالله.

– إذن من أنت؟

– "بدون نهايات، تبقى المقدمات بدايات، مرة وعشرين ألف مرة".

اشتقتُ لفنجال قهوة كبير، رأسي تدور في فراغ، الكلمات المبهمة أعرفها، عشت زمنًا أخشى سماعها، كلمة السر، بات المخبوء مطلوبًا، تبقّى منها نصف، عقّبْتُ:

– لا أفهم، قلت لك: من أنت؟

– "أنا عرفت قيمة رملك، كلمني بكلام عربي مائة وثلاث وخمسين مرة".

إذن صار ما خفت أن يصير، وقد بعثوا في طلب أمانتهم، أكملت دور المذعور غير الفاهم، مع أن المتفق عليه هو التسليم الفوري وبدون تساؤلات.

– يبدو أنك شارب حاجة. توكل على الله، وإلّا سلمتك

للشرطة فورًا.

بذعر واضح رد بعفوية:

– يا أستاذ، أنا قلت لك جملتي السر، وأنت تعرف ما أريد، ولا أريد غير ما تملكه كأمانة، آخذها وأنطلق ولا رأيتك ولا رأيتني.

– قلت لك: امْشِ، امْشِ فورًا.

– طيب ممكن نشرب شايًا فوق، ونتفاهم؟

– يا ابن آدم، أنت سكران؟ توكل على الله، تفضل بهدوء.

– خلّفته وصعدت البيت، ممتلئًا بكل تاريخي مع المخاوف والقلق، لم أبدل ملابسي ولم أتحرك من وراء باب الشقة، وكما توقعت فقد صعد خلفي ودق الباب بخفة فأر. فتحت:

– الله يكرمك، تفضل امْشِ مكرمًا غير مطرود.

– يا أستاذ أحمد، لا بد من الحديث.

طرده قد يعني مشكلة وتنبه الجيران، واستيقاظ عملاق السر المستور. تركته يدخل، وفي لحظات عُدت بعاداتي قبل سنوات، أدرت الراديو وأوقفت المؤشر على حوار إذاعي.

– خيرًا فعلت.

– ادخل في الموضوع.

– نريد ما لديك.

– ليس لدي شيء.

– كيف؟

– لم يعد لدي شيء، بعدما حدث ما حدث خفت وتخلصت من الذي تقصده. سافرت للخارج لسنوات، ولم يكن من الحكمة الاحتفاظ بشيء فيه خطر على عائلتي لو تم اكتشافه.

– يا أستاذ أحمد، نحن نتابعك منذ سنوات، ولدينا يقين بأنك لم تتخلص مما لديك، فقط وبالله عليك أعطنا حاجتنا ونم مطمئنًا. ساعود إليك بعد أسبوع.

أيتها الخبيئة، من أي حرام حبلت بِشَرٍّ لا ينام؟!

***

بِشَرٍّ قديم جديد مستعاد قضيت ليلتي، فكرت في إرجاء المسألة لما بعد الارتباط رسميا بفريال، ومماطلة الجماعة حتى ذلك الوقت، ووقتها أفاتح معتز في الحكاية، وأكيد أنه سوف يقف جوار صديق وزوج شقيقة، فكرت أيضًا في تسليمها لهم.

قلت: مع الوقت، ينفرج من ضيق الوقت ندى.

الواقع أنني ما استطعت النوم، هُرعت للشارع، قصدت المقهى القديم، هناك رأيته، كان يدفع الحساب ويهمُّ بالمغادرة. ليست عادته السهر، مرَّت ست سنوات كاملة منذ آخر مرة التقيته، أخي في الرضاعة، أخي الآخر، قاطعته متعمدًا منذ

دخول محمود يوسف حياتي.

– يا طبيب المجانين.

– غير معقول، أحمد الفخراني!

– قلة الأصل لها ناس، نسيت أخاك؟

– بالأحضان.

– كيف حالك، ما أخبار البنات؟

– بخير، أين أنت؟ تعال اجلس.

حتى مطلع الفجر، حكيت له كل شيء، واستحلفته بأمه التي أرضعتني أن يودع كلامي في بئر عميقة، قلت له إني أُحس بالخطر. عُدنا للبيت، سلمته الخبيئة، قلت: «هي أمانة عندك، تُسلمها للمقدم/معتز زهران في حال أصابني مكروه».

– لماذا أنا، وأنا...؟

– مسيحي، أعرف. لبن أمك في أنسجتي، لن تخونني، أنا واثق من ذلك، بل أتساءل كيف غبت عن عقلي كل تلك السنين؟

– نحن أصدقاء، وكلامك أمانة.

استأذنته دقيقة، وعدت له بأوراق كثيرة، كتبتها في جلساتي النفسية مع نفسي. قلت: قد تنفعك، فتنفعني.

***

كيف نسيت طبيب المجانين؟ صديقي وأخي في الرضاعة، وابن دفعتي بالجيش؟ سافر لبريطانيا، حصل على الزمالة، ومن سنوات لم نَلْتَقِ، من قبل بداية حكاية الخبيئة.

هل إشارةٌ، أن ألتقيه الليلة؟

تعودت أن أسير وراء الإشارات. وما خدعتني إشارة يومًا.

***

قبل نزوله للقاء معتز، تلقى اتصالا كان يتمناه ومرة ما توقعه.

كانت جيهان، وكان كل الحنين:

– أنا جيهان.

– جيهان؟

– نعم جيهان.

– بعد كل هذه السنين؟!

– فقط أردت الاطمئنان عليك.

– أنا لست بخير منذ تركتك.

– لكن ما علمته من أخبارك مبشر، قد حققت حلمك في الصحافة.

– من بعدك أنا تائه. وأنت كيف أحوالك؟

– الحمد لله، على قيد الحياة.

– على قيد الحياة! كأني أكلم ميرفت أمين زوجة الرجل المهم.

– لا داعي، عمومًا أنت من يُلام على السنين لا أنا.

– أنا المخطئ، أقر وأعترف، كيف حالك؟

– قلت لك على قيد الحياة، الحمد لله بخير، متزوجة، وأنت؟

– أنا هو أنا، كبرت قليلًا، لكني ما تزوجت، ما زلت أحبك يا جيهان.

– هذا موضوع لا يجب الحديث عنه، فكما قلت وتعرف، أنا اليوم امرأة متزوجة، وفقط أردت الاطمئنان عليك.

– أنا كل يوم أفكر فيك، أريد أن أراك.

– لا يمكن.

– لماذا؟

– لأني متزوجة، وأنت لا ترضى لي بالخيانة.

– أي خيانة؟ فقط أريد أن أراك.

– مجرد مكالمتي لك خيانة.

– أنت حبيبتي.

– أرجوك.. لكن هل تعرف زوجي؟

– لا.

– بصدق؟

– وكيف أعرفه؟ أنا حتى لم أفكر في شكله ولا من هو.

– يعني أنت لا تعرفه؟

– لا أعرفه، ولا أريد أن أعرفه.

انقطع الخط دون وداع، ضاع صوتها فجأة.

تاه: "لكن من زوجها؟ ولماذا تسألني: هل تعرفه؟"؟

من يكون؟ لا يمكن أن يكون معتز، لا، لا يمكن، زوجته مدمنة، جيهان حريصة، ليست الفتاة التي تقع بسهولة، حتى لو عرض عليها زوجها، أتذكر مرة أقامت الدنيا ولم تُقْعِدها لمَّا لمحتني أدخن على المقهى.

طيب زوجة من؟ سؤالها يعني أني أعرف زوجها. هل هو مشهور ومعروف، مصيبة لو يكون رئيس معتز الجديد. ومصيبة أكبر لو..

لا.. لا يمكن. معتز طلب لقائي بعجل! هل هو؟ وهل عرف؟

سأحاول أن أستشفَّ منه اسم زوجته. سأحتال حتى أرتاح.

لن أرتاح.

***

لملم أوراقه، أغلق درج المكتب، ما استطاع لملمة نفسه بعد مكالمتها، وبعد كل تلك السنين والمسافات.

ما إن همَّ بالخروج حتى رنَّ الهاتف ثانية، لا أحد غيره بالمكتب. استلم السماعة ودفء أذنه مختلط بصوت جيهان ونائم على قرص السماعة الساخن:

"يبدو أنه يوم المكالمات".

– أهلًا.

– أهلًا يا أحمد.

صوتها يعرفه، حنان.

– من؟ حنان؟

– نعم.

– أهلًا بك، لكن أعتقد أننا انتهينا.

– كيف انتهينا؟ ألا تريد أن ترى ابنك؟

– ابني؟

– نعم ابنك.

– بعد طلاقي بشهر علمت أني حامل.

– ولماذا تأخرتِ في إبلاغي؟ ثم من أدراني أني أبوه؟

حينما نلتقي ستعرف، عمومًا هو معي بالكويت، وسننزل الشهر القادم.

كم شكٍّ في أمرها، أرادت أن تربطه رغمًا عنه، نزل والشك يعصف برأس تمنَّت لو لم يَبْقَ بها غير صوت جيهان، النساء بالمرصاد لبعضهن، واحدة تدنو، وأخرى تفاجئنا بداهية.

***

مكالمة بمكالمة، قرر أن يكلم صديقه "طبيب":

هل رآيت المفاجآت؟

— خيرًا!

— والله لا أدري إن كان شرًّا أم به خير.

— قل باختصار، يجب أن أنزل للعيادة.

— فريال حامل.

— أنت أخبرتني. هل نسيت؟

— وحنان ولدت ولدًا.

— من حنان؟

— أنت الذي نسيت، المضيفة التي تزوجتها بالكويت.

— آه تذكرت، طيب مبروك.

— أيُّ مبروك؟ قالت إني أبوه.

– أبوه!

– نعم، وبالمرة خذ هذه.

– ماذا أيضًا؟

– جيهان كلمتني، فلما كلَّمتني كلَّ مَتْني

– يا عم كلمني بالعربي!

– أقول لك: جيهان كلمتني منذ دقائق.

– إذن نلتقي ونتحدث.

***

سار إلى حيث أوقف سيارته، مشطورا بين مكالمتين:

"أي مفاجآت تحملها الليلة، ابني؟ ومَنْ أمُّه؟ حنان؟ **ما** أدراني؟!

وقبل ذلك، فريال حامل.

لطفك يا لطيف".

***

جيهان

«لا أعرف لماذا كلمته، ولا لماذا لم أخبره بأن زوجي هو معتز

صديقه».

قلبت البيت في غياب معتز بحثًا عن قطعة حشيش أو أي حبة مخدرة، مر شهر ولم تتعاطَ شيئًا، ظلت أمام المرآة ساعة تبكي.

الغياب يحدثنا: كم يعيش داخلنا الغائبون، والحضور زلزال.

***

أحمد

طلب مني لقاءه لو عندي متسع من الوقت بالمهندسين، على مقهى مقابل لغرفة الزمالة التي ذهبنا إليها معًا.. قال إن زوجته منتظمة هناك، وهو سينتظرها وأمامه ساعتان يمكن أن نقضيها معًا.

اضطرابي الواضح من زيارة شبح الجماعة، وإمهالي أسبوعًا لتسليم الخبيئة، وانتهاء الأسبوع، وتهديدهم الصريح، كل ذلك فتت انشغالي بمكالمة حنان التي أنستني مكالمة جيهان، وبالكاد تذكرت موضوع فريال.

هكذا تنسينا الدواهي مشاكلنا.

فاتحته ثانية في مسألة فريال، قلت إنه يجب إنجاز كل شيء سريعًا، لأن عليَ السفر لمؤتمر القمة العربية القادمة بالكويت، وأريد أن أصطحبها معي.

لم يمانع.

***

مرت ساعتان، كان لا بد أن أتركه قبل نزول زوجته، فلا ينبغي أن يكون أول تعارف معها أمام مركز الزمالة، لا أريد أن أسبب لزوجته حرجًا. سأقف بعيدًا لأعرف إن كانت هي هي؟

– أستاذنك ونلتقي بعد منتصف الليل لو بالإمكان.

– ولِمَ تستأذن؟

– يعني لا ينبغي أن يكون أول تعارف هنا.

– زوجتي تعرفك، أنا حدثتها عنك وأنت اليوم صرت فردًا من الأسرة.

– بل أُفضل الاستئذان.

التفت فجأة.

– ها هي.

نظرت، كأني رأيت نفس الشبح الذي طالبني بالخبيئة قبل أيام، ثم ترك رسالة تهديد.

بل أنا رأيته.

***

عبرنا الشارع، وقفنا أمام العمارة، فوجئت بعبد الرحمن

نازلًا.. حدَّق به معتز.. لم يلمحه عبد الرحمن.. عبد الرحمن رآني.. تقدم إليَّ.. شعرت بالحرج والخوف معًا.. كان معتز أكثر قلقًا وذعرًا.. لم أكن أعلم أنهما التقيا قبل ذلك.. قدمته لمعتز.

قلت: عبد الرحمن جارٌ قديم لم أَرَهُ منذ سنوات.. أطالا تبادل النظر، لم يتقدم أحدهما بالسلام.

فجأة، رأيتها.. رأيتها تلك التي طول عمري سوى قبلتها ما عرفت رحيق اللذة والألم. رأيت جيهان، وما الذي جاء بها هنا؟

***

لم ينتظر أحمد ولم يشعر بوجود أحد حوله، نسي كل شيء، الخبيئة وطالبيها، حنان ومكالمتها وابنها، فريال وحملها، معتز وعبد الرحمن.. أسرع الخطى ونادى:

"جيهان.. جيهان".

هل انزعج معتز؟ هل شلّته مفاجأة أن ينادي صديقه على زوجته وهو يعرف أنهما لم يلتقيا؟ كيف ربط كل أحاديث الزمان القريب، ليصل:

"إذن هذا هو حبيب الجامعة". همس ولم يسمعه أحمد. ارتاب معتز في عبد الرحمن، فكر عبد الرحمن لو يهرول هاربًا، وحده وجيهان امتلكا مفاتيح اللغز المفاجئ.

اقترب عبد الرحمن من صديقه، همس: أحمد يجب أن نغادر، لم أخبرك أن جيهان تحضر معنا جلسات الزمالة.

لم يكمل كلامه. جذب أحمد بعنف من ذراعه وهو يفصله عن جيهان:

– هيا بنا.

– انتظر.

– أرجوك هيا، هذا الضابط هو الذي تولَّى تعذيبي ووقَّع قرار اعتقالي.

رنَّتْ برأس أحمد مكالمة جيهان الأخيرة: «هل تعرف زوجي؟». قال: «كيف لم أنتبه؟ كيف لم أفهم؟!».

تخيل عبد الرحمن أن الضابط سيفتك بصديقه، انسحب أحمد بذراع عبد الرحمن. نادى معتز: "انتظر".

التفت أحمد، عرته الدهشة، كيف لم يغادر عبد الرحمن، عبد الرحمن خلفهما، ماذا يحدث؟

ارتبك المشهد: "أنت تعرف جيهان؟".

لم يرد.

هذه المرة نادت جيهان: معتز، أحمد معرفة من جيرة قديمة.

قال معتز: سألتك أنت تعرف جيهان؟

لم يغادر عبد الرحمن. وقف يشاهد.. لم تتحرك جيهان.. أسقط في يد معتز. تقدم عبد الرحمن ثانية ليسحب أحمد، تعثر بالرصيف، وقع.

دوت طلقة.

***

كان يغيب وهو يحمل طفلين يعبثان برقبته. الشيخ عثمان ينزع من فوق رأسه خبيئة الأمانة، جسده ما صار معه، سخونة تنبعث من ثقب رصاصة، وأشباح بيضاء تلتف وتتقدم، ازدحام ولا أحد، لا أحد وضجيج يخف، يخفت يهبط به، عصفور يتقلب على الجمر، يهم بالجري فيعود موثقًا، يهم بالطيران، ثقل فوق صدره.

لسان معقود يريد أن يختم بحب كما بدأ، وروح تتبعثر في شتات. جسد تتلقفه الأيدي، وترجرجه سيارة إسعاف.

***

ممرات المستشفى أطول من التفافات أعمارنا في حياة ملتفة. من جيبه أخرج "طبيب" آخر ورقة كتبها.

غامت، ظلام خافت في ممر عميق.

***

لعلكم نسيتموني، أنا من استلم الحكاية قبل تمامها بقليل.. نعم، أنا "طبيب". وبقيت آخر ورقة بجيب صديقي، فكرت لو أسميها:

***

مِزمارُ شَتَات

{ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، وأُصَلِّي عَلَى مَنْ لاَقَى الصِّعَابَ،

وبَيْنَ الْخَطَأ - عَلَى الْجَادَةِ - مِنَ الصَّوَاب . وبَعْدُ،

فَبِكَ أَسْتَعِينُ، ومَنْ يُعِينُ سِوَاكَ ! ؟

بِكَ أَتَقَدَّمُ إِلَيْكَ، ونَحْوَكَ أَنَا - وَاقِعًا - أَهْرُبُ دَوْمًا مِنْكَ .

أَنَا الْمَسْكُونُ بِحَشْوِ مَوْجُودَاتِ التَّضَادّ .

والْقَادِمُ بِكُلِّ مَعْكُوسَاتِ الزَّمانِ غَدًا بَيْنَ يَدَيْكَ عَلَى الصِّرَاطِ .

لَكَ أَتَقَدَّمُ وهَذِهِ قِصَّتِي: أَنْتَ تَعْلَمُهَا، وتَعْلَمُ مَا أُخْفِيهِ ومَا أُجْمِلُهُ،

ومَا لَمْ أُفَصِّلْهُ، ومَا دَارَيْتُهُ، ومَا أَوْجَعَنِي مسُّ جَبْرِ تَذَكُّرِهِ . .

قِصَّتِي كُلُّهَا بَيْنَ يَدَيْكَ . .

فَأَخْرِجِ الرَّصَاصَةَ مِنْ قَلْبِي، والشَّظِيَّةَ مِنْ دِمَاغِي انْزِعْهَا .

وانْثُرْ بِلُطْفِكَ فَوْقَ رَأْسِي بَعْضَ حِكْمَةٍ،

وَأَفِضْ عَلِيَّ مِنْ مَلَكُوتِ رَحْمَتِكَ الْوَفِيرَةِ فَيْضَ نِسْيَانٍ لِأَتَذَكَّرَ،

وَاحْكُمْ بِعَفْوِكَ، وَأَنْزِلِي طَرِيقَ الْحَقِّ . .

فَهَا أَنَا لِنَفْسِي، بِنَفْسِي قَدْ رَاجَعْتُ نَفْسِي مِرَارًا وَتَكْرَارًا . . .

وَلَا أَزَالُ — يَبْدُو — إِلَى يَوْمِ لِقَائِكَ أُرَاجِعُ .

لَعَلِّي أَرَاكَ .

هَا أَنَا بَيْنَ يَدَيْكَ أَرْوِي، أَوْ أَعْتَرِفُ،

فَفِي رِحْلَةِ شَتَاتٍ، الرَّاحَةُ مَطْلَبِي }

أحمد الفخراني

***

أخيرًا نام.

تمت بحمد الله



يا حيّ، أتوق إلى الروضة.. تلك التي ليس كمثلها حي. يا حي، أتوق إلى نفسي دون قناعٍ، وإلى عقلي كما خلقته فتيًّا، وإلى قلبي الذي انخلع ولمّا يزل ينبض ويتذكر ويتأسّى. كُلِّي محبة، ومِلْئي انتقام. كيف إذن أكره وكيف؟.. كيف أنام دون كابوس الغرق؟
يا حيُّ، أتوق إلى الروضة التي ملؤها محبة، وهواؤها غرام، تلك التي طول عمري سوى شاطئها ما عشقت، وتلك التي طول عمري لغير قلبها ما اضطرب قلبي، والقلق اعتراه ودقه الأرق.
محبة وقلق.. غرام وانتقام، نار فِي البعد، ولهيب في المقام. ياربّ، فكيف بعيدًا عنها أقِرّ؟
وكيف داخلها أستقر؟

محمد موافي

إعلامي و كاتب مصري، من مواليد القاهرة عام 1972، بدأ من البرنامج الثقافي بالإذاعة المصري و وصولا لقراءة نشرة الأخبار بالتلفزيون المصري.اشتغل بتلفزيون الراي الكويتي و هيئة الإذاعة البريطانية البي بي سي و قناة الجزيرة و قناة ليبيا أولا. حصل على عدة جوائز في كتابة الأفلام الوثائقية، و له المئات من المقالات الصحفية بصحف الراي و سبر الكويتيتين والخليج العربي و المصريون والمصري اليوم وأخبار اليوم والتحرير.
و صار أسلوبه وتجديده في لغة المقال محل بحث في رسالتي ماجستير.
له دراسات تاريخية و شعرية وصوفية تحت الطبع.

Cover design by: Alaa Elnewehy

